

التاريخ الإسلامي بين الخلافة والحضارة

من العصر الراشدي إلى العصر العثماني

إعداد

فاروق أحمد مازن الفرا

الإهداء

إلى رسولنا الحبيب محمد، ﷺ، الذي علمنا أن عزتنا وقوتنا في
تمسكنا بكتاب الله تعالى وسنته، وإلى أصحابه رضوان الله ورحمته
عليهم؛ الذين أكملوا رسالته لتشرق شمس الإسلام من شبه الجزيرة
العربية على العالم أجمع..

إلى أولئك الرجال الذين خطّوا التاريخ بدمائهم وعظيم أفعالهم؛
فكانوا نجومًا في فلك العلم وأفانين الحضارة والفتوحات؛ ابتداءً بأبي
بكر رضي الله عنه وانتهاءً بآخر الخلفاء العثمانيين عبد المجيد الثاني، رحمة الله
عليهم جميعاً...

إلى القارئ العزيز الذي أحببت أن يقرأ عن تاريخه المشرق،
ليكون منهجاً له في حاضره ومستقبله...

إلى والدي ووالدتي، وجميع الإخوة والأحباب والأصدقاء... الذين
لم يتركوا فرصة إلا وشجعوني فيها، وقدموا لي المساعدة والعون...
سائلاً المولى أن ينور قلوبنا وعقولنا إنّه على ما يشاء قدير
وبالإجابة جدير.

تقديم

الحمد لله الذي حض عباده على التقوى ووصى، وأحاط بكل شيء علماً وأحصى، وجعل كلاً من عباده بمزية مختصاً، أحمدته سد. بحانه وتع. الى ع.ى نعمائه التي لا تعد ولا تحصى، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وع.ى آل.ه وصحبه أهل الوفى.

أما بعد:

فإن فن التاريخ من الفنون التي يتداولها الأمم والأجيال، وتشد إليه هم.م الأبطال وتتنافس فيه الملوك والعوام ويتساوى في فهمه العلماء والجهال؛ إذ هو في ظاهره لا يزيد على إخبار عن الأيام والدول، اتساعها، قوتها، ازدهارها، ومن ثم زوالها وفي باطنه نظر وتحقيق، وع.م بكيفية ات الوق.ائع وأسد.بابها، واستخلاص العبر والدروس منها ولدراسة التاريخ فوائد جمه، فهو يوقفنا ع.ى أحوال الماضي من الأمم وأخلاقهم، والأنبياء وسيرتهم، والمل.وك ف.ي دوله.م وسياستهم حتى تتم الفائدة لمن أراد الاعتبار والافتداء في أحوال الدين والدنيا. وإن التاريخ هو ساحة كذلك لل.دس ع.ى أهل.ه، وتحري.ف الأد.داث، وإصباغها النزعة التي يميل إليها المصنّف في بعض الأحيان... لذلك كان لا بد لنقل التاريخ من الصحة لأنه «إذا كنت ناقلًا فالصحة وإذا كنت مدعيًا فالدليل».

وإن الأخ الحبيب فاروق الفرا قدم جهداً طيباً بعرض التاريخ الإسلامي من العصر الراشدي إلى العصر العثماني، بأسلوب شائق عذب، بعيد ع.ن اللغو.و والمآرب الشخصية، وكان منصفاً عندما كتب عن العصر العثم.اني، وأذ.صف رجالاته الذين غالباً ما حكموا وفق الشريعة الإسلامية، وكانوا يتواصل.ون ف.ي مواصلة الفتوحات الإسلامية، حتى خافت منهم أوروبا بأسرها، وصاروا يكيدون لهذه الدولة المكاييد، وكلنا يعلم أن فلسطين لم تتسلخ عن الوطن العربي وت.سلم

للإهود إلا في ظل الاحتلال الإنكليزي، ومقالة السلطان عبد الحميد الثاني، عندما طلب منه هرتزل وهو زعيم الحركة اليهودية الصهيونية التخلي عن فلسطين.. «إني لا أستطيع أن أتخلى عن شبر واحد من أرض فلسطين... فهي ليست ملك يمين... بل ملك الأمة الإسلامية.. لقد جاهد ش.عبي ف.ي س.بيل ه.ذه الأرض ورواها بدمه... فليحتفظ اليهود بملايينهم... وإذا مزقت دولة الخلافة يوماً فإنهم يستطيعون آنذاك أن يأخذوا فلسطين بلا ثمن...

ومن منا لم يسمع بالسلطان محمد الثاني - المسمى بالفتح - وهو السلطان السابع في سلسلة آل عثمان. الذي صدقت فيه نبوءة النبي ﷺ كما ورد في الصحيح «لتفتحن القسطنطينية، فلنعم الأمير أميرها، ونعم الجيش ذلك الجيش». وفي نهاية المطاف، نرجو الله كمال التوفيق للمؤلف، وأن يكون هذا الكتاب منهلاً عذباً يروي ظمأ الباحثين، ويكفي نهم الطالبين، ولئن أجاد فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، ونرجو ذلك، ولئن عثر فحسبه الاجتهاد، وما أراه إلا عثر على كل خير.

اللهم علّمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً متقبلاً برحمتك يا أرحم الراحمين. واجز مصنف هذا الكتاب كل خير وزده علماً وعملاً مقبلاً. ولين خالصين لوجهك الكريم وانفع بهذا الكتاب كل من قرأه وتصفح، وأصلح دال المسلمين على النحو الذي يرضيك يا رب العالمين.

وصل اللهم على حبيبك نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والتابعين بإحسان يا رب العالمين إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين.

الشيخ

محمد علي برنية

تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسول رب العالمين وعلى آله وصحبه أجمعين أما بعد:

فالتاريخ وعاء الخيرات ومدرسة المعتبرين ورسالة لمن أراد السير في عالم مضطرب.

واليوم ما أحوج أبناء الأمة الإسلامية إلى مراجعة تاريخهم وإعادة درسه وصياغته بطريق صحيح سليم بعيد عن المغالطات والأكاذيب التي يروجها أعداء هذه الأمة. فمن لا تاريخ له لا حاضر له ولا مستقبل له.

فالتاريخ عز لهذه الأمة بكل صفحاته البيضاء النقية والسوداء المدلهمة فمن صفحات التاريخ نتعلم ونأخذ العبر ونبتعد عن الأخطاء والعثرات التي وقع فيها من سبقنا.

ولقد ورد في الأثر الخالد: (الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها التقطها) ولن تجد حكمة أبلغ من حكمة التاريخ ولن تجد حكيماً أعظم من حكيم درس التاريخ وحققه ووعى دروسه وعبره واستفاد منها ثم انطلق يعلمها لغيره، وينثر دررها في شتى الأرجاء.

والأستاذ الباحث فاروق أحمد مازن الفرا ممن أكرمهم الله بالبحث في ماضي هذه الأمة لاستخلاص الدروس والعبر والعظات.

فأمضى قلمه وأتعب جسده وأسهر ليله بالبحث والتنقيب والتحقيق من أجل مراد أجل وأعظم.

فالتاريخ عنده ليس أحداث وروايات وحكايات تروى فحسب بل هو مدرسة
العبر ومنبع الخير، وأردد ورائك يا أخي فاروق (نعم العيب فينا لا في تاريخنا).
الذي نزل به بإيمانه).

وففك الله ورعاك وأكرمك بالسداد والإلهام وإلى مزيد من العطاء لما فيه
خير هذه الأمة.

عبد الرحمن ياسين كوسه
مدرس التاريخ الإسلامي
والحضارة العربية الإسلامية

المقدمة

الحمد لله الذي أشاد هذا الدين على أساس مكين متين وأقامه بالبرهان القوي المبين وقَيّض له في كل زمان ما يحفظ بيضته ويحمي عزته ويؤيد كلمته، ثمّ الصلاة والسلام على محمد إمام الأنبياء والمرسلين الذي دانت القبائل لطاعته وانضمت أشتات الأفراد تحت رايته فوحدّ الجموع المتناحرة وألف بين القلوب المتنافرة فجعل بذلك للإسلام سيادة ومنزلة ما لم تنله قبله ملة ولا دولة.

وبعد:

فقد بدأت كتابي هذا مع الخلافة الراشدة، خلافة النبوة التي وضعت ركائز الدولة الإسلامية بمختلف أشكالها ومؤسساتها، فكان لكل من خلفائها ﷺ أثر لا يحصى، وموعظة لا تنسى؛ لذا حاولت جاهداً أن أسلط الضوء على أخبارهم؛ مبتدئاً بأبي بكر ﷺ وموقفه من الردّة، والعمل على نشر الإسلام في أصقاع المعمورة، ومشورته لصحابة رسول الله ﷺ في استخلاف عمر بن الخطاب ﷺ الذي أثبت أن الإسلام ليس مجرد دين للدولة بل هو دستور لها، ثمّ كان الحديث عن عثمان بن عفان وإسهاماته الاقتصادية في دولة الإسلام قبل الخلافة وبعدها. وبينت سبب الفتنة التي حدثت في عهده وموقفه منها وكيف أودت باستشهاده ﷺ ليخلفه علي بن أبي طالب الحكيم المؤمن الذي كان راشدياً يتبع سياسة الراشدين في عصر مضطرب قلق لا يفهم أهله تلك السياسة، فصعّب على علي ﷺ أن يغيّر من سياسته لهذا الانقلاب الجديد في المجتمع؛ فالقوم الذين حوله ليسوا كلهم صحابة أو تابعين كما كانوا زمن من قبله من الخلفاء، فأثر عليّ الشهادة في سبيل الله وابتغاء مرضاة نبيه ﷺ على أن يخوض في هذه الفتنة التي أودت بأرواح كثير من المسلمين آنذاك.

وفي أثناء تلك الأحداث المتزاخمة ظهر معاوية بن أبي سفيان ﷺ لتبدأ معه خلافة بني أمية التي كانت رحمة للأمة وفضلاً من الله سبحانه وتعالى عليها. وفي حديثي عن خلافتهم عملت قدر المستطاع أن أبسط وأحلل الوقائع التي حدثت بين معاوية وعلي كمعركة صفّين ووقعة التحكيم، ثمّ بينت مراحل وأسباب الصلح الذي تم بين الحسن بن علي ومعاوية بن أبي سفيان ﷺ، ثمّ كان الحدث الأهم الذي تناولته بعناية فائقة هو استشهاد الحسين بن علي ﷺ في خلافة يزيد؛ حيث سردت أحداث ما جرى ببساطة وعملت على وضع منهجية علمية تمكّنا من الاستفادة مما قد جرى من أحداث مؤكداً على فكرة مفادها:

«أن التاريخ وجد لتعلم منه لا أن نتقّص ونتهم رجاله فلكل عصر من العصور معطيّاته وشروطه التي لا يمكننا أن نحكم عليها بعد مرور تلك القرون العديدة».

ولكي لا نطيل الكلام ونستفيض بذكر الأحداث ما يفسد شوق القارئ ويدفعه إلى طيّ هذه الصفحات مسرعاً ليبحر في فصول هذا الكتاب، فإنّ أشدّ ما يستفاد من التاريخ الأموي هو صفة رجاله وعزمهم على خدمة دين الله بشتى الوسائل؛ فدولتهم عربّت الدواوين - مؤسسات الدولة - وعربّت النقد فحققت الاستقلال الاقتصادي عن العدو البيزنطي، واتسعت فتوحاتها لتكون أكبر دول العالم آنذاك وأكبر رقعة سادت فيها الخلافة الإسلامية على مر العصور.

وفجأة وبدون سابق إنذار، أو حرب بسيطة يتقدم لها الفرسان، ظهرت الرايات السود من خراسان حاملة عرش بني العباس لتتعدّ أبا العباس السفاح على كرسيّ الخلافة في بغداد، ثمّ تنقّص على كل أموي صغيراً كان أم كبيراً فتقتله لتكون أول ثورة بين المسلمين أنفسهم طامعة بالخلافة ولو كان ثمنها أنهاراً من الدماء.

والحقيقة تقول إنّ التاريخ العباسي يكاد يخلو من أي مجد سياسي أو فخر حربي، بل كان تاريخ دويلات متفرقة متمزقة منشؤها جسد الخلافة الأم، ولكن

على الجانب المقابل لهذا الوصف نقرأ عن نجوم في سماء العلوم والمعرفة، ونرى إلى الآن أفانين الحضارة وروعة العمران التي شيدت ذلك الزمان وهي تعكس لنا أسس التمدن والرقى الاجتماعي والمعيشي التي وصل إليها المسلمون فكانوا سادة وأساتذة للغرب القابع في عصور الظلام.

وصدق من استفسر قائلاً: «أيعيد التاريخ نفسه؟!» فمن الشرق ظهرت رايات بني العباس تخفق منتصرة، وبعد قرابة ستمئة عام ظهرت سيوف المغول من الشرق أيضاً تعكس أشعة الشمس كخيوط تحيك الظلام والرعب الذي أوقعوه في بغداد فقتلوا وسفكوا ودمروا الحضارة فوق رؤوس بانيتها بسبب تخاذلهم وهجرهم لدين الله.

هكذا طويت صفحة الخلافة العباسية، ليعود الشمل من جديد تحت لواء سلاطين بني عثمان الذين حموا الإسلام وكانوا فخراً للمسلمين قرابة سبعة قرون، لذا حاولت قدر المستطاع أن أفق على صفاتهم وأعمالهم موضحاً كيف كانت مسؤولية الدولة كلها تقع على عاتقهم فمنهم من قام بأمرها أحسن قيام ومنهم من تخاذل وخضع لشيطان الغرب الذي تنكّر باسم الحضارة التي لا يمكن نشرها دون إنكار الإسلام، وأنهيت البحث بخلاصة تحاكي المنطق وتقول:

«ماذا استفاد المسلمون من اقتلاع آخر خلافة جمعتهم تحت راية واحدة؟، وما الأسباب التي أنهت الخلافة العثمانية؟ وهل كان الحل هو إنشاء دويلات تفرقها خطوط وهمية؟ أم كان يجدر بالمسلمين أن يتحدوا مرةً أخرى كما سبق لهم وأن فعلوا في كل مرة سابقة؟».

وفي النهاية إنَّ هذا الجهد المتواضع قابلٌ للنقد، والتَّوجيه، وفي حقيقته محاولةٌ جادَّةٌ للجمع والترتيب، والتبسيط، والتحليل للأحداث التاريخية، فإن كان (هذا

الجهاد) خيراً فمن الله وحده، وإن أخطأتُ السَّبِيل؛ فأنا عنه راجع؛ إن تبَيَّن لي ذلك.

مخطط البحث:

- ١- الباب الأول «الخلافة الراشدة عصر التمكين وبداية الخلافة».
 - ٢- الباب الثاني «الخلافة الأموية أمجاد العرب في ظلال الإسلام».
 - ٣- الباب الثالث «الخلافة العباسية شمس الحضارة الإسلامية».
 - ٤- الباب الرابع «الخلافة العثمانية كفانا افتراءً عليها».
- هذا وقد انتهيت من هذا الكتاب يوم الجمعة، الساعة السادسة صباحاً بعد صلاة الفجر بتاريخ ٣/٤/١٤٣١هـ - ١٩/٣/٢٠١٠م.
- والفضل لله من قبلُ ومن بعدُ، وأسأله سبحانه وتعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يجعل عملي لوجهه خالصاً وعباده نافعاً، قال تعالى: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَلَدَيَّْ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأُدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: ١٩].
- وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.
- سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.
- وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

فاروق أحمد مازن الفراء

كيف ظهرت فكرة هذا الكتاب

«أساس العلم قراءة وعمل، ونحن اليوم أمة لا تقرأ إلا ما فرض عليها قراءته، فملذات الدنيا مبدأ يومنا والقراءة آخر همنا، وليس المقصود من هذا أن لا تستمتع بحياتك بل أن تعطي كل شيء حقه، لذا أحببت أن أبدأ معكم هذا المشروع البسيط؛ وهو أن ندخل معاً إلى المكتبة فيختار كل منا موضوعاً يناسبه يُعدّ منه حلقة بحث تفيده وتفيد الآخرين».

هكذا بدأ أحد أصدقائي كلامه والحماسة تملؤه لتنفيذ ما يقول، وكنا حينها عشرين شاباً، فيا للأسف لم يستجب أحد لكلامه، وكنت أحد هؤلاء الذين لم يستجيبوا. وفي اليوم التالي كنت أسير أمام الجامعة فدار في خلدي أن أدخل إلى مكتبتها المهجورة من كل شيء حيٍّ إلا من كتبها التي كُتبت غباراً، فشاء الله لي أن يكون أول كتاب يقع نظري عليه هو ((الدولة العثمانية)) للدكتور ((علي محمد الصّلاحي))، فتصفحته قليلاً فإذا بي أقرأ: «وأكرم الله السلطان العثماني محمد الثاني الفاتح بفتح القسطنطينية». فصمت لبضع دقائق وعقلي يستغرب قائلاً: ((كم وكم سمعنا عن محمد الفاتح ومدينته القسطنطينية ولا ندري أنّه كان سلطاناً عثمانياً)).

ثمّ عدت أقلب الكتاب وحينها كانت الصدمة الكبرى إذ قرأت: «وفي سنة ١٩٢٤م قام مصطفى كمال أتاتورك بخلع عبد المجيد آخر خلفاء المسلمين والسلطين العثمانيين ونفاه إلى مدينة نيس في فرنسا».

عندها أسرعرت إلى أمين المكتبة طالباً استعارة الكتاب فوافق على أن أعيده بعد أسبوعين وسجل تاريخ ذلك اليوم ٢٦/٧/٢٠٠٦، وفعلاً أكملت قراءته بأسبوعين وكان قرابة خمسمئة صفحة، ثم عندما عدت إلى أمين المكتبة وكان شيخاً كبير السن جليلاً نظر إليّ وقال: «هل أيقنت الآن بأنّ العيب فينا لا

بتاريخنا، فنحن من أدركنا له ظهورنا، وتركنا الغبار يعلو كتبه، ثم افترقنا ففتين؛ فئة تذمه وتنتقد أفعال رجاله، وفئة جاهلة لا تريد أن تعلم عنه شيئاً».

بقيت كلمات ذلك الشيخ تهمس في أذني كلما اصطدمتُ بحقيقة ما قاله، فبدأت أنهل من كتب التاريخ الواحد تلو الآخر حتى تبلورت فكرة إعداد هذا الكتاب نتيجة تشجيع أهلي وأصدقائي. فكان أمراً لا بد من إتمامه في أحسن صورة فما سمعت ولا قرأت أن أحداً قد سبقني إلى هذا المشروع ذي الصياغة الجديدة في علم التاريخ.

والجدير بالذكر أنه بالرغم من أهمية هذا العمل المتواضع إلا أن الحزن يملأ قلبي أننا بلغنا أشد مراحل الاختصار والتلخيص في التأليف لا بسبب جهلنا بل لأننا سوغنا لأنفسنا حججاً واهية تمنعنا عن القراءة.

ما هي الفائدة من قراءة التاريخ؟

يقول محمد فريد بك المحامي - مؤلف كتاب تاريخ الدولة العلية العثمانية -: «العالم أجيال متعاقبة يخلف اللاحق منها السابق، ويرث معارفه وأخلاقه - صحيحها وفاسدها، حسننها وقبيحها-، وأعماله- تامها وناقصها-، ويضيف إلى ذلك كله معلوماته الخاصة وتجاربه الذاتية فيكون بذلك مدينته العصرية. فإذا قام الخلف الشاب بالواجب عليه لعصره واتخذ له من تجارب السلف الشيخ مصباحاً؛ استنارت له سبل السعي وانفسح أمامه الأمل فيرقى في درجات التمدن بمقدار ما صرفه من العناء في العمل، وما أحرزه من معارف السالفين. لذلك وجب أن تكون الأحداث الماضية وأعمال الأقدمين في العصور الخالية قدوة للمتأخرين في سياستهم وعوناً لهم على أعمالهم».

ويقول الدكتور إسماعيل حقي: «ليس التاريخ أهواء وخيالات ولا هو دعاية وغايات بل هو وقائع وحقائق يجب أن تعلم وتقال كما هي لكي تكون دروساً وعبراً».

الخلافة الرَّاشِدة

عصرُ التَّمْكِينِ وبدايةُ الخلافة

«كل ما يحتاج إليه الشيطان «الشر» لكي يحقق انتصاره
هو أن يجلس الأخيار دون أن يفعلوا شيئاً»
إيدموند بورك

(١) عبد الله بن عثمان

(١١ - ١١٣ هـ)، (٦٣٢ - ٦٣٤ م)

أولاً: اسمه ونسبه وكنيته وألقابه:

هو عبد الله بن عثمان بن عامر... بن غالب القرشي التيمي^(١)، ويلتقي مع النبي ﷺ في النسب في الجد السادس مرة بن كعب^(٢). أما ألقابه فنذكر منها:

اللقب	سبب التسمية
العتيق	لَقَبَهُ به النبي، حيث قال له: «أنت عتيق الله من النار» ^(٣) .
الصديق	لَقَبَهُ به النبي لكثرة تصديقه له ولاسيما يوم الإسراء والمعراج ^(٤) .
الصاحب	لَقَبَهُ به الله عز وجل في القرآن الكريم: [التوبة: ٤٠] ^(٥) .

١ - الإصابة لابن حجر (٤/١٤٤، ١٤٥).

٢ - سيرة وحياة الصديق، مجدي فتحي السيد، ص (٢٧).

٣ - الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان (١٥/٢٨٠) إسناده صحيح.

٤ - المعجم الكبير للطبراني، (١/٥٢).

٥ - تاريخ الدعوة في عهد الخلفاء، يسري محمد هاني، ص (٣٩).

﴿إِلَّا نَضْرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا نَظُنُّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

ثانياً: صفاته الخلقية، وأسرته، ومكانته في قريش:

١ - صفاته:

كان أبيضَ تخالطه صفرة، حسن القامة، نحيفاً خفيف العارضين، رقيقاً معروق الوجه^(١)، غائر العينين^(٢)، أقنى^(٣).

٢ - أسرته:

والده عثمان بن عامر بن عمرو، يُكنى بأبي قحافة، أسلم يوم الفتح، وأقبل به الصديق على رسول الله ﷺ فقال: «يا أبا بكر، هلا تركته حتى نأتيه» فقال أبو بكر ﷺ: هو أولى أن يأتيك يا رسول الله^(٤).

وأماً والد الصديق: فهي سلمى بنت صخر... بن تيم، وكنيتها أم الخير، أسلمت باكراً^(٥).

٣ - مكانته في قريش:

كان أبو بكر ﷺ في الجاهلية من وجهاء قريش، وأشرفهم، وأحد رؤسائهم، وكانت له بمكة ضيافات لا يفعلها أحد مثله^(٦). أضف إلى ذلك أنه كان من أعف الناس في الجاهلية^(٧)؛ حيث لم يسجد لصنم قط، بل حرّم على نفسه الخمر قبل الإسلام. فقد أجاب ﷺ من سأل هل شربت الخمر في الجاهلية؟

١ - المعروق: هو قليل اللحم.

٢ - غائر العينين: دخلت في الرأس.

٣ - أقنى: قني الأنف: ارتفع أعلاه، واحدودب وسطه.

٤ - الإصابة (٤/٣٧٥).

٥ - تاريخ الدعوة في عهد الخلفاء، ص (٣٠).

٦ - نهاية الإرب (١٩/١٠) نقلاً عن تاريخ الدعوة، يسري محمد، ص (٤٢).

٧ - تاريخ الخلفاء للسيوطي، ص (٤٨).

بقوله: أَعُوذُ بِاللَّهِ، فَقِيلَ: وَلِمَ؟ قَالَ: كُنْتُ أَصُونُ عِرْضِي، وَأَحْفَظُ مَرْوَتِي، فَإِنَّ مِنْ شَرَبِ الْخَمْرِ كَانَ مُضِيعاً لِعَرْضِهِ، وَمَرْوَتِهِ^(١).

ثالثاً: إسلامه، ودفاعه عن النبي:

أسلم أبو بكر رضي الله عنه، ولم يتلعثم، وعاهد رسول الله ﷺ على نصرته، وبذلك كان ﷺ أول من أسلم من الرجال الأحرار. وبإسلام أبي بكر رضي الله عنه عم السرور قلب النبي ﷺ؛ حيث تقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: فلما فرغ من كلامه - أي النبي ﷺ - أسلم أبو بكر، فانطلق رسول الله ﷺ من عنده، وما بين الأخشين أحد أكثر سروراً منه^(٢).

ولهذا قال رسول الله ﷺ في حقه يوم تعرّض له أهل قريش بالأذى: «إِنَّ اللَّهَ بَعَثَنِي إِلَيْكُمْ فَقُلْتُمْ: كَذَبْتَ، وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: صَدَقَ، وَوَاسَانِي بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، فَهَلْ أَنْتُمْ تَارِكُونَ لِي صَاحِبِي؟»^(٣).

رابعاً: الصديق في ميادين الجهاد:

مرّت الأيام والسنون، والنّاس تتزايد في الإقبال على دين الله، وتعلم شريعته من رسوله عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، وهاجر النبي ﷺ إلى المدينة فاستقبله أهلها وأكرموا حقه وحق أصحابه، فأصبحت المدينة المنورة مركزاً للدولة الإسلامية، ثم أخذت نار الحرب تشتعل بين المسلمين وكفار قريش، فكان المسلمون يجاهدون في سبيل الله وهدفهم النصر أو الشهادة، وأبو بكر رضي الله عنه معهم لم يتغيّب عن معركة قط.

١ - المصدر السابق، ص (٤٩).

٢ - البداية والنهاية، (٢٩/٣).

٣ - البخاري، كتاب فضائل أصحاب النبي رقم: ٣٦٦١.

فقد ذكر أهل العلم بالتواريخ والسير أنَّ أبا بكر رضي الله عنه شهد مع النبي بدرًا والمشاهد كلها، ولم يفته منها مشهد، وثبت مع رسول الله ﷺ يوم أحد حين انهزم الناس، ودفع إليه النبي رايته العظمى يوم تبوك، وكانت سوداء^(١).

خامساً: وفاة الرسول ﷺ:

من أبرز ما يذكر من أخبار مرضه ﷺ أن قام في أحد الأيام فقال: «إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ عَبْدًا بَيْنَ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَ اللَّهِ، فَاخْتَارَ ذَلِكَ الْعَبْدُ مَا عِنْدَ اللَّهِ»، فبكى أبو بكر رضي الله عنه، فقال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: «عَجَبْنَا لِبُكَائِهِ أَنْ يُخَيَّرَ الرَّسُولُ عَنْ عَبْدٍ خَيْرٍ، فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ هُوَ الْمُخَيَّرَ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه أَعْلَمْنَا بِهَذَا»^(٢).

كانت مهمة النبي ﷺ هي إبلاغ رسالة الله ونشر الدعوة في أرجاء الأرض، ولما كان لكل أجل كتاب، كانت وفاة الرسول ﷺ أمراً لازماً للحدث، فقد بلغ النبي الرسالة، وأدى الأمانة، ودان وقت ابتلاء الأمم في دينه. لا يميز الله الخبيث من الطيب، ويعلم من قد صدقه ممن ما زال في قلبه شك أو ريب من رسالة نبيه ﷺ.

لما اشتدَّ المرض بالنبي، وحضرته الصلاة قال: «مروا أبا

بكرَ فَلْيُصَلِّ» فاستمرَّ أبو بكر رضي الله عنه يصلي بالمسلمين، حتى إذا كان يوم الاثنين، وهم صفوفٌ في صلاة الفجر، كشف النبي ﷺ ستر الحجر، لينظرَ إلى المسلمين، وهم وقوفٌ أمام ربهم، فرأى كيف أثمر غرسُ دعوته وجهاده، وكيف نشأت أمةٌ تحافظُ على الصلاة، وتواظبُ عليها بحضرة نبيها وغيبته، وقد قرَّت عينه بهذا المنظر البهيج، وبهذا النجاح الذي لم يُقدَّرَ لنبيٍّ أو داعٍ قبله، واطمأنَّ أنَّ صلاةَ هذه الأمةِ بهذا الدين وعبادة الله تعالى صلاةً دائمةً لا تقطعها وفاة نبيها، فملى من

١- الطبقات الكبرى، (١/١٢٤)، صفة الصفوة: (١/٢٤٢).

٢- البخاري، كتاب فضائل الصحابة، رقم: (٣٦٥٤).

السرور ما الله به عليم، واستنار وجهه وهو منير^(١).

يقول الصحابة رضي الله عنهم: كشف النبي صلى الله عليه وسلم ستر حجرة عائشة ينظر إلينا وهو قائم، وكأن وجهه ورقة مصحف، ثم تبسم يضحك، فهممنا أن نفتن من الفرح وظننا أن النبي خارج إلى الصلاة، فأشار إلينا أن أتموا صلاتكم، ودخل الحجرة وأرخى الستر، ثم انصرف بعض الصحابة إلى أعمالهم، ودخل أبو بكر على ابنته عائشة، وقال: ما أرى رسول الله إلا قد أقلع عنه الوجع.

ثم كان أن اشتدت سكرات الموت بالنبي صلى الله عليه وسلم وهو يردد قائلاً: «لا إله إلا الله... إن للموت سكرات»، ثم نصب يده، فجعل يقول: «في الرفيق الأعلى»، حتى قبض ومالت يده.

وقد ورد أن فاطمة -رضي الله عنها- كانت تقول: وا كرب أباه!، فقال لها: «ليس على أبيك كرب بعد اليوم»، فلما مات قالت: وا أبتاه!... أجاب رباً دعاه، وا أبتاه.. جنة الفردوس مأواه، وا أبتاه!... إلى جبريل نعاها. فلما دفن قالت لأنس: كيف طابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم التراب.

وهكذا فارق رسول الله الدنيا ومعظم جزيرة العرب تدين له بالولاء والطاعة، ويرهبه ملوك فارس والروم، ويفديه أصحابه بنفوسهم وأولادهم وأموالهم، وما ترك عند موته ديناراً ولا درهماً، ولا عبداً ولا أمة، ولا شيئاً إلا بغلته البيضاء، وسلاحه، وأرضاً جعلها صدقة^(٢).

وكان ذلك يوم الاثنين في الثاني عشر من شهر ربيع الأول سنة إحدى عشرة من الهجرة، وله ثلاث وستون سنة.

١- انظر: السيرة النبوية لأبي شعبة: ٥٩٣/٢.

٢- السيرة النبوية للدوي، ص (٤٠٣).

سادساً: موقف أبي بكر حينها:

قال ابن رجب: لما توفي رسول الله اضطرب المسلمون؛ فمنهم من دُهِشَ، ومنهم من أُفْعِدَ فلم يُطِقِ القيام، ومنهم من اعتُقل لسانه فلم يُطِقِ الكلام، ومنهم من أنكر موته بالكلية^(١).

ولكنَّ الله ثَبَّتَ أبا بكر ﷺ على الحق، فقام خطيباً في الناس فحمد الله وأثنى عليه بالذي هو أهله، ثم قال: فَإِنَّ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ، ثُمَّ تلا هذه الآية: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإَيْنَ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. فراح الناس ييكون^(٢).

قال عمر بن الخطاب ﷺ: فو الله ما إن سمعت أبا بكر تلاها، حتى هويت إلى الأرض ما تحملي قدماي، وعلمت أن رسول الله قد مات^(٣).

تقول عائشة - رضي الله عنها -: فو الله لكأن الناس لم يكونوا يعلمون أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر ﷺ، فتلقاها منه الناس، فما يسمع بشر إلا يتلواها.

١ - لطائف المعارف، ص (١١٤).

٢ - البخاري، كتاب فضائل الصحابة، رقم (٣٦٦٨).

٣ - البخاري، كتاب المغازي رقم (٤٤٥٤).

سابعاً: بيعته بصفته أول خليفة للمسلمين:

أجمع أهل السنة والجماعة على أن أحقَّ النَّاس بالخلافة بعد النبي ﷺ أبو بكر رضي الله عنه، لفضله وسابقته، ولتقديم النبي إياه في الصلوات على جميع الصحابة رضي الله عنهم. وقد فهم أصحاب النبي مراد المصطفى ﷺ من تقديمه في الصلاة، فأجمعوا على تقديمه في الخلافة، ومبايعته ولم يتخلَّف منهم أحدٌ ولم يكن الله - جل وعلا - ليجمعهم على ضلالة، فبايعوه طائعين وكانوا لأوامره ممثلين^(١). وهكذا بعد أن تمت بيعة أبي بكر الخاصة باتفاق أهل الشورى من المسلمين في سقيفة بني ساعدة، اجتمع المسلمون في اليوم التالي للبيعة العامة^(٢) فقام أبو بكر إلى المنبر فحمد الله وأثنى عليه بالذي هو أهله، ثم قال: «أيها الناس، إني قد وُليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأتُ فقوِّموني، الصدق أمانةٌ، والكذب خيانةٌ، والضعيف فيكم قويٌّ عندي حتى أرجع عليه حقَّه إن شاء الله، والقويُّ فيكم ضعيفٌ عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله. لا يدع قومُ الجهاد في سبيل الله إلا خذلهم الله بالذل، ولا تشيعُ الفاحشة في قومٍ إلا عمَّهم الله بالبلاء، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله»^(٣).

فكان رحمه الله أول خليفة يتولى أمر المسلمين بعد رسولهم، فخُطَّ اسمه على أول صفحة من كتب تواريخ الخلافة عامة، وعلى الخلافة الراشدة خاصة.

١ - عقيدة أهل السنة والجماعة في الصحابة (٢/٥٥٠).

٢ - عصر الخلافة والخلفاء الراشدين، د فتحية النبراوي ص (٣٠).

٣ - البداية والنهاية (٦/٣٠٥، ٣٠٦)، إسناده صحيح.

ثامناً: خدماته للأمة الإسلامية:

عاش الصديق ﷺ بين المسلمين خليفةً لرسول الله ﷺ، فكان لا يترك فرصة تمرُّ إلا علَّم الناس وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر، فكانت مواقفه تشعُّ على من حوله من الرعية بالهدى والإيمان والأخلاق.

١- حروب الردّة:

هَبَّت في بداية خلافة أبي بكر ﷺ رياح حروب الردّة، حيث ارتدَّ بعض الناس عن الإسلام بأشكالٍ مختلفة، وكان لحروب الردّة فائدةٌ خاب وخسر من جهلها، أو لم يع نتائجها؛ فحروب الردّة أثبتت للأُمم جميعها سابقها ولاحقها أنَّ الأُمَّة المتماسكة القويّة، المؤمّنة بأهدافها، وبرسالة قائدها، لا يمكن أن ينال ثعلب المكر منها، أو أن يفتر في عضدها فتنَّ خرقاء هابية.

فكم مرّ على تاريخ العالم دولٌ واتحاداتٌ جبارةٌ لفتت الأنظار، إلا أنَّ نهايتها كانت الفشل بأيدي شعوبها وحملة راياتها، أو بأيدي المخربين لها من الخارج.

هكذا هي سنة الله في الأرض، ما إن تنسى الأُمم شرائعه، ويظلم عباده في الأرض، أو تسود الفاحشة بينهم، حتّى تُسحب الخيرات من أيديهم ويد. صبّحوا عبيداً بعد أن كانوا سادةً في أرض الله.

أ- الردّة اصطلاحاً:

عرّف الإمام النووي الردّة بأنها: قطع الإسلام بنية أو قول كفر أو فعلٍ سواء قاله استهزاءً أو عناداً أو اعتقاداً، فمن نفى الصانع أو الرسل أو كذب رسولاً أو حلل محرماً بالإجماع كالزنا وعكسه، أو نفى وجوب مُجمعٍ عليه أو عكسه، أو عزم على الكفر، أو تردد فيه؛ فقد كفر^(١).

ب- أسبابها، وأصنافها:

إنّ الردّة التي قامت بها القبائل بعد وفاة رسول الله ﷺ لها أسبابٌ كثيرة، منها: الصدمة بموت رسول الله، ورقة الدين والتفُّلت من النظام، والخروج على السلطة الشرعية، والعصبية القبلية والطمع في الملك، والتحاسد، والمؤثرات الأجنبية^(٢) كدور اليهود والنصارى والمجوس.

وأما أصنافها: فمنهم من ترك الإسلام جملةً وتفصيلاً وعاد إلى الوثنية وعبادة الأصنام، ومنهم من ادّعى النبوة، ومنهم من دعا إلى ترك الصلاة، ومنهم من بقي يعترف بالإسلام وقيم الصلاة ولكنه امتنع عن أداء زكاته، ومنهم من ثبت بموت الرسول، وعاد أدراجه يمارس عاداته الجاهلية، ومنهم من تحيّر وتردّد وانتظر على من تكون العاقبة.

ج- موقف الصديق من المرتدين^(٣):

كان رأي أبي بكر في حرب المرتدين رأياً ملهماً، وهو الرأي الذي تمليه طبيعة الموقف لمصلحة الإسلام والمسلمين، وأيُّ موقفٍ غيره سيكون فيه الفشل

١- شرح على متن المنهاج، لشرف الدين النووي، ص (٥١٩).

٢- حركة الردة، على العتوم، ص (١١٠ إلى ١٣٧).

٣- يجسد موقفه رضي الله عنه انعكاساً رائعاً لعبارة إيدموند بورك، ص (١٦).

والضياع والهزيمة والرجوع إلى الجاهلية، ولولا فضل الله ثم هذا القرار الحاسم من أبي بكرٍ لتغيّر وجه التاريخ وتحولت مسيرته ورجعت عقارب الساعة إلى الوراء، ولعادت الجاهلية تعيث في الأرض فساداً^(١).

د- مسيلمة الكذاب، ومقتله لعنه الله:

هو مسيلمة بن ثمامة بن كبير بن حبيب الحنفي. وكان يدّعي النبوة ورسول الله بمكة، وكان يبعثُ بأناسٍ إليها ليسمعوا القرآن، ويقرؤوه على مسامعه، فينسج على منواله^(٢).

ففي العام العاشر للهجرة عندما أصيبَ رسول الله ﷺ بمرض موته، تجرّأ الخبيث فكتب رسالةً إلى رسول الله ﷺ يزعمُ لنفسه فيها الشراكة معه في النبوة، ونصّها: من مسيلمة رسول الله (كذب) إلى محمد رسول الله: أما بعد، فإنّ لنا نصف الأرض، ولقريش نصفها، ولكنّ قریشاً لا ينصفون.

فردّ عليه رسول الله ﷺ برسالة كتبها له أبيّ بن كعب رضي الله عنه ونصّها: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد النبي إلى مسيلمة الكذاب، أما بعد، فإنّ الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين، والسلام على من اتبع الهدى».

وأثناء حروب الردة تمكن المسلمون منه؛ حيث قُتل في مواجهةٍ مع جيش خالد بن الوليد، عندما تقدم له وحشيّ بن حرب - قاتل حمزة عم الرسول - فرماه بحرْبته التي أصابته وخرجت من الجانب الآخر، ثم سارع إليه أبو دُجّانة فضربه بالسيف فسقط.

وبقتل مسيلمة الكذاب انتهت حروب الردّة، وأثبت المسلمون ثباتهم على شريعة نبيهم، وأثبت الصديق حُسن إدارته للأمور.

١- الشورى بين الأصالة والمعاصرة: ص (٨٦).

٢- البدء والتاريخ: ١٦٠/٥ للمقدسي، نقلاً عن حركة الردة، ص (٧١).

٢- جمع القرآن:

كان من ضمن شهداء المسلمين في حروب الردّة كثيرٌ من حُفَاظ القرآن، فنتج عن ذلك أن قام أبو بكر رضي الله عنه بمشورة عمر بن الخطاب وبعض أصحاب رسول الله ﷺ بجمع القرآن؛ فجمّع من الرقاع، والسعف ومن صدور الرجال^(١). وأسند هذا العمل العظيم إلى الصحابي الجليل زيد بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه. وبقيت الصحف عند أبي بكر في حياته حتى توفاه الله، ثمّ عند عمر في حياته حتى توفاه الله، ثم عند حفصة بنت عمر رضي الله عنها^(٢).

تاسعاً: الشورى في استخلاف عمر رضي الله عنه:

في شهر جمادى الآخرة من العام الثالث عشر للهجرة النبوية، مرض الخليفة أبو بكر رضي الله عنه واشتد به المرض^(٣)، فلما ثقل جمع الناس إليه فقال: إنّه قد نزل بي ما ترون، ولا أظنني إلا ميتاً لما بي، وقد أطلق الله أيمانكم من بيعتي وحلّ عنكم عقدتي وردّ عليكم أمركم فأمرّوا عليكم من أحببتهم، فإنكم إن أمرتم في حياةٍ مني كان أجدر من أن لا تختلفوا بعدي^(٤).

فتشاور الصحابة رضي الله عنهم، وكلٌّ يحاول أن يدفع الأمر عن نفسه ويطلبه لأخيه إذ يرى فيه الصلاح والأهلية، لذا رجعوا إليه فقالوا: رأينا يا خليفة رسول الله رأيك، قال: فأمهّلوني حتى أنظر لله، ولدينه، ولعباده من يلي أمركم بعدي، فأخذ يستشير الناس بأمر عمر بن الخطاب، فوافقوا جميعاً.

١- حروب الردة وبناء الدولة الإسلامية، أحمد سعيد، ص (١٤٥).

٢- البخاري رقم: ٤٩٨٦.

٣- البداية والنهاية: (١٨/٧)؛ تاريخ الطبري: (٢٣٨/٤).

٤- التاريخ الإسلامي: (٢٥٨/٩).

يذكر أن طلحة بن عبيد الله رفض استخلاف عمر وخاف من شدته، فقال لأبي بكر: ما أنت قائلٌ لربك إذا سألك عن استخلافك عمر علينا وقد ترى غلظته؟ فقال أبو بكر: أجلسوني، أبا الله تحوفوني؟ خاب من تزود من أمركم بظلم، أقول: اللهم استخلفتُ عليهم خيرَ أهلك^(١).

وهكذا تمَّ عقدُ الخلافة لعمر رضي الله عنه بالشورى، ولم يورد التاريخ أيَّ خلافٍ وقع حول خلافته بعد ذلك، ولا أنَّ أحداً نهض طوال عهده لينازعه الأمر، بل كان هناك إجماعٌ على خلافته وعلى طاعته في أثناء حكمه فكان الجميع وحدةً واحدة^(٢).

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: أفرس الناس ثلاثة: صاحبة موسى التي قالت: (يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين)، وصاحب يوسف حيث قال: (أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا)، وأبو بكر حين استخلف عمر^(*). فقد كان عمر هو سد الأمة المنيع الذي حال بينها وبين أمواج الفتن^(*).

عاشراً: وغربت الشمس:

قالت عائشة - رضي الله عنها -: أولُ ما بدأ مرض أبي بكر: أنه اغتسل وكان يوماً بارداً فحُمَّ خمسة عشر يوماً لا يخرج إلى صلاة، وكان يأمر عمر رضي الله عنه بالصلاة، وكان الصحابة رضي الله عنهم يعودونه وكان عثمان رضي الله عنه ألزمهم له في مرضه^(٣).

١ - أخرجه الحاكم: (٩٠/٣)، وصححه ووافقه الذهبي. أبو بكر رجل الدولة: ص (١٠٠).

الكامل لابن الأثير: (٧٩/٢).

٢ - النظرية السياسية الإسلامية، ضياء الريس، ص (١٨١).

٣ - أصحاب الرسول، محمود المصري: (١٠٤/١).

(٢) عمر بن الخطاب

(١٣ - ٥٢٣ هـ)، (٦٣٣ - ٦٤٤ م)

أولاً: اسمه ونسبه وكنيته ولقبه:

هو عمر بن الخطاب بن نُفيل... بن كعب بن لؤي بن غالب القرشي، يجتمع نسبه مع رسول الله ﷺ في كعب بن لؤي^(١)، ويكنى أبا حفص، ولقب بالفاروق؛ لأنه أظهر الإسلام بمكة ففرّق الله به بين الكفر والإيمان^(٢).

ثانياً: صفاته الخلقية:

كان أبيض، تلوّه حمرة، حسن الخدين، والأنف، والعينين، غليظ القدمين والكفين، طويلاً، جسيماً، قوياً شديداً، كان إذا مشى أسرع، وإذا تكلم أسمع، وإذا ضرب أوجع^(٣).

ثالثاً: أسرته، وحياته في الجاهلية:

والده الخطّاب بن نُفيل، وأماً والدته فهي حنتمة بنت هاشم بن المغيرة^(٤). أمضى عمر ﷺ في الجاهلية شطراً من حياته، ونشأ كأمثاله من أبناء قريش، إلا أنّه امتاز عليهم بأنّه كان ممن تعلموا القراءة، وقد حمل المسؤولية صغيراً، ونشأ نشأة غليظة شديدة لم يعرف فيها ألوان الترف، وكان أن دفعه أبوه بقسوة إلى المراعي ليرعى له إبله^(٥).

١- محض الصواب في فضائل أمير المؤمنين عمر، (١/١٣١).

٢- صحيح التوثيق في سيرة وحياة الفاروق، ص (١٥).

٣- تهذيب الأسماء (٢/١٤) للنووي، الخليفة الفاروق عمر بن الخطاب، للعاني، ص (١٥).

٤- أوليات الفاروق، للقرشي، ص (٢٢).

٥- الإدارة الإسلامية في عهد عمر، فاروق مجدلاوي، ص (٩٠).

وتوالت الأيام على عمر بن الخطاب حتَّى كُبر واشتدَّ ساعده، فاشتغل بالتجارة وبيع منها ما جعله يغدو من أغنياء مَكَّة، وكسب معارف متعددة من البلاد التي زارها للتجارة^(١)، واحتلَّ مكانةً بارزةً في المجتمع المكيِّ الجاهلي، وأسهم على نحوٍ فاعلٍ في أحداثه؛ حيث ساعده في ذلك تاريخ أجداده، فقد كان جده نُفيل بن عبد العزى تحتكم إليه قريشٌ في خصومتها^(٢).

ولما أشرقت شمس الإسلام في قريش، كان عمر رضي الله عنه من الذين رفضوا رسالة النبي ﷺ بادئ الأمر، فتشدَّد في تعذيب المستضعفين ممن أسلموا^(٣).

رابعاً: قصة إسلامه، وحرصه على إعلام قريش بما فعل؟!:

بدأت الدعوة في مَكَّة سرّاً، فكان النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم يدعون الناس للإسلام، ويؤدون فرائضهم سرّاً لكي لا تبطش بهم قريش. وفي أثناء ذلك علم عمر أنَّ أخته وزوجها قد أسلما؛ فاعتلاه الغضب واتجه إليهما، فلمَّا قرع الباب، قالاً: من هذا؟ قال: قال ابن الخطَّاب - وكانا يقرآن كتاباً بأيديهما، فنسيا إخفاءه - فلمَّا دخل ورأته أخته، رأت الشرَّ في عينيه فخبَّأت الصحيفة تحت فخذها، فقال: ما الذي سمعتكما تقرأانه - وكانا يقرآن طه - فقالا: هو حديثٌ بيننا، قال: أصبوتما^(٤)، فقال صهره: أريت يا عمر! إن كان الحقُّ في غير دينك؟ فوثب عمر فوقه يضربه، فلمَّا رأت أخته ذلك الأمر منه؛ تلت الشهادة أمامه، وقالت: نعم لقد أسلمنا ورَغِمَ أنفك! فلما رأى عمر شجاعتها ندم، وقام عن

١ - عمر بن الخطاب، د. محمد أحمد أبو النصر، ص (١٧).

٢ - الخليفة عمر، د. العاني، ص (١٦).

٣ - الفاروق، عبد الرحمن الشَّرْقاوي، ص (٨).

٤ - أي أسلمتما، وكانت تسبُّ بها قريشٌ من أسلم.

زوجها وقال لها: أعطوني الكتاب لأقرأه، فقالت أخته: لا فإنك رجس: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ فقم واغتسل، ففعل ثم عاد إلى أخته، وأخذ يقرأ فرأى فيها: بسم الله الرحمن الرحيم فذعر وألقى الصحيفة من يده، ثم كان أن أكمل القراءة فإذا فيها: ﴿طه ١﴾ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿٢﴾ إِلَّا نَذْكِرَ لِمَنْ يَخْشَى ﴿٣﴾ تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ﴿٤﴾ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴿٥﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴿٦﴾ ﴿طه: ١-٦﴾.

فعظمت في صدره. فقال من هذا فررت قريش؟ ثم أكمل قراءته فلما بلغ قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ ﴿١٤﴾ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى ﴿١٦﴾ ﴿طه: ١٤-١٦﴾.

قال: ينبغي لمن يقول هذا ألا يعبد غيره، دلوني على محمد^(١).

فدخل على رسول الله ﷺ وأعلن إسلامه بين يديه، وذلك في ذي الحجة من السنة السادسة من النبوة، وهو ابن سبع وعشرين سنة^(٢).

ثم قال: يا رسول الله ألسنا على الحق إن متنا وإن حيينا؟ قال: بلى والذي نفسي بيده، فقال عمر: فلم الاختفاء؟ والذي بعثك بالحق لتخرجن. فخرج المسلمون في صفين حمزة في أحدهما وعمر في الآخر حتى دخلوا المسجد فنظرت قريش إلى حمزة وعمر فأصابتهم كآبة لم يصبهم مثلها، ويومها سماه الرسول ﷺ بالفاروق^(٣).

١- فضائل الصحابة للإمام أحمد (١/٣٤٤).

٢- تاريخ الخلفاء، ص (١٣٧).

٣- مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، د. السيد الجميلي ص (٢٣).

خامساً: موافقات عمر للقرآن الكريم:

قال عمر رضي الله عنه: وافقت ربي في ثلاث^(١).

قلت: يا رسول الله! لو اتخذت مقام إبراهيم مُصلي، فنزلت: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥].

وقلت: يا رسول الله يدخل عليك البر، والفاجر فلو أمرت أمّهات المؤمنين بالحجاب، فنزلت: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسَأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٢].

وفي ترك الصلاة على المنافقين، فنزلت: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَسِقُونَ﴾ [التوبة: ٨٤].

سادساً: عمر في ميادين الجهاد:

اتفق العلماء على أن عمر رضي الله عنه شهد بدرًا، وأحدًا، والمشاهد كلها مع الرسول، ولم يغيب عن غزوة غزاها الرسول قط^(٢).

سابعاً: موقفه يوم قبض الرسول ﷺ:

لما بلغ خبر وفاة الرسول ﷺ عمر، اهتزّ وقام في الناس خاطباً: إنّ رجالاً من المنافقين يزعمون: أنّ رسول الله قد توفي، وإنّ رسول الله ﷺ ما مات، ولكنه ذهب إلى ربه، كما ذهب موسى بن عمران، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ثم

١- أخبار عمر، الطنطاويان، ص (٣٨٠، ٣٨١)

٢- مناقب أمير المؤمنين عمر، لابن الجوزي، ص (٨٩).

رجع إليهم، فليرجعنَّ رسول الله ﷺ كما رجع موسى ﷺ، فليقطعنَّ أيدي رجالٍ زعموا: أنَّ رسول الله قد مات^(١).

فجاء أبو بكر رضي الله عنه هُذًى من أمره، فكان يكلمه، وكأنَّ عمر لا ينصت إليه، فقام الصديق رضي الله عنه فاعتلى المنبر... وكان من أمره ما ذكرنا في سيرته رضي الله عنه^(٢).

ثامناً: أخبار خلافته رضي الله عنه:

تمهيد:

بعد وفاة رسول الله ﷺ تولَّى أبو بكر رضي الله عنه خلافة المسلمين، فكان عمر رضي الله عنه جلسه ووزيره، يسانده، ويلتزم بأمره... حتى توفي الصديق، وكان قد أَمِنَ على الناس إذ وُلِّيَ عليهم عمر رضي الله عنه من بعده^(٣).

١ - نفقات الخليفة:

لما ولي عمر رضي الله عنه أمر المسلمين مكث زماناً، لا يأكل من بيت المال شيئاً، حتى دخلت عليه من ذلك ضائقة، ولم يعد يكفيه ما يربحه من تجارته لأنَّه اشتغل عنها بأمور الرعيَّة، فأرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ يستشيرهم في هذا الأمر، وبعد نقاش وبحث، استقرَّ الرأيُ على قول عمر رضي الله عنه: إِنِّي أَنْزَلْتُ نَفْسِي مِنْ مَالِ اللَّهِ بِمَنْزِلَةِ قِيَمِ الْيَتِيمِ، إِنْ اسْتَغْنَيْتَ عَنْهُ؛ تَرَكْتَهُ، وَإِنْ افْتَقَرْتَ إِلَيْهِ؛ أَكَلْتُ بِالمعروف^(٤).

١ - السيرة النبوية، لأبي شهبه، (٢/٥٩٤).

٢ - انظر: ص (٢٢).

٣ - انظر: ص (٢٨).

٤ - سنده صحيح، الخلافة الراشدة، د. يحيى اليعقبي، ص (٢٧٠).

٢- بدء التأريخ:

يعد التأريخ بالهجرة تطوراً من النواحي الحضارية، وكان أول من وضع التاريخ بالهجرة عمر رضي الله عنه ^(١).

وروى ابن حجر في سبب جعلهم بداية التاريخ في المحرم، وليس في شهر ربيع الأول الشهر الذي تمت فيه هجرة النبي؛ هو أن أول هلال استهل بعد بيعة العقبة الثانية، والعزم على الهجرة هو هلال المحرم ^(٢).

٣- لقب أمير المؤمنين:

لما مات أبو بكر، وكان يُدعى خليفة رسول الله، قال المسلمون: من جاء بعد عمر قيل له خليفة خليفة رسول الله، فيطول هذا، ولكن أجمعوا على اسم تدعون به خلفاءكم، فقال بعض أصحاب النبي ﷺ: نحن المؤمنون، وعمر أميرنا، فيُدعى عمر بأمر المؤمنين، فكان أول من سُمي بذلك ^(٣).

٤- عمر رضي الله عنه ورعايته لنساء المجتمع:

كان عمر يهتم بنساء المسلمين، وبناتهم، ويرفع عنهن ما يقع عليهن من ظلم، ويرعى شؤون الأسر التي غاب عنها رجالها في الجهاد، ويحرص على إيصال حقوق الأرمال إليهن ^(٤).

٥- نصائحه للرعية:

* في أهل الصدق: عليك بإخوان الصدق؛ تعيش في أكنافهم، فإنهم زينة في الرخاء، وعدة في البلاء، وضع أمر أخيك على أحسنه، واعتزل عدوك، واحذر

١- محض الصواب (١/٣١٦).

٢- فتح الباري (٧/٢٦٨).

٣- الطبقات الكبرى لابن سعد (٣/٢٨١).

٤- صحيح التوثيق في سيرة وحياة الفاروق، ص (٣٧٣).

صديقك إلا الأمين، ولا أمين إلا من يخشى الله، ولا تصحب الفاجر، فتتعلم من فجوره، واستشر في أمرك من يخشى الله تعالى^(١).

* في العلم: تعلموا العلم، وعلموه الناس، وتعلموا الوقار، والسكينة، وتواضعوا لمن تعلمتم منه، وتواضعوا لمن علمتموه العلم، ولا تكونوا من جبابرة العلماء، فلا يقوم علمكم بجهلكم^(٢).

* في كتمان السر: من كتم سره كانت الخيرة في يديه.

٦- نهيه عن البدع:

أخرج ابن سعد بإسناد صحيح عن نافع: أَنَّ عُمَرَ رضي الله عنه بلغه أَنَّ قوماً يأتون شجرة الرضوان - حيث تمت البيعة مع النبي - فيصلون عندها، فتوعدهم، ثُمَّ أمر بقطْعها، فَقُطِعَتْ^(٣).

٧- التراويح:

يُعدُّ عمر رضي الله عنه أول من جمع الناس على إمام واحد في صلاة التراويح؛ حيث كتب بذلك إلى البلدان. وسبب ذلك أن كان الناس يصلّونها في جماعات متفرقة^(٤).

٨- أمره الناس بالعمل:

كان عمر يحثُّ الناس على السعي، وكسب لقمة العيش. وكان رضي الله عنه إذا رأى غلاماً، فأعجبه سأل: هل له حرفة؟ فإن قيل: لا؛ قال سقط من عيني^(٥).

١- مختصر منهاج القاصدين، ص (١٠٠).

٢- أخبار عمر، ص (٢٦٣).

٣- طبقات ابن سعد (١٠٠/٢).

٤- محض الصواب (٣٤٩/١).

٥- نظام الحكومة الإسلامية (٢٠/٢).

حوادث التاريخ قيم المستقبل:

٩- إني لخائفٌ أن أسأل عنك:

رأى عمر رضي الله عنه جَمَلًا تبدو عليه مظاهر الإعياء، والمرض، فتقدم من الجمل وأخذ يفحصه - وهو الذي كان يرعى إبل أبيه - وهو يقول: إني أخاف أن أسأل عنك^(١). وهو القائل: «لو أن شاةً عثرت في طريقها لحفت أن يسألني ربي عنها». فهذا موقفٌ من المواقف العمرية التي تدلُّ على الرأفة والرحمة بالبهائم، فيا ليت الشباب الحائر يطالع تاريخه، ويُلمُّ بإسلامه، ليعرف: أنه ما من قاعدة إنسانية تنفع المجتمع البشري إلا ولها في الإسلام ذكر وتنظيم حتى لا ينبهروا بالغرب الذي يباهي الأمم بإنشاء جمعيات الرفق بالحيوان، على أنها مظهر من مظاهر إنسانيته الفاضلة، وحتى لا يقلده شبابنا ظناً منهم أنهم أصحابها، وليدركوا أننا أساتذتهم في الرفق بالحيوان^(٢) وفي كلِّ شيءٍ نافع.

ولكن من ترك شريعة الله بعد علم بها، استخفَّه الله بين الخلائق والأمم.

١٠- زلزلة الأرض في عهد الفاروق:

تزلزلت الأرض بالناس على عهد عمر رضي الله عنه، فقال: أيها الناس! ما كانت هذه الزلزلة إلا على شيءٍ أحدثتموه، والذي نفسي بيده لئن عادت؛ لا أسأكنكم فيها أبداً^(٣).

١- الطبقات (٢١٥/٣).

٢- شهيد الخراب، ص (٢٢٨).

٣- الداء والدواء، لابن القيم، ص (٥٣).

١١ - إصدار النقود الإسلامية:

يقول المقرئزي: أول من ضرب النقود في الإسلام عمر بن الخطاب سنة ثمانى عشرة من الهجرة على نقش كسرى، وزاد فيها: الحمد لله. وفي بعضها: لا إله إلا الله.

تاسعاً: من أهم نتائج الفتوحات في عهدي عمر وأبي بكر^(١):

١ - إزالة الدولة الفارسية من الوجود، وفي الجانب المقابل حُجِّمَت الدولة الرومِيَّة (البيزنطِيَّة).

٢ - وجود قيادة واحدة للمنطقة التي تقع في وسط الكرة الأرضية الممتدة من الهند شرقاً إلى المغرب غرباً، ومن بحر العرب جنوباً إلى آسيا الصغرى شمالاً، فكانت قيادة منظمة عادلة لها مؤسساتها وولاتها وخليفتها.

٣ - لقد أنتجت الفتوحات الإسلامية حضارة إنسانية رفيعة في ظلّ دين الإسلام، فخرج المسلمون العرب من جزيرتهم إلى العالم يفتتحون شرقه وغربه حاملين رسالة نبهم التي أمرهم بنشرها وتبليغها للعالم أجمع.

عاشراً: الأيام الأخيرة في حياة الفاروق:

كان أمير المؤمنين الفاروق رضي الله عنه مثلاً للخليفة العادل، القويّ الأمين، تولى أمر الأمة فكان القائد الأعلى للجيش، والفقيه المجتهد، والإداريّ الحكيم، أحكم بقيادته صرح الأمة، وتوطدت في عهده دعائم الدولة الإسلامية، فتحققت بقيادته أعظم الانتصارات على الفرس في معارك الفتوح، فكانت القادسية، والمدائن، ونهاوند، وتمّ تحرير بلاد الشام ومصر من سيطرة الروم البيزنطيين^(٢).

١ - عمر بن الخطاب، د. الصلابي، ص (٦٥٥، ٦٥٦).

٢ - الخليفة عمر، د. العاني، ص (١٥١).

أ- مقتل عمر رضي الله عنه:

قال أبو رافع رضي الله عنه: كان أبو لؤلؤة عبداً للمغيرة بن شعبة، وكان يصنع الأرحاء^(١)، وكان المغيرة يستغله كل يوم بأربعة دراهم، فلقي أبو لؤلؤة عمر رضي الله عنه، فقال: يا أمير المؤمنين إنَّ المغيرة قد أثقل عليَّ غلتي، فكلمه أن يخفف عني! فقال عمر رضي الله عنه: «اتقِ الله وأحسن إلى مولاك» ونية عمر أن يلقي المغيرة فيكلمه ليخفف عنه - فغضب العبد، وقال في نفسه: وسع كلهم عدله إلا أنا؟! فأضمر على قتله، فاصطنع خنجراً له رأسان، وسمَّه، وجاء في صلاة الغداة فقام وراء عمر رضي الله عنه، فلما كبر عمر رضي الله عنه للصلاة، ضربه أبو لؤلؤة في كتفه، وخصارته فسقط جريحاً. يقول عمرو بن ميمون: سمعته لما طعن يقول: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨].

ب- اللحظات الأخيرة:

يُحدثنا عثمان بن عفان رضي الله عنه عن اللحظات الأخيرة في حياة الفاروق رضي الله عنه فيقول: أنا آخركم عهداً بعمر، دخلت عليه، ورأسه في حجر ابنه عبد الله بن عمر، فقال له: ضع خدي على الأرض، فقال عبد الله: فهل فخذني والأرض إلا سواء؟ قال: ضع خدي على الأرض لا أمَّ لك! ففعل، فسمعت عمر يقول: ويلي وويل أمي إن لم يغفر الله لي! حتى فاضت روحه^(٢).

ج- تاريخ موته، ومبلغ سنّه:

قال الذهبي: استشهد يوم الأربعاء لأربع أو ثلاث بقين من ذي الحجة، سنة ثلاث وعشرين من الهجرة، وهو ابن ثلاث وستين سنة على الصحيح^(٣).

١- الأرحاء، جمع رحا، وهي التي يُطحن بها.

٢- فاضت: خرجت، صحيح التوثيق في سيرة وحياة الفاروق، ص (٣٨٣).

٣- محض الصواب (٣/٨٤٠).

ثناء ابن مسعود، وآراء المستشرقين بعمر:

كان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عندما يُذكر له عمر رضي الله عنه؛ يبكي حتّى تبطلّ الحصى من دموعه، ثمّ يقول: إنّ عمر كان حصناً للإسلام، يدخلون فيه، ولا يخرجون منه، فلمّا مات انتلم الحصن ^(١).

قال موير في كتابه ((الخلافة)): كانت البساطة، والقيام بالواجب من أهمّ مبادئ عمر، وأظهر ما اتصفت به إدارته من عدم التّحيز والتّعبد، وكان يُقدر المسؤولية حقّ قدرها ^(٢).

قال الدكتور مايكل هارت في كتابه ((المئة الأوائل)) - وقد جعل عمر ف.ي المرتبة الحادية والخمسين - «إنّ مآثر عمر مؤثرة حقّاً، وبدون فتوحاته السريعة كان من المشكوك به أن ينتشر الإسلام على هذا النحو الذي هو عليه الآن، زد على ذلك أنّ معظم الأراضي التي فتحها في زمنه بقيت عربية منذ ذلك العهد. حتى الآن» ^(*).

١ - الطبقات الكبرى (٢٨٤/٣)

٢ - الفاروق عمر، محمد رشيد رضا، ص (٥٤، ٥٥).

* - الأوائل، د. مايكل هارت، ص (١٦٤).

(٣) عثمان بن عفان

(٢٣-٥٣٥هـ)، (٦٤٤-٦٥٦م)

أولاً: نسبه، وكنيته، ومولده، وصفاته الخلقية، وأسرته:

١- نسبه:

هو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب^(١). ويلتقي نسبه بنسب الرسول ﷺ في عبد مناف.

٢- كنيته:

كان يكنى في الجاهلية أبا عمرو، فلماً ولد له من رقية بنت رسول الله غلاماً سمّاه عبد الله، فكنّاه المسلمون أبا عبد الله^(٢).

٣- مولده:

ولد في الطائف، وهو أصغر من رسول الله ﷺ بنحو خمس سنوات^(٣).

٤- صفاته الخلقية:

كان رجلاً ليس بالقصير، ولا بالطويل، رقيق البشرة كثّ اللحية، عظيم ما بين المنكبين، كثير شعر الرأس، طويل الذراعين، قد كسا ذراعيه جعد الشعر، أبيض اللون، وقيل: ربما أسمر اللون^(٤).

١- الطبقات لابن سعد (٥٣/٣).

٢- التمهيد والبيان، ص (١٩).

٣- عثمان بن عفان، صادق عرجون، ص (٤٥).

٤- صفة الصفوة (٢٩٥/١)، صحيح التوثيق في سيرة وحياة ذي النورين، ص (١٥)، تاريخ الطبري (٤٤٠/٥).

٥- أسرته:

أ- أمُّه وأبوه:

أمُّه أروى بنت كُرَيْز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس^(١)، أسلمت وكانت وفاتها في خلافة ابنها عثمان رضي الله عنه. أمَّا أبوه فمات في أيام الجاهلية^(٢).

ب- زواجه من ابنتي رسول الله:

* رقية بنت رسول الله:

بعد أن أسلم عثمان رضي الله عنه - سنأتي على إسلامه لاحقاً - أكرمه الله تعالى بالزواج من بنت رسول الله صلَّى الله عليه وآله رقية، وقصة ذلك: أنَّ رسول الله صلَّى الله عليه وآله كان قد زوّجها من عتبة بن أبي لهب، وزوّج أختها أمّ كلثوم من عتيبة بن أبي لهب، فلما نزلت سورة المسد: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝ (٣) وَأَمْرَاتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝ (٥)﴾ [المسد: ١-٥].

قال لهما أبو لهب: فارقا ابنتي محمد؛ ففارقاهما قبل أن يدخلها بهما كرامة من الله تعالى لهما^(٣).

وما كاد عثمان رضي الله عنه يسمع بخبر طلاق رقية حتّى استطار فرحاً... وخطبها من رسول الله صلَّى الله عليه وآله فزوجها منه، وزفتها أمّ المؤمنين خديجة بنت خويلد، وقد كان عثمان رضي الله عنه من أبهى قريش طلعة، وهي تضاهيه جمالاً، فكان يقال لها حين زُفّت إليه:

١- التمهيد والبيان، لمحمد يحيى الأندلسي، ص (١٩).

٢- الخلافة الراشدة والدولة الأموية، د. يحيى اليحيى، ص (٣٨٨).

٣- ذو النورين عثمان، محمد رشيد رضا، ص (١٢).

أحسن زوجين رأهما إنسان رقية، وزوجها عثمان^(*).

واستمرَّ زواجهما بسعادةٍ وهناء، ورزقا بغلامٍ فسَمَّياه على اسم والد الرسول ﷺ عبد الله وتوالت الأيام حتَّى كانت غزوة بدر؛ حينها خرج المسلمون لغزوتهم وكانت رقية مريضةً بمرض الحصبة، ولزمت الفراش، فأراد عثمان ﷺ أن يخرج مع الجيش، إلاَّ أنه تلقَّى أمراً من الرسول ﷺ يطلب منه البقاء إلى جانب زوجته رقية لتمريرها والاعتناء بها، فامثل عثمان ﷺ لهذا الأمر، وبقي إلى جوار زوجته الصابرة الطاهرة؛ إذ اشتدَّ بها المرض وعانت سكرات الموت، فودَّعت الحياة وهي تشهد أن لا إله إلاَّ الله، وأنَّ محمداً رسول الله، ولحقت بالرفيق الأعلى، ولم ترَ أباهَا؛ حيث كان يبدر مع أصحابه الكرام يجاهدون في سبيل إعلاء كلمة الله، ثمَّ كان أن حُمِلَ جثمانها على الأعناق، وسار خلفه زوجها عثمان ﷺ وهو حزين، حتى إذا بلغت الجنازة البقيع؛ دُفنت رقية هناك. وبعد عودة النبي منتصراً من بدر علم بوفاة ابنته - رحمها الله - فخرج إلى البقيع، ووقف على قبرها يدعو لها بالغفران^(١).

* أم كلثوم بنت رسول الله:

عُرِفَتْ أم كلثوم رضي الله عنها بكنيتها، ولا يُعرف لها اسمٌ إلا ما ذكره الحاكم عن مصعب الزبيري: أنَّ اسمها أمية، وهي أكبر سنّاً من فاطمة رضي الله عنها^(٢).
تروي لنا الصديقة بنت الصديق رضي الله عنهما خبر زواج أم كلثوم من عثمان فتقول: لما زوج النبيُّ ابنته أم كلثوم؛ قال لأم أيمن: ((هيئي ابنتي أم كلثوم،

١- دماء على قميص عثمان، ص(٢٠)، نساء أهل البيت، أحمد خليل جمعة، ص(٤٩١-٥٠٤).

٢- الدوحة النبوية الشريفة، فاروق حمادة، ص(٤٥، ٤٦). * - أنساب الأشراف، ص(٨٩).

وزفيها إلى عثمان...) ففعلت ذلك، ثم جاءها النبي ﷺ بعد ثلاثة أيام فدخل عليها وسألها: ((يا بُنَيَّةُ كيف وجدت بعلك..؟ قالت: خير بعل^(١))). وكان ذلك سنة ثلاثٍ من الهجرة النبوية.

ولم تزل أمُّ كلثوم عند عثمان رضي الله عنهما إلى أن توفيت في شعبان سنة تسعٍ من الهجرة، بسبب مرضٍ نزل بها، وصلى عليها النبي ﷺ^(٢).

لقد تأثر عثمان رضي الله عنه وحزن حزناً شديداً على فراقه لأم كلثوم، ولما رأى رسول الله ﷺ عثمان رضي الله عنه وهو يسير منكسراً، وفي وجهه حزن لما أصابه، دنا منه وقال: ((لو كانت عندنا ثالثةٌ لزوجناكها يا عثمان))^(*)، وهذا دليلٌ على حب رسول الله ﷺ لعثمان، ودليل وفاء عثمان رضي الله عنه لنبيه، وتوقيره.

ج- أبناءه:

كان له من الأبناء تسعة ذكور، وأما من البنات فله سبعٌ؛ ذلك أنه تزوج غير ابنتي رسول الله ﷺ ستَّ نساء^(٣). أما ابنه عبد الله من رقية بنت رسول الله ﷺ فقد توفي في السنة الرابعة للهجرة، وكان عمره ستَّ سنوات^(٤).

١- السيرة النبوية، لأبي شهبه (٢/٢٣١)، دماء على قميص عثمان، ص (٢٢).

٢- البخاري، كتاب الجنائز، رقم (١٣٤٢).

٣- تاريخ الطبري (٥/٤٤١)، التمهيد والبيان، ص (١٩).

*- مجمع الزوائد للهيثمي (٩/٨٣)، إسناده حسن لما له من شواهد.

٤- الأمين ذو النورين، ص (٣٦٥)، التمهيد، ص (١٩).

ثانياً: مكانته في الجاهلية، وكيفية إسلامه:

كان ﷺ في أيام الجاهلية من أفضل الناس في قومه؛ فهو ثريٌّ، شديد الحياء، عذبُ الكلمات، فكان قومه يحبونه أشدَّ الحب ويوقِّرونه، ولم يسجد في الجاهلية لصنم قط، ولم يشرب خمرًا في جاهليته، وكان يقول: إنها تُذهب العقل^(١).

وكان قد اهتمَّ بتجارته التي ورثها عن أبيه، ونمت ثروته، وأصبح يعدّ من رجالات بني أمية الذين يُقدرون عند قريشٍ بأموالهم ونسبهم.

أشرق نور الإسلام برسالة محمد ﷺ، وكان عثمان ﷺ قد ناهز الرابعة والثلاثين من عمره حين دعاه أبو بكر ﷺ إلى الإسلام، ولم يُعرف عنه تلكُّؤ، أو إبطاء، بل كان سبّاقاً أجاب على الفور دعوة الصديق، قال أبو إسحاق: كان عثمان أوّل الناس إسلاماً بعد أبي بكرٍ، وعلي، وزيد بن حارثة ﷺ أجمعين^(٢).

ثالثاً: من مساهمته الاقتصادية في بناء الدولة:

١ - بئر رومة:

كانت بئر رومة قبل قدوم النبي ﷺ لا يشرب منها أحدٌ إلا بثمن، وكانت لرجل من بني غفار، فلمّا قدم المهاجرون المدينة استنكروا الماء، فقال النبي ﷺ لصاحبها (تبيعها بعينٍ في الجنة؟) فقال: يا رسول الله ليس لي، ولا لعيالي غيرها. فبلغ ذلك عثمان ﷺ فاشترأها بخمسة وثلاثين ألف درهم، ثم أتى النبي ﷺ فقال له: أ تجعل لي فيها ما جعلت له؟ قال: ((نعم!)) قال: فقد جعلتها للمسلمين^(٣).

١ - موسوعة التاريخ الإسلامي، لأحمد شلبي (١/٦١٨).

٢ - السيرة النبوية لابن هشام (١/٢٨٧، ٢٨٩).

٣ - تحفة الأحوذى بشرح سنن الترمذي (١٠/١٩٦).

٢- توسعة المسجد النبوي:

بعد أن بنى رسول الله ﷺ مسجده في المدينة صار المسلمون يجتمعون فيه لكل أمر يخص دينهم، وكثر الناس حتى ضاق بهم المسجد، فقال رسول الله: ((من يشتري بقعة آل فلان، فيزيدها في المسجد بخير له منها في الجنة؟)) فاشتراها عثمان رضي الله عنه من صلب ماله^(١).

٣- جيش العسرة:

عندما أراد رسول الله ﷺ الرحيل إلى غزوة تبوك حث الصحابة الأغنياء على البذل لتجهيز الجيش الذي سيغزو الروم، فأنفق الصحابة ﷺ كل حسب طاقته وجهده، أما عثمان ﷺ فقد أنفق نفقة عظيمة لم ينفق أحد مثلاً^(٢).

يقول ابن شهاب الزهري: قدم عثمان لجيش العسرة في غزوة تبوك تسعمئة وأربعين بغيراً، وستين فرساً أتم بها الألف، وجاء إلى رسول الله بعشرة آلاف دينار صباها بين يديه، فجعل رسول الله يقلبها بيديه، ويقول: ((ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم)) كررها مرتين^(*).

رابعاً: في عهد الصديق:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: مرّت ضائقة على عهد الصديق، فاجتمع الناس إليه، فقالوا: السماء لم تمطر، والأرض لم تُنبِت، والناس في جوع شديد، فقال أبو بكر ﷺ: انصرفوا، واصبروا، فإنكم لا تُمسون حتى يُفرج الله

١- صحيح سنن الترمذي للألباني (٢٠٩/٣)، رقم (٢٩٢١).

٢- الحكمة في الدعوة إلى الله، ص (٢٣١).

*- سنن الترمذي رقم (٣٧٨٥). صحيح التوثيق، ص (٢٦).

الكريم عنكم. قال: فما لبث أن جاء عثمان رضي الله عنه من الشام، ومعه مئة راحلةٍ من الطعام، فاجتمع الناس إلى بابه، فخرج إليهم وقال: ماذا تريدون؟ فشكوا له حالهم... ثم قالوا: قد بلغنا أن عندك طعاماً فبعنا حتى نوسع على فقراء المسلمين. فقال: ادخلوا فاشترؤا، فدخل التجار فإذا الطعام موضوعٌ في داره، فقال: يا معشر التجار كم تربحونني على شرائي من الشام؟ قالوا: للعشرة اثنا عشر. فقال: قد زادوني. قالوا: للعشرة خمسة عشر. فقال: قد زادوني. قال التجار: يا أبا عبد الله ما بقي في المدينة تجارٌ غيرنا فمن زادك؟ قال: زادني الله تبارك وتعالى بكل درهم عشرة، أعندكم زيادة؟ قالوا: اللهم لا! قال: فإني أشهد الله أنني قد جعلت هذا الطعام صدقةً على فقراء المسلمين! ^(١).

حوادث التاريخ قيم المستقبل:

قال ابن عباس رضي الله عنهما: فرأيت من ليلتي رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام، وهو على فرسٍ أبيض، عليه حلةٌ من نور في رجليه نعلان من نور، وبيده قصبةٌ من نور، وهو مُستعجل فقلت: يا رسول الله! إني قد اشتدَّ شوقي إليك، وإلى كلامك، فأين تُبادر؟، قال: ((يا ابن عباس! إنَّ عثمان قد تصدَّق بصدقةٍ، وإنَّ الله قد قبلها منه، وزوَّجه عروساً في الجنة، وقد دُعينا إلى عرسه)) ^(٢).

فهل عسى أن يفتح الله تعالى آذان عبَّاد المال، ومحتكري قوتِ العباد شحاً، وجشعاً إلى صوت هذه العظيمة العثمانية حتى تلين قلوبهم، وتُملأ رحمة على الفقراء والأرامل والمساكين، الذين طحنتهم أزمة الحياة، واعتصرت دماءهم شراباً لذوي القلوب المتحجرة من الأثرياء؟ فما أحوج المسلمين اليوم لنفحة عثمانية في

١- الرقة والبكاء، لابن قدامة، ص (١٩٠). الخلفاء الراشدون، حسن أيوب، ص (١٩١).

٢- الرقة والبكاء، ص (١٩٠).

إنفاق الأموال على الفقراء، والمساكين، فهم جزءٌ من مجتمعاتنا، وإصلاح حالهم هو إصلاحٌ لحالنا أيضاً^(١).

خامساً: في عهد الفاروق:

لما اتسعت الفتوحات، وكثرت الأموال؛ جمع عمر رضي الله عنه ناساً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ليستشيرهم في هذا المال، فقال وزيره وصاحب مشورته عثمان رضي الله عنه: أرى مالا كثيراً يسع الناس وإن لم يُحصَوا حتى يعرف من أخذ منهم ممن لم يأخذ خشيت أن يختلط الأمر، فأقرَّ عمر رأي عثمان رضي الله عنه، وانتهى بهم ذلك إلى تدوين الدواوين^(٢).

سادساً: بيعته للخلافة:

بعد أن طعن عمر رضي الله عنه بسيف مسموم على يد أبي لؤلؤة، جمع عمر الناس وجعل أمر الخلافة شورى بين ستة من الصحابة هم: علي بن أبي طالب، عثمان ابن عفان، الزبير بن العوام، سعد بن أبي وقاص، عبد الرحمن بن عوف، وطلحة ابن عبيد الله رضي الله عنهم جميعاً^(٣).

يقول الذهبي بأمر شورى خلافة عثمان: ومن أفضل أعمال عبد الرحمن بن عوف عزله نفسه من الأمر وقت الشورى، واختياره للأمة من أشار به أهل الحل والعقد من المسلمين، فنهض به الأمر أتم نهوضٍ حتى جمع الأمة على عثمان بن عفان.

١- عثمان بن عفان، الصادق عرجون، ص (٥٢).

٢- تاريخ الطبري (٢٠٣/٥)

٣- البداية والنهاية (١٤٢/٧).

سابعاً: أخبار خلافته:

١ - تفقد أحوال الرعيّة:

كان رضي الله عنه ودوداً رؤوفاً يسأل عن أحوال المسلمين، ويتعرّف مشكلاتهم ويطمئن على غائبهم. وكان ﷺ يفرض العطاء للمواليد من بيت مال المسلمين^(١).

٢ - الإنفاق من الزكاة على الطّعام للفقراء، وأبناء السبيل:

سنّ عثمان ﷺ سنّةً جديدةً، فكان يضع الطّعام في المسجد في رمضان، وقال: هو لابن السبيل، والمعتكف في المسجد، والمعتّرين^(٢). أضف إلى ذلك أن الإنفاق العام على الحجّ كان من بيت المال وكذلك كسوة الكعبة حيث كانت من كتّان يُؤتَى به من مصر^(٣).

٣ - الإنفاق على إنشاء أوّل أسطول بحري:

أسهم بيت مال المسلمين في إنشاء أوّل أسطول بحري في الإسلام في عهد عثمان ﷺ، وذلك برأي وتنفيذ من معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما، وسيأتي دور هذا الأسطول عند الحديث عن الفتوحات، أمّا قصة إنشائه فنندعها إلى الحديث عن عبقريّ العرب معاوية بن أبي سفيان.

٤ - الأذان الثاني يوم الجمعة:

قال رسول الله: «عليكم بسنّتي، وسنّة الخلفاء الراشدين من بعدي»^(٤).

١ - تحقيق مواقف الصحابة (١/٣٩٦).

٢ - تاريخ الطبري (٥/٢٤٥). والمعتّر: الفقير، المعتّز للمعروف بدون سؤال.

٣ - السياسة المالية لعثمان، ص (١٤٠، ١٤١).

٤ - سنن أبي داود، كتاب السنة رقم (٤٦٠٧)، وسنن الترمذي، كتاب العلم، رقم (٢٦٧٦).

إنَّ عثمان رضي الله عنه من الخلفاء الراشدين، ورأى مصلحة أن يزداد هذا الأذان؛ لتنبه النَّاس عن قرب وقت صلاة الجمعة بعد أن اتسعت رقعة المدينة، فاجتهد في هذا، ووافقه جميع الصحابة رضي الله عنهم، واستمرَّ العمل بذلك لم يخالفه أحد إلى يومنا هذا، فهي سنَّة بإجماع المسلمين^(١).

٥ - عثمان يسبق المشرعين بأحكامه:

كان عثمان رضي الله عنه يرى الحجر على المفلس؛ فإذا حجر عليه اقتسم الدائنون ماله بنسبة ديونهم، لكن إن وجد بعض دائنيه . ه . سد . لعته التي باعه إياه بعينها عنده؛ جاز له أن يفسخ البيع، ويأخذ سلعته، فهو أحقُّ بها من غيره^(٢).

ثامناً: معركة ذات الصواري فخر المسلمين وليتهم يذكرون:

استمرَّت حركة الفتوحات زمن عثمان رضي الله عنه على سابق عهدها أيام خليفتي رسول الله، إلا أنَّ الجديد في الأمر هو الغزو البحري، فبفضل من الله، ثم بفضل عبقرية العرب معاوية رضي الله عنه، وحكمة كريمهم عثمان رضي الله عنه أنشئ أول أسطول بحري للمسلمين، فأرهب روما بأسرها، وضمن للعرب فتوحاتٍ عظيمةً في إفريقيا، إلا أنَّ ذلك لم يعجب قسطنطين ملك الإمبراطورية البيزنطية وقتها، فكانت معركة ذات الصَّواري، وهي أول معركةٍ بحريَّة حاسمة خاضها المسلمون.

١ - حقه من التاريخ، عثمان الخميس، ص (٨٨).

* - موسوعة فقه عثمان بن عفان، ص (١١٩).

١- قوَاد المعركة:

عبد الله بن سعد بن أبي سرح^(١) قائد للمسلمين، وقسطنطين ملك بيزنطة قائد للروم.

٢- أحداث المعركة^(٢):

قال مالك بن أوس: كنت معهم - في ذات الصَّواري - فالتقينا في البحر، فنظرنا إلى مراكب ما رأينا مثلها قطُّ، وكانت الرِّيح علينا- أي لصالح مراكب الروم- فأرسينا ساعةً، وأرسوا قريباً منّا، ثمَّ سكنت الرِّيح عنّا، فقلنا للروم: إن أحببتهم نزل إلى السَّاحل فنقتل، حتَّى يُكتب لأحدنا النصر، وإن شئتم فبالبحر. فصاحوا صيحةً واحدة: بل الماء، الماء، الماء، الماء!.

وبات الفريقان تلك الليلة في عرض البحر، وموقف المسلمين حَرَجٌ، فبات المسلمون يصلُّون، ويدعون الله، ويذكرونه، ويتهجَّدون، فكان لهم دويٌّ كدويِّ النحل، على نغمات تلاطم الأمواج بالمراكب، أمَّا الروم؛ فباتوا ليلتهم يضربون النواقيس في سفنهم.

وأصبح القوم من ليلتهم، فأراد قسطنطين أن يُسرِع في القتال، أمَّا عبد الله ابن سعد بن أبي سرح فإنه لما فرغ من صلاته إماماً للصُّبح، استشار رجال الرأي عنده؛ فاتفق معهم على خطَّة رائعة هي: أن يجعلوا المعركة بريَّةً على الرغم من أنَّهم في عرض البحر، فأمر عبد الله جنده بأن إذا بدأت المعركة اقتربوا من سُفن

١- عبد الله بن سعد بن أبي سرح.. بن لؤي القرشي: أسلم قبل الفتح وهاجر، ثم ارتد فأهدر النبي دمه، ثمَّ استأمن له عثمان بن عفان من النبي ﷺ يوم الفتح؛ فقد كان أخاه من الرضاة، فأسلم بعد ذلك وحسن إيمانه.

٢- تاريخ الطبري (٢٩٢/٥)، ذات الصواري، ص(٦٤-٦٨)، تاريخ ابن خلدون (٤٦٨/٢).

الأعداء، حتَّى تلامس سفنكم سفن العدو، ثمَّ فليَنزل الفدائيون، أو- رجال الضفادع البشريَّة في عرفنا الحالي- إلى الماء، ويربطوا السفن الإسلاميَّة بسفن الروم بحبالٍ متينة، فتصبح كلُّ عشرٍ أو عشرين منها متَّصلةً مع بعضها، فكأنَّها قطعةُ أرضٍ ستجري عليها المعركة.

وصَفَّ عبد الله بن سعد المسلمين على نواحي السفنِ يعظهم، ويأمرهم بتلاوة القرآن الكريم، ولا سيَّما سورة الأنفال، لما فيها من معاني الوحدة، والثبات والصبر.

وبدأ القتال، والروم تحسب نفسها منتصرة حينما اختارت الماء، فإذ بهم ترتعد فرائصهم من اقتراب سفن المسلمين من سفنهم، ثمَّ قفز المسلمين عليهم، وبذلك نُفذت الخطة كما رسمها أهل الشورى، وسالت الدماء الغزيرة، واصطبغت بها صفحة الماء، فصار أحمر، وترامت الجثث في الماء وتساقطت فيه، وقتل من المسلمين الكثير، ومن الروم ما لا يحصى، وفي أثناء ذلك حاول الروم أن يُغرقوا سفينة القائد العام للمعركة عبد الله بن أبي سرح؛ كي ييقوا جند المسلمين دون قائد، فتقدَّمت سفينة روميَّة من سفينته، وألقت عليها السلاسل، وأخذت تسحبها لتنفرد بها، فألقى (علقمة بن يزيد) بنفسه إلى البحر فقطع السلاسل بسيفه، وأنقذ السفينة وقائدها.

وهكذا صمد المسلمون وصبروا كعادتهم في معاركهم، فكتب الله لهم النصر بما صبروا، وكاد الملك قسطنطين أن يقع أسيراً في يد المسلمين، لكنَّه تمكَّن من الفرار ووصل جزيرة صقلية... فسأله أهلها عن أمره، فأخبرهم، فقالوا: شئتَ النصرانيَّة، وأفنيت رجالها، لو دخل المسلمون علينا أرضنا لن نجد من يردِّهم، فقتلوه شرَّ قتلة.

٣- بعض الآراء بمعركة ذات الصواري^(١):

الطبري وصفها بقوله: إِنَّ الدَّم كَانَ غَالِباً عَلَى الْمَاءِ فِي هَذِهِ الْمَعْرَكَةِ. المؤرخ البيزنطي (ثيوفانس): كانت ذات الصَّواري يرموكُ ثانية على الروم.

٤- نتائج المعركة^(٢):

أ- أدركت القسطنطينية فشل خططها في استرداد هبتها، أو استرجاع مصر، أو الشام، وانطلق المسلمون في عرض البحر، تداعب رياحه حدودهم، وتشق سفنهم أمواجه حتى غدا بحر الروم، بحيرةً للمسلمين، ففتحت قبرص، وكريت^(٣)، وصقلية، وجزر البليار^(٤)، ووصلوا إلى جنوة، ومرسيليا^(٥).

ب- قُتل قسطنطين، فتولى ابن قسطنطين الرابع من بعده، وكان صغير السن، مما جعل الظروف مواتية لقيام حملات برية، وبحرية على الأراضي الرومية.

تاسعاً: فتنة قتل عثمان بن عفان:

١- تمهيد:

دامت خلافة عثمان رضي الله عنه اثنتي عشرة سنة، شهدت خلالها الأمة الإسلامية تغيرات في مجالات الحياة كافة؛ فقد كثر المال في أيدي الناس، واشتغل عدد كبير

١- تاريخ الطبري (٢٩٣/٥). ذات الصواري، ص (٦٧).

٢- عثمان بن عفان، د. الصلابي، ص (٢٣٠). التاريخ الإسلامي (٤٠٧/١٢).

٣- كريت (باليونانية: Κρήτη): هي أكبر الجزر اليونانية وخامس أكبر جزيرة في البحر الأبيض المتوسط.

٤- جزر البليار: تقع في جنوب إسبانيا الشرقي في البحر الأبيض المتوسط.

٥- مَرَسِيلِيَا: ثاني أكبر مدن فرنسا بعد العاصمة باريس، وثالث أكبر مدينة من حيث عدد السكان بعد مدينة باريس ومدينة ليون، تقع في جنوب فرنسا على ساحل البحر الأبيض المتوسط.

منهم بالتجارة حتى أخذت الدنيا وقته، أضف إلى ذلك ظهور جيل جديد من الشباب المتحمس للمناصب والمال، فقد اتسعت رقعة الدولة الإسلامية ودخل الناس أفواجا في الإسلام، فلم يعد مجتمع خلافة عثمان كمجتمع أبي بكر وعمر رضي الله عنهما مجتمع صحابة وتابعين، فأدّى تفاعل تلك الأسباب مجتمعة إلى استيقاظ المتأمرين على أمة الإسلام، لبيدوا خططهم الهادفة إلى فتح باب الفتنة في هذه الأمة مبتدئين بعملهم من ضعف الإيمان، والمسلمين الجدد.

وإني أرى اعتماداً على أحداث التاريخ: أن الذي أشعل نار الفتنة زمن عثمان رضي الله عنه، ينتمي إلى المدرسة ذاتها التي أشعلت نيران حروب الردة أيام أبي بكر رضي الله عنه. فإن رواد هذه المدرسة اللعينة وجدوا أنفسهم غير رقيقين على خرق الصف الإسلامي وتغيير قيمه بالمواجهة العنيفة وجهاً لوجه، لذلك لجؤوا إلى الخفاء يحرضون الناس بأساليب ملتوية زائفة، حتى يضمنوا طاعتهم واستعبادهم ثم ينطلقوا بهم إلى الأهـ. داف التـ. ي أرادوا تحقيقها، وبذلك يكون المجرم من المسلمين أنفسهم، فلا أحد يـ. شك بـ. هـ. وبذلك تتحقق أهداف العدو بأيدي الخونة من أبناء المجتمع المستهدف ذاته.

٢- تعريف بصاحب الفتنة وأهدافه:

أخذ بعض اليهود يتحينون فرصة الظهور على مجريات الأحداث متظاهرين بالإسلام وهادفين إلى إشعال الفتنة في الأمة الإسلامية، ومن هؤلاء: عبد الله بن سبأ^(١) الذي لعب الدور الأكبر في أحداث الفتنة، وغاية ما جاء به ابن سبأ آراء،

١- عبد الله بن سبأ الملقب بابن السوداء: يهودي من صنعاء، أظهر إسلامه في زمن عثمان ابن عفان، ظهر له نشاط ملحوظ في العراق، والشام، ومصر خاصة، يرسم خططاً، ويدلي بآراء هدامة، ليلفت المسلمين عن دينهم، وطاعة خليفاتهم، ويوقع بينهم الفرقة، والخلاف. تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة (٢٨٤/١).

ومعتقداتٌ هدامةٌ أدّعاها، واختَرعها من قبل نفسه، وافتعلها من يهوديته الحاقدة، وجعل يروّجها لغاية ينشدها، وغرض يستهدفه؛ وهو الدّسُّ في المجتمع الإسلامي بُغية النيل من وحدته، وإذكاء نار الفتنة، وغرس بذور الشقاق بين أفرادها، فأثر مشروعه اللعين الذي أدّى إلى قتل أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه وتفرّق الأمة شيعاً وأحزاباً^(١).

٣- بدء التنفيذ^(٢):

توجّه ابن سبأ إلى الشام ليُفسد بعض أهلها، ويؤثر فيهم، ولكنّه لم ينجح في هدفه الشيطانيّ فقد كان معاوية رضي الله عنه بالمرصاد له ولأفكاره، فانطلق منها إلى البصرة ليُجند الأتباع من المرتزقة الحاقدين، والرجال البلهاء، وكان والي البصرة عبد الله بن عامر بن كريز، وكان حازماً عادلاً، فلَمَّا وصل ابن سبأ إلى البصرة، نزل عند رجل خبيث من أهلها كان لصّاً مجرمًا، يُدعى حكيم بن جبلة.

وصار ابن جبلة يُقدِّم لابن سبأ أمثاله من المنحرفين، فيغرس في نفوسهم أفكاره، ويجنّدهم بجمعيّته السريّة. فلَمَّا علم ابن عامر بأمر ابن سبأ؛ استدعاه إلى داره فحدّثه، ثمّ أمر بنفيه خارج البصرة. فغادرها بعد أن ترك فيها رجالاً، وأتباعاً له، وجعل فيها فرعاً لحزبه السبئيّ اليهوديّ، ثمّ كان أن ذهب إلى الكوفة، فوجد فيها رجالاً من المنحرفين، جاهزين لاستقباله فجنّدهم لجماعته وحزبه، ولما علم به سعيد بن العاص أخرجهم ونفاه من الكوفة، فتوجّه إلى مصر، فأقام فيها، وعشّش وباض وفرّخ فيها، فاستمال أناساً هناك من الرّعاع والبلهاء، فكان ابن سبأ يرتب الاتصالات السريّة بين هذه البلدان، لتستمرّ جهوده هو وأعوانه نحو ستّ سنوات، حيثُ بدؤوا أعمالهم الشيطانيّة سنة ثلاثين، ونجحوا في آخر سنة خمسٍ وثلاثين بقتل الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه.

١- تحقيق مواقف الصحابة (١/٣٢٧).

٢- الخلفاء الراشدون، للخالدي، ص (١٢٦...١٣٠).

٤ - مشورة عثمان لولاية الأمصار:

بعث عثمان رضي الله عنه إلى ولاية الأمصار واستدعاهم على عجل لينظروا في أمر هذه الفئة من الغوغاء، وولاته هم: عبد الله بن عامر، ومعاوية بن أبي سفيان، وعبد الله بن سعد، وأدخل معهم في المشورة سعيد بن العاص، وعمرو بن العاص وهم من الولاية السابقين، وكانت جلسة مهمةً تباحثوا فيها بأمر الأخبار القادمة إلى المدينة التي هي عاصمة دولة الإسلام^(١).

فجلس الصحابة رضي الله عنهم يتشاورون بأمر هؤلاء البغاة الذين انتشروا في بقاع الدولة الإسلامية يريدون أمراً فيه الخطر على المسلمين جميعاً، فكان الراجح على قولهم: إعلان الحرب على أصحاب الفتن، أو جمعهم من أقاليم الدولة والأمر بقتلهم. فقام عثمان بعد أن فرغ الولاية من الحديث فقال: «أما ما أشرت به عليّ فقد سمعته، ولكلّ أمر بابٌ يُؤتى منه، إنّ هذا الأمر الذي يُخاف على هذه الأمة كائنٌ لا محالة، ووالله إنّ رحا الفتنة لدائرة، فطوبى لعثمان إن مات ولم يحرّكها»^(٢).

٥ - اقتراحان من معاوية:

قبل أن يعود معاوية رضي الله عنه إلى الشام أتى إلى عثمان رضي الله عنه وقال له: يا أمير المؤمنين انطلق معي إلى الشام، قبل أن يهجم عليك من الأمور والأحداث ما لا قبل لك بها. فقال عثمان رضي الله عنه: لا أبيع جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيء، ولو كان فيه قطع عني، فقال معاوية رضي الله عنه: إنّا أرسل لك جيشاً من أهل الشام يقيم في المنية لمواجهة الأخطار المتوقعة؛ فيدفع عنك وعن أهل المنية، فقال عثمان رضي الله عنه: لا حتى لا أقبل على جيران رسول الله صلى الله عليه وسلم أرزاقهم بجنّة تسلكهم. فقال معاوية رضي الله عنه: فيا أمير المؤمنين والله لتُغالن، أو لتُغزين. فقال عثمان رضي الله عنه: فحسبي الله ونعم الوكيل!^(٣). وفي تلك المقالة شهادة تقديرٍ لفطنة وفراصة معاوية، وتعظيم لصبر وإيمان عثمان رضي الله عنهما؛ فعثمان أكثر الناس علماً بما ستؤول إليه الأمور، وهو وإنّما أراد أن لا يقاتل الخارجين عليه لأمر سنورده لاحقاً.

١ - معاوية بن أبي سفيان، ص (١٢٦).

٢ - تاريخ الطبري (٣٥١/٥). * - تاريخ الطبري (٣٥٣/٥).

٦- عثمان يخترق صفوف المتآمرين بعد مجيئهم إلى المدينة^(١):

كان أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه على درجة من اليقظة والوعي ما أمكنه أن يتعرّف خطط المتآمرين عليه قبل فعلها؛ فقد أرسل رجلين إلى صفوف المتآمرين بعد أن تظاهر بعقابهما فاستطاع الرجلان أن يدخلوا ضمنهم ويعرفا خططهم، وعادا إلى عثمان رضي الله عنه وأخبراه بما سمعوا. فنادى عثمان رضي الله عنه الصلاة جامعة فأتى المتآمرون وهم عنده بالمدينة لم يُبدوا نواياهم بعد، فأقبل صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحاطوا بهم، وجلسوا جميعاً ليسمعوا كلام عثمان الذي دعا الناس إليه، فأخبرهم خبر القوم المتآمرين، وحقيقة ما يريدون؛ من تأكيد الشبهات عليه تمهيداً لخلعه، أو قتله، وقام الرجلان اللذان أرسلهما عثمان رضي الله عنه إلى السبئيين، فشهدا بما أخبروهما به.

فقال المسلمون جميعاً في داخل المسجد: اقتلهم يا أمير المؤمنين، فرفض عثمان رضي الله عنه قتلهم لأنهم مسلمون- في الظاهر- من رعيته، ولا يرضى أن يُقال: عثمان يقتل مخالفين له؛ ولذلك ردَّ عثمان رضي الله عنه على طلب القتل بأن قال: لا نقاتلهم بل نعفو عنهم ونصفح، ثمَّ نظر إلى شكواهم، وحججهم علينا. وهكذا اصطلح عثمان رضي الله عنه مع كل وفد على حدة، ثمَّ انصرفت الوفود على دفعات إلى ديارها^(٢).

٧- كيد أرباب الفتنة في كتاب مزعوم:

وبعد هذا الصلح عاد أهل الأمصار جميعاً راضين عن الخليفة عثمان فتبيّن لمشعلي الفتنة أنَّ خطّتهم قد فشلت، وأنَّ أهدافهم الدنيئة لم تتحقق، لذا خطّطوا تخطيطاً آخر يشعل نار الفتنة من جديد، ويقتضي تدمير ما جرى من صلح بين

١- تاريخ الطبري (٣٥٤/٥، ٣٥٥).

٢- فتنة مقتل عثمان (١٢٩/١).

أهل الأمصار وعثمان عليه السلام، فبرز ذلك فيما يأتي: في أثناء طريق عودة أهل مصر، رأوا راكباً على جمل يتعرض لهم، ويفارقهم كأنه يريد الهرب من أيديهم وكأنَّ أفعاله تقول: «خذوني» فقبضوا عليه، وقالوا: ماذا تحمل؟ قال: أنا رسول أمير المؤمنين إلى عامله بمصر ففتشوه، فوجدوا معه كتاباً من عثمان عليه السلام، وعليه خاتمه «مزور»، ففتحوا الكتاب فإذا فيه أمر بصلبهم أو قتلهم، فرجعوا إلى المدينة حتَّى وصلوها ^(١)، فأنكر عثمان أمر الكتاب، ونفى عن نفسه أن يكون أحدٌ قد كتب بذلك، فلم يصدِّقه ^(٢).

والكتاب مزورٌ وذلك لعدَّة أسباب ^(٣):

أ- أنَّ حامل الكتاب قد تعرَّض لهؤلاء المصريين، فأقبل عليهم مراراً، وهو لم يفعل ذلك إلا ليلفت الأنظار إليه، وكأنَّه يقول: معي شيءٌ مهمٌّ بشأنكم! وإلا فلو كان حقاً من عثمان عليه السلام؛ لخافهم وابتعد عنهم مسرعاً إلى عامل مصر لينفذ ما جاء به.

ب- كيف علم العراقيون بالأمر، وقد اتجهوا إلى بلادهم، وفصلتهم عن المصريين الذين أمسكوا بالكتاب المزعوم مسافةً شاسعة، فالعراقيون في الشرق والمصريون في الغرب، ومع ذلك عادوا جميعاً في آن واحد، كأنما كانوا على ميعاد؟ فلا يعقل هذا إلا إذا كان الذين زوروا الكتاب قد اتفقوا على ذلك بالمدينة ثمَّ تفرقوا بين أهل العراق ومصر ليحرِّضوهم ويضمنوا عودتهم إلى المدينة.

١- تاريخ الطبري (٣٧٩/٥).

٢- البداية والنهاية (١٩١/٧).

٣- الدولة الأموية، د. يوسف العش، ص (٤٥، ٤٦). عثمان بن عفان، د. الصلابي، ص (٤١٥، ٤١٦).

ولذلك قال عليٌّ عليه السلام: هذا والله أمرٌ قد أبرم بالمدينة.

٨- تضخم المشكلة والتوعد بالقتل:

بعد أن عادت الوفود المتآمرة بسبب ذلك الكتاب المزور أعلنت الخروج على الخليفة عثمان عليه السلام وحاصرت في داره. وتمّ الحصار فعلاً، فقد أحاط الخارجون بداره وطلبوا منه خلع نفسه، أو يقتلوه ^(١)، فرفض خلع نفسه، وقال: لا أخلع سربالاً سربليه الله ^(٢). يشير إلى ما أوصاه به رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسنأتي على ذكر ذلك.

٩- دفاع الصحابة عن عثمان رضي الله عنهم:

أ- علي بن أبي طالب: أرسل إلى عثمان عليه السلام فقال: إنَّ معي خمسمئة درع فإذن لي، فأمنع القوم عنك، فإنَّك لم تُحدث شيئاً يُستحيلُ به دمك، فقال: جُزيت خيراً ما أحبُّ أن يرهق دمٌ بسبي ^(٣).

ب- عبد الله بن الزبير: جاءه حاملاً سيفه، وقال: قاتلهم، فو الله لقد أحلَّ الله لك قتالهم يا أمير المؤمنين! فقال عثمان عليه السلام: لا والله لا أقاتلهم أبداً ^(٤).

ج- الأنصار: جاءته جماعة من الأنصار، فوقفوا ببابه ودخل زيد بن ثابت رضي الله عنه، وقال له: هؤلاء الأنصار بالباب، وإن شئت كُنَّا أنصار الله مرتين، فرفض القتال، وقال: لا حاجة لي في ذلك ^(٥).

١- الطبقات لابن سعد (٦٦/٣).

٢- التمهيد، ص (٤٦، ٤٧).

٣- تاريخ دمشق، ص (٤٠٣).

٤- الطبقات لابن سعد (٧٠/٣) إسناده صحيح.

٥- فتنة مقتل عثمان (١٦٢/١).

١٠ - صفة قتله:

بعد أن طال الحصار على عثمان رضي الله عنه هاجم المرتدون الدار، فتصدى لهم الحسن بن علي، وعبد الله بن الزبير، ومحمد بن طلحة، ومروان بن الحكم^(١)، وسعيد بن العاص رضي الله عنه جميعاً، فنشب القتال بينهم، فناداهم عثمان: الله! الله! أنتم في حلٍّ من نصرتي، فأبوا، ودخل غلمانُ عثمان لينصروه، فأمرهم ألا يفعلوا، بل إنَّه أعلن: أنَّه من كفَّ يده منهم؛ فهو حرٌّ^(٢).

وهكذا استطاع عثمان رضي الله عنه أن يُقنع المدافعين عنه، وألزمهم بالخروج من الدار، وخُلِّيَ بينه وبين المحاصرين، فلم يبق في الدار إلا عثمان وآله، وبعد أن خرج المدافعون عنه، أخرج المصحف، وأخذ يقرأ منه وكان إذ ذاك صائماً، فإذا برجل من المحاصرين يدخل عليه، فلما رآه عثمان رضي الله عنه قال له: بيني وبينك كتاب الله، فخرج الرجل، ثم دخل عليه آخرُ فأسرعه بخنقه ثم أهوى عليه بسيفه، فاتقاه عثمان رضي الله عنه بيده فقطعت، فقال: أما والله إنَّها لأول من خطَّت القرآن، وعلى إثر قطع اليد نفرَ الدم على المصحف الذي كان بين يديه يقرأ منه، وسقط على قوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٧].

ولما أحاطوا بعثمان ليجهزوا عليه، قالت امرأته نائلة: دعوه فقد كان يُحيي الليل بركعة، يجمعُ فيها القرآن^(٣). وعلى هذا النحو الحزن قُتل عثمان بن عفان رضي الله عنه.

١ - رابع الخلفاء الأمويين.

٢ - البداية والنهاية (١٩٠/٧)، الدولة الإسلامية في عصر الخلفاء الراشدين، ص (٢٨٢).

٣ - الطبقات (٧٦/٣). فتنة مقتل عثمان (١٩١/١).

عاشراً: تاريخ قتله، وسنّه عند استشهاده:

كان تاريخ مقتله ﷺ ب ١٨/١٢/٣٥ هـ^(١). وكان عمره عند وفاته رحمه الله اثنتين وثمانين سنة^(٢).

ولكن لماذا لم يُقاتلهم:

بعد ذكر أحداث هذه الفتنة التي حدثت في عهد عثمان رضي الله عنه والتي أدت إلى قتله، يستغرب كثيرٌ منا لماذا لم يأمر عثمان رضي الله عنه بقتال هؤلاء المتآمرين؟ وهم على خطأ يجوز قتالهم عليه، وعثمان يمتلك كل الأسباب والوسائل للقضاء عليهم فلماذا تركهم يفعلون فعلتهم هذه؟. إنّ الحقيقة تقول إنّ عثمان لم يقاتلهم للأسباب الآتية:

١- إخبار رسول الله ﷺ بأمر هؤلاء المتآمرين في كثيرٍ من الأحاديث، وهو يشير إلى عثمان رضي الله عنه بأنه هو من سيقتل بسببهم:

* عن عبد الله بن حوالة قال: إنّ رسول الله قال: ((من نجا من ثلاث؛ فقد نجا- كررها ثلاث مرّات- موتي، والدجال، وقتل خليفة مصطبرٍ بالحق، معطيه))^(٣). والدلائل كلها تشير إلى عثمان^(٤).

* عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: ذكر رسول الله ﷺ فتنةً، فمرّ رجل، فقال: ((يُقتل فيها هذا المقنع يومئذٍ مظلوماً)) قال: فنظرتُ فإذا هو عثمان بن عفان رضي الله عنه^(٥).

١- تاريخ الطبري (٤٣٥/٥).

٢- فتنة مقتل عثمان (٢٠٤/١).

٣- المسند (٤١٩/٤) (٣٤٦/٥)، تحقيق: أحمد شاكر.

٤- فتنة مقتل عثمان (٤٤/١).

٥- فضائل الصحابة (٥٥١/١) إسناده حسن.

**** إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ عَهْدٌ إِلَيَّ عَهْدًا، وَإِنِّي صَابِرٌ نَفْسِي عَلَيْهِ:**

عن أبي سهلة، عن عائشة، قالت: قال: رسول الله ﷺ ((ادعوا لي بعض أصحابي))، قلت: أبو بكر؟ قال: ((لا)) قلت: عثمان، قال: ((نعم!)) فلما جاء؛ قال: تنحى، فجعل يسأره^(١)، ولون عثمان يتغير، فلما كان يوم الدار، وحُصِر؛ قلنا: يا أمير المؤمنين! ألا تقاتل؟ قال: لا! إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ عَهْدٌ إِلَيَّ عَهْدًا، وَإِنِّي صَابِرٌ نَفْسِي عَلَيْهِ^(٢).

وفي بعض الروايات زيادةٌ تكشفُ عن بعض مكنون هذه المناجاة، فقد جاء فيها: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِعُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ((وإن سألوك أن تنخلع من قميص قمصك الله عز وجل فلا تفعل))^(٣).

فهذه الأحاديث تفسرُ لنا جلياً سبب إصرار عثمان رضي الله عنه على رفض القتال أثناء الحصار، كما يفسر لنا أيضاً سبب رفضه للتنازل عن الخلافة عندما عرض المتآمرون عليه ذلك، وهما موقفان طالما تساءل الباحثون والمؤرخون عن سببهما^(٤).

٢- ما جاء في قول عثمان رضي الله عنه: لَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ خَلَفَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي أُمَّتِهِ بِسُفْكِ الدَّمَاءِ^(٥).

٣- علمه بأنَّ البغاة لا يريدون غيره، فكره أن يقي نفسه بالمؤمنين، وأحبَّ أن يقيهم بنفسه^(٦).

١- أي يناجيه بصوتٍ منخفض.

٢- فضائل الصحابة (٦٠٥/١) إسناده صحيح.

٣- المصدر السابق (٦١٣/١) إسناده صحيح، الطبقات (٦٦/٣)، (٦٧).

٤- فتنة مقتل عثمان (٤٨/١).

٥- المصدر السابق (١٦٧/١)، المسند (٣٩٦/١) أحمد شاكر.

٦- المصدر السابق نفسه.

٤- في آخر أيام الحصار- وهو اليوم الذي قُتل فيه- نام ﷺ، فأصبح يُحدث الناس: رأيت النبي ﷺ في المنام، ومعه أبو بكر، وعمر، فقال لي: يا عثمان! أفطر عندنا اليوم. فأصبح صائماً، وقُتل من يومه ^(١).

حوادث التاريخ قيم المستقبل

إنَّ فتنة مقتل عثمان ﷺ تدخل ضمنَ حوادث كثيرة أخبر عنها رسول الله ﷺ في حياته بأنَّها ستقع بالغيب، وإنَّ علم الغيب صفةٌ من صفات الله عزَّ وجل ليست لأحدٍ من خلقه، وإنَّما ذلك علمٌ أطلعه الله على رسوله خاصَّةً، وأمره أن يبيِّنه للناس ^(٢). وفي ما جرى من حوادث في فتنة مقتل عثمان أكبرُ برهانٍ على قول تعالى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

ثمَّ هو أعظمُ درسٍ للبشريَّةِ كَلِّها من خليفتها الراشد عثمان بن عفان ﷺ؛ إذ علَّمتنا بموقفه هذا من الفتنة أن نؤمن بقضاء الله وقدره حقَّ الإيمان، بل أن نؤمن بكلِّ جوارحنا بما وعدنا به الله سبحانه وتعالى، لا أن نركن لأنفسنا وندع الدنيا تسحبنا إلى أودية جهنَّم فما الدنيا إلا دار عملٍ لدار بقاءٍ في جنَّات الخلد.

١- الطبقات (٧٥/٣)، فتنة مقتل عثمان (١٧٥/١).

٢- فتنة مقتل عثمان (٤٨/١).

(٤) علي بن أبي طالب

(٣٥-٥٤٠ هـ)، (٦٥٦-٦٦٠ م)

أولاً: اسمه وكُنيتُه:

هو علي بن عبد مناف^(١) بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف^(٢). فهو ابن عمّ رسول الله ﷺ ويلتقي معه في جدّه الأول عبد المطلب بن هاشم، ووالده أبو طالب شقيق عبد الله والد النبي ﷺ. ويكنّى بأبي الحسن نسبة إلى ابنه الأكبر الحسن وهو من ولد فاطمة بنت رسول الله ﷺ^(٣).

ثانياً: أسرته وصفاته الخلقية:

والده: أبو طالب كان كثير الولد، قليل المال، اعتنى بابن أخيه - رسول الله ﷺ - منذ أن كان صغيراً، وأحبه حباً شديداً، ولما أشرقت شمس الإسلام وقف أبو طالب إلى جنب ابن أخيه يساعده، وينصره أمام قريش^(٤). كانت وفاته في شوال في السنة العاشرة من النبوة، وعمره يناهز الثمانين سنة، ولم يُعلن إسلامه^(٥).

والدته: هي الصحابيّة الجليلة فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف^(٦).

صفاته الخلقية: كان حسنُ الوجه، كأثّه القمر ليلة البدر حُسنًا، ضخّم البطن، عريض المنكبين، أصلع ليس في رأسه شعرٌ إلا من خلفه، كبير اللحية،

١- ولكن اعتادت العرب أن تناديه بأبي طالب.

٢- الطبقات الكبرى (١٩/٣)، صفة الصفوة (٣٠٨/١).

٣- البداية والنهاية (٢٢٣/٧).

٤- المرتضى ص (٢٤)، السيرة النبوية للغضبان، ص (١٨٤).

٥- بلوغ الأرب (٣٢٤/١).

٦- نسب قريش، ص (٤٠)، فضائل الصحابة (٦٨٥/٢).

شديد الساعد واليد قويُّ شجاع^(١).

ثالثاً: إسلامه، وفداؤه نفسه للنبي:

تربى علي عليه السلام في بيت رسول الله ﷺ، فلما بدأ مشوار الحبيب محمد ﷺ في نشر الدعوة وكانت ما زالت سرّاً رأى علي رسول الله وزوجه خديجة يصيلان، فقال علي عليه السلام: ما هذا يا محمد؟ فقال النبي ﷺ: دين الله الذي اصطفاه للناس، فإني أدعوك إلى الله وحده، وأن تكفر باللات والعزى، فقال له علي: هذا أمرٌ عظيم ولا بدّ لي من سؤال أبي، فقال له: يا علي إذا لم تسلم فاكم، فمكث ليلته يفكر، ثم جاء في الصباح الباكر فأعلن إسلامه دون ترددٍ أو خوف^(٢).

وهكذا أسلم علي عليه السلام وحسن إسلامه، وامثل لأمر الله ورسوله ﷺ فباع دنياه طلباً للآخرة، ولعل الحادثة الآتية من أشهر أخباره عليه السلام:

لما بدأت دعوة رسول الله ﷺ بالظهور، ودخل فيها عددٌ من رجال ونساء قريش، اجتمع كبار قريش في دار الندوة، وأجمعوا على قتل رسول الله ﷺ والتخلص منه، ولكن الله تعالى أعلم نبيه بذلك؛ فأراد أن يُبقي أحداً في فراشه لينظر إليه القتلة فينتظرون خروجه، فكان اختياره لعلي عليه السلام^(٣)، ففعل ذلك، فاستغرب القتلة رؤيته في الفراش بدلاً من رسول الله ﷺ؛ فسألوه: أين محمد؟ فقال: لا علم لي!، فعلموا أنّ محمداً ﷺ نجا من كيدهم هذا^(٤).

١- الاستيعاب في معرفة الأصحاب (١١٢٣/٣).

٢- البداية والنهاية (٤/٣).

٣- الطبقات الكبرى (٢٢/٣)، تاريخ الخلفاء للسيوطي، ص (١٦٦).

٤- فتح الباري (٢٣٦/٧).

رابعاً: حياته مع القرآن:

* قال ﷺ: ((والله ما أنزلت آية إلا وقد علمت فيم نزلت، وأين نزلت))^(١).

* سئل علي رضي الله عنه عن قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٢]. فقال: «الخشوع في القلب، ولا تلتفت في صلاتك»^(٢).

* قال ﷺ: «الزهد كله بين كلمتين من القرآن الكريم: قال سبحانه: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣]^(٣).

خامساً: زواجه من فاطمة:

كان زواجهما سنة اثنتين للهجرة بعد وقعة بدر، وولدت له الحسن والحسين وأمّ كلثوم وكانت وفاتها بعد وفاة الرسول ﷺ بستّة أشهر فرضي الله عنها وأرضاها^(٤).

سادساً: بيعته للخلافة:

بعد أن توفي رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم - على النحو الذي بيناه - كان لابدّ لهذه الأمة من إمام يقودها، فأسرع الصحابة رضي الله عنهم إلى مبايعة علي رضي الله عنه لما علموا من فضله وسابقته، وإليك نصّ الحادثة:

١- الطبقات (٣٣٨/٢).

٢- الزهد لابن مبارك، ص (٤٠٣)، رقم (١١٤٨).

٣- فرائد الكلام، ص (٣٧٦).

٤- سير أعلام النبلاء (١١٨/٢، ١٣٤). حلة الأولياء (٣٩/٢، ٤٣).

عن محمد بن الحنفية، قال: كنت مع علي رضي الله عنه وعثمان محاصرين، فأتاه رجلٌ فقال: إنَّ أمير المؤمنين مقتولٌ الساعة، فقام علي رضي الله عنه فأتى دار عثمان وتأكد من مقتله، فعاد إلى داره وأغلق الباب، فضرب الناس بابه ودخلوا عليه فقالوا: إنَّ هذا قد قُتل، ولا بدَّ للناس من خليفة، ولا نعلم أحداً أحقَّ بها منك، فقال لهم علي رضي الله عنه: لا تريدوني فأني لكم وزيرٌ خيرٌ مني لكم أمير، فقالوا: لا والله لا نعلم أحداً أحقَّ بها منك، قال: فإن أبيتُم عليَّ فإنَّ بيعتي لا تكون سرّاً، ولكن أخرج إلى المسجد... فبايعه الناس (١).

سابعاً: أخبار خلافته مع المسلمين:

١- من حكمه ومواعظه رضي الله عنه:

كانت خلافة علي رضي الله عنه على أساس راشديٍّ عظيم، فكان يعظُّ الناس ويفقههم في دينهم، فتركت لنا الكتب حكماً رائعةً لهذا الخليفة الراشديِّ المؤمن، نذكر منها (٢):

- من قلَّ صدقه، قلَّ صديقه.
- من عذبَ لسانه، كثُرَ إخوانه.
- العفو عند المقدرة، شكرٌ للمقدرة.
- سئل رضي الله عنه عن خيار العباد فقال: الذين إذا أحسنوا استبشروا، وإذا أسأؤوا استغفروا، وإذا ابتلوا صبروا، وإذا غضبوا غفروا (٣).

١- كتاب السنة لأبي بكر الخلال، ص (٤١٥).

٢- من كتاب منهج علي بن أبي طالب، الصفحات من (٢٢٦ - ٢٣٩).

٣- مروج الذهب (٢/٤٣١).

● وصف مرةً العبد المؤمن فقال: ينبغي للمؤمن أن يكون نظره عبدة، وسكوته فكرة، وكلامه حكمة^(١).

● وحدّث مرةً أصحابه عن جزاء المعصية فقال: جزاء المعصية الوهن في العبادة، والضيق في المعيشة، والنقص في اللذة^(٢).

● الترهيب من عدم الإنفاق: بشر مال البخيل بحادثٍ أو وارث، وقال في موضعٍ آخر: يعيش في الدنيا عيش الفقراء ويحاسب في الآخرة حساب الأغنياء^(٣).

● وصفه للمرائي: قال للمرائي ثلاث علامات: يكسلُّ إذا كان وحده، وينشط إذا كان في الناس، ويزيد في العمل إذا أُثني عليه، ويُنقص إذا ذمَّ به^(٤).

٢ - اهتمامه بالقضاء:

أ- مكان القضاء: أمر عليٌّ عليه السلام شريحاً القاضي بالجلوس في المسجد الأعظم الذي يكون وسط المدينة، ليسر وصول المتخاصمين إلى القاضي^(٥).

ب- مجانية الحصول على الحكم: كان يعطي القضاة مرتباً تكفيهم من الرشوة، وتؤمن للخصمين حلَّ مشاكلهما مجاناً^(٦).

ج- عدم الصياح بالمتخاصمين: ولى عليٌّ عليه السلام أبا الأسود الدؤلي القضاء، ثمَّ عزله، فقال: لم عزلني وما خنت ولا جنيت ؟ فقال: إنما رأيتك يعلو صوتك على الخصمين^(٧).

١- المصدر السابق (٢/٤٣٤).

٢- تاريخ الخلفاء للسيوطي، ص (٢٠٤).

٣- منهج عليٍّ في الدعوة إلى الله، ص (١٨٣).

٤- الكبائر للذهبي، ص (١٤٥). فرائد الكلام، ص (٣٣٨).

٥- موسوعة فقه علي (٥٠٦).

٦- المصدر السابق نفسه.

٧- المغني (٩/١٠٤).

٣- ترحمه على الفاروق:

مرَّ عليٌّ عليه السلام على المساجد وفيها القناديل في شهر رمضان، فقال: نور الله على عمر قبره، كما نور علينا مساجدنا ^(١).

ثامناً: وقعة الجمل:

أ- سبب التسمية:

هي معركة وقعت في البصرة عام ٣٦ هـ بين قوات أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام والجيش الذي يقوده الصحابيَّان طلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، بالإضافة إلى عائشة التي قيل إنها ذهبت مع جيش المدينة في هودج من حديد على ظهر جمل، فسميت المعركة بالجمل نسبة إلى هذا الجمل.

ب- كيف بدأت المعركة:

وصل أصحاب الجمل إلى البصرة ولم يكن لهم غرض في القتال، بل أرادوا جمع الكلمة والقصاص من قتلة عثمان عليه السلام، والاتفاق مع علي عليه السلام في الكيفية التي يمكن بها تنفيذ القصاص في مكان بعيد عن المدينة المنورة التي صارت في تلك الأيام معقلاً لقتلة عثمان وأنصارهم. وكان في البصرة نفرٌ من دعاة الفتنة، الذين خرجوا على عثمان عليه السلام. فعمل هؤلاء نفر من دعاة الفتنة على التحريض ضد أصحاب الجمل.

ثم كان أن وصل عليٌّ عليه السلام إلى البصرة، فأرسل القعقاع بن عمرو إليهم فقال للسيدة عائشة: «أي أماء، ما أقدمك هذا البلد؟» فقالت: «أي بني الإصلاح بين الناس». فسعى القعقاع بن عمرو بين الفريقين بالصلح، واستقر الأمر على ذلك. وقرر علي عليه السلام أن يرحل في اليوم الذي يليه إلى المدينة على ألا يرتحل معه أحد من قتلة عثمان عليه السلام.

١- المصدر السابق (٢/١٦٩).

فاجتمع رؤوس السبئية ومثيرو الفتنة، الذين علموا أن هذا الصلح سينتهي بأمر القصاص عليهم. فخافوا على أنفسهم، وقرروا أن يشعلوا الحرب بين الجيشين، ويشيروا الناس ويوقعوا القتال بينهما فيفلتوا بهذا بفعلتهم^(١).

نقرأ في تاريخ الطبري: «لما تم الصلح بين علي وطلحة والزبير وعائشة عليها السلام؛ خطب علي عليه السلام عشية ذلك اليوم في الناس وذكر الإسلام وسعادة أهله بالألفة والجماعة، وأن الله جمعهم بعد نبيه صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم على الخليفة أبي بكر ثم بعده عمر بن الخطاب ثم على عثمان ثم حدث هذا الحدث الذي جره قتل عثمان». ثم قال: «ألا وإني راحلٌ غداً فارتحلوا ولا يرتحلن غداً أحد أعان على عثمان بشيءٍ من أمور الناس، وليغن السفهاء عني أنفسهم».

وفي تلك الأثناء بات كلا الفريقين فرحين بالاتفاق السلمي الذي تم، وفي اليوم التالي ومع طلوع الفجر، نفذ السبئية خطتهم، وفي هذا قال ابن كثير في البداية والنهاية:

«وبات الناس بخير ليلة، وبات قتلة عثمان بشر ليلة، وباتوا يتشاورون، حتى أجمعوا على أن يثيروا الحرب بين الفريقين، فنهضوا من قبل طلوع الفجر، وهم قريبٌ من ألفي رجل، فانصرف كل فريق إلى قراباتهم، وهجموا عليهم بالسيوف، فقام الناس من منامهم إلى السلاح، ونشبت الحرب وتبارز الفرسان، والسبئية أصحاب ابن السوداء قبحه الله لا يفترون عن القتل، ومنادي علي عليه السلام ينادي: ألا كفوا ألا كفوا، فلا يسمعه أحد...».

١- نهج السعادة (١/٣٥٠).

كان علي رضي الله عنه يتألم كثيراً مما يحدث من إراقة دماء المسلمين. يروي ابن أبي شيبة في مصنفه بسند صحيح عن الحسن بن علي قال: «لقد رأيته - يعني علياً - حين اشتد القتال يلوذ بي، وكان يتوجع على قتلى الفريقين ويقول: «يا ليتني مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة».

ج- نتائج المعركة:

انتهى القتال بعد أن اتضحت فتنة السبئية لكلا الجانبين، وقد أسفرت المعركة عن استشهاد طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه بعد أن أصابه سهم في ركبته، وقد حزن علي رضي الله عنه كثيراً لمقتله، فحين رآه مقتولاً جعل يمسح التراب عن وجهه ويقول: «عزيزي عليّ أبا محمد أن أراك مجندلاً تحت نجوم السماء». وقتل الزبير بن العوام رضي الله عنه، أما عن السيدة عائشة فلما انتهى القتال ذهب علي رضي الله عنه إليها، فقال: «غفر الله لك» فقالت: «ولك، ما أردتُ إلا الإصلاح». وفي أثناء ذلك قال رجل: يا أمير المؤمنين إن بالباب رجلين ينالان من عائشة، فأمر علي القعقاع بن عمرو أن يجلد كل منهما مئة جلدة وأن يجردهما من ثيابهما ففعل^(١). ثم أنزلها دار عبد الله بن خلف وهي أعظم دار في البصرة ريثما تُهيئ نفسها للعودة إلى المدينة معززة مكرمة^(٢).

١- الكامل في التاريخ ج٢، ص (١٤٤).

٢- فضائل الإمام علي، ص (١٣٨ - ١٣٩).

تاسعاً: موقعة صفين:

أ- أسبابها:

طالب أمير المؤمنين علي عليه السلام معاوية بالبيعة، في حين طالب معاوية رضي الله عنه علياً بالقصاص أولاً من قتلة عثمان رحمه الله ثم تكون البيعة. ولكن علياً أصر على أن تكون البيعة أولاً.

ومع احتدام الموقف توجه أمير المؤمنين علي عليه السلام إلى الشام لأخذ البيعة من معاوية، والذي بدوره أرسل جيشاً من دمشق لملاقاته فأقام في صفين، حيث تقابل الجيشان هناك.

ب- نتائج المعركة:

وضعت الحرب أوزارها، بعد أن طلب جيش معاوية رضي الله عنه التحاكم إلى كتاب الله؛ وذلك لكثرة الشهداء في تلك المعارك^(١)، فقبل علي عليه السلام بذلك، مما أدى إلى خروج طائفة من جيشه رافضة التحكيم، وسميت الخوارج. فاضطر علي رضي الله عنه إلى خوض معركة شديدة معهم سميت بمعركة النهروان^(٢).

١- لا كما تتناقل كثير من كتب التاريخ: أن ذلك كان خدعة من معاوية حينما رأى أن الهزيمة واقعة به.

٢- معركة النهروان: إحدى المعارك الإسلامية الداخلية المبكرة، وقعت عام ٣٩ هـ بين علي ابن أبي طالب وبين الخوارج، والنهروان موقع بين بغداد وحلوان. وسبب وقوعها رفض الخوارج لأمر التحكيم مع جيش معاوية. ورفعوا شعارهم الشهير: «لا حكم إلا حكم الله» وهو الشعار الذي قال عنه علي بن أبي طالب: «كلمة حق أريد بها باطل». وانتهت المعركة بانتصار جيش علي عليهم.

ج- التحكيم:

بعد أن توقف القتال اتفق الطرفان على التحاكم إلى كتاب الله فمثل أبا موسى الأشعري^(١) عليّ بن أبي طالب، ومثل عمرو بن العاص^(٢) معاوية بن أبي سفيان. وفي الحقيقة فقد انتهت حادثة التحكيم: بأن كان عليّ^{عليه السلام} بالعراق يدعى أمير المؤمنين وكان معاوية^{عليه السلام} بالشام يدعى الأمير، فلمّا مات عليّ^{عليه السلام} دعى معاوية^{عليه السلام} بالشام أمير المؤمنين^(٣). وليس بصحيح تلك الروايات التي تطعن في شخص الصحابي الجليل عمرو بن العاص^{عليه السلام} وبأنّه قام بخداع أبي موسى الأشعري^{عليه السلام} يوم التحكيم.

عاشراً: إضاعات على عهد علي^{عليه السلام}:

إنّ الخلاف الذي نشأ بين أمير المؤمنين علي من جهة وبين قوم الجمل من جهة أخرى، ثمّ بعد ذلك بين عليّ ومعاوية في صفين؛ لم يكن سببه ومنشؤه أنّ هؤلاء كانوا يشكون في خلافة أمير المؤمنين علي وأحقّيته بالخلافة، فقد كان هذا محلّ إجماع بينهم.

١- أبو موسى الأشعري: اسمه عبد الله بن قيس بن سليم، أسلم بمكة وهاجر إلى أرض الحبشة، وكان ممثلاً عليّ يوم التحكيم.

٢- عمرو بن العاص: دخل الإسلام سنة ثمان للهجرة بعد فشل قريش الذريع في غزوة الأحزاب، وقدم إلى المدينة المنورة مع خالد بن الوليد وعثمان بن طلحة مسلمين فاستبشر المسلمون بإسلامهم، توفي في مصر وله من العمر ثلاث وتسعون سنة.

٣- تاريخ الطبري (٦/٧٦).

ودليل ذلك ما جاء على لسان معاوية حيث جاءه وفد من قبل علي رضي الله عنه فقالوا له: أنت تنازع علياً أأنت مثله؟ فقال: لا والله إني لأعلم أنه أفضل مني، وأحقُّ بالأمر مني، ولكن أستم تعلمون أن عثمان قُتل مظلوماً، وأنا ابن عمّه، والطالب بدمه، والله تعالى يقول: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَّهِ سُلْطٰنًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ [الإسراء: ٣٣] ، قالوا: نعم قال: فأتوه، فقولوا له، فليدفع إليّ قتلة عثمان ﷺ وأسلم له أمري، فأتوا علياً فكلّموه، فلم يدفعهم إليه^(١).

قال ابن حزم: لم ينكر معاوية قطُّ فضل علي واستحقاقه للخلافة، ولكن اجتهداه أداه إلى تقديم أخذ الثأر من قتلة عثمان ﷺ على البيعة، ورأى نفسه أحقَّ بطلب دم عثمان^(٢).

وأما سبب رفض عليّ لطلب معاوية؛ فهو أنه كان موافقاً من حيث المبدأ على ضرورة الاقتصاص من قتلة عثمان، ولكنه كان يرى أن يؤجل الاقتصاص من هؤلاء إلى حين استقرار الأوضاع وهدوء الأمور واجتماع الكلمة^(٣)، فهو لا يستطيع أن يقتل قتلة عثمان؛ لأنَّ لهم قبائل تدافع عنهم، والأمن غير مستتب، وما زالت الأمة في فتنة، فالأفضل في رأيه إعادة لِّم الشمل، ثمَّ القصاص منهم بالطريقة التي تراها الأمة مجتمعة^(٣).

١- سير أعلام النبلاء (١٤٠/٣) رجاله ثقات وإسناده جيد.

*- الفِصَل في الملل والأهواء (١٦٠/٤).

٢- أحداث وأحاديث فتنة الهرج، ص ١٥٨.....

٣- حقبة من التاريخ، ص (١٠٢).

استشهاد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب:

وهكذا مرّت الأيام مسرعةً وعليّ ﷺ يصبر على أذى جنده وقومه في العراق، فهم لا يطيعون أمره إلا بعد نقاش واختلاف، ومعاوية ﷺ قائمٌ في الشام كما كان علي عهده عمر وعثمان... حتى حدث ما كان يتوقعه أمير المؤمنين علي ﷺ.

فإنّه عندما رأى خذلان من حول.ه.ك. ره الحية.ا.ة وتمنّى الموت، وكان يتوج.ه.إلى الله بالادعاء ويطلب منه عز وجل أن يعجل منيته، فمما.ا.روي عنه أنّه خطب يوماً فقال: اللهم إني قد.د.س.نمتهم وسئمتوني ومللتهم وملّوني، فأرحني منهم وأرحهم مني، فما يمنع أشقاهم أن يخضبها بدم، ووضع يده على لحيته(*).

فتوفي رحمه الله عندما طعنه عبد الرحمن بن ملجم - وهو من الخوارج - طعنةً قاتلة توفى منها^(١). فكانت مدّة خلافته أربع سنين وتسعة أشهر وثلاثة أيام، وكانت وفاته شهيداً في اليوم الحادي والعشرين من شهر رمضان عام أربعين للهجرة^(٢).

١ - التاريخ الإسلامي، ج٢، ص (٣٦).

٢ - التاريخ الكبير للبخاري (٩٩/١) بسند صحيح.

* - مصنف عبد الرزاق (١٥٤/١٠) بإسناد صحيح، الطبقات (٤/٣).

وخير الكلام وأحسنه:

أنَّ علياً عليه السلام كان ليكون من خير رجال عصره سياسةً وحكماً، لو بقي عصر الخلافة الراشدة كما كان عليه في أيامه الأولى، أمّا والعصر قد تغير وطبيعة المجتمع قد دخل عليها أشياء لم تكن على عهد الصحابة رضي الله عنهم من الترف والتعلق بالدنيا وتجارتها وأعمالها، فلا بد من تغيير في إدارة الأمة يلائم طبيعة هذا المجتمع الجديد ويعيد ضبط أركانه وأفراده بمظاهر مادية تناسبه مع الحفاظ على الأساسيات والفرائض التي لا يمكن لأمة الإسلام أن تفرط بها، وهذا ما سنأتي على ذكره عند حديثنا عن خلافة معاوية رضي الله عنه.

نونية أبو محمد القحطاني في الخلفاء الراشدين^(١):

قل: إن خير الأنبياء محمدٌ	وأجل من يمشي على الكثران
وأجل صاحب الرُّسل صَحْبُ محمد	وكذلك أفضلُ صحبه العُمران ^(٢)
فهما اللذان تظاهرا لبنينا	في نصره وهما له صهران
صديقُ أحمد صاحبُ الغار الذي	هو في المغارة والنبى اثنان
أعني: أبا بكرٍ لم يختلف	من شرعنا في فضله رجلان
هو شيخ أصحابِ النبى وخيرهم	وإمامهم حقاً بلا بطلان
لما قضى صديقُ أحمد نخبه	دفع الخلافة للإمام الثاني
أعني به: الفاروق فرَّقَ عنوةً	بالسيف بين الكفر والإيمان
ومضى وخلة الأمر شورى بينهم	في الأمر فاجتمعوا على عثمان
من كان يسهرُ ليلةً في ركعةٍ	وتراً فيُكملُ ختمه القرآن
وليَ الخلافة صهرُ أحمد بعده	أعني عليَّ العالم الرباني
سبحان من جعل الخلافة رتبةً	وبنى الإمامة أيّما بنيان
واستخلف الأصحاب كي لا يدَّعي	من بعد أحمدَ في النبوة اثنان

١- نونية القحطاني، ص (٢١، ٢٢).

٢- العُمران: أبو بكرٍ وعمر رضي الله عنهما.

الدَّولة الأمويَّة

أُمُجَادُ الحَرْبِ فِي ظِلَالِ الإِسْلَامِ

«أن العالم يفسح الطريق للمرء الذي يعرف إلى أين هو ذاهب»

رالف وأمرسون

«إن الشخص الناجح هو

من اعتاد على القيام

بالأمور التي لا يحب

الفاشلون القيام بها»

د. ستيفن كوفي

(١) معاوية بن أبي سفيان

(٤٠-٥٦٠هـ)، (٦٦٠-٦٨٠م)

أولاً: أسرته، وشيء من صفاته رضي الله عنه:

١- اسمه ونسبه:

هو معاوية بن أبي سفيان بن صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب أمير المؤمنين، أبو عبد الرحمن، القرشي الأموي المكي^(١). ولد قبل البعثة بخمس سنين، وكان رجلاً طويلاً، أبيض، جميلاً، مهيباً، وقد تفرّس فيه والده ووالدته منذ الطفولة بمستقبل كبير.

يروى عن أبان بن عثمان بن عفان أنّه قال: كان معاوية يمشي مع أمه هند، فتعثر فقالت له أمه: قم لا رفكك الله، وأعرابي ينظر، فقال: لما تقولين له هذا؟ فو الله إني لأظنه سيسود قومه، فقالت: لا رفعه الله إن لم يسد إلا قومه^(*).

٢- إسلام أبي سفيان والد معاوية رضي الله عنهما:

كان أبو سفيان من رجال الجاهلية الذين حاربوا الإسلام... وكتب السيرة النبوية وصفت أعماله ضد الدعوة الإسلامية، إلا أنّ الله تعالى أراد له الهداية، فأسلم قبل فتح مكة بقليل، وقد أكرمه رسول الله ﷺ في فتح مكة، وأعلن أن: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن»^(٢).

١- سير أعلام النبلاء (٣/١٢٠).

*- سير أعلام النبلاء (٣/١٢١).

٢- البخاري رقم (٤٢٨٠).

وقد حَسَنَ إسلام أبي سفيان رضي الله عنه، وقَدَّم خدمات جليلة للإسلام، فقد كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في حُنين، وشارك في حصار الطائف وفقد إحدى عينيه فيها، وفي اليرموك فقد الثانية^(١) وكان قد أرسله رسول الله صلى الله عليه وسلم مع المغيرة بن شعبة لهدم اللات^(٢) صنم ثقيف، وقد كانت اللات آلهة معظمة عند قريش أيضاً، وكانوا يحلفون بها، وهذا دليلٌ على تغلغل الإيمان في قلب أبي سفيان رضي الله عنه.

٣- هند بنت عتبة بن ربيعة أم معاوية رضي الله عنها:

هي أم معاوية، أسلمت يوم الفتح بعد إسلام زوجها أبي سفيان. ولما أتت نساء قريش ليبايعن كانت هند بينهم، فعرفها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لها: إِنَّكَ لَهْنَدُ بنت عتبة؟ قالت: نعم، فاعف عمَّ سلف عفا الله عنك^(٣).

هذا وقد توفيت في ولاية عمر بن الخطاب رضي الله عنه^(٤).

٤- إسلام معاوية رضي الله عنه وشيء من فضائله:

أسلم معاوية مع أبيه وأخيه يزيد رضي الله عنه يوم الفتح^(٥).

وقد ذكر العلماء لمعاوية رضي الله عنه فضائل كثيرة، من هذه الفضائل:

دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم لمعاوية رضي الله عنه، ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: «اللهم اجعله هادياً^(٦)،

١- التبيين في أنساب القرشيين ص (٢٠٣).

٣- السيرة النبوية لابن هشام (١٩٥/٤).

٤- الدولة الأموية، د. علي الصلابي، ص (٣٥).

٤- التبيين في أنساب القرشيين، ص (٢١٩).

٥- الإصابة (٤٣٣/٣)، التبيين في أنساب القرشيين ص (١٠٥).

٦- هادياً: أي للناس أو دالاً على الخير.

مهدياً^(١)، واهد به^(٢)». وقوله ﷺ: «اللهم علّم معاوية الكتاب والحساب ووقه العذاب^(٣)». وكان معاوية رضي الله عنه يكتب الوحي للرسول ﷺ^(٤)، وكذلك رسائله إلى زعماء القبائل^(٥).

كتابة معاوية للوحي أتاحت له لوناً من القرب الطبيعي من رسول الله ﷺ في تلك الفترة التي أعقبت فتح مكة حتى وفاته ﷺ، مما يستتبع بالضرورة التأثير بشخصه ﷺ والأخذ المباشر منه^(٦).

ثانياً: أعماله قبل الخلافة:

١- في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

بدأ نجم معاوية رضي الله عنه في الظهور في ميدان العمل السياسي والإداري في عهد الخليفة عمر رضي الله عنه فقد ولاه فتح قيسارية^(٦) سنة خمس عشرة للهجرة^(٧)؛ حيث أثبت معاوية جدارته وحسن قيادته، فأكسبه ذلك ثقة الجميع، ثم كان أن أسند

١- مهدياً: مهتدياً في نفسه.

٢- الشريعة (٢٤٣٧/٥) إسناده صحيح.

٣- موارد الضمان للهيتمي، تحقيق حسين الداراني (٢٤٩/٧) إسناده حسن.

٤- البداية والنهاية (٣٩٦/١١).

٥- الإصابة في تمييز الصحابة (٤٣٤/٣).

*- الدولة الأموية المفترى عليها ص (١٤٥).

٦- قيسارية: على ساحل الشام، تعد في أعمال فلسطين ياقوت (٤٢١/٤).

٧- أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية ص (٥٩).

له أخوه يزيد- أمير دمشق- مهمة فتح سواحل الشام، فأبلى في ذلك بلاءً حسناً^(١). وبعد فتح قيسارية ونجاح معاوية رضي الله عنه في فتح سواحل دمشق ولاءه عمر ابن الخطاب رضي الله عنه ولاية الأردن وذلك عام سبع عشرة للهجرة^(٢).

وفي سنة ثمانى عشرة للهجرة توفي يزيد بن أبي سفيان رضي الله عنهما بالطاعون، فولّى عمر معاوية عمل أخيه دمشق وبعلمك والبقاء^(٣)، فكان لعمل عمر هذا أكبر الأثر على نفسيّة والد معاوية ووالدته، فحين عزّى عمر أبا سفيان في وفاة ابنه يزيد سأله أبو سفيان: يا أمير المؤمنين من وليت مكانه؟ قال: أخوه معاوية، فقال أبو سفيان: وصلت رحماً يا أمير المؤمنين.

كتب أبو سفيان لمعاوية ينصحه في بداية عمله هذا، ومما قال: يا بني إن هؤلاء الرهط من المهاجرين سبقونا وتأخرنا، فرفعهم سبقهم وقدمهم عند الله وعند رسوله ﷺ وقصر بنا تأخيرنا، فصاروا قادة وسادة، وصرنا أتباعاً، وقد ولوك جسيماً من أمورهم فلا تخالفهم، فإنك تجري إلى أمد ففافس، فإن بلغته أورثته عقبك^(*). وكذلك كتبت له والدته هند بنت عتبة تقول: والله يا بني إنّه قلّ من تلد مثلك، وإن هذا الرجل قد استتهضك في هذا الأمر، فاعمل بطاعته فيما أحببت وكرهت^(*).

١- المصدر السابق نفسه.

٢- تاريخ الطبري (٦٧/٤) خلافة معاوية للعقيلي ص (١٧، ١٨).

٣- الطبقات الكبرى (٤٠٦/٧) أثر العلماء في الحياة السياسية ص (٦١).

*- البداية والنهاية (٣٩٩/١١) المقصود أورثته عقبك أي: الحمد وحسن السيرة.

إلا أن بعض الناس - لا سيما شيوخهم - قد استغربوا تولية عمر رضي الله عنه لمعاوية رضي الله عنه مع حداثة سنّه ووجود من هو أكبر منه وأفضل، لذا سوّغ عمر رضي الله عنه عمله هذا حيث قالوا: ولّى حدث السن بقوله: تلوموني في ولايته، وأنا سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «اللهم اجعله هادياً مهدياً واهد به»^(١).

لقد كان عمر رضي الله عنه - وهو الخبير بمعادن الرجال - يدرك أكثر من غيره ما يتمتع به معاوية رضي الله عنه من صفات تؤهله للقيادة؛ فحين قدم عمر الشام وافاه معاوية بموكب عظيم، فأنكر عمر موكب معاوية هذا، وقال: أنت صاحب الموكب العظيم؟ قال: نعم. قال: ولم تفعل هذا؟ لقد هممت أن آمرك بالمشي حافياً إلى بلاد الحجاز. قال: يا أمير المؤمنين إني بأرض جواسيس العدو فيها كثيرة، فيجب أن أظهر من عز السلطان ما يكون فيه عز للإسلام وأهله ويُرهبهم، فإن أمرتني فعلت، وإن نهيتني انتهيت، فقال له عمر: ما سألتك عن شيء إلا تركتني في مثل رواجب^(٢) الضرس، لئن كان ما قلت حقاً، فإنه لرأي أريب، ولئن كان باطلاً فإنّها لخديعة أديب. قال: فمرني يا أمير المؤمنين قال: لا آمرك ولا أنهاك. فقال رجلاً: يا أمير المؤمنين، ما أحسن ما صدر الفتى عمّا أوردته فيه، فقال عمر: لحسن مصادره وموارده جشمناه ما جشمناه^(٣).

وهذا الجواب من معاوية رضي الله عنه يدل على خبرة سياسية عالية، ومعرفة واعية بأحوال الأمم، ودراية كاملة بسياسة الرعية والمحافظة على الوضع الأمني للدولة التي يحكمها، ومن أجل هذا رضي عمر رضي الله عنه سياسته على الرغم من أنها تخالف سياسته في التواضع والزهد، ولعلّ كلمة عمر رضي الله عنه «من أجل ذلك جشمناه ما

١- السلسلة الصحيحة (٦١٥/٤) رقم ١٩٦٩ وقال الألباني: حديث صحيح.

٢- الرواجب: جمع راجبة: وهي ما بين عقد الأصابع من داخل أي: أضيق ما يكون.

٣- البداية والنهاية (٤١٦/١١).

جشمناه» تدل على رضاه عن سياسة معاوية رضي الله عنه ^(١).

ويمكن أن نلخص أهم إنجازاته العسكرية على جبهة الشام في عهد عمر رضي الله عنه

بأمرين هما:

أ - سنُّ نظام الصوائف والشواتي:

لقد كان هدف الروم من هجماتهم على المدن الإسلامية الحدودية منذ البداية هو اعتماد ذلك كتدبير وقائي لحماية بلاد الروم وردع المسلمين، لكن استجابة معاوية رضي الله عنه كانت فوق التحدي؛ فقد نقل المعركة إلى بلاد العدو، وابتعد بالحرب عن بلاد المسلمين، وكان لا بد لمعاوية من أجل تحقيق ذلك الهدف من تطوير وسائل الدفاع، واعتبار العواصم والثغور مجرد قواعد متقدمة واجبها تلقي الصدمة والإنذار، مع استخدامها كمرکز انطلاق للهجمات المضادة، وقد قاد معاوية بنفسه بعض هذه الصوائف منها صائفة سنة ٢٢هـ، حيث دخل بها بلاد الروم في عشرة آلاف، وصائفة ٣٢هـ ^(٢)، حيث أوغل حتى بلغ عمورية، ومعه من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، عبادة بن الصامت، وأبو أيوب الأنصاري، وأبو ذر الغفاري، وشداد بن أوس ^(٣).

ب - تكوين أول أسطول إسلامي في البحر:

يعود الفضل إلى الله تعالى ثم إلى معاوية رضي الله عنه في هذه المرحلة الباكرة إلى فتح باب الجهاد في البحر الذي أصبح ضرورياً لحماية الشام ومصر ومواجهة النشاط المتزايد للأسطول البيزنطي، وغاراته المتكررة على سواحل الإقليمين،

١- الأمويون بين المشرق والمغرب، لمحمد الوكيل (٣٠/١). يجسد رأي عمر في صنع معاوية

هذا قول رالف وأمرسون، انظر: ص (٧٦).

٢- تاريخ الطبري (٤/١٤٤، ١٦٠).

٣- المصدر نفسه (٤/٢٤١) الدولة الأموية حمدي ص (١٥٥).

ولكن لم يبدأ معاوية رضي الله عنه في غزو البحر فعلياً إلا في عهد عثمان رضي الله عنه وسيأتي بيان ذلك بإذن الله تعالى.

٢- في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه:

حينما بويع عثمان بالخلافة كان معاوية رضي الله عنه والياً على معظم الشام، فأقره عثمان عليها^(١) كما أقر بعض الولاة الآخرين على ولاياتهم، كاليمن، والبحرين، ومصر وغيرها من الولايات، وقد تطورت الأحداث، وضُمَّت إلى معاوية بعض المناطق الأخرى حتى أصبح الوالي المطلق لبلاد الشام^(٢).

وبقي معاوية رضي الله عنه مصراً على غزو البحر لما في ذلك من فائدة في حماية حدود الدولة الإسلامية، فلما تولّى الخلافة عثمان عاود معاوية رضي الله عنه الحديث، وألح به على عثمان رضي الله عنه، فردّ عليه قائلاً: «أن قد شهدت ما ردّ عليك عمر - رحمه الله - حين استأذنته في غزو البحر». ثم كتب إليه معاوية رضي الله عنه مرةً أخرى يهوّن عليه ركوب البحر إلى قبرص، فكتب عثمان إليه: «فإن ركبت معك امرأتك فاركبه مأذوناً وإلا فلا»^(٣).

كما اشترط عليه أيضاً حيث قال: «لا تنتخب الناس بل خيرهم، فمن اختار الغزو طائعاً، فاحمله وأعنه»^(٤).

فلما قرأ معاوية كتاب عثمان جهز لركوب البحر إلى قبرص، فكتب لأهل السواحل يأمرهم بإصلاح المراكب، وتقريبها إلى ساحل عكا لينطلق المسلمون منها إلى جزيرة قبرص^(٥).

١- تاريخ خليفة بن خياط ص (١٥٥).

٢- تاريخ الطبري، (٤٤٢/٥).

٣- الإدارة العسكرية في الدولة الإسلامية (٥٣٨/٢).

٤- تاريخ الطبري (٢٦٠/٥).

٥- الإدارة العسكرية في الدولة الإسلامية (٥٣٨/٢).

وبالرغم من أن معاوية رضي الله عنه لم يجبر الناس على الخروج، إلا أنهم تدافعوا للاشتراك في هذه الحملة ^(١)، فكان انطلاق أول حملة بحرية للمسلمين بعد انتهاء فصل الشتاء في سنة ٢٨هـ / ٦٤٩م ^(٢).

واجتمع معاوية رضي الله عنه بأصحابه وتشاوروا فيما بينهم، ثم أرسلوا إلى أهل قبرص يخبرونهم: أنهم لم يغزوهم للاستيلاء على جزيرتهم ^(٣)، ولكن أرادوا دعوتهم لدين الله، ثم تأمين حدود الدولة الإسلامية من جهة الشام؛ وذلك لأن الروم كانوا يتخذون من قبرص محطة يستريحون فيها إذا غزوا، ويتمنون منها إذا قلّ زادهم.

ولكن سكان الجزيرة لم يستسلموا للمسلمين، ولم يفتحوا لهم بلادهم، بل تحصنوا في العاصمة، ولم يخرجوا لمواجهة المسلمين، فقد كان أهل الجزيرة ينتظرون تقدم الروم للدفاع عنهم، وصدّ هجوم المسلمين عليها ^(٤).

فتقدم المسلمون إلى عاصمة قبرص ((قسطنطينا)) وحاصروها وما هي إلا ساعات حتى طلب الناس الصلح، فعاد المسلمون إلى بلاد الشام منتصرين، وأثبتت هذه الحملة قدرة المسلمين على خوض غمار المعارك البحرية بجدارة ^(٥).

وفي ذلك يقول النبي ﷺ: ((أول جيش من أمتي يغزون البحر فقد أجيوا)) ^(٦).

١- جولة تاريخية في عصر الخلفاء الراشدين ص (٣٥٦).

٢- المصدر السابق نفسه ص (٣٥٦).

٣- المصدر السابق نفسه ص (٣٥٧).

٤- المصدر السابق نفسه ص (٣٥٧).

٥- تاريخ الطبري (٢٦١/٥).

٦- فتح الباري على صحيح البخاري (٢٢/٦). أوجبوا: أي فعلوا فعلاً وجبت لهم به الجنة.

٣- في عهد علي رضي الله عنه:

بويح لعلي عليه السلام بالخلافة، والأمة في أشد حالات اضطرابها، فتسارعت الأحداث، وتوالت الأيام مسرعةً، فمن الجمل إلى صفين إلى وقعة التحكيم التي انتهت: بأن كان علي عليه السلام بالعراق يدعى أمير المؤمنين، وكان معاوية عليه السلام بالشام يدعى الأمير فلمّا مات علي عليه السلام دعي معاوية عليه السلام بالشام أمير المؤمنين^(١). وليس بصحيح تلك الروايات التي تطعن في شخص الصحابي الجليل عمرو بن العاص عليه السلام وبأنّه قام بخداع أبي موسى الأشعري عليه السلام يوم التحكيم.

وعلق على هذا ابن كثير بقوله: لما مات علي عليه السلام قام أهل الشام فبايعوا معاوية على إمرة المؤمنين لأنّه لم يبق له عندهم منازع^(٢)، وكان أهل الشام يعلمون بأنّ معاوية عليه السلام ليس كُفئاً لعلي عليه السلام بالخلافة ولا يجوز أن يكون معاوية عليه السلام خليفة مع إمكان استخلاف علي عليه السلام، فإنّ فضل علي وسابقته وعلمه، ودينه، وشجاعته، وسائر فضائله كانت عندهم ظاهرة معروفة، كفضل إخوانه، أبي بكر، وعمر، وعثمان وغيرهم عليه السلام^(٣).

وكان من أمر علي رضي الله عنه ما قد ذكرنا^(٤).

١- تاريخ الطبري (٧٦/٦).

٢- البداية والنهاية (١٦/٨).

٣- الفتاوى (٧٣/٣٥).

٤- انظر ص (٧٤).

يذكر أنه عندما جاء خبر قتل علي إلى معاوية رضي الله عنهما جعل يبيكي، فقالت له امرأته: أتبيكيه وقد قاتلته؟ فقال: ويحك إنك لا تدريين ما فقد الناس من الفضل والفقه والعلم (*).

وعن عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - قال: رأيت رسول الله ﷺ في المنام وأبو بكر وعمر جالسين عنده، فسلمت عليه وجلست؛ فبينما أنا جالس إذ أتني بعلي ومعاوية فأدخلا بيتاً وأجيف^(١) الباب وأنا أنظر، فما كان بأسرع من أن خرج علي وهو يقول: قُضي لي ورب الكعبة، ثم ما كان بأسرع من أن خرج معاوية وهو يقول: غفر لي ورب الكعبة^(٢).

٤- الحسن بن علي رضي الله عنهما، وعام الجماعة !؟:

كانت بيعة الحسن بن علي رضي الله عنهما في شهر رمضان من سنة ٤٠ هـ، وذلك بعد استشهاد أمير المؤمنين علي رضي الله عنه على يد الخارجي عبد الرحمن بن ملجم المرادي^(٣)، حيث اختار الناس في العراق الحسن بعد والده الذي لم يعين أميراً للمؤمنين من بعده.

فكان أول من بايع الحسن قيس بن سعد، حيث قال له: ابسط يدك أبايعك على كتاب الله وسنة نبيه وقاتل المحلّين، فقال له الحسن رضي الله عنه: على كتاب الله

١- أجيف الباب: رُدَّ وأغلق

٢- البداية والنهاية (١٣٣/٨).

٣- الطبقات (٣٨-٣٥/٣) تحقيق د. إحسان عباس.

*- البداية والنهاية (١٣٣/٨).

وسنة نبهه فإن ذلك يأتي من وراء كل شرط: فبايعه وسكت، وبايعه الناس^(١)، وقد اشترط الحسن بن علي على أهل العراق عندما أرادوا بيعته فقال لهم: إنكم سامعون مطيعون، تسالمون من سالم، وتحاربون من حاربت^(٢)، وفي رواية قال لهم: والله لا أبايعكم إلا على ما أقول لكم، قالوا: ما هو؟ قال: تسالمون من سالم وتحاربون من حاربت^(٣).

ويستفاد من الروايات السابقة ابتداء الحسن ﷺ في التمهيد للصلح مع معاوية فور استخلافه، فقد باشر الحسن بن علي سلطته كخليفة، فرتّب العمال وأمر الأمراء وجند الجنود وفرّق العطايا، وزاد المقاتلة في العطاء مئة مئة فاكسب بذلك رضاهم^(٤).

كان الحسن ﷺ قادراً على أن يخوض حرباً لا هوادة فيها ضد معاوية، فشخصيته الفذة من الناحية العسكرية والأخلاقية، والسياسية، والدينية تساعده على ذلك مع وجود عوامل أخرى، إلا أن الحسن بن علي، مال إلى السلم والصلح لحقن الدماء، وتوحيد الأمة، والرغبة فيما عند الله، وزهده في الملك... وغير ذلك من الأسباب، فقاد الحسن ﷺ بذلك مشروع الإصلاح الذي توج بوحدة الأمة^(*).

١- تاريخ الطبري (٧٧/٦)

٢- المصدر نفسه (٧٧/٦).

٣- الطبقات تحقيق د. محمد السلمي (٢٨٦، ٢٨٧/١)

٤- تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي ص (٦٧).

*- الدولة الأموية، د. الصلابي، ص (١٨٢).

لقد كان الحسن عليه السلام في صلحه مع معاوية رضي الله عنه وحقنه لدماء المسلمين، كعثمان في جمعه للقرآن، وكأبي بكر في حربه للمرتدين^(١)، ولا أدلّ على ذلك في كون هذا الفعل من الحسن يعدّ علماً من أعلام النبوة، والحجة في ذلك ما أخرجه البخاري من طريق أبي بكر رضي الله عنه حيث قال: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم على المنبر - والحسن بن علي على جنبه وهو يقبل على الناس مرة، وعليه أخرى، ويقول: ((إنّ ابني هذا سيدٌ، ولعلّ الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين))^(٢).

أهم مراحل الصلح: مر الصلح بمراحل من أهمها:

المرحلة الأولى:

دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم للحسن بأن يصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين، فتلك الدعوة المباركة دفعت الحسن رضي الله عنه إلى الإقدام على الصلح بكل ثقة وتصميم^(٣).

المرحلة الثانية:

شرط البيعة الذي وضعه الحسن رضي الله عنه أساساً لقبول مبايعة أهل العراق له، ذلك الشرط الذي نص على أنهم يسالمون من يسالم ويحاربون من يحارب^(٤).

المرحلة الثالثة:

وقوع المحاولة الأولى لاغتياله رضي الله عنه بعد أن كشف عن نيته في الصلح مع معاوية رضي الله عنه وهذه المحاولة يبدو أنها قد جرت بعد استخلافه بقليل^(٥).

١ - مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري ص (١٣٤).

٢ - البخاري رقم (٧١٠٩).

٣ - مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري ص ٣١٧.

٤ - مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري ص ١٥٦.

٥ - المصدر نفسه ص (١٢٦).

المرحلة الرابعة:

تبادل الرسل بين الحسن ومعاوية، ووقوع الصلح بينهما رضوان الله عليهما.

المرحلة الخامسة:

محاولة اغتيال الحسن عليه السلام، فبعد نجاح مفاوضات الصلح بين الحسن ومعاوية رضي الله عنهما، شرع الحسن عليه السلام في تهيئة نفوس أتباعه على تقبل الصلح الذي تم، فقام فيهم خطيباً ليبين لهم ما تم بينه وبين معاوية، وفيما هو يخطب هجم عليه بعض معسكره محاولين قتله، لكن الله سبحانه وتعالى أبحاه من ذلك^(١).

المرحلة السادسة:

تنازل الحسن بن علي عن الخلافة وتسليمه الأمر إلى معاوية رضوان الله عليهم أجمعين؛ فبعد أن أنجى الله سبحانه وتعالى الحسن عليه السلام من الفتنة التي وقعت في معسكره، خطب في قومه فقال: «أما بعد فإن أكيس الكيس^(٢) التقي، وإن أحق الحمق الفجور، وإن هذا الأمر الذي اختلفت فيه أنا ومعاوية إما كان حقاً لي تركته لمعاوية إرادة إصلاح هذه الأمة وحقن دمائهم، أو يكون حقاً كان لأمري كان أحق به مني ففعلت ذلك مرضاة قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَدْرَى لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَنْعٌ إِلَى حِينٍ﴾^(٣) [الأنبياء، آية: ١١١].

أهم أسباب ودوافع الصلح:

أما أهم الأسباب والدوافع للصلح الذي تم بين الحسن ومعاوية فهي:

١- المصدر نفسه ص (١٣٩).

٢- أكيس: أعقل، والكيس العقل: لسان العرب (٢٠١/١٦).

٣- المعجم الكبير (٢٦/٣) إسناده حسن.

١- الرغبة فيما عند الله وإرادة صلاح هذه الأمة:

قال الحسن بن علي رضي الله عنهما رداً على نفير الحضرمي عندما قال له: إن الناس يزعمون أنك تريد الخلافة. فقال: كانت جماجم العرب بيدي، يسالمون من سالمات ويحاربون من حاربت فتركها ابتغاء وجه الله^(١).

٢- حقن دماء المسلمين:

قال الحسن عليه السلام: خشيت أن يجيء يوم القيامة سبعون ألفاً، أو أكثر أو أقل كلهم تنضج أوداجهم دماً، كلهم يسأل الله فيما هُرِّيقَ دمه؟^(٢).

٣- مقتل أمير المؤمنين علي رضي الله عنه:

ومن الأسباب التي دعت أمير المؤمنين الحسن عليه السلام إلى الصلح ما رُوِّع به من مقتل أبيه، فقد ترك ذلك فراغاً كبيراً في جبهة العراق وأثر اغتياله على نفسية الحسن رضي الله عنه، فترك فيها حزناً وأسى شديداً، فقد قتل هذا الإمام العظيم بدون وجه حق ولم يراع الخوارج سابقته في الإسلام ولا أفضاله العظيمة، ولا خدماته الجليلة التي قدمها للإسلام فقد كانت حياته حافلة بالقيم والمثل والعمل على تكريس أحكام الشريعة على مستوى الدولة والشعب^(٣).

٤- قوة جيش معاوية:

اجتمع لمعاوية رضي الله عنه عوامل ساعدت على قوة جبهته منها؛ طاعة الجيش له، اتفاق الكلمة عليه من أهل الشام، خبرته الإدارية في ولاية الشام، وثبات مصادره المالية، وعدم تحرّجه من دفع الأموال من أجل تحقيق أهدافه التي يراها مصلحة للأمة^(٤).

١- البداية والنهاية (١١/٢٠٦).

٢- المصدر السابق نفسه.

٣- الدولة الأموية، د. الصلابي، ص (١٨٩).

٤- المصدر السابق، ص (١٩٠).

٥- شخصية معاوية:

إن تسليم الحسن عليه السلام الخلافة إلى معاوية عليه السلام مع أنه كان معه أكثر من أربعين ألفاً بايعوه على الموت دليل على ثقته بمعاوية عليه السلام، فهو لو لم يكن أهلاً لها لما سلمها السبط الطيب إليه ولحاربه^(١)، فقد ذكر المترجمون والمؤرخون لسيرته فضائل كثيرة وأعمالاً جليلة سنأتي على ذكرها لاحقاً.

حوادث التاريخ قيم المستقبل:

ما أشبه قصة الحسن ومعاوية رضي الله عنهما، بما يجري اليوم بين شعوب هذه الأمة، فالحسن عليه السلام رسم لنا بفعلته هذه أرقى أشكال التسامح والتقارب بين أبناء الدين الواحد، فقد قام بتسليم الخلافة لأخيه معاوية عليه السلام حرصاً منه على وحدة الأمر واجتماع الشمل، وتقديراً منه لمكانة وحكمة معاوية. فكم من قاطع رحم، ومشاحنٍ لصديق يغفل عن فوائد قصة الحسن عليه السلام، لا بل يغفل عن قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام، ١٥٣]، فالصراط المستقيم هو: القرآن، والإسلام، والفطرة التي فطر الله الناس عليها، والسبيل هي: الأهواء، والبدع، والشبهات.

فما أجهل أن ترى أخوين يُغضب أحدهما الآخر، فيبتسم المظلوم منهما في وجه الظالم لكي لا يخسر صداقة أخيه في ساعة غضب، فينتبه الظالم منهما لذلك فيسرع في الاعتذار من أخيه، فيكونان قد امتثلا لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ

١- الناهية عن طعن أمير المؤمنين معاوية ص (٥٧).

حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلْقَنَّهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَنَّهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾
[فصلت: ٣٣-٣٥]. رحم الله الحسن بن علي حيث علمنا كيف نتسامح مع
الناس، ونسعى للخير كيفما كان.

ثالثاً: خلافة معاوية:

بتنازل الحسن عليه السلام اكتملت لمعاوية عوامل تولي الخلافة، وتهيأت له جميع
أسبابها، فبويع أميراً للمؤمنين عام أربعين للهجرة وسمي هذا العام بعام الجماعة^(١).

رابعاً: صفات معاوية:

اشتهر أمير المؤمنين معاوية عليه السلام بصفة الحلم وكان يُضرب به المثل في حلمه،
وكظم غيظه وعفوه عن الناس.

قال معاوية عليه السلام مرة: يا بني أمية فارقوا قريشاً بالحلم، فو الله لقد كنت ألقى
الرجل في الجاهلية فيوسعني شتماً وأوسعته حلماً، وأرجع وهو لي صديق، إن
استجدته أنجدني وأثور به فيثور معي، وما وضع الحلم عن شريف إلا شرفه،
ولا زاده إلا كرمًا^(٢).

وكان لتخلقه بخلق الحلم الذي لم يخالطه ضعفٌ أثرٌ في نجاحه في تثبيت
أركان دولته وذلك بمقدرته الفائقة على امتصاص غضب المخالفين، وتحويلهم إلى
الرضى والقناعة بسياسته، وهكذا تأتي مكارم الأخلاق التي من أهمها الحلم
والعفو والصبر والكرم لتكون من أهم عناصر السيادة، وقد بيّن في هذه الأقوال
بأنّ الحلم يخالطه شيء من الذل كما أنّ النصر يخالطه شيء من العز، ولكنه

١- سير أعلام النبلاء (٣/١٣٧)، تاريخ خليفة ص (٢٠٣).

*- البداية والنهاية (١١/٤٤١).

أبدى سروره بذلك الذل لما يترتب عليه من النتائج الحميدة التي منها اكتساب الأصدقاء والأنصار^(١).

وقد وصف معاوية رضي الله عنه نفسه مشيراً إلى هذه السياسة بقوله: إني لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني، ولو أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت أبداً. فقليل له وكيف ذلك؟ قال: كنت إذا مدوها أرخيتها وإذا أرخوها مددتها^(٢).

كان معاوية رضي الله عنه يوصي يزيد بهذه السياسة دائماً فيقول له: عليك بالحلم، والاحتمال حتى تتمكنك الفرصة، فإن أمكنتك فعليك بالصفح؛ فإنه يدفع عنك معضلات الأمور، ويقيك مصارع المحذور^(٣).

وفي هذه الوصية يلخص معاوية رضي الله عنه منهجه وخبرته في السياسة والإدارة لابنه يزيد في كلمات قليلة جامعة تنم على ما يتمتع به هذا الصحابي الكريم من حنكة سياسية وبراعة إدارية^(٤).

خامساً: ثناء الصحابة والعلماء عليه:

عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

قال عمر بن الخطاب مرةً لبعض الصحابة:

تذكرون كسرى وقيصر ودهاءهما وعندكم معاوية^(٥).

١- التاريخ الإسلامي (٢٦/١٧).

٢- نهاية الإرب (٤٤/٦) العقد الفريد (٢٥/١).

٣- نهاية الإرب (٢٥٦/١).

٤- مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري ص ٩٥.

٥- المعجم الكبير (٣٣٠/٥) مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري ص (٨٣).

عبد الله بن عباس رضي الله عنهما:

ما رأيت رجلاً كان أخلق بالملك من معاوية^(١).

سعيد بن المسيّب رحمه الله:

قال ابن وهب عن مالك عن الزهري قال: سألت سعيد بن المسيّب عن أصحاب رسول الله ﷺ فقال لي: اسمع يا زهري، من مات محباً لأبي بكر وعمر وعثمان وعلي، وشهد للعشرة بالجنة، وترحم على معاوية كان حقيقاً على الله أن لا يناقشه الحساب^(٢).

ابن تيمية رحمه الله:

اتفق العلماء على أن معاوية أفضل ملوك هذه الأمة، فإن الأربعة قبله كانوا خلفاء نبوة وهو أول الملوك، كان ملكه ملكاً ورحمة^(٣).

الذهبي رحمه الله:

إن معاوية من خيار الملوك الذين غلب عدلهم على ظلمهم، وما هو بريء من الهنات، والله يعفو عنه، وحسبك بمن يؤمره عمر ثم عثمان على إقليم هو ثغر، فيضبطه ويقوم به أتم قيام، ويرضى الناس بسخائه وحلمه... فهذا الرجل ساد وساس العالم بكمال عقله وفرط حلمه وسعة نفسه، وقوة دهائه ورأيه^(٤).

١- المصدر السابق (١١/٤٣٩).

٢- البداية والنهاية (١١/٤٤٩).

٣- الفتاوى (٤/٤٧٨).

٤- سير أعلام النبلاء (٣/١٣٢، ١٣٣).

سادساً: عاصمة الدولة الأموية:

كانت الشام إحدى الولايات المهمة في الإمبراطورية الرومانية الشرقية «البيزنطية»، بل كانت لقربها من بيت المقدس، وتاريخها القديم إحدى المراكز الحضارية في هذه الإمبراطورية، وكان العرب قبل الإسلام ينظرون إليها نظرة كبيرة لما تحتويه من حضارة، فضلاً عما بها من خيرات وخضرة وأسواق، وتعد مدينة دمشق المدينة الأولى في بلاد الشام، فهي قاعدتها ومدينتها العظمى، وأدت دوراً كبيراً في تاريخ المنطقة، لذلك اتخذها الحاكم الروماني قاعدة لحكمه.

ولما قامت الدولة الأموية، رأى معاوية رضي الله عنه أن الدولة الإسلامية توسعت وامتدت شرقاً وغرباً؛ فلم يجد أفضل من دمشق عاصمة للخلافة الأموية، وذلك لأنها تقع بين جزأي العالم الإسلامي؛ الجزء الشرقي الذي يشمل العراق وفارس، والجزء الغربي الذي يشمل مصر والمغرب.

كما كان لأحاديث رسول الله ﷺ أثرها في هجرة الناس للشام، واعتزاز أهلها بالإسلام وحرصهم على زعامة العالم الإسلامي، فالنبي ﷺ مَيَّز أهل الشام بالقيام بأمر الله دائماً إلى آخر الدهر، وبأن الطائفة المنصورة فيهم إلى آخر الدهر، فهو إخبارٌ عن أمرٍ دائمٍ مستمرٍ فيهم مع الكثرة والقوة^(١).

سابعاً: موقف معاوية من قتلة عثمان رضي الله عنهما:

كان من ضمن شروط الحسن في صلحه مع معاوية ألا يطلب أحداً من أهل المدينة والحجاز والعراق بشيء^(٢)، والملاحظ هنا أن معاوية من ذلك الوقت

١- رجال الإدارة في الدولة الإسلامية العربية، ص (١٣٦).

٢- التبيين في أنساب القرشيين ص (١٢٧).

ترك الطلب بدم عثمان^(١)، فشرط الحسين بالغ الأهمية يحول دون الالتفات إلى الماضي، ويركز على فتح صفحة جديدة تركز على الحاضر والمستقبل^(٢).

وإضافة إلى ذلك فإن السنوات الخمس التي احتضنت المعارك في الجمل وصفين ومصر وغيرها ذهبت بأولئك الذين ترددت أسماؤهم بتهمة قتل عثمان، ومع ذلك فإن مسألة قتل عثمان ظلت حاضرة في ذهن الخلفاء من بني أمية ونوابهم في الأغلب، فانتصارهم لعثمان كان حقيقة لا شبهة فيها^(٣).

جاء في عيون الأخبار لابن قتيبة: إن معاوية رضي الله عنه لما قدم المدينة بعد عام الجماعة دخل دار عثمان بن عفان، فصاحت عائشة بنت عثمان بن عفان وبكت ونادت أباه، فقال معاوية رضي الله عنه: يا ابنة أخي، إن الناس أعطونا طاعةً، وأعطيناهم أماناً، وأظهرنا لهم حملاً تحت غضب، وأظهروا لنا ذلاً تحت حقد، ومع كل إنسان سيفه ويرى موضع أصحابه، فإن نكثناهم نكثوا بنا، ولا ندري أعلينا تكون أم لنا، لأن تكوني ابنة عم أمير المؤمنين خير من أن تكوني امرأة من عرض الناس^(*).

ثامناً: التنظيم الإداري والاجتماعي وأخبار الفتوحات:

١ - مباشرة معاوية للأمور بنفسه:

من القواعد التي قامت عليها سياسة معاوية رضي الله عنه الداخلية مباشرة الأمور بنفسه، فكان يحرص على معرفة كل صغيرة وكبيرة في دولته، فبالرغم من أنه

١ - الخلفاء الراشدون للنجار ص (٤٨٢).

٢ - الدور السياسي للصفوة في صدر الإسلام ص (٣٤١).

٣ - دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين ص (٧٠).

* - دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين ص (٦٩)، السلطان لابن قتيبة ص (٥٨).

استعان بأمهر رجال عصره، إلا أنه لم يكن يكتفي بذلك، فسخر كل وقته وجهده للدولة ورعاية مصالح المسلمين^(١).

٢ - الدواوين المركزية التابعة لمعاوية:

أ - ديوان الرسائل:

هو الهيئة المشرفة على تحرير رسائل الخليفة وأوامره وعهوده، ووصاياه إلى موظفيه في الأقاليم الإسلامية، وإلى البلدان الخارجية التي لها علاقة بالدولة الإسلامية^(٢).

ب - ديوان الخاتم:

أنشأ معاوية رضي الله عنه ديوان الخاتم لتحقيق السرية والأمان لمراسلات الدولة فلا تطلع عليها عين جاسوس ولا تصل إليها يد خائن^(٣).

ج - ديوان البريد:

يذكر المؤرخون: أن معاوية رضي الله عنه أول من أدخل نظام البريد في الدولة الإسلامية وأصدر أوامره بوضع الخيول في عدّة أماكن، وقام بتنظيمه^(٤)، وتُشير بعض المصادر إلى أنه اقتبس من الروم^(٥)، وكانت أعماله في العصر الأموي، واسعة ومتشعبة، نظراً لسعة رقعة الدولة الإسلامية.

يقول أبو هلال العسكري: أول من وضع نظام البريد الذي يوفر الوقت على صاحب البريد في الإسلام هو معاوية بن أبي سفيان، وأحكم أمره عبد الملك^(٦).

١ - العالم الإسلامي في العصر الأموي ص (١١٧).

٢ - إدارة بلاد الشام في العهدين الراشدي والأموي ص (١٢٤).

٣ - الدولة الأموية المفترى عليها ص (٤٣٣).

٤ - إدارة بلاد الشام في العهدين الراشدي والأموي ص (١٧٤).

٥ - المصدر نفسه ص (١٧٤). * - الأوائل ص (٢٣٧).

وهكذا فقد كانت هذه الدواوين تقوم بأعمال وزارة المالية (ديوان الخراج)، ووزارة الدفاع (ديوان الجند)، ووزارة الداخلية (ديوان الشرطة)، ووزارة العدل (ديوان القضاء) كما كان ديوان الرسائل يقوم بأعمال السكرتيرية، وديوان الخاتم يقوم بأعمال السجلات والأرشفة، وكان لكل ديوان موظفوه من الكتبة المتخصصين، وكان ديوان الخراج يُكتب في العراق باللغة الفارسية، وفي الشام ومصر باللغة الرومية، وظل كذلك حتى عرّبه عبد الملك بن مروان^(١).

٣- حرصه على توطيد الأمن في خلافته:

أ- الحاجب: كان معاوية بن أبي سفيان أول من اتخذ الحاجب في الإسلام، لكي يتجنب محاولات الاعتداء عليه^(٢).

وكان يُشترط في الحاجب أن يعرف منازل الناس وأنسابهم وطبقاتهم، لكي يتمكن من معرفة من يأذن لهم، ومن لا يأذن لهم.

ب- الحرس: كان معاوية بن أبي سفيان أول من اتخذ الحرس في الدولة الإسلامية، خوفاً من الخوارج الذين كانوا يريدون قتله، فقد أمر بالمقصورات في الجوامع وكان لا يدخلها إلا الثقة وحراسه^(٣).

ج- الشرطة: وظيفتها المحافظة على الأمن والنظام، والقبض على اللصوص والجنّة والمفسدين، والدفاع عن الخليفة، وهي غير مسؤولة عن صدّ أي هجوم خارجي عن الدولة^(٤).

١- الأمويون بين المشرق والمغرب (١/١٠٢).

٢- إدارة بلاد الشام في العهدين الراشدي والأموي ص ١٠٢.

٣- إدارة بلاد الشام في العهدين ص ١١١.

٤- المصدر السابق نفسه، ص (١١٥).

ولا يقتصر وجود الشرطة على عاصمة الخلافة فقط بل في الولايات الإسلامية الأخرى، وهم يتبعون ولاية الأقاليم؛ فهم الذين يختارونهم ويعينونهم وكان وجودها مهماً للدولة والمجتمع؛ لأنها تعمل على تحقيق الأمن والاستقرار، فهي الجهة الوحيدة المسؤولة عن حماية أرواح الناس، وحفظ حقوقهم وأموالهم من اعتداء بعضهم على بعض^(١).

٤- المرافق العامة، والعلوم:

اهتم معاوية بن أبي سفيان بالمسجد الحرام، وأمر بتوسعته وأجرى له القناديل والزيت من بيت المال، وأضاء المصابيح فيه لأهل الطواف، واهتم بالمسجد الأقصى، وقام مسلمة بن مخلد أمير مصر من قبل معاوية بالزيادة في المسجد الجامع بالفسطاط عام ٥٣هـ، وطلا جُدْره بالحص، وزخرف بنيانه، وبنى له أربع منارات شاحخة وفرشه بالحصير. وأخذ أهل مصر ببناء المنارات للمساجد، وأمر المؤذنين أن يكون أذانهم في الليل في وقت واحد^(٢).

واهتم معاوية بالمرافق العامة في الدولة الإسلامية، وحرص على توفير مياه الشرب في المدينة، وأجرى في الحرم المكي عيوناً^(٣).

وكان قد جعل أمير المؤمنين معاوية رضي الله عنه دار المراحل بمكة، والتي كان يُطبخ فيها طعام الحجاج، وطعام الصائمين من الفقراء في شهر رمضان المبارك^(٤) وقفاً في سبيل الله.

١- المصدر السابق، ص (١٢٣).

٢- دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين ص (٣٤٧).

٣- دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين ص (٣٤١).

٤ - التطور الاقتصادي في العصر الأموي ص ٢٦.

أمّا في مجال العلوم؛ فقد كان سبّاقاً إلى رعاية العلوم وأهلها فأنشأ بيتاً للحكمة؛ أي مركز للبحث ومكتبةً، واستمر المروانيون يعتنون بهذا البيت حتى في أسفارهم وحروبهم يسألون عنه ويهتمون به^(١).

وكانت بداية الجهود الحقيقية في الترجمة قد بدأت مع خالد بن يزيد بن معاوية أول من عني بنقل الطب والكيمياء إلى العربية، فقد أمر بإحضار جماعة من اليونانيين ممن درسوا بمدرسة الإسكندرية في مصر وأتقنوا العربية كذلك، فطلب منهم نقل كثير من الكتب من اللسان اليوناني والقبطي إلى اللسان العربي، فكان هذا أوّل نقل في الإسلام^(٢).

كما طلب منهم أن يترجموا كتب جالينوس في الطب، فوضع بذلك أساس العلوم الطبية، وهو أول من اهتم بالترجمة والفلاسفة، وقرب أهل الحكمة ورؤساء كل صناعة، وترجمت كتب النجوم والطب والكيمياء، والحروب والآلات والصناعات. وخالد بن يزيد هو أول من جمعت له الكتب فجعلها في خزانة الإسلام، ففي دمشق إذن أنشئت أول دار للكتب في العالم الإسلامي^(٣).

وقد ظهرت دلائل كثيرة تدل على تزايد عدد المشتغلين في الطب في عهد معاوية بحيث أصبحت النسبة طبيياً لكل خمسمائة وأربعة وثلاثين فرداً، وهذه النسبة تمّ أخذها مما أورده ابن كثير من أن زياد بن أبيه والي البصرة حينما طعن في يده جمع مائة وخمسين طبيياً ليداووه^(٤)، وكان عدد سكان البصرة ثمانين ألفاً تقريباً^(٥).

١ - الدولة الأموية، يوسف العش ص (٣٤٨).

٢ - الدولة الأموية، حمدي شاهين ص (٤٦٠).

٣ - خطط الشام (٢٣/٤ - ٢٤)، الدولة الأموية حمدي شاهين ص (٤٦٠).

٤ - البداية والنهاية (٢٦١/١١).

٥ - التطور الاقتصادي في العصر الأموي ص ٢٥٥.

٥- الزراعة، والتجارة، والصناعة:

كان معاوية رضي الله عنه ييدي اهتماماً كبيراً بتنمية الزراعة، ورفع مستوى إنتاجها، فكان يولي عنايته لتطوير وسائل الري، وإخصاب الأراضي عن طريق الاستعانة بأصحاب الخبرة والاختصاص من السكان المحليين^(١).

كما أن يزيد بن معاوية كان يلقب بالمهندس نظراً لخبرته في الشؤون الزراعية، وإبداء اهتمامه بإصلاح أنظمة الري والعناية بها، فقد أمر بحفر قناة سميت باسمه بنهر يزيد، وكانت هذه القناة في الأساس رافداً صغيراً بالكاد يروي ضيعتين بالغوطة، فقام يزيد بتوسيعها وتعميقها حتى أصبحت بعرض ستة أشبار، وبعمق ستة أشبار كذلك، الأمر الذي أدى إلى زيادة تدفق المياه وغزارتها، بحيث أصبحت تكفي لري أراضٍ واسعة في الغوطة^(٢)، وبذلك أتيح المجال أمام المزارعين للقيام باستصلاح بعض أراضيهم المتروكة والعمل على استغلالها^(٣).

وأما على الصعيد التجاري؛ فقد كانت الأسواق المحلية مليئة بالحركة والنشاط، وقد أصبحت عاصمة الدولة (دمشق) مركزاً تجارياً مهماً، يعود فضل ذلك إلى الظروف السياسية الجديدة التي نشأت، فغيّرت من سبل واتجاهات حركة التجارة عمّا كانت عليه سابقاً في العصر البيزنطي، حيث أصبحت دمشق عاصمة للخلافة الأموية، ومحطاً للتجارة الشرقية^(٤).

أما الصناعة؛ فربما يكفينا أن نقف على وصف صناعة السفن؛ فمما يذكر عن دقة تنظيم هذه الصناعة؛ الاهتمام بتحديد أجور العمّال، وتوفير الكميات

١- النزعات المادية، حسين مروة (١/٤٧٦) تاريخ بلاد الشام الاقتصادي.

٢- تهذيب تاريخ دمشق (١/٢٤٥ - ٢٤٦).

٣- تاريخ بلاد الشام الاقتصادي في العصر الأموي ص ١٤١.

٤ - تاريخ بلاد الشام الاقتصادي ص ١٨٣.

الغذائية اللازمة لهم، كما حرصت الدولة على توفير سبل الراحة للعاملين في هذه الصناعة، وكان من بين ذلك رفعها كل ظلم يقع على العامل، وتوفير وحدات سكنية للعمال والمشرفين على هذه الصناعة بداخل دور الصناعة، وكذلك وحدات لتموين السفن الحربية بالسرعة والدقة المطلوبة^(١)، ونتج عن ذلك كله تطوراً هائلاً في حجم الأسطول البحري خلال العهد الأموي^(٢).

٦- الفتوحات:

لما استتب الأمر لمعاوية شرع بإرسال الجيوش إلى الجبهات كافة، لتنشر دين الله عز وجل وتبلغ رسالة النبي الكريم، وسنقف عند أبرز الأحداث والنتائج في هذا البحث:

أ- على الجبهة البيزنطية:

وجه معاوية ﷺ جيوشه نحو أرض الروم، هادفاً من ذلك فتح عاصمتهم القسطنطينية، فأرسل الجنود؛ ففتحوا، وأوغلوا في أرض العدو، واستبسلوا في القتال، إلا أن عوامل النصر لم تكتمل لهم، فعادوا أدراجهم حين طال بهم الحصار.

ب- على الجبهة الإفريقية:

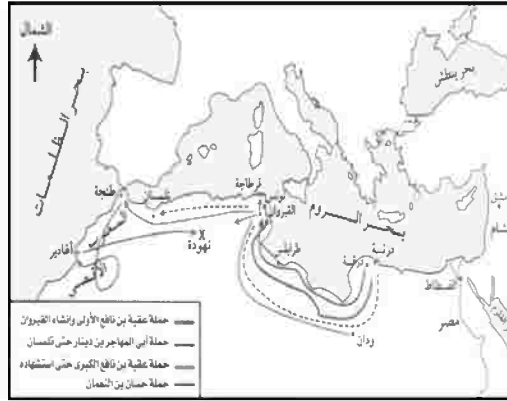
اهتم معاوية ﷺ بالفتوحات في الشمال الإفريقي، وذلك لتأمينها من الهجمات البحرية البيزنطية، فكان من أشهر قواد الفتح الأموي في عهد معاوية؛ القائد العظيم عقبة بن نافع^(٣)، الذي عمل على بناء مدينة

١- النظم الإسلامية للعدوى ص ٣٥٤، ٣٥٥.

٢- التطور الاقتصادي في العصر الأموي ص ٢٤١.

٣- عقبة بن نافع بن عبد القيس (١ ق.هـ- ٦٣ هـ) من القادة العرب والفاحين لبلاد الله في صدر الإسلام. واشتهر تاريخياً باسم «مرنك إفريقية»، وهو الاسم العربي لشمال قارة أفريقيا. فقد استطاع عقبة وجنوده أن يظهرُوا منطقة الشمال الأفريقي من=

القيروان^(١)، ولكن كان بعد أن اكتمل بناء القيروان عام خمسة وخمسين أن عُزل عقبة بن نافع عن ولاية إفريقية، ثم أُعيد إليها عام اثنين وستين، حيث قام برحلته الجهادية المشهورة التي قطع فيها ما يزيد على ألف ميل من القيروان في تونس إلى ساحل المحيط الأطلسي في المغرب.



وبوصول عقبة بن نافع إلى ساحل المحيط الأطلسي يكون قد أنجز تحرير معظم بلاد المغرب، وتشير مصادرنا التاريخية أن عقبة لما وصل إلى المحيط الأطلسي قال: يا رب لولا هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهداً في سبيلك^(٢).

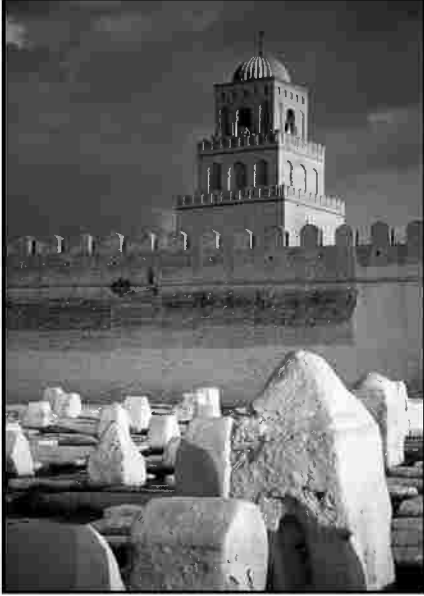
=الحاميات الرومية المختلفة والحضارة البربرية. حتى أتى وادياً فأعجب بموقعه، فبنى به مدينته المشهورة وسماها القيروان أي محط الجند؛ ذلك أنها تعتبر قاعدة الجيش الإسلامي في المغرب الكبير. كما بنى بها جامعاً لا يزال حتى الآن يعرف باسم جامع عقبة.

١- القَيْرَوَان مدينة تونسية، تبعد نحو ١٦٠ كيلومتراً عن تونس العاصمة، ويعود سبب أهميتها إلى دورها الاستراتيجي في الفتح الإسلامي، فمنها انطلقت حملات الفتح نحو الجزائر والمغرب وإسبانيا وأفريقيا، بالإضافة إلى أنها مثوى لعدد من صحابة رسول الله ﷺ.

٢- الكامل في التاريخ (٢/٥٩٠)، البيان المغرب (١/٢٣-٢٧). قادة الفتح المغرب العربي (١/١٠٨-١٢٠).

ولم يقف عمل عقبة على الجهاد؛ بل رافق ذلك بناء المساجد مثل مسجد درعة ومسجد ماسة بالسوس الأقصى^(١)، كما كان يترك نفراً من أصحابه يعلمون الناس القرآن وشرائع الإسلام.

جامع القيروان:



مئذنة جامع عقبة (القيروان)

يحتوي هذا المسجد على كنوز ثينة؛ فمنبره يعتبر أقدم منبر في العالم الإسلامي، وما زال مُحَفَظاً به في مكانه الأصلي إلى الآن، حيث يعود بناؤه إلى القرن الثالث للهجرة / التاسع الميلادي. وكذلك مقصورته النفيسة التي تعود إلى القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر للميلاد وهي أيضاً أقدم مقصورة ما زالت محتفظةً بعناصرها الزخرفية الأصلية إلى الآن.

أما مآذن المسجد فتتكون من ثلاث طبقات كلها مربعة الشكل، والطبقة الثانية أصغر من الأولى، والثالثة أصغر من الثانية، وفوق الطبقات الثلاث قبة مفصصة. يصل ارتفاع المئذنة الكلية إلى ٣١,٥ متراً.

١ - رياض النفوس (١/٢٦)، الإسلام والتعريب (١/١٣٣).



جامع عقبة بن نافع (القيروان) من الداخل



الواجهة الأمامية لجامع (القيروان)

ولاية العهد:

١- كيف جرت الأحداث:

جاء في نص الصلح الذي
حدث بين معاوية والحسن
والذي ذكره ابن حجر
الهيتمي:.. وتكون الخلافة
من بعد معاوية شورى بين
المسلمين^(*).

كانت بداية الفكرة من معاوية،
وكان يدرك أنه يقدم على أمرٍ خطير،
لا بل على حدث لم يسبقه إليه أحد،
ولهذا اصطفى زياداً- واليه على
العراق- للاستشارة، وزياد هو الذي
قال عنه الأصمعي: الدهاء أربعة: معاوية
للروية، وعمرو بن العاص للبدية،

والمغيرة بن شعبة للمعضلة، وزياد لكل صغيرة وكبيرة. وقد أشار عليه زياداً بالهدوء
فقبل. ولهذا لم يُقدم معاوية على هذا الأمر الخطير إلا بعد وفاة زياد^(١).

قال الطبري: لما مات زياد، دعا معاوية بكتابٍ فقرأه على النَّاس باستخلاف
يزيد إن حدث به حدث الموت، فيزيد وليُّ عهده، فاستوثق^(٢) له الناس على
البيعة ليزيد غير اثنين منهم^(٣).

وعند تحليل مجريات الأمور نجد جبهتين متعارضتين في هذا الأمر؛ فأهل
الشام لم يستغربوا فكرة توريث الخلافة، كما كان يستغربها أهل الحجاز، فقد
عهدوها من قبل خلال حكم البيزنطيين لهم، فاستجابوا لرغبة معاوية في جعل

١- نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي (١/١٩١).

٢- استوثق له الناس: اجتمعوا على رأيه.

٣- تاريخ الطبري (٦/٢٢١).

*- الصواعق المرسلة (٢/٢٩٩).

يزيد ولياً لعهد من بعده وكان ذلك بعد رجوع يزيد من غزوة القسطنطينية، وقد أدّى طرح هذه الفكرة إلى قبول وإجماع من أهل الشام بالموافقة على بيعه يزيد، ولم يكن هناك أي معارض^(١) من أهل الشام، بل قد أسهم أهل الشام فيما بعد في أخذ البيعة ليزيد من الأمصار الأخرى مثل الحجاز^(٢).

٢- الولايات كافة تباع ليزيد إلا رجلين:

عقد معاوية رضي الله عنه اجتماعاً موسعاً في دمشق بعد ما جاءت الوفود من الأقاليم وكانت هذه الوفود تضم مختلف رجالات القبائل العربية؛ من بلاد الشام، وأهل البصرة، ثمّ تكلم كل زعيم من هؤلاء الزعماء ورحبوا بالفكرة وأنشأوا عليها وأكدوا أن هذه هي الطريقة الأصوب لحقن الدماء وحفاظ الألفة والجماعة^(٣)، فحصلت المبايعة ليزيد بولاية العهد.

أمّا حال المدينة فقد كان مخالفاً لذلك تماماً؛ فبعد أن أرسل معاوية رضي الله عنه إلى الأقاليم يطلب منهم البيعة ليزيد أرسل إلى المدينة يطلب من أميرها ذلك أيضاً^(٤).

فقام مروان بن الحكم أمير المدينة خطيباً فحضرّ الناس على الطاعة وحذرهم الفتنة ودعاهم إلى بيعه يزيد إلا أنّه لم يوفّق في المهمة التي كلّفه بها معاوية رضي الله عنه، وعند ذلك قرر معاوية المجيء بنفسه إلى الحجاز ومعرفة موقف الصحابة رضي الله عنهم من هذه القضية المهمة - فجاء معتمراً في شهر رجب من سنة ٥٦هـ^(٥)، فلمّا قدم

١- تاريخ خليفة ص(٢١١)، مواقف المعارضة في خلافة يزيد ص (٨٩).

٢- تاريخ فلسطين، هاني أبو الرب ص (٣١٩)، ٣٢٠، البيان والتبيين (٣٩٢/١).

٣- مواقف المعارضة في خلافة يزيد ص (٩٠).

٤- العقد الفريد (٤/٣٧٠، ٣٧٢) مواقف المعارضة ص ٩٨.

٥- البداية والنهاية (١١/٣٠٥).

معاوية المدينة خطب بالناس وحثهم على البيعة وبين أن يزيد هو أحق الناس بالخلافة^(١)، ثم قال: قد بايعنا يزيد فبايعوه.

لقد أجمعت -غالبية- الأمة على بيعة يزيد، ولم يمتنع عن البيعة ليزيد بعد وفاة معاوية إلا الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير رضي الله عنهما وسيكون لكل منهما مع يزيد شأن -كما سنرى بإذن الله تعالى- أما بقية الصحابة فقد بايعوا يزيد جمعاً للكلمة وحفظاً لوحدة الأمة وخوفاً من الفتنة، مثل عبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، ومحمد بن الحنفية.

٣- أسباب ترشيح معاوية لابنه يزيد:

أ - الحفاظ على وحدة الأمة:

نظر معاوية رضي الله عنه إلى ابنه يزيد على أنه المرشح الوحيد الذي سيحظى بتأييد أهل الشام الذين يمثلون العامل الأقوى في استقرار الدولة، فكان سبب إصراره في أخذ البيعة ليزيد هو خوفه من الاختلاف^(٢)، الذي قد يطرأ على الأمة بعد موته، فربما تنخرط في قتالٍ جديدٍ لا يعلم سعته ومداه إلا الله عز وجل^(٣).

وكان معاوية يخاف أن يدع أمة محمد ﷺ كالضأن لا راعي لها^(٤) ولذلك عمل على اختيار من يخلفه، وكان الأولى به أن يعين من أفاضل المجتمع الإسلامي رجالاً يجعلهم موضع شوري يختارون من كان أهلاً للخلافة، ويتعد عن ترشيح ابنه يزيد، لأن اختيار يزيد لم يكن أماناً من الاختلاف والقتال وسفك الدماء،

١- تاريخ خليفة ص (٢١٣، ٢١٤) إسناده حسن.

٢- دراسات في النظم، ص (٤١). د. توفيق اليوزكي.

٣- مواقف المعارضة من خلافة يزيد ص (١٣١).

٤- تاريخ الطبري (٢٢٢/٦).

ولقد وقع المحذور بعد وفاة معاوية، وسفكت الدماء ولم يُزح اختيار معاوية لابنه يزيد ما تعلل به من المخاوف، ويبدو أنه وقع ما وقع بسبب شخصية يزيد، واتباع الوراثة بديلاً من الشورى في اختيار الخليفة ولأسباب أخرى.

وعلى كل حال فمعاوية رضي الله عنه اجتهد، ولم يكن مصيباً في تولية يزيد لولاية العهد، فقد كان بوسعه وقدراته السياسة الفائقة أن يطمئن في حياته على اجتماع كلمة المسلمين في أمر الخلافة من بعده باختيار واحدٍ من قریش يشهد له الناس بحسن السيرة أكثر من يزيد ابنه، ويجتمع عليه أعيان المجتمع الإسلامي في الشام والعراق وبلاد الحجاز وغيرها.

ب- محبة معاوية لابنه وقناعته به:

لا شك أنَّ الصحابة وأبناءهم أفضلُ من يزيد، وأصلح، ولكن مع ذلك فإنَّ معاوية ربما رأى في ولده مقدرة لا تكن لغيره في قيادة الأمة، بسبب عيشته المتواصلة مع أبيه ومناصرة أهل الشام وولائهم الشديد له، ثمَّ اطلاعه عن قرب على معطيات ومجريات السياسة في عصره.

وكانت ليزيد بعض الصفات التي شجَّعت معاوية على جعله ولياً للعهد، فقد قال الذهبي في ترجمة يزيد: كان قوياً شجاعاً، ذا رأي وحزم، وفطنة وفصاحة^(١)، وقال ابن كثير: وكان يزيد فيه خصالٌ محمودة من الكرم، والحلم، والفصاحة، والشعر، والشجاعة، وحسن الرأي في الملك^(٢)، فرمما كانت هذه الصفات دافعةً لمعاوية وكافيةً له ليكون صالحاً للخلافة^(٣).

١- سير أعلام النبلاء (٣٧/٤).

٢- البداية والنهاية (٦٤٦/١١).

٣- أحداث وأحاديث فتنة الهرج ص (٢٠٤).

محكمة

القاضي:

نيكولو . . و ماكي . . افيلي (بالإيطالية . .):

(Machiavelli Niccolò)

ولد في فلورنسا عام ١٤٦٩، وتوفي فيها عام ١٥٢٧، كان مفكراً وفيلسوفاً سياسياً إيطالياً إبان عصر النهضة.

وقد اُصْدَحَ ماكي - افيلي الشخْصِيَّةَ الرئِيسِيَّةَ والمؤسس للتتظير الـ سياسي الواقعي، والذي أصبح فيما بعد عصب دراسات العلم السياسي.

أشهر كتبه على الإطلاق كتاب الأمير والذي أيد فيه فكرة أن ما هو مفيد فهو

ضروري.

ويعتبر أنه من المسموح به استخدام كل الوسائل في الصراع السياسي، فماكيافيلي هو القائل: «الغاية تبرر الوسيلة».

إنَّ معاوية رضي الله عنه متَّهَمٌ بأمر توريث الملك لابنه يزيد، فقد وجَّهَتْ له في هذا الأمر انتقاداتٌ كثيرة، لذلك رأينا أن نحكم في هذا الأمر من نصوص التاريخ الصادق، وشهادة أئمتِّه المنصفين.

هيئة الادعاء:

لقد حَمَلَ كثيرٌ من المؤرخين السابقين والمعاصرين لمعاوية رضي الله عنه مسؤولية البيعة لابنه، فمنهم من اتَّهمه بالخروج على نظام الشورى في الإسلام، فكان أوَّلُ محطَّمٍ لنظام الإسلام^(١)، ومنهم من اتَّهم معاوية بأنَّه أقرَّ النظام الذي يعتمد على السياسة أولاً وعلى الدين ثانياً^(٢)، والبعض شبَّه معاوية بالملوك الأقدمين من الفرس والروم^(٣)، والبعض يجعل معاوية بهذه البيعة رائد المدرسة ((المكيافيلية)) في السياسة القائمة على تسويق الوسيلة من أجل الغاية^(٤).

١- إسلام بلا مذاهب ص (٥٨) مصطفى الشكعة.

٢- نساء لهم في التاريخ الإسلامي نصيب، علي إبراهيم حسن ص (٥٨).

٣- مواقف المعارضة في خلافة يزيد ص (١٤١).

٤- ملامح التيارات السياسية، إبراهيم بيضون ص ١٤٧.

هيئة الدفاع:

إن معاوية رضي الله عنه من خيار الملوك الذين غلب عدلهم على ظلمهم، وما هو بربيء من الأخطاء والله يعفو عنه^(١)، والذي يجب أن نعتقده في معاوية أن قلوبنا لا تنضوي على غلٍ لأحدٍ من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم بل نقول: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر ١٠]. ونقول إن معاوية رضي الله عنه اجتهد للأمة خوفاً عليها من الانقسام والفتن، ولا يمكن أن يحمل تبعات كل أخطاء الملوك والأمراء الذين جاؤوا من بعده.

وإذا كان معاوية قد حوّل الخلافة من الشورى إلى الملك، فإن حفيده معاوية بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، ثالث خلفاء الأمويين قد أعاد الخلافة من الملك العضوض إلى الشورى الكاملة عندما عزل نفسه قائلاً: تركتم للشورى فاختاروا أفضلكم... فلم تستطع الأمة التي أعطيت حقها في اختيار خليفتها أن تعود إلى شكل من أشكال الاختيار السابق في عصر الراشدين، وبرز بوضوح دور العصبية الإقليمية والقبلية وحُسم الصراع الدائر حول منصب الخلافة لمصلحة البيت الأموي، واستطاعت الشام أن تحقق الحسم التاريخي بعمق الالتحام بين بنائها القبلي والوجود الأموي بها^(٢).

والحقيقة أن بيعة يزيد قد قبلها الكثير من الصحابة رضوان الله عليهم فقد بايعه ستون منهم^(٣) خوفاً من الفتنة وحرصاً على وحدة الصف.

١ - سير أعلام النبلاء (٣/ ١٥٦).

٢ - الدولة الأموية المفترى عليها ص (٢٩٣ / ٢٩٤).

٣ - مواقف المعارضة ص (١٥٣).

لقد توفي عبد الرحمن بن أبي بكر بعيد خروج معاوية من المدينة، ولم يبق من المعارضين إلا اثنين هم، ابن الزبير، والحسين بن علي، وأما ابن عمر فلما رأى الناس مجتمعةً على يزيد بايعه، وأرسل ببيعته بعد وفاة معاوية رضي الله عنه وقال: إن كان خيراً رضىنا به وإن كان بلاء صبرنا^(*)، فأنحصرت المعارضة في شخص ابن الزبير والحسين بن علي رضي الله عنهم.

النطق بالحكم:

بالرغم مما وقع من انحرافٍ في تغيير النموذج الأعلى لنظام الحكم الإسلامي، الذي تتمثل فيه روح الإسلام كاملةً وهو الخلافة، واستبدال الملك العضوض بها^(١)، إلا أنَّ الطابع الإسلامي هو الصفة الغالبة على مظهر الدولة، وتصرفات الحكّام، فالصلاة تؤدي في أوقاتها، والزكاة تحسّل من أربابها، والصوم فريضة لا يُعارض في أدائها، وإقامة الحدود دون هوادة لم يقف شيءٌ دون تنفيذها، والجهاد في سبيل الله فريضةٌ ماضيةٌ بين رجالها، وبالجملة كانت تعاليم الإسلام مطبقة بحذافيرها^(٢).

إنَّ معاوية رضي الله عنه اجتهد على كلّ حال، فإنَّ كان مصيباً فله أجران، وإن كان مخطئاً فله أجر^(٣).

١- كيف نكتب التاريخ الإسلامي ص (١١٢).

*- مصنف ابن أبي شيبة (١٠٠/١١) بسند صحيح.

٢- الأمويون بين المشرق والمغرب (١/٩٤، ٩٥).

٣- العالم الإسلامي في العصر الأموي ص ١٢٦.



ماكيافيلي: مؤسس مدرسة التحليل والتنظير السياسي الواقعي

الأيام الأخيرة في حياة معاوية:

١ - وصية معاوية رضي الله عنه ليزيد:

لما حضر معاوية رضي الله عنه الموت، وذلك سنة ٦٠هـ، وكان يزيد غائباً، فدعا بالضحاك بن قيس الفهري - وكان صاحب شرطته - ومسلم بن عقبة المري، فأوصى إليهما فقال: بلغا يزيد وصيتي:

انظر أهل الحجاز فإنهم أصلك، فأكرم من قدم عليك منهم وتعهدهم من غ. اب، وانظر أهل العراق، فإن سألوك أن تعزل عنهم كل يوم عاملاً فافعل، فإن عزل عامل أحب إلي من أن تُشهر عليك مائة ألف سيف، وانظر أهل الشام فليكونوا بطانتك فإن نابك شيء من عدوك فانتصر بهم، فإن أصبتهم فاردد أهل الشام إلى بلادهم، فإنهم إن أقاموا بغير بلادهم أخذوا بغير أخلاقهم، وإنني لست أخاف من قريش إلا ثلاثة حسين بن علي، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير. ر؛ فأما ابن عمر فرجل قد وقذه الدين، فليس ملتصقاً قبلك، وأما الحسين بن علي فإن له رحماً ماسة، وحقاً عظيماً، وقرابة محمد ﷺ، ولا أظن أهل العراق تاركيه حتى يخرجوه، فإن قدرت عليه فاصفح عنه، فإنني ل. و. أذ. ي. ص. احبه عفوت عنه، وأما ابن الزبير فإنه خب ضب، فإذا شخّص لك فالبد ل. ه. إلا أن يلتمس منك صلحاً، فإن فعل فاقبل، واحقن دماء قومك ما استطعت^(*).

*- تاريخ الطبري (٢٤١/٦).

٢- مرضه:

جعل معاوية ﷺ لما احتضر يضع خده على الأرض ثم يُقَلِّب وجهه ويضع الخد الآخر ويكي ويقول: اللهم إنك قلت في كتابك: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، اللهم اجعلني ممن تشاء أن تغفر له^(١)، ومن دعائه في ذلك اليوم: اللهم أقل العثرة، واعف عن الزلة وتجاوز بحلمك عن جهل من لم يرج غيرك، فإنك واسع المغفرة ليس لذي خطيئة من خطيئته مهرب إلا إليك ثم مات^(٢).

١- البداية والنهاية (٤٥٧/١١).

٢- المصدر نفسه (٤٥٧/١١).

وجاء في رواية: اللهم إني قد أحبيت لقاءك فأحب لقاءني^(١).

٣- سنة وفاته، ومن صلى عليه:

قال ابن حجر: مات معاوية في رجب سنة ستين على الصحيح^(٢).

وصلّى على معاوية الضحاك بن قيس الفهري، وكان يزيد غائباً حين مات معاوية^(٣). حيث خرج الضحاك حتى صعد المنبر وأكفأ معاوية على يديه تلوح، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إنّ معاوية كان عود العرب^(٤)، وحدّ العرب^(٥)، قطع الله عز وجل به الفتنة وملّكه على العباد، وفتح به البلاد. ألا إنه قد مات، فهذه أكفائه فنحن مدرجوه فيها، ومدخلوه قبره، ومُخلّون بينه وبين عمله، ثم هو البرزخ إلى يوم القيامة، فمن كان منكم يريد أن يشهده فليحضر عند الأولى^(٦).

٤- نقش خاتمه: كان نقش خاتمه: لكل عمل ثواب^(٧)، وقيل: لا قوة إلا بالله^(٨).

١- تاريخ ابن خلدون (٢١/٣).

٢- الإصابة (١٥٥/٦).

٣- تاريخ الطبري (٢٤٥/٦).

٤- العود: الرجل المسن: لسان العرب (٣٢١/٣).

٥- حد كل شيء: منتهاه.

٦- أي عند صلاة الظهر كما ورد في بقية المصادر.

٧- تاريخ القضاعي، ص (٣٢٦).

٨- المصدر نفسه ص (٣٢٦).

(٢) يزيد بن معاوية

(٦٠-٦٤)، (٦٨٠-٦٨٤)

أولاً: اسمه ونسبه وكنيته:

هو يزيد بن معاوية بن أبي سفيان بن صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس القرشي، يكنى ((أبو خالد))^(١).

ثانياً: ولادته ونشأته:

كانت ولادة يزيد بن معاوية في خلافة عثمان رضي الله عنه^(٢)، في سنة ست وعشرين^(٣)، وقيل إن ولادته وولادة عبد الملك بن مروان كانت في سنة واحدة^(٤). نشأ مع والدته في البادية؛ حيث إن والدته طلقها أبوه لرغبتها في العيش بالبادية، فعاش يزيد مع أمه وأخواله وهم زعماء قبيلة كلب، فأثرت في طباعه تلك النشأة فتراه يتميز بالفصاحة والخطابة والكرم، والشجاعة^(٥).

ثالثاً: يزيد في جيش القسطنطينية:

قاد يزيد جيشاً من أعظم الجيوش في عصره، ويضم نخبة من الصحابة وأكابرهم وساداتهم وأبناءهم، ليتجه به إلى أهم جبهة في الدولة الإسلامية، وهذا ما يدل على أن يزيد الذي كان يبلغ من العمر حين قيادة هذا الجيش ما بين

١- الاستيعاب (٣/١٤١٦)، تاريخ خليفة ص ١٠.

٢- تهذيب التهذيب (١١/٣١٦ - ٣١٧).

٣- فوات الوفيات (٤/٣٢٨).

٤- تاريخ أبي زرعة (١/١٩١) مواقف المعارضة ص (٣٩).

٥- مواقف المعارضة (٤٣)، مآثر الأنافة (١/١١٥ - ١١٦).

(٢١-٢٣) كان يملك روحاً قيادية وكفايةً حربية^(١)، فلم يعترض أحدٌ من الصحابة أو غيرهم على قيادة يزيد في تلك المرحلة.

رابعاً: أهم صفات يزيد بن معاوية:

١ - القوة والشجاعة:

قال عنه الذهبي: كان قوياً شجاعاً، ذا رأيٍ وحزمٍ وفطنة وفصاحة^(٢)، إضافةً إلى تمكنه من قيادة الجيش الإسلامي الذي حاصر القسطنطينية وسيطرته على مجريات القتال^(٣)، كما أن من حزمه: أن أبا أيوب الأنصاري مرض في غزوة القسطنطينية فأتاه يزيد عائداً، فقال: ما حاجتك يا أبا أيوب؟ قال: ادفني عند أسوار القسطنطينية. فلما مات أمر يزيد بتكفينه، وحُمل على سريره، ثم أخرج يزيد الكتائب فجعل قيصرُ الروم يرى سريراً والناس يقتتلون فأرسل إلى يزيد: من هذا الذي أرى؟ قال: صاحب نبينا، وقد سألنا أن نقدمه في بلادك ونحن منفذون وصيته، أو تلحق أرواحنا بالله. قال القيصر: فإن وليت أخرجناه إلى الكلاب، فقال يزيد: إني والله ما أردت إيداعه بلادكم حتى أودع كلامي آذانكم، لئن بلغني أنه نُبش من قبره أو مُثِّلَ به، لا تركتُ بأرض العرب نصرانياً إلا قتلته، ولا كنيسةً إلا هدمتها فبعث إليه قيصر: أبوك أعلم بك، فوحق المسيح لأحفظنه بيدي^(٤).

٢ - الفصاحة والشعر:

ذكر الذهبي بأنه صاحب فصاحة^(٥)، فقد كان شاعراً مجيداً^(٦)، فاعتاد الناس أن

١ - مواقف المعارضة ص (٦٣).

٢ - سير أعلام النبلاء (٧/٤).

٣ - مواقف المعارضة ص (٤٧).

٤ - الاستبصار نسب الصحابة من الأنصار ص (٧٠، ٧١) للمقدسي.

٥ - سير أعلام النبلاء (٣٧/٤).

٦ - مواقف المعارضة ص ٤٩.

يقولوا بُدئ الشعر بملك، وخُتمَ بملك، إشارة إلى امرئ القيس وإلى يزيد^(١).

وأما صفاته الخَلقية: فقد كان ضخماً الجسم سميناً طويلاً غليظ الأصابع كثيف الشعر جعده أسمر البشرة في وجهه أثر الجدري أحور العينين حسن اللحية خفيفها، وبالجملة كان جميلاً^(٢).

خامساً: خروج الحسين بن علي رضي الله عنه:

١ - اسمه ونسبه:

هو أبو عبد الله الحسين بن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم، وريحانته ومحبوبه، ابن بنت رسول الله ﷺ، فاطمة رضي الله عنها، كان مولده سنة أربع للهجرة، ومات ﷺ قتيلاً شهيداً، في يوم عاشوراء من شهر المحرم سنة إحدى وستين هجرية بكر بلاء من أرض العراق^(٣).

٢ - أهم الأسباب التي أدت إلى خروج الحسين:

كان موقف الحسين ﷺ من بيعة يزيد بن معاوية هو موقف المعارض وشاركه في المعارضة عبد الله بن الزبير والسبب في ذلك: حرصهما على مبدأ الشورى وأن يتولى الأمة أصلحها.

ونذكر من أهم الأسباب التي أدت إلى خروج الحسين ﷺ:

- ١ - إرادة الله عز وجل وأن ما قدره سيكون وإن أجمع الناس كلهم على رده فسينفذه الله، لا رادّ لحكمه ولا لقضائه سبحانه وتعالى^(٤).

١ - الفخري في الآداب السلطانية ص ١١٣ ابن طباطبا.

٢ - سير أعلام النبلاء (٣٧/٤)، البداية والنهاية (١١/٦٣٨).

٣ - سير أعلام النبلاء (٢٨٠/٢) الإصابة (١/٣٣١ - ٣٣٤).

٤ - المصدر نفسه ص (٢٤٠).

٢- قلب الحكم من الشورى إلى الملك الوراثي: وذلك بسبب ما كان من عدم التزام معاوية بشروط الحسن في الصلح والتي من ضمنها ما ذكره ابن حجر الهيثمي:.. بل يكون الأمر من بعده شورى بين المسلمين^(١).

فرأى الحسين في محاولة معاوية توريث الحكم من بعده لابنه يزيد مخالفة واضحة لمنهج الإسلام في الحكم، ومع ذلك فإنه لم يهتم بالخروج على معاوية، نظراً لمبايعته له بالخلافة، فظل على عهده والتزامه^(٢). ولكن بعد وفاة معاوية تغير الموقف، فالحسين لم يعد في عنقه بيعة توجب عليه السمع والطاعة. إن موقف الحسين وفتواه ضد الحكم الأموي مرت بمرحلتين:

المرحلة الأولى:

مرحلة عدم البيعة ليزيد، وذهابه إلى مكة، وهذه المرحلة أسس فيها الحسين موقفه السياسي من حكم يزيد، بناء على نظراته الشرعية لحكم بني أمية، فهو يرى عدم جواز البيعة ليزيد، وذلك لسببين: فعلى الصعيد الشخصي فإن يزيد لا يصلح خليفة للمسلمين نظراً لانعدام توافر شرط العدالة فيه^(٣)، كما أن الحسين أفضل وأحق منه بمنصب الخلافة، فهو أكثر منه علماً، وصالحاً وكفاية وأكثر قبولاً لدى الناس من يزيد، أما الصعيد السياسي فلانعدام شرط الشورى، والاستئثار بالسلطة للحكم الأموي، والذي يخالف المنهج الإسلامي في الحكم.

ولم يغب عن الحسين عليه السلام قول النبي ﷺ: «من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية^(٤)» ولكن فهمه لهذا الحديث أنه في حق من كان صالحاً

١- الصواعق المرسلة (٢/٢٩٩).

٢- أنساب الأشراف (٣/١٥٢)، مواقف المعارضة ص (١٨٠).

٣- الفقهاء والخلفاء، سلطان حثيلين ص (٢١).

٤- مسلم رقم ١٨٥١.

للخلافة وأهلاً لها وكان عن شورى المسلمين^(١).

المرحلة الثانية:

وهي مرحلة العمل على مقاومة الحكم الأموي، وفي هذه الفترة كان ﷺ يرأسل أهل العراق، وتقدم إليه الوفود، حتى رأى أنه لابد من مقاومة الظلم وإزالة المنكر وأن هذا أمر واجب عليه، وكانت شيعته بالعراق على اتصال به وتمت بينهم مراسلات كثيرة^(٢).

ومما يدل على حرصه على أن تكون فتواه وتحركاته السياسية في مقاومته للحكم الأموي تُماشى تعاليم الإسلام وقواعده، امتناعه عن البقاء في مكة عندما عزم على مقاومة يزيد حتى لا تستحل حرمتها وتكون مسرحاً للقتال وسفك الدماء، فيقول لابن عباس: لأن أقتل بمكان كذا وكذا أحب إلي من أن أقتل بمكة وتستحل بي^(٣).

٣ - مواقف الصحابة والتابعين من خروج الحسين:

أ - عبد الله بن عباس رضي الله عنه:

لما بلغ خبر عزمه على الخروج إلى ابن عمه عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أتاه وقال: يا ابن عم أنه قد أرجف الناس أنك سائر إلى العراق، فبين لي ما أنت صانع؟ قال: قد أجمعت المسير في أحد يومي هذين إن شاء الله تعالى، فقال له ابن عباس: أخبرني إن كان أتباعك قد قتلوا أميرهم ونفوا عدوهم وضبطوا بلادهم فسر إليهم، وإن كان أميرهم حي وهو مقيم عليهم، قاهر لهم

١ - الفقهاء والخلفاء ص (٢٢).

٢ - تاريخ الطبري (٦/٢٧٣، ٢٧٤).

٣ - تاريخ الطبري نقلاً عن الخلفاء ص ٢٥.

وعماله تجي بلادهم فإنهم إنما دعوك للفتنة والقتال، ولا آمن عليك أن يستفزوا عليك الناس ويقلبوا قلوبهم عليك، فيكون الذين دعوك أشد الناس عليك.

فقال الحسين: يا ابن عم! والله إنني لأعلم أنك ناصحٌ شفيق، ولكني قد عزمت على المسير. فقال له: فإن كنت ولا بد سائراً فلا تسر بأولادك ونسائك، فوالله إنني لخائف أن تقتل كما قتل عثمان ونساؤه وولده ينظرون إليه، إلى أن قال: فوالله الذي لا إله إلا هو لو أعلم أنك إذا أخذتُ بشعرك وناصيتك حتى يجتمع علي وعليك الناس أطعني وأقمتَ لفعلت ذلك^(١).

ب - عبد الله بن عمر رضي الله عنهما:

نصح عبد الله الحسين عليه السلام في أكثر من موقف، فحين بلغه خروج ابن الزبير والحسين إلى مكة رافضين بيعة يزيد لقيهما وقال: أذكركما الله إلا رجعتما فدخلتما في صالح ما يدخل فيه الناس وتنظران، فإن اجتمع عليه الناس لم تشذا، وإن افترق عليه كان الذي تريدان^(٢)، ولما قدم المدينة وبلغه خروج الحسين لأهل الكوفة لحقه ابن عمر على مسيرة ليلتين فقال: أين تريد؟ قال: العراق، ومعه وثائق وكتب تدل على بيعة أهل العراق، فقال: لا تأتهم، قال: هذه كتبهم وبيعتهم. فقال: إن الله خير نبيه بين الدنيا والآخرة، فاختار الآخرة، وإنكم بضعة منه، لا يليها أحد منكم أبداً، وما صرفها الله عنكم إلا للذي هو خير لكم، فارجعوا، فأبى، فاعتنقه ابن عمر، وقال: استودعك الله من قتيل^(٣). وكان ابن عمر يقول بعد ذلك: «غلبنا الحسين بن علي بالخروج، ولعمري لقد رأى في

١ - الكامل في التاريخ (٢/٥٤٦).

٢ - الطبقات الكبرى تحقيق السلمي (١/٤٤٤).

٣ - سير أعلام النبلاء (٣/٢٩٢).

أبيه وأخيه عبدة، ورأى من الفتنة وخذلان الناس لهم ما كان ينبغي له ألا يتحرك ما عاش وأن يدخل في صالح ما دخل فيه الناس، فإن الجماعة خير»^(١).

ج- الفرزدق:

في طريقه إلى الكوفة قابل الحسين الفرزدق الشاعر. فسأله الحسين بن علي عن تصوره لما يقوم به أهل الكوفة حياله، ثم أراد أن يعطي الفرزدق إيضاحاً أكثر حيث قال: هذه كتبهم معي، فرد عليه الفرزدق: يخذلونك فلا تذهب فإنك تأتي قوماً قلوبهم معك وأيديهم عليك^(٢).

٤- وهكذا بدأت القصة:

أ- مسلم بن عقيل يتجه إلى الكوفة:

بعد توافد الرسائل من زعماء الكوفة على الحسين عليه السلام والتي تطلب منه المسارعة في القدوم إليهم، ولما كان العدد مشجعاً أراد أن يطلع على حقيقة الأمر، فبعث ابن عمه مسلم بن عقيل بن أبي طالب ليتأكد من حقيقة الخبر، ثم يكتب إليه بواقع الحال، فإن كان ما يقولون حقاً قدم عليهم^(٣).

فلما بلغ أهل الكوفة قدوم مسلم بن عقيل قدموا إليه فبايعه اثنا عشر ألفاً منهم^(٤)، وتمت تلك المبايعة بصورة سرية مع حرص شديد، ولما تأكد لمسلم بن عقيل رغبة أهل الكوفة في الحسين وقدمه إليهم كتب إلى الحسين: أما بعد، فإن الرائد لا يكذب أهله إن جميع أهل الكوفة معك فأقبل حين تنظر في كتابي^(٥)،

١- مختصر تاريخ دمشق (١٣٨/٧).

٢- البداية والنهاية (٥١٠/١١).

٣- تاريخ الطبري (٢٦٧/٦).

٤- تهذيب الكمال (٣٠١/٢) مواقف المعارضة ص (٢٣٢).

٥- أنساب الأشراف (١٦٧/٣).

وهنا تأكد للحسين ﷺ صدق نوايا أهل الكوفة وأنه ليس عليهم إمام كما ذكروا من قبل^(١)، فلا بد في هذه الحالة أن يفني لهم بما وعدهم به، حين كتب إلى أهل الكوفة: وقد بعثت إليكم أخي وابن عمي وثقتي من أهل بيتي، وأمرته أن يكتب إلي بحالكم وأمركم ورأيكم، فإذا كتب إلي أنه قد أجمع رأي ملئكم وذوي الفضل منكم على مثل ما قدمت به رسلكم وقرأته في كتبكم، أقدم عليكم إن شاء الله^(٢)، فلما وصل إلى الحسين بن علي كتاب مسلم بن عقيل والذي طلب منه القدوم إلى الكوفة وأن الأمر مهياً لقدمه تجهز وعزم على المضي إلى الكوفة بأهله وخاصته^(٣).

ب- موقف يزيد من أحداث الكوفة:

لم تعجب يزيد سياسة النعمان بن بشير والي الكوفة آنذاك فعزله من الولاية وعين بدلاً منه عبيد الله بن زياد وكتب إليه: «إن شيعتي من أهل الكوفة كتبوا إليّ يخبروني أن ابن عقيل بالكوفة يجمع الجموع ليشق عصا المسلمين فسر حين تقرأ كتابي هذا حتى تأتي أهل الكوفة فتطلب ابن عقيل، حتى تثقفه فتوثقه أو تنفيه، والسلام^(٤). فقام ابن زياد بما وكل به، بل زاد في طغيانه بأن قتل مسلم بن عقيل.

ج- وصول خبر مقتل مسلم بن عقيل للحسين، وملاقاته طلائع جيش ابن زياد:

خرج الحسين ﷺ من مكة يوم التروية الموافق لثمان من ذي الحجة سنة ستين، ومضى في طريقه قاصداً الكوفة ولم يكن يعلم بتلك التغيرات التي حدثت هناك، حتى بلغه خبر مقتل مسلم بن عقيل وأن ابن زياد قد اتخذ إجراءات

١- تاريخ الطبري (٦/٢٧٢).

٢- المصدر نفسه (٦/٢٧٤).

٣- المصدر نفسه (٦/٣٠٥).

٤- المصدر نفسه (٦/٢٧٨).

صارمة على أتباع الحسين في الكوفة مفادها أن كل من يدعو لبيعة الحسين مصيره القتل والتشريد^(١).

عندها شعر الحسين بتخاذل أهل الكوفة وانصرافهم عنه، وحزن لخبر مقتل ابن عمه؛ لذا أعلم القوم الذين معه: من أحب أن ينصرف فلينصرف؛ فتفرق الناس عنه يميناً وشمالاً^(٢)، وقال له بعض من ثبتوا معه: نشدك الله إلا ما رجعت من مكانك، فإنه ليس لك بالكوفة ناصر ولا شيعة، بل نتخوف أن يكونوا عليك، فوثب بنو عقيل إخوة مسلم وقالوا: والله لا نبرح حتى ندرك ثأرنا أو ندوق كما ذاق مسلم^(٣).

كان الجيش الذي يقوده عمر بن سعد مكوناً من أربعة آلاف مقاتل ووجهته في الأصل إلى الري لجهاد الديلم، فلما طلب منه ابن زياد أن يذهب لمقاتلة الحسين رفض عمر ابن سعد في البداية هذا الطلب، ولكن ابن زياد هدهد إن لم ينفذ أمره بالعزل وهدم داره وقتله، وأمام هذا الخيار رضي بالموافقة^(*).

فتابع الحسين سيره إلى الكوفة حتى وصل كربلاء وحينها أدركته خيل عمر ابن سعد ومعه شمر بن ذي الجوشن^(٤)، فبدأ الحسين بن علي بالتفاوض مع عمر ابن سعد، وبين الحسين ﷺ أنه لم يأت إلى الكوفة إلا بطلب من أهلها.

فكتب عمر بن سعد لابن زياد بما سمعه من الحسين وقال: «بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد، فإني حيث نزلت بالحسين بعثت إليه رسولي، فسألته عما أقدمه وماذا يطلب، فقال: كتب إلي أهل هذه البلاد وأتتني رسالهم فسألوني

١- مواقف معارضة، ص (٢٦٦).

٢- تاريخ الطبري (٦/٣٢٣).

٣- المصدر السابق.

٤- أنساب الأشراف (٣/١٦٦). * - تاريخ الطبري (٦/٣٣٥).

القدوم ففعلت، فأما إذا كرهوني، فبدا لهم غير ما أئتني به رسلهم فأنا منصرف عنهم». فلما قرئت الرسالة على ابن زياد تمثل قول الشاعر:

الآن إذا علقت مخالبنا به يرجو النجاة ولاة حين مناص

كتب ابن زياد لعمر بن سعد: «بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد فقد بلغني كتابك، وفهمت ما ذكرت، فاعرض على الحسين أن يبايع ليزيد بن معاوية، فإذا فعل ذلك رأينا رأينا والسلام». ولما اطلع عمر بن سعد على جواب ابن زياد ساءه ما يحمله الجواب من تعنت، وعرف أن ابن زياد لا يريد السلامة^(١).

أما الحسين فقد رفض عرض ابن زياد بادئ الأمر، ثم لما رأى خطورة الموقف طلب من عمر بن سعد مقابلته^(٢)، وعرض عليه عرضاً آخر يتمثل في إجابته واحدة من ثلاث نقاط^(٣):

أ - أن يتركوه فيرجع من حيث أتى.

ب - وإما أن يتركوه ليذهب إلى الشام فيضع يده في يد يزيد بن معاوية.

ج - وإما أن يسيروه إلى أي ثغر من ثغور المسلمين فيكون واحداً منهم له ما لهم وعليه ما عليهم^(٤).

وبذلك أكد الحسين ﷺ موافقته للذهاب إلى يزيد^(٥).

١ - تاريخ الطبري (٦/٣٣٧).

٢ - المحن لأبي العرب ص (١٥٤).

٣ - المصدر نفسه .

٤ - المصدر نفسه.

٥ - أنساب الأشراف (٣/١٧٣، ٢٢٤) بإسناد صحيح وتوبع عند الطبري بإسناد صحيح.

كتب عمر بن سعد إلى ابن زياد بكتاب أظهر فيه أن هذا الموقف المتأزم قد حلّ، وأن السلام قد أوشك، وما على ابن زياد إلا الموافقة^(١). وبالفعل فقد أوشك ابن زياد أن يوافق ويرسله إلى يزيد، لولا تدخل ثمر بن ذي الجوشن الذي كان جالساً في المجلس حين وصول الرسالة فقد اعترض على رأي ابن زياد في أن يرسله إلى يزيد، وبين لابن زياد أن الأمر الصائب هو أن يطلب من الحسين أن ينزل على حكمه - أي ابن زياد - حتى يكون هو صاحب الأمر المتحكم فيه^(٢).

فلما وصل الخبر إلى الحسين ﷺ رفض الطلب وقال: لا والله لا أنزل على حكم عبيد الله بن زياد أبداً^(٣)، وقال لأصحابه الذين معه أنتم في حل من طاعتي، ولكنهم أصرّوا على مصاحبته والمقاتلة معه حتى الشهادة^(٤).

وهكذا انتهت القصة:

في صباح يوم الجمعة عام ٦١ هـ نظم الحسين ﷺ أصحابه وعزم على القتال وكان معه اثنان وثلاثون فارساً، وأربعون رجلاً. وبدأت المعركة سريعة وكانت مبارزة في بداية الأمر وجوبه جيش عمر بن سعد بمقاومة شديدة من قبل أصحاب الحسين؛ حيث إن مقاتلتهم اتسمت بالفدائية فلم يعد لهم أمل في الحياة^(٥)، وكان الحسين ﷺ في البداية لم يشترك في القتال، فأصحابه يدافعون عنه، وكان جيش عمر بن سعد يتدافعون ويخشى كل فردٍ منهم أن ييؤ بقتله وتمنوا أن يستسلم، ولكن الحسين ﷺ لم يبد شيئاً من اللينة، بل كان يقاتلهم

١- تاريخ الطبري (٣٤٠/٦).

٢- المصدر (٣٤٠/٦، ٣٤١).

٣- حقة من التاريخ ص ١٣٢، تاريخ الطبري (٣٤٢/٦).

٤- تاريخ الطبري (٣٤٦/٦).

٥- المصدر نفسه (٣٥٠/٦).

بشجاعة نادرة، عندئذ خشي شمر بن ذي الجوشن من انفلات زمام الأمور فصاح بالجنود وأمرهم بقتله، فقتل ﷺ في محرم في العاشر منه سنة إحدى وستين^(١).

فمن المسؤول عن قتل الحسين رضي الله عنه:

إن المسؤول عن قتل الحسين أطراف متعددة منها:

١- أهل الكوفة: إن أهل الكوفة هم الذين كاتبوا الحسين بن علي وهو في

المدينة ومثوه بالخروج حتى خرج إليهم بالرغم من تحذيرات الصحابة له بعدم الخروج، ولما عين ابن زياد أميراً على الكوفة تأخر الناس عن نصره الحسين وعن تأييده بل انخرطوا في الجيش الذي حاربه وقتله^(٢).

يذكر أن ابن عمر رضي الله عنهما. ١. قال لو فد من أهل العراق حينما سألوهم عن دم النعوض في الإحد. رام فق. ال: عجباً لكم يا أهل العراق تقتلون ابن بنت رسول الله ﷺ وتسألون ع. ن دم النعوض (**)

٢- عبيد الله بن زياد: إن نفسه كانت ميالة للشر بطبيعتها، متطلعة إلى

الغلو في مسيرتها، متعطشة إلى الدماء في سلطانها، وإلا فماذا كان عليه لو أنه نهر شمر وعنفه وردعه على قوله، واستمر في قبول خطة السلم التي عرضها الحسين ﷺ. لقد كان يجب على ابن زياد أن يلي مطالب الحسين، وأن يتركه يذهب إلى يزيد، أو أي مكان آخر. وفي هذا يقول الدكتور يوسف العش: «وينبغي لنا أن نقول إنَّ المسؤول عن قتل الحسين هو أولاً شمر، وثانياً عبيد الله بن زياد»^(٣).

١- تاريخ الطبري (٣٢٥).

٢- أنساب الأشراف (٢٢٧/٣)، مواقف معارضة، ص (٢٨٨).

** - مسند أحمد رقم ٥٥٦٨ إسناد صحيح.

٣- الدولة الأموية ص (١٧٢).

٣ - عمر بن سعد بن أبي وقاص قائد الجيش: وهو من المسؤولين على

قتل الحسين ﷺ فقد كانت نفس ابن سعد متعلقة بالدنيا وحب الإمارة ومشغولة بالمنصب وتقلد الإدارة.. والحق يقال: إنه اجتهد في محاولة إيجاد الصلح بين الطرفين، لكنه لم يفلح.

إن النفوس المتطلعة إلى الدنيا، تنسى في سبيلها شهامة الرجال، ومروءة الكرام بل تنسى ما هو أعظم من ذلك وقوفها بين يدي الله عز وجل، وأنها ستحاسب على كل عمل تعلمه، بل تنسى بديهيات الأمور، حيث تنسى فناء الدنيا، وزوال المنصب، وضياع الجاه والسلطان^(**).

٤ - يزيد بن معاوية: أما يزيد، فظاهر الأمر أنه كره قتل الحسين ﷺ

وحاول أن يمنعه من الخروج، ولكن بكاءه على الحسين، وسب ابن مرجانة لا يرفع اللوم عن يزيد، ولا يخليه من تبعة قتل الحسين وأصحابه؛ ذلك لأنه كان قادراً على أن يوجه أوامر صريحة لابن زياد بعدم قتل الحسين رضي الله عنه، والتصرف معه بكل حكمة وتعقل، حفظاً لرحمه وقرابته من رسول الله ﷺ ومكانته في قلوب المسلمين^(١).

إن تحمل يزيد لمسؤولية قتل الحسين ﷺ قائمة. كيف وقد قتل في خلافته وعلى أرض تسيطر عليها جيوشه، وقد كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه يحمل نفسه مسؤولية بغلة عثرت في العراق أو في الشام، لم يسو لها الطريق، فكيف إذا كان القتلة هم جند أمير المؤمنين^(٢)؟.

** - الأمويون بين المشرق والمغرب (١/٢٤٤).

١ - العالم الإسلامي في العصر الأموي ص (٤٧٨).

٢ - الأمويون بين المشرق والمغرب (١/٢٤٥).

سادساً: أقوال الناس في يزيد:

كان يزيد ملكاً من ملوك المسلمين، له حسناتٌ وسيئات، ولم يكن كافراً، ولم يكن صحابياً ولا من أولياء الله الصالحين، وهذا قولٌ عامة أهل العقل والعلم والسنة والجماعة. ثم افترقوا ثلاث فرق: فرقةٌ لعنته، وفرقةٌ أحبته، وفرقة لا تسبه ولا تحبه^(١). وإلى هذا القول الأخير نميل.

سابعاً: وفاة يزيد بن معاوية:

في عام ٦٤ هـ هلك يزيد بن معاوية، وكانت وفاته بقريةٍ من قرى حمص، وهو ابن ٣٨ سنة.

وكان نقش خاتمه: ربنا الله^(٢).

١- الدولة الأموية، د. الصلابي، ص (٦١٣).

٢- تاريخ القضاء، ص (٣٣٢).

(٣) معاوية بن يزيد

(٥٦٤هـ.)، (٦٨٤م)

١- اسمه ونسبه، وشيء من صفاته:

معاوية بن يزيد: ثالث الخلفاء الأمويين، وكنيته أبو يزيد أو عبد الرحمن، أبوه يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، ويسمى معاوية الأصغر^(١)، ولد سنة ٤٤هـ، فنشأ في بيت الخلافة، وبويع له بالخلافة بعد موت أبيه.

كان رحمه الله أبيض شديد البياض، كثير الشعر، كبير العينين، جعد الشعر، أفنى الأنف، مدور الرأس، جميل الوجه، كثير شعر الوجه، دقيقه، حسن الجسم، وكان رجلاً صالحاً ناسكاً^(٢).

٢- مدة حكمه:

يختلف المؤرخون كثيراً في المدة التي حكمها معاوية بن يزيد، ويتراوح الخلاف بين عشرين يوماً وثلاثة أشهر، ويرجح بعض المؤرخين مدة أربعين يوماً، وكان مريضاً مدة ولايته^(٣).

٣- تنازله عن الخلافة وتركه للأمر شورى:

لما أحس معاوية بن يزيد بالموت نادى في الناس الصلاة جامعة وخطب فيهم، وكان مما قال: «أيتها الناس إني قد وليت أمركم وأنا ضعيف عنه، فإن أحببتم تركتها لرجل قوي، كما تركها الصديق لعمر، وإن شئتم تركتها شورى في سنة كما تركها عمر بن الخطاب، وليس فيكم من هو صالح لذلك وقد

١- الأمويون بين المشرق والمغرب (٢٨٦/١).

٢- البداية والنهاية (٦٦٣/١١).

٣- المصدر نفسه (٦٦٢/١١).

تركت أمركم، فولّوا عليكم من يصلح لكم»، ثم نزل ودخل منزله، فلم يخرج حتى مات رحمه الله تعالى^(١).

قد أراد معاوية بن يزيد أن يقول لهم: إنّه لم يجد مثل عمر رضي الله عنه، ولا مثل أهل الشورى رضي الله عنهم، فترك لهم أمرهم يولون من يشاؤون.

وعُدَّ هذا الموقف منه دليلاً على عدم رضاه عن تحويل الخلافة من الشورى إلى الوراثية^(٢)، فقد رفض أن يعهد لأحدٍ من أهل بيته حينما قالوا له: اعهد إلى أحد من أهل بيتك، فقال: والله ما ذقت حلاوة خلافتكم، فكيف أتقلّد وزرّها، وتتعجلون أنتم حلاوتها، وأنّ تعجل مرارتها، اللهم إني بريء منها، مُتخلٍّ عنها^(٣). فإذا كان معاوية بن أبي سفيان أول الخلفاء الأمويين قد حوّل الخلافة من الشورى إلى الملك، فإنّ حفيده معاوية الثاني، ثالث خلفاء الأمويين أيضاً، قد أعاد الخلافة من الملك العضوض إلى الشورى الكاملة، وإنّه لمّا يستوجب الإنصاف أن تصاغ القضية على هذا النحو بدلاً من التركيز على الشق الأول الخاص بمعاوية بن أبي سفيان وتوريثه الخلافة لأبنائه فقط. فهذا هو حفيده يعيدها للشورى^(٤).

٤ - أزمة خطيرة بعد وفاة معاوية بن يزيد:

كان معاوية بن يزيد قد أحدث أزمة خطيرة، فقد كان أخوه خالد بن يزيد صبيّاً صغيراً، وكان أمر عبد الله بن الزبير قد استفحل وباع له الناس من أنحاء الدولة، فرأى فريق من جند الشام على رأسهم الضحّاك بن قيس أمير دمشق أن

١ - البداية والنهاية (١١/٦٦٣، ٦٦٤).

٢ - العالم الإسلامي في العصر الأموي ص ١٣٧.

٣ - مروج الذهب (٣/٨٢).

٤ - الدولة الأموية المفترى عليها ص ٢٩٣.

يبايعوا لابن الزبير، وحتى مروان بن الحكم كبير بني أمية فكّر في الذهاب إلى ابن الزبير لبايعه ويأخذ منه الأمان، ولكن سائر الجند والقادة بزعامه حسان بن مالك زعيم القبائل اليمنية الذين كانوا أقوى المؤيدين لبني أمية وهم أحوال يزيد رفضوا أن يخرج الأمر عن بني أمية وأن يبايعوا لابن الزبير، فحدث خلاف شديد ولبث الشام ستة أشهر بدون إمام، واتفق القوم أخيراً على أن يعقدوا مؤتمراً للشورى، يبحثون فيه عن من يصلح للخلافة، فكان اختيارهم لمروان بن الحكم^(١).

ويعد معاوية بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان آخر خلفاء الفرع السفيفاني، وانتقلت الخلافة بعده إلى الفرع الثاني من بني أمية، أي المروانيين، فكان أولهم مروان بن الحكم.

١ - النظريات السياسية الإسلامية، محمد ضياء الرئيس ص ٢٠٢.

(٤) مروان بن الحكم

(٦٤-٥٦٥ هـ)، (٦٨٤-٦٨٥ م)

أولاً: اسمه ونسبه، وأعماله قبل الخلافة:

هو مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، الملك أبو عبد الملك القرشي الأموي^(١).

كان كاتب ابن عمه عثمان بن عفان، ودافع عنه يوم الدار، وكان يتتبع قضاء عمر وتولى ولاية المدينة في عهد معاوية، وكان الحسن والحسين يصليان خلفه^(٢).

ثانياً: توليه الخلافة:

بعد تنازل معاوية بن يزيد عن الخلافة، ترك الأمر شورى بين رجال قومه، فعقد نتيجةً لذلك مؤتمر الجابية؛ حيث اجتمع أهل الحل والعقد والقوة في الشام فأجمعوا رأيهم على مروان بن الحكم؛ فهو شيخ البيت الأموي والمشهور بينهم بالحكمة والذكاء، فبوع لمروان بالخلافة بإجماع الحاضرين، فكانت طريقة توليه الخلافة شورىً دستوريةً.

أصبح في العالم الإسلامي خليفان عبد الله بن الزبير المعارض للحكم الأموي والمتحصن بمكة المكرمة، ومروان بن الحكم المنتخب من أهل القوة في عاصمة الخلافة، ولما كان لا بد من توحيد الدولة الإسلامية فقد كان على أحدهما أن يتغلب على الآخر، ويتم التوحيد وتجتمع الأمة من جديد؛ فكانت الحروب والمعارك بينهما^(*).

١- سير أعلام النبلاء (٤٧٦/٣).

٢- المصدر السابق نفسه.

*- الدولة الأموية، د. الصلابي، ص (٧٢٨).

ثالثاً: أعماله لتوحيد الأمة، وولاية العهد:

بدأ مروان بن الحكم بتوحيد صفوفه والدخول في صراعٍ ضدَّ ابن الزبير - الذي كان يطلب الخلافة لنفسه-، ولم يبدأ مروان بمواجهة ابن الزبير في الحجاز، وإنما لجأ إلى انتزاع الأقاليم البعيدة التي استطاع ابن الزبير السيطرة عليها، وذلك ليقفل من نفوذه، ومن ثمَّ يتيسر له القضاء عليه^(١).

فنجح مروان في استرداد مصر في جمادى الآخرة سنة ٦٥ هـ^(٢)، وأقام فيها شهرين لترتيب الأوضاع ويطمئن على أمنها.

لما عزم مروان على العودة من مصر إلى الشام عين ابنه عبد العزيز والياً عليها، وأوصاه وصيةً تدل على حنكة سياسية، وخبرة واسعة، فقد كان عبد العزيز قد استوحش من بقاءه في مصر، فقال لأبيه يا أمير المؤمنين! كيف المقام ببلد ليس به أحد من بني أبي؟ فقال له يا بني عمهم بإحسانك يكونوا كلهم بني أبيك، واجعل وجهك طلقاً تصفُ لك مودتهم، وقد جعلت لك أخاك بشراً مؤنساً، وموسى بن نصير وزيراً ومشيراً، يا بني أن تك. ون أميد. راً بأقصى الأرض، أحسن من إغلاق بابك وخمولك في منزلك^(*).

ختم مروان أعماله بعقد البيعة لولديه عبد الملك، وعبد العزيز، وبعدُ بعض المؤرخين أن هذا الأمر كان من أهم أعماله، وذلك لحفظ الخلافة في البيت المرواني من جهة، ولوضع حد للتنافس على الخلافة، وتفادي المشاكل التي ربما تحدث بشأنها، كما حدث بعد موت معاوية الثاني من جهةٍ أخرى^(٣).

١- عبد الله بن الزبير، ص (١٥٢).

٢- العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص (١٤٤).

*- الولاة والقضاة، ص (٤٧).

٣- الدور السياسي لأهل اليمن في الشام، ص (٥٨).

رابعاً: وفاته:

توفي مروان بن الحكم بدمشق لثلاث خلون من شهر رمضان سنة ٦٥هـ، وهو ابن ثلاث وستين سنة، وصلى عليه ابنه عبد الملك، وكانت مدّة حكمه تسعة أشهر وثمانية عشر يوماً ودفن بين باب الصغير وباب الجابية، وكان نقش خاتمه: العزة لله.

القائد الناجح هو ذلك الرجل الذي يتحمل المسؤولية فهو لا يقول غلب رجالِي إنما يقول غلبت أنا... فهذا هو الرجل حقاً.

(٥) عبد الملك بن مروان

(٦٥-٥٨٦ هـ)، (٦٨٥-٧٠٥ م)

أولاً: اسمه ونسبه ومولده:

هو عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية، أبو الوليد الأموي، وهو أول من سُمي باسم عبد الملك في الإسلام^(١).

كان مولده ومولد يزيد بن معاوية في سنة ست وعشرين، وقد كان عبد الملك قبل الخلافة من العبّاد الزُّهّاد الفقهاء، الملازمين للمسجد، وكان أبيض ليس بال نحيف ولا البادن، مقرون الحاجبين، كبيرهما، دقيق الأنف أبيض الرأس واللحية حسن الوجه^(٢).

ثانياً: ثناء الناس عليه:

قال ابن عمر رضي الله عنهما: ولد الناس أبناءً، وولد عبد الملك أباً^(٣). ويقصد ابن عمر أن عبد الملك كان يفوق سنّه، ويعلو فوق أقرانه^(٤).

حوادث التاريخ قيم المستقبل:

روى ابن سعد ما يدل على أن عبد الملك كان محبوباً من عمومته كبار بني أمية، فذكر أنّه: كان معاوية بن أبي سفيان جالساً يوماً ومعه عمرو بن العاص

١- البداية والنهاية، (١١/٣٧٧).

٢- المصدر السابق، (١١/٣٧٩).

٣- المصدر السابق نفسه.

٤- الخلافة الأموية، للهاشمي، ص (١١٦).

رضي الله عنهما، فمرَّ بهما عبد الملك، فقال معاوية: ما أشد أدب هذا الفتى، وأحسن مروءته فقال ابن العاص: يا أمير المؤمنين، إنَّ هذا الفتى أخذ بثلاث وترك ثلاثاً: أخذ بحسن الحديث إذا حدَّث، وحسن الاستماع إذا حدَّث، وحسن البشر إذا لُقي، وترك من القول ما يعتذر عنه، ومخالطة اللئام من الناس، وممازحة من لا يوثق بعقله ولا مروءته ^(١).

ثالثاً: سقوط عبد الله بن الزبير:

بدأ عبد الملك معاركه مع ابن الزبير وفق القاعدة التي رسمها له والده مروان، وهي استعادة الأقاليم التي استولى عليها ابن الزبير، وحصره بالحجاز الذي جعله عاصمةً له، فكان انتصار عبد الملك على مصعب بن الزبير وليّ العراق لأخيه عبد الله إيذاناً بانتهاء دولة عبد الله بن الزبير، الذي ما عاد باستطاعته الصمود؛ لافتقاره إلى المال والرجال.

حينها قام عبد الملك بإعداد جيشٍ للقضاء نهائياً على ابن الزبير، فوقع الاختيار على الحجاج بن يوسف ^(٢)، فانطلق الجيش إلى مكة لمحاصرة ابن الزبير ^(٣).

لم يكن الحجاج من النوع الذي يصبر على عدوه، فكان أن أرسل إلى عبد الملك بن مروان يطلب منه الإذن بقتاله داخل مكة واستخدام المنجنيق، فأجابه

١- الطبقات، لابن سعد (٢٤٤/٥)

٢- ولد أبو محمد الحجاج بن يوسف بن الحكم الثقفي في منازل ثقيف بمدينة الطائف، في عام الجماعة ٤١ هـ. وكان اسمه كليب ثم أبدله بالحجاج. ومن أعماله أن قد بنى مدينة واسط، وسير الفتوحات لفتح المشرق، وأمر بتنقيط المصحف، وخطط الدولة، وحفظ أركانها قامعاً كل الفتن. وأما عن مذهبه في الحكم فقد كان الحجاج يرى بتكفير الخارج على السلطان، وطرده من الملة، لذلك كان يرى ما يفعله تقريباً لله يرجو به الأجر.

٣- عبد الله بن الزبير، للخراشي، ص (١٨٩).

عبد الملك بقوله: افعل ما ترى^(١).

فنصب الحجاج المنجنيق على جبال مكة وبدأ بضرب ابن الزبير داخل الحرم ضرباً متواصلاً، فحاول العديد ممن مع ابن الزبير إقناعه بقبول أمان الحجاج، فلم يستجب لمطلبهم، وأصرَّ على القتال، ولم يمنعه كبر سنه وخذلان من حوله من الثبات على مبدئه وهو إعادة الخلافة إلى الشورى^(٢). حتَّى غلبه الحجاج وتمكَّن من قتله يوم الثلاثاء من جمادى الآخرة وله ثلاث وسبعون سنة^(٣).

رابعاً: أسباب سقوط ابن الزبير:

ليس بمستغرب أن يتفوّق بنو أمية على ابن الزبير، الذي لم تتح له الفرصة لأن يتولى إقليماً من الأقاليم يكتسب فيه خبرة إدارية، في حين أن بني أمية تهيأت لهم العديد من الفرص في عهد معاوية رضي الله عنه، وفي الجانب العسكري نلّمس تفوق الأمويين على ابن الزبير من حيث التكتيك الحربي، وقيادة الجيوش، ولعل من أبرز ما يلاحظ: أن مروان بن الحكم قد خرج بنفسه على جيش كبير ليضمّ مصر، وابنه عبد الملك فعل الأمر نفسه لضمّ العراق، فهذا أتاح لهما التعرف عن كثب لما يدور في ساحة القتال، وبالمقابل نرى ابن الزبير يعتمد على قوَّاده وولاته في حروبه، وقد انتقد عبد الملك سياسة ابن الزبير إذ قال: «لو كان عبد الله بن الزبير خليفةً كما يزعم لأبدي صفحته، وآسى أنصاره بنفسه، ولم يغرز ذنبه في الحرم»^(٤).

١- أنساب الأشراف (٣٥٨/٥).

٢- عبد الله بن الزبير، للخراشي، ص (١٩١).

٣- الكامل في التاريخ (٧٣/٣).

٤- الطبقات، (٢٣٢/٥).

ومن هذا نلاحظ أنَّ بني أمية منذ صراعهم مع ابن الزبير كانوا دائماً في موضع المهاجم، بعكس ابن الزبير الذي ظلَّ في موقف الدفاع^(١). وبمقتل ابن الزبير اجتمعت الأمة على عبد الملك ليصبح هو الخليفة الشرعي.

فقد أثبت عبد الملك كفاية عالية في إدارة الدولة وسياستها، فكان يمضي إلى هدفه بعزيمة ثابتة، لا يعرف اليأس البتَّة، فاستطاع أن يقضي على خصومه الواحد بعد الآخر، بالصبر والحزم والمثابرة، ولم يكن يُعير أيَّ انتباهٍ لمن كان يحاول أن ينال من عزمته، فقد كان إيمانه بالله، وثقته به أكبر من أن يفسدها بعض مشاكل الدنيا، فاستحقَّ عن جدارة لقب المؤسس الثاني للدولة الأموية بعد معاوية مؤسسها الأول^(٢).

خامساً: النظام الإداري في خلافة عبد الملك:

اهتمَّ عبد الملك اهتماماً خاصاً بإدارة شؤون الدولة، وسار على منهاج معاوية في تطوير المؤسسات والاهتمام بالإصلاحات، فقد قام بتعريب الإدارة والنقد، وهو ما يعرف بحركة التعريب التي تنسب إليه، لقد نذر عبد الملك كلَّ وقته وجهده لتوطيد أركان الدولة وتنظيمها، حتَّى تركها قويَّةً مهية الجانب والسلطان^(٣).

فقد حققت حركة تعريب الدواوين التي قام بها عبد الملك نتائج ذات آثارٍ عظيمة في جميع الميادين السياسية والإدارية والثقافية ومن ذلك ما يلي:

١- ظهور حركة الترجمة من اللغات الأجنبية إلى العربية؛ حيث كانت حركة تعريب الدواوين أول عملية ترجمة منظَّمة أدَّت إلى نقل الكثير من

١- عبد الله بن الزبير، للخراشي، ص (١٩٩).

٢- العالم الإسلامي في العصر الأموي.

٣- العالم الإسلامي في العصر الأموي، (١٥٣).

المصطلحات الأجنبية، وظهر من اهتمَّ بالترجمة، مثل خالد بن يزيد بن معاوية ابن أبي سفيان، المتوفى ٨٥هـ؛ فهو أول من أمر بنقل بعض كتب الكيمياء والطب من اليونانية إلى العربية^(١).

٢- كان تعريب الدواوين سبيلاً لتعريب الأقاليم والجاليات غير العربية، فكان هذا من أكبر العوامل في انتشار اللغة العربية^(٢)، كما أنَّ أجزاء كثيرة من العالم الإسلامي ما زالت إلى وقتنا الحاضر عربيةً ثمرةً لجهود عبد الملك^(٣).

٣- إنَّ نظام عبد الملك نظامٌ إداري موحد وشامل، والدليل الأبرز على حسن هذا النظام أن عمل به العباسيون مع قليلٍ من الإضافات^(٤).

سادساً: مواقف من تعامله مع الرعية:

١- المشورة:

كان عبد الملك يعتمد على المشورة في إنجاز مهام الدولة، فهو القائل: «المشورة تفتح مغاليق الأمور»^(٥).

٢- تسامحه مع أهل الكتاب:

كان عصر عبد الملك عصر تسامحٍ مع أهل الذمة، فقد سمح لهم بممارسة طقوسهم الدينية بحريّة، وبناء الكنائس والأديرة^(٦).

١- الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، (١٧٩).

٢- عبد الملك بن مروان، للريس، ص (٢٨٦).

٣- التاريخ السياسي، عبد المنعم ماجد (١٦٢/٢).

٤- الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، (١٨٠).

٥- الفخري في الآداب السلطانية، ص (١٢٦).

٦- الدعوة إلى الإسلام، توماس أرنولد، ص (٨٥).

٣- احذر في كلامك ثلاثاً:

دخل مرةً أحد الرعية على عبد الملك، فقال له عبد الملك: «احذر في كلامك معي ثلاثاً، إياك أن تخدعني، أو تكذبني فإنه لا رأي لكذوب، أو تسعى إليّ بأحدٍ من الرعية فإنهم إلى عدلي وعفوي أقرب إلى جورِي وظلمي»^(١).

سابعاً: الحرف والصناعات والنقود:

١- صناعة النسيج:

لقد تطورت صناعة النسيج في الدولة الأموية كثيراً وأصبحت لها مصانع خاصة بها سميت دور الطراز.

٢- صناعة مستلزمات البناء:

شهدت الدولة الأموية اهتماماً بالعمران، وتشيد المساكن، وزخرفتها، وقد أدّى الإقبال على تزيين البيوت، والتأنق فيها إلى ظهور صناعاتٍ تلبي تلك الرغبات، فظهرت على سبيل المثال صناعة قطع الرخام والزخارف^(٢).

٣- الصناعات الحربية:

توسعت هذه الصناعة في عهد عبد الملك، فُتُح دَارٌ لصناعة السفن الحربية بتونس وكان عدد عمالها ألف عاملٍ متخصص، تمَّ نقلهم من دار الصناعة بمصر^(٣). وقد قام والي تونس بتوسيع دار الصناعة؛ فشقَّ قناةً بين الميناء وبين المدينة بطول اثني عشر ميلاً، فشكّلت هذه القناة ما يماثل اليوم أحواض بناء السفن^(٤).

١- البداية والنهاية، (٣٨٧/١٢).

٢- تاريخ الموصل (٢٢٣/١).

٣- تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي، ص (١١٥، ١١٦).

٤- التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص (٢٤٠).

٤ - صناعة البردي:

كان لهذه الصناعة أهميتها الخاصة؛ ذلك لأن البردي كان يستخدم قبل ظهور صناعة الورق آنذاك في المكتبات وأعمال الدولة، وكانت الدولة تشرف على الإنتاج إشرافاً مباشراً، وكانت صادرات البردي تدرُّ أرباحاً جيدة^(١).

٥ - إحداث دور ضرب العملة وتعريب النقد:

حرص عبد الملك على إنهاء التبعية الاقتصادية للدولة البيزنطية التي كانت تسيطر دنائرها الذهبية على الجانب النقدي من اقتصاديات الدولة، إضافةً إلى حاجة الدولة الفعلية إلى عملةٍ داخلية موحدة ومنضبطة تسهل القيام بالوظائف الاقتصادية في المجتمع^(٢).

بل لقد تشدد عبد الملك وخلفاؤه من بعده في تعقب أية محاولة للغش في النقود وتزيفها؛ فقد روي أنَّ رجلاً أخذ يضرب على غير سكة المسلمين، فأراد عبد الملك قطع يده، ثم ترك ذلك واكتفى بعقابه^(٣).

ثامناً: عبد الملك والشعراء:

امتاز عهد عبد الملك بثلاثة شعراء؛ هم الأخطل، جرير، والفرزدق.

١ - الأخطل: هو غياث بن غوث التغلبي، ويكنى أبو مالك، ولد عام ١٩ هـ، الموافق عام ٦٤٠ م، وهو شاعر عربي ينتمي إلى بني تغلب بن وائل بن ربيعة، وكان نصرانياً، وقد مدح خلفاء بني أمية بدمشق، وأكثر في مدحهم، حتى جعله عبد الملك بن مروان شاعر البلاط الرسمي، يدافع عن دولة بني أمية ويهاجم خصومها. أحسن ما قال من الشعر قوله:

١ - المصدر السابق نفسه، ص (٢٤٣).

٢ - المصدر السابق نفسه، ص (١٤٥).

٣ - الدولة الأموية المفترى عليها، ص (٤٤١).

والناس همُّهمُ الحياةُ ولا أرى طول الحياة يزيد غير خَبالٍ
وإذا فقرتَ إلى الذخائر لم تجدِ دُخراً يكون كصالح الأعمال^(١)

٢- الفرزدق: هو همام بن غالب التميمي وكنيته أبو فراس (٣٨- ١١٠هـ). ولد في البصرة، وهو شاعر من النبلاء، وله عظيم الأثر في اللغة. لقبه الفرزدق ومعناها الرغيف، لقَّب بذلك لجهامة كانت في وجهه إذ كان وجهه كالرغيف المحروق. قيل له مرَّة من أشعر الناس؟ قال كفاك بي إذا افتخرت، وبجيرٍ إذا هجا، وبابن النصرانية إذا امتدح^(٢).

٣- جرير: جرير: (- / ١١٠هـ) شاعر ينتمي إلى قبيلة كليب من بني تميم، وهي قبيلة متحضرة في نجد. ولد في خلافة عثمان بن عفان، اشتهر في المدح والمجاء، وتوفي بعد موت الفرزدق بشهور سنة ١١٠هـ. كان من فحول شعراء الإسلام، وكانت بينه وبين الشاعر الفرزدق صولات وجولات، ولكنه رثاه بعد مماته. كان في شعره عفةٌ ودين، وحسن خلق، ورقة طبع، ففي كل باب من أبواب الشعر له أبياتٌ رائعةٌ، منها:

أ- إنَّ أغزل شعرٍ قالته العرب هو قوله:

إنَّ العيون التي في طرفها حورٌ قتلننا ثمَّ لم يُحيينَ قتلاننا
يصرعن ذا اللبِّ حتى لا حراك به وهنَّ أضعف خلقِ الله إنسانا

ب- أصدق بيتٍ قوله:

إنني لأرجو منك خيراً عاجلاً والنَّفْس مولعةٌ بحبِّ العاجلِ

١- سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٩٠).

٢- المصدر السابق، (٤/ ٥٨٩).

تاسعاً: وفاة عبد الملك:

كان عبد الملك يقول: ولدت في رمضان، وفطمت في رمضان، وختمت القرآن في رمضان، وأتتني الخلافة في رمضان، وأخشى أن أموت في رمضان، فما إن دخل شوال حتى توفي رحمه الله، فكانت وفاته سنة ٨٦هـ^(١). وكان نقش خاتمه: آمنت بالله مخلصاً^(٢).

١- أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ، (٢٢/٢).

٢- تاريخ القضاعي، ص (٣٤٧).

(٦) الوليد بن عبد الملك

(٨٦-٥٩٦ هـ)، (٧٠٥-٧١٥ م)

أولاً: اسمه ونسبه:

هو أبو العباس الوليد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم الأموي، الدمشقي، بويع بعهد من أبيه، أنشأ جامع بني أمية، وزاد في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وزخرفه، ورزق في دولته السعادة، ففتح بوابة الأندلس، وبلاد الترك^(١).

ثانياً: أهم أعماله الحضارية والإنسانية:

١- توسيع المسجد النبوي:

كان الوليد بن عبد الملك من أشهر خلفاء بني أمية، وهو أكثرهم عناية بالبناء والعمران، حتى لقب مهندس بني أمية، وأراد الوليد أن يبني المسجد النبوي ويشيده بما يليق به وبعظمة الخلافة في عهده، فصمم على تنفيذ مشروعه حتى غدا المسجد النبوي بأعظم حلّة^(٢).

٢- بناء المسجد الأموي:

قال ابن كثير في حوادث عام ٩٦ هـ: فيها تكامل بناء الجامع الأموي بدمشق على يد بانيه أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك، جزاه الله عن المسلمين خير الجزاء، وكان أصل موضع هذا الجامع قديماً كنيسة للنصارى، فعندما عزم الوليد على تحويلها إلى مسجد، قام بمفاوضة النصارى، وإرضائهم بعروض مغرية^(٣).

١- سير أعلام النبلاء (٤/٣٤٨، ٣٤٩).

٢- الشامل في تاريخ المدينة، (١/٣٩٦).

٣- البداية والنهاية، (١٢/٥٦٦، ٥٦٧).

ولقد استعمل الوليد في بناء هذا المسجد خلقاً كثيراً من الصناع والمهندسين وكان المشرف على عمارته أخوه، وولي عهده سليمان بن عبد الملك^(١).

وفي أثناء ذلك نُقل إلى الوليد بأنَّ الناس يقولون: أنفق الوليد أموال بيت المال في غير حقها، فنودي في الناس: الصلاة جامعة، فاجتمع النَّاس، فصعد الوليد المنبر وقال: إنَّه بلغني عنكم أنَّكم قُلتم: أنفق الوليد بيوت الأموال في غير حقها... ثمَّ نادى يا عمر بن مهاجر، قم فأحضر أموال بيت المال، فحُمِلت على البغال إلى الجامع، وبسط الذهب والفضة تحت القبة، حتى صارت أكواماً، فكان الرجل لا يرى الرجل من الجانب الآخر، فوزنت الأموال، فإذا هي تكفي الناس ثلاث سنين مستقبلة، ففرح الناس وكبروا وحمدوا الله عز وجل على ذلك^(٢).

افتخري يا شام

خلال تلك الحادثة قال الوليد: يا أهل دمشق! إنكم تفخرون على الناس بأربع: هوائكم ومائكم، وفاكهتكم، وحماماتكم، فأحببت أن أزيدكم خامسة وهي هذا الجامع، فاحمدوا الله تعالى، وانصرفوا شاكرين داعين^(٣).

كان الجامع الأموي لما كمل بناؤه لم يكن على وجه الأرض بناء أحسن منه، ولا أبهى ولا أجلَّ منه، بحيث إنَّه إذا نظر الناظر إليه، أو إلى أي جهةٍ منه، تحير فيما ينظر إليه لحسنه وجماله، ولا يمل ناظره، بل كلما أمعن النظر، بانَّت له أعجوبةٌ ليست كالأخرى^(٤).

١- المصدر السابق، (١٢/٥٧٠).

٢- المصدر السابق (١٢/٥٧٦).

٣- المصدر السابق.

*- المصدر السابق (١٢/٥٧٩).

٣- المستشفيات:

كان الوليد أول من أسس مستشفى خاصاً بالأمراض النفسية، وذلك سنة ٨٨هـ، وجعل فيه أطباء مهرة، وأجرى عليهم الأرزاق^(١).

قال تقي الدين المقرئ: أول من بنى البيمارستان في الإسلام ودار المرضى الوليد بن عبد الملك، وهو أيضاً أول من عمل دار الضيافة، وذلك سنة ٨٨هـ، وجعل في البيمارستان أطباء، وأجرى لهم الأرزاق^(٢).

٤- كفالة الدولة للمحتاجين:

كان الوليد يخصص الأرزاق للفقهاء والفقراء ويحرم عليهم سؤال الناس، ويفرض لهم ما يكفيهم^(٣). وأعطى كلَّ مُقعدٍ خادماً وكلَّ ضريحٍ قائداً، وأعطاهم من بيت المال ليقمهم سؤال الناس^(٤).

ثالثاً: الحجاج بن يوسف الثقفي:

إنَّ سيرة الحجاج كبيرة عظيمة، لا نستطيع أن نوجزها ببعض الأسطر؛ فقد شهدت ولايته للعراق فتوحاتٍ واسعة، وانتصاراتٍ مذهلة، فكان دخول أهل تلك البلاد في الإسلام مسجلاً في صحفته بإذن الله وفضله، إلا أنَّ كثيراً من المؤرخين عدّوه من الولاة الباطشين الظالمين.

لذلك أحببت أن أورد شهادةً للحسن البصري فيه، وقد عاصر البصري زمن الحجاج بكل ألوانه، وكان لا يجلس مجلساً إلا ذكر فيه الحجاج فيدعو

١- المستشفيات الإسلامية من العصر النبوي إلى العصر العثماني، ص (٨٠)؛ الأمويون وآثارهم المعمارية، ص (٩٧).

٢- المصدر السابق، ص (٨٨).

٣- العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص (١٥٨).

٤- البداية والنهاية (٦٠٩/١٢).

عليه، يقول البصري: رأيته في المنام، فقلت له: ماذا فعل الله بك ؟ قال: قتلْتُ
بكل قتيْلٍ قتلته، ثم عُرِلت مع الموحدين. يُكمل البصري قوله: فأمسكت بعد
ذلك عن شتمه^(١).

رابعاً: وفاة الوليد:

كانت وفاة الوليد يوم السبت في النصف من جمادى الآخرة سنة ست
وتسعين في قول جميع أهل السير^(٢). وكان نقش خاتمه: يا وليد إنك ميت^(٣).

١- البداية والنهاية (١٢/٥٥٤).

٢- تاريخ الطبري (٣٩٦/٧).

٣- تاريخ دمشق (١٢٩/٦٦).

(٦) سليمان بن عبد الملك

(٩٦-٩٩ هـ.)، (٧١٥-٧١٨ م)

أولاً: اسمه وشيء من صفاته:

هو سليمان بن عبد الملك، أبو أيوب القرشي الأموي، بويع بعد أخيه الوليد سنة ست وتسعين، وكان ديناً فصيحاً عادلاً محباً للغزو، وكان يستعين في أمر الرعية بعمر بن عبد العزيز، عزل عمال الحجاج، وكتب: إن الصلاة قد أُميتت فأحيوها بوقتها. وعن ابن سيرين قال: رحم الله سليمان افتتح خلافته بإحياء الصلاة، واختتمها باستخلاف عمر^(١).

ثانياً: الشورى، وبعض علماء عصره:

اتسم عهد سليمان بهدوءٍ نسبي إلى درجةٍ كبيرة، فلم يشهد حركاتٍ معارضةٍ عنيفة فكانت حركات الخوارج بسيطة الأثر لم تهدد كيان الدولة وأمنها، ووادع سليمان الهاشميين والزبيريين وأحسن إليهم^(٢)

وسبب ذلك الهدوء أن جعل سليمان من الشورى أحد دعائم حكمه، وصفاً لنهجه الجديد؛ حيث قال للناس يوم بيعته: وقد عزلت ك. ل. أ. ر. كرهت. ه. رعيته، ووليت على أهل كل بلدٍ من أجمع عليه خيارهم، واتفقت علي. ه. كلمتهم^(*).

١ - سير أعلام النبلاء، (٥/١١١، ١١٢)، (٧/١١٢).

٢ - خلافة سليمان بن عبد الملك، ص (١٣٨).

* - المنتظم (٧/١٤، ١٥).

ومن أجل العلماء في عهده رجاء بن حيوة:

هو أبو نصر الكندي الإمام القدوة الوزير العادل الفقيه، وهو من جلة التابعين^(١)، بدأ اتصاله بالأمويين منذ عهد عبد الملك، وقد بلغت مشاركة رجاء وتأثيره السياسي في عهد سليمان بن عبد الملك الذروة؛ حيث اتخذ سليمان وزيراً صدق له يستشير في كثير من الأمور والقضايا المتعلقة بسياسة الدولة وإدارتها^(٢). على أن أكبر تأثير سياسي لرجاء في عهد سليمان يظهر في إشارته عليه باستخلاف عمر بن عبد العزيز من بعده^(٣).

فقد كان لموقف رجاء في استخلاف عمر أثر سياسي كبير غير مجرى التاريخ الأموي بصفة خاصة، والإسلامي بصفة عامة، وظل رجاء في عهد عمر يتبوأ المكانة والرفعة ذاتها، فلما ولي من بعده يزيد بن عبد الملك، اعتزل رجاء مجالس الخلفاء^(٤).

ثالثاً: ولاية العهد ووفاة سليمان:

لما مرض سليمان مرض الموت، استشار رجاء فقال: من لهذا الأمر من بعدي؟ فقال رجاء أرى أن تستخلف عمر بن عبد العزيز، قال: أتخوف من بني عبد الملك ألا يرضوا قال: فولي عمر ومن بعده يزيد بن عبد الملك، وتكتب كتاباً وتختم عليه وتدعوهم إلى البيعة، قال: لقد رأيت، ائني بقرطاس فكتب بذلك... ثم خرج رجاء فجمع الناس، وقال: إن أمير المؤمنين يأمركم أن تباعوا لمن في هذا الكتاب من بعده، قالوا: ومن فيه؟، قال محتوم، فباعوا على ذلك.

١ - سير أعلام النبلاء (٤/٥٥٧).

٢ - أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية، ص (١٤٦).

٣ - المصدر السابق، ص (١٤٧).

٤ - المصدر السابق، ص (١٥٦).

قال رجاء: فلما خرجت إلى منزلي، فبينما أنا أسير في الطريق، التقيت بهشام، فقال لي: يا رجاء قد علمت موقعك منّا، وإنّ سليمان قد صنع أمراً لا أدري ما هو، وأنا أتخوف أن يكون قد أزالها عني؛ فأخبرني عليّ أحدثه بهذا. فامتنع رجاء عنه ومضى في طريقه... ثمّ أقبل عليّ عمر وقال: يا رجاء إني أتخوف أن يكون قد جعلها إليّ، فأعلمني عليّ أصرفها عن نفسي قبل وفاته^(١).

فلما توفي سليمان اجتمع الناس وأعادوا البيعة على كتاب سليمان، ثمّ فتح رجاء الكتاب فإذا فيه العهد لعمر بن عبد العزيز، فتغيرت وجوه بنو عبد الملك، ونادى هشام: لا نبايعه أبداً. فقال رجاء: أضرب والله عنقك، قم وبايع، فقام يجر رجله^(٢) فلما سمعوا من بعده يزيد بن عبد الملك تراجعوا عن إعراضهم^(٣). وهكذا فقد توفي سليمان وعمره ٣٩ سنة على الأرجح وصلى عليه عمر، وكان نقش خاتمه آمنت بالله مخلصاً^(٤).

١- المصدر السابق، ص (١٥٢).

٢- المصدر السابق، ص (١٥٣).

٣- سير أعلام النبلاء (١٢٤/٥، ١٢٦).

٤- تاريخ القضاء، ص (٣٥٩).

الفتوحات الإسلامية

سنذكر في هذا البحث أخبار الفتوحات في عهد كل من عبد الملك والوليد وسليمان؛ لكي نعطي صورةً متكاملةً عنها بسبب ترابطها ببعضها.

١- الفتوحات على الجبهة الشماليّة:

في أواخر عام ٧٣هـ، شعر عبد الملك أنّ الدولة استعادت قوّتها، وأنها تستطيع أن تستأنف جهادها وتعلي إرادتها، وكانت العلاقة بين الروم والمسلمين قد ازدادت سوءاً في هذه الفترة؛ فكان الروم يتأهبون لغزو بلاد الإسلام إلا أنّ عبد الملك كان لهم بالمرصاد؛ حيث أعاد تنظيم غزوات الصوائف والشواتي وأغار على عددٍ من حصون الروم^(١).

أ- سليمان بن عبد الملك وحصار القسطنطينية:

استمرت المعارك بين المسلمين والروم، إلى أن جاء سليمان فعزم على حصار القسطنطينية فجمع رجاله، واستشارهم، فاختلفوا على رأيين حول سير الجيوش:

الأول: طرحه موسى بن نصير، وفحواه: أنّ على المسلمين احتلال المدن والحصون التي دون القسطنطينية، لتجريدها من المواقع الحصينة المحيطة بها، ويستمر الفتح حتى الوصول إليها. وأما الثاني: فطرحه مسلمة بن عبد الملك، والذي ارتأى أنّ اتباع خطة موسى تحتاج إلى أمد بعيد جداً حتى يتحقق الفتح، لذلك أشار بضرورة التوجه مباشرةً إلى القسطنطينية وحصارها حتى يتم الفتح. ويبدو أنّ رأي مسلمة لقي قبولاً من مجلس شورى الخليفة فسارت الحملة حسب خطته^(٢).

١- عبد الملك بن مروان، محمد ضياء الدين الريس، ص (٢٠٨).

٢- البداية والنهاية (١٢/٦٣٢).

إلا أنَّ الحملة أخفقت في الوصول إلى هدفها بعد حصارٍ طويل الأمد؛ حيث تأكد للمسلمين أنَّ فتح القسطنطينية لا يتم إلا بخطة موسى، وذلك لمنع الإمدادات عن المدينة، وحماية الجيش الإسلامي من غارات المدن المجاورة لها.

ب- مسلمة بن عبد الملك أشهر قادة المسلمين ضدَّ الروم:

هو مسلمة بن عبد الملك الأمير الضرغام، له مواقف مشهودةٌ مع الروم، وهو الذي غزا القسطنطينية، وكان قد وليَ العراق لأخيه يزيد ثمَّ أرمينية^(١). كانت تجاربه العملية غنيَّةً إلى أبعد الحدود، فقد شهد كيف تدار الدولة على أعلى المستويات مع أبيه عبد الملك، ثمَّ مع إخوته من بعده، وكان الخلفاء من إخوته يحرصون على أن يبقى إلى جانبهم مستشاراً يتعلمون منه، فإذا شعروا بآمر خطيرٍ في دولتهم أرسلوه ليقضي عليه ويعيد الأمور إلى طبيعتها^(٢).

كان مسلمة بحق أكثر الناس حرصاً على رص الصفوف ووحدة الأمة، كما أنَّه كان يعد الخلافة وسيلةً من أجل خدمة الأمة لا غاية من أجل أطماع شخصية، وهو بحق خدم الأمة أجلَّ الخدمات، وبذلك حقق الغاية، واستغنى عن الوسيلة^(٣).

كان مسلمة مخلصاً غاية الإخلاص لبني أمية، ويدين بالولاء المطلق لهم، ولم يكن يطمح لتولي الخلافة؛ لأن بني أمية لم يكونوا يباعون لبني أمهات الأولاد^(٤). توفي مسلمة سنة ١٢٠هـ، وكان جميل الوجه، حسن الصورة^(٥).

١- سير أعلام النبلاء (٢٤١/٥).

٢- قادة الفتح الإسلامي في أرمينية، ص (٣٠٥).

*- المصدر السابق ص (٣١١).

٣- المصدر السابق، ص (٣١٠).

٤- سير أعلام النبلاء (٢٤١/٥).

٢- الفتوحات في الشمال الإفريقي والأندلس:

أ- حسان بن النعمان الغساني^(١):

كان عبد الملك رجلٌ عصره يجهز الجيوش على الاتجاهات كافة أملاً بنشر الإسلام، وإعلاء كلمة لا إله إلا الله بالحوار والدعوة الحضارية. فمن الجيوش التي جهزها جيش حسان بن النعمان، حيث وجهه إلى مصر موصياً إياه: إنني قد أطلقت يدك في أموال مصر، فأعط من معك ومن ورد عليك من الناس، وأخرج بهم إلى جهاد إفريقية على بركة الله^(٢).

وقد وصف ابن الأثير عظمة جيش حسان من حيث تعداده وعدته بقوله: لم يدخل إفريقية جيش مثله، وكان بداية الغزو في عام ٧٤ هـ^(٣).

اهتمامه بالتنظيم الإداري:

أنشأ حسان في إفريقية مدينةً إسلاميةً ثانية وهي تونس؛ التي أصبحت رباطاً يحمي القيروان ومحرساً للبحر وميناءً جديداً للبلاد، وصارت تونس ثانية عواصم إفريقية بعد القيروان التي ابتناها عقبة بن نافع زمن معاوية^(٤).

ولقد اهتم حسان بتعليم البربر مبادئ الإسلام، وترك معهم ثلاثة عشر رجلاً من علماء التابعين يعلمونهم القرآن الكريم وشرائع الدين، وبثّ الدعاة في مختلف القبائل لنشر الإسلام فبنوا المساجد، واستلموا المنابر، وانتشرت الكتابات لتعليم الأولاد مبادئ القراءة والكتابة^(٥).

١- ولد حسان بن النعمان بالشام، وأسلم عند الفتح الإسلامي للشام مع أهله، حفظ القرآن والسنة النبوية وأتقن العلوم الفقهية، وكانت وفاته سنة ٨٦ هـ..

٢- نهاية الأرب في فنون الأدب (٣٤/٢٤).

٣- الكامل في التاريخ (٨٢/٣).

٤- رياض النفوس (٣٧/١)، الإسلام والتعريب (١٦٢/١).

٥- البيان المغرب (٤٣/١)، الإسلام والتعريب (١٦٢/٢، ٣١١).

ب- موسى بن نصير^(١):

من أشهر قادة الفتح في إفريقيا تولى أمرها بعد حسان فاستطاع بعد حملاتٍ جهادية منظمة أن يسيطر على جميع الشمال الإفريقي من برقة حتى المحيط الأطلسي وأصبح بلا منازع سيد إفريقية^(٢). هذا وقد توجت هذه الانتصارات البحرية والبرية الرائعة بالتوجه نحو الأندلس وفق المخطط الذي وضعه موسى بن نصير ونفذه طارق بن زياد^(٣).

العبور:

أرسل موسى طارقاً في سبعة آلاف جنديٍّ من المسلمين أكثرهم من البربر والموالي، وأقلهم من العرب، ونزل طارق بالجنود عند جبل كالي، وهو الجبل الذي أخذ اسم طارق وصار يعرف باسم جبل طارق^(٤).

الخطبة المنسوبة إلى طارق وحرق السفن:

يعتقد كثيرٌ من المؤرخين أنَّ طارقاً أحرق سفنه، بعد أن أنزل جيشه على الساحل الأندلسي، ثمَّ خطب بهم الخطبة الشهيرة: أيها الناس، أين المفر؟! البحر من ورائكم، والعدو من أمامكم، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر...^(٥).

١- أبو عبد الرحمن موسى بن نصير (٦٤٠-٧١٦ م/١٩ هـ-٩٧ هـ) نشأ في دمشق وأصله من اليمن.

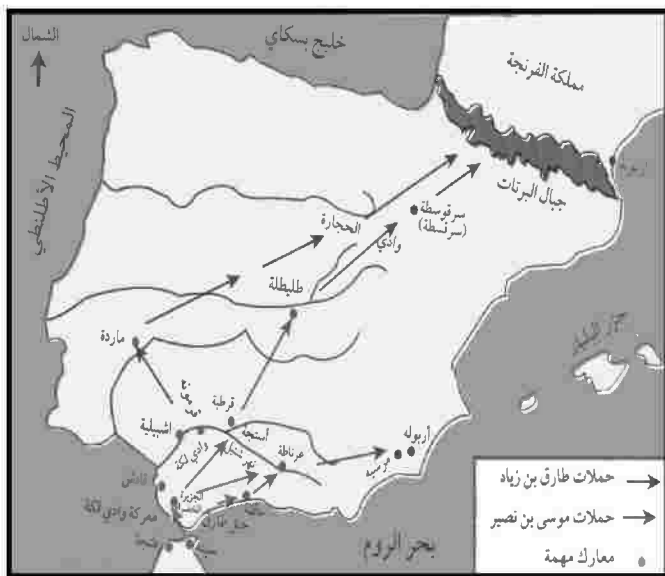
٢- مصر في العصر الأموي، ص (١٦١).

٣- المصدر السابق، ص (١٦٢). طارق بن زياد: ولد عام ٥٠ هـ في خنشلة في الجزائر، أسلم على يد موسى بن نصير أمير أفريقيا، فكان من أشد رجاله قوةً وحكمة. قاد أول الجيوش الإسلامية التي دخلت شبه جزيرة أيبيريا، ويعتبر طارق بن زياد من أشهر القادة العسكريين في التاريخ، توفي في سنة ٧٢٠ م.

٤- دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، ص (٢٩٩).

٥- وفيات الأعيان (٣٢١/٥، ٣٢٢).

فكيف يمكن للعاقل المنصف أن يصدق هذه الرواية، فلماذا يحرق طارق السفن، فإن كانت السفن للروم فليس من حقه أن يحرقها فهي غنائم للمسلمين،



وإن كانت للمسلمين فليس حرقها عملاً عسكرياً سليماً، ما دام يحتاج إليها وإلى النجدة في أي وقتٍ ممكن، كما أن طارقاً على كان قادراً على إعادتها إلى الساحل الإفريقي^(١). وإن المصادر الأندلسية لا

تشير إلى قصة إحراق السفن البتّة^(٢).

مصير كل من موسى بن نصير وطارق بن زياد:

بعد كل تلك الغزوات المشرقة التي جعلت من جنوب فرنسا حدوداً للدولة الإسلامية قام الوليد باستدعاء موسى إلى الشام، وأعاد الكثير من المؤرخين أن سبب ذلك هو خوف الوليد على المسلمين أن يكونوا في أرضٍ منقطعة^(٣).

١- التاريخ الأندلسي، ص (٦٢).

٢- المصدر السابق.

٣- دولة الإسلام في الأندلس (١/٥٤)، التاريخ الأندلسي، ص (١١٣).

ويؤكد كثير من المؤرخين أنه لو قُدِّر لموسى بن نصير أن يمضي قدماً في غزواته لتغير شكل النظام الدولي تماماً، ولدخلت أوروبا برمتها تحت منارة الحضارة الإسلامية، بدلاً من عصور الظلام التي كانت فيها.

سأل يزيد بن المهلب موسى بن نصير عن عدم انفصاله عن الدولة الأموية، وقد دخل تحت إمارته ما دخل من مسافات واسعة، فقال له موسى والله لا و أردت ذلك ما نالوا من أطرافي طرفاً، ولكنني آثرت الله ورسوله، ورفضت الخروج عن الطاعة والجماعة^(*).

كانت وفاة موسى بن نصير رحمه الله وهو متجهٌ إلى الحج برفقة سليمان بن عبد الملك وذلك أواخر سنة ٩٧هـ، وعمره ٧٨ عاماً^(١).

أمّا البطل طارق بن زياد، فلا نكاد نعرف شيئاً مما حدث له بعد وصوله دمشق مع موسى، غير أن رواية تذكر أن سليمان أعاد إرساله إلى بلاده فقد كان من البربر الذين حسن إسلامهم وخدموا دين الله^(٢)، فرحمة الله عليه.

٣- الفتوحات على الجبهة الشرقية:

من أشهر قوَّاد الفتح في المشرق المهلب بن أبي صفرة^(٣)، وابنه، وقتيبة بن مسلم الباهلي^(٤)،

*- الشرف والتسامي، ص (٢٧٩).

١- تاريخ علماء الأندلس (١٤٦/٢).

٢- فاتح الأندلس طارق بن زياد، ص (٤٥، ٤٦).

٣- المهلب بن أبي صفرة الأزدي: من أهم ولاة الأمويين على خراسان. عينه الحجاج عاملاً على خراسان عام (٧٨هـ - ٦٩٧م) فقام بفتوح واسعة فيما وراء بلاد النهر.

٤- قتيبة بن مسلم الباهلي: قائد إسلامي شهير قاد الفتوحات الإسلامية في بلاد آسيا الوسطى في القرن الأول الهجري. ولد في بيت إمارة وقيادة سنة ٤٩ هـ، بأرض العراق، قتل سنة ٩٦ هـ، وعمره ٤٨ سنة.

ومحمد بن القاسم الثقفي^(١) وهم جميعاً ولاؤه للحجاج فكان المسؤول عنهم وعن فتوحاتهم، وعلى الجملة فإن هذه الفتوحات أثمرت خيراً كثيراً، فمن أشهر الأقاليم التي افتتحها المسلمون في تلك البقاع في هذا العصر سمرقند، وبخارى، والسند، والهند^(٢)، لتنتهي حدود الدولة الإسلامية عند بلاد الصين.

تذكر كتب التاريخ أن قتيبة بن مسلم حطّ بجيوشه على حدود الصين، وبعث رسلاً لملك الصين فاستقبله الملك وقال: قولوا لقتيبة ينصرف، فإنني قد عرفت حرصه وقلة أصحابه، وإلا بعثت عليكم من يهلككم ويهلكه.

فرد عليه الرسول بكلّ حزم وإيمان: كيف يكون قليلُ الأصحاب من أول خيله في بلادك، وآخره في منابت الزيتون؟! وأما تخويفك إيانا فإن لنا آجالاً إذا حضرنا فأكرمها القتال، فلسنا نكرهه ولا نخافه.

أعادت هذه الكلمات ملك الصين إلى صوابه، وأيقن أنّه أمام قوة لا يجدي معه التحديد، فقال للرسول فما الذي يرضي صاحبكم: قال إنّهُ قد حلف ألا ينصرف حتى يبطأ أرضكم، ويعطى الجزية، قال فإننا نخرجه من يمينه، نبعث إليه بترااب من تراب أرضنا فيطوّه، ونبعث إليه بجزية يرضاه؛ فقبل قتيبة عرض الملك، وتّم الصلح، وأرغمت الصين على دفع الجزية للمسلمين^(*).

١ - محمد بن القاسم الثقفي: ولد سنة ٧٢هـ بمدينة الطائف.

٢ - سمرقند: تقع في آسيا الوسطى، ومعنى اسمها «قلعة الأرض»، وقد وصفها ابن بطوطة بقوله: «إنها من أكبر المدن وأحسنها وأتمها جمالاً، مبنية على شاطئ وادٍ يعرف بوادي القصّارين، وكانت تضم قصوراً عظيمة، وعمارة تُنبئ عن همم أهلها». بخارى: عاصمة ولاية بخارى في أوزبكستان وتعد خامس أكبر مدن أوزبكستان. وقد صنفت اليونسكو هذه المدينة القديمة بما فيها من المساجد والمدارس الإسلامية وهندستها المعمارية القديمة كأحد مواقع التراث العالمي. خوارزم: هو الاسم القديم لمدينة (خيو) التي كانت تابعة لإقليم خراسان الإسلامي وتقع اليوم في غرب أوزبكستان. ولد بها - على بعض الروايات - الخوارزمي عام ٧٨٠ م.

* - تاريخ الطبري (٤٠٤/٧) بتصريف طويل.

عامل من أنت مسؤول عنهم كما تحب أن يعاملك من هو مسؤول عنك

(٨) عمر بن عبد العزيز

(٩٩-١٠١ هـ)، (٧١٨-٨٠١ م)

أولاً: اسمه وأسرته وشيء من صفاته:

هو عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، الإمام العادل الحافظ الزاهد، أمير المؤمنين أشج بني أمية^(١).

١- والده:

هو عبد العزيز بن مروان، من خيار أمراء بني أمية، كان شجاعاً كريماً، بقي أميراً لمصر أكثر من عشرين سنة، زوجته أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وزواجه من آل الخطاب ما كان ليتّم لولا علمهم بحاله وحسن سيرته واهتمامه بالعلم والسنة^(٢).

٢- أمه:

كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يسير في الليل لتفقد الرعية بالمدينة، فسمع مرة امرأة تقول لبنتها: يا بنتاه قومي إلى ذلك اللبن فزيديه ماءً، فقالت البنت: أو ما علمت أن أمير المؤمنين منع أن يشاب اللبن بالماء، فقالت لها: قومي فافعلي ما أمرتك، فإنك بموضع لا يراك فيه عمر، فقالت الصبية لأُمها: والله ما كنت لأطيعه في الملاء وأعصيه في الخلاء، وعمر يسمع كل ذلك، فقال: لخادمه علّم الباب واعرف الموضع، فلما أصبح دعا أولاده، فجمعهم، فقال هل فيكم من يحتاج إلى امرأة فأزوجه... فقال

١- سير أعلام النبلاء (١٤٤/٥).

٢- عبد العزيز وسيرته وأثره، ص (٥٨).

عاصم: يا أبت لا زوجة لي فزوجني، فبعث إلى ذلك البيت فزوجه من الصبية، فولدت لعاصم بنتاً، وولدت البنت عمر بن عبد العزيز^(١).

٣- أشجُ بني أمية:

كان عمر رحمه الله يلقب بأشج بني أمية، وذلك أنَّ عمرَ عندما كان صغيراً دخل إلى إصطبل أبيه عندما كان والياً على مصر ليرى الخيل، فضربه فرسٌ في وجهه فشجّه، فجعل أبوه يمسح الدم عنه ويقول: إن كنت أشج بني أمية إنك إذا لسعيد^(٢). وذلك لأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يقول: إن من ولدي رجلاً بوجهه أثرٌ يملأ الأرض عدلاً^(٣). فتحققت رؤياه بحفيده عمر بن عبد العزيز.

٤- صفاته الخلقية:

كان رحمه الله أسمر رقيق الوجه أحسنه، نحيف الجسم حسن اللحية، غائر العينين بجهته أثر نفحة دابة، وقد خطه الشيب^(٤).

٥- مكانته العلمية:

اتفقت كلمة المترجمين له على أنه من أئمة زمانه، وقال فيه مجاهد: أتيناها نعلمه فما برحنا حتى تعلمنا منه^(٥).

١- سيرة عمر، لابن الحكم، ص (١٩، ٢٠).

٢- البداية والنهاية؛ نقلاً عن فقه عمر بن عبد العزيز (١/٢٠).

٣- المعارف، لابن قتيبة، ص (٣٦٢).

٤- الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز في العقيدة (١/٥٨).

٥- المصدر السابق (١/٦٧)، تهذيب التهذيب (٧/٤٠٥).

كان لعمر موقفٌ رائعٌ مع سليمان أيام خلافته؛ إذ كانا واقفين يوم عرفة. فجعل سليمان يعجب من كثرة الناس، فقال له عمر: «هـ. ولاء رعيتك اليوم، وخصماؤك يوم القيامة، فبكى سليمان، وقال: بالله أستعين»^(*).

ثانياً: حرصه على مبدأ الشورى في بيعته:

صعد عمر المنبر، وقال في أول لقاءٍ مع الأمة بعد استخلافه: أيها الناس! إني قد ابتليت بهذا الأمر عن غير رأيٍ كان مني فيه، ولا مشورةٍ من المسلمين، وإني قد خلعتُ ما في أعناقكم من بيعتي، فاختراروا لأنفسكم. فصاح الناس صيحةً واحدة: قد اخترناك يا أمير المؤمنين، ورضينا بك، فل أمرنا باليمن والبركة^(١).

وبذلك خرج عمر من مبدأ التوريث الذي تبناه معظم خلفاء بني أمية إلى مبدأ الشورى والانتخاب، ولم يكتفِ عمر باختياره ومبايعة الحاضرين، بل أهمه رأي المسلمين في الأمصار الأخرى؛ فبعث إليهم يخبرهم بأمر خلافته؛ فبايعوه لما عرفوا من حُسن سيرته قبل الخلافة^(٢).

ثالثاً: سياسته في رد المظالم:

بدأ عمر بنفسه في رد المظالم والحقوق لأهلها ومُستحقيها، ثم ثنى في ذلك بأهل بيته وبني عمومته من أفراد البيت الأموي، فجمعهم وطلب إليهم أن يُخرجوا مما بأيديهم من أموال وإقطاعاتٍ أخذوها بغير حق^(٣). ولم تمضِ أيامٌ معدودات حتى وجد بنو أمية أنفسهم مجردين إلا من حقهم الطبيعي المشروع، فضاقوا ذرعاً من سياسة عمر وعارضوه معارضةً صارمة.

*- البداية والنهاية، (١٢/٦٨٥).

١- عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم، ماجدة فيصل، ص (١٠٢).

٢- النموذج الحضاري المستخلص من إدارة عمر بن عبد العزيز، ص (٢٨٥).

٣- عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم، ماجدة فيصل، ص (٢١٥).

ولا ريب أن سياسة عمر تهدد مكانة الأسرة الأموية وتضعف قوتها، وقد تؤدي إلى دفعها لانتخاذ مواقف مهددة للخليفة القائم، وفي هذا خطر كبير عليه وعلى الخلافة^(١).

وعندما عجز أفراد البيت الأموي عن إقناعه أرسلوا إليه عمتهم فاطمة بنت مروان، وكانت مسموعة الكلمة مطاعة الأمر عندهم، فذهبت إلى عمر وحدثته حديثاً طويلاً، إلا أنها لم تفلح في إقناعه بالرجوع عن قراره؛ فلما خرجت إليهم قالت لهم: أنتم فعلتم ذلك بأنفسكم، وتزوجتم بأولاد عمر بن الخطاب رضي الله عنه فجاء يشبه جدّه، فسكتوا^(٢).

ثم سرعان ما تلاشت معارضتهم أمام حزم عمر في أمرهم.

حوادث التاريخ قيم المستقبل:

إنّ عصر عمر بن عبد العزيز يحملُ قيماً جميلةً، تذهل العقول، فعمر بإيمانه ورقّيه ترك لنا أساليب ووسائل حضاريّة ليتنا نتعلم منها، ونطبقها في كلّ مجالات حياتنا، ويا للأسف الشديد، أنّ كثيراً مما سنأتي على ذكره قد نسيه المسلمون، وأخذ الغرب بتنفيذه والعمل به وفقاً لأهدافهم ومجتمعاتهم، وإنّي أرجو من الله أن نعيد في مجتمعنا سيرة هذا الخليفة الأمويّ المؤمن الحضاريّ العظيم.

رابعاً: اهتمامه بأمر الرعية:

لقد أثرت شخصية عمر وسياسته العادلة تأثيراً بالغاً في الناس وفي رغباتهم؛ يدل على ذلك ما ذكره الطبري في تاريخه مقارناً عهد عمر بالعهود السابقة له: كان الوليد محباً للبناء والمصانع، فكان الناس يلتقون في زمانه ويناقشون أمور البناء

١- عمر بن عبد العزيز، صالح العلي، ص (١٩٥).

٢- الكامل في التاريخ (٣/٢٧١).

وزخرفة العمران، فلما ولي عمر كانوا يلتقون فيقول الرجل للرجل: كم تحفظ من القرآن؟ ومتى ختمت؟ وما تصوم من الشهر؟^(١).

١ - معاملته لأهل الذمة:

أنصف عمر أهل الذمة، وأمر أن لا يعتدى عليهم أو على معابدهم، وكتب إلى عماله: ألا تهدموا كنيسة ولا بيعة، ولا بيت نارٍ صولحتم عليه^(٢).

إن الإسلام دين العدالة والسماحة والاهتمام بالضعيف، والإسلام يهتم بكل من يعيش على أرضه ولو كان على غير دين الإسلام، وعم. ر. يجسد هذه القيم الرفيعة بتطبيقه أحكام هذا الدين، فمما أقره أيضاً أن الذمي إذا كبر ولم يكن له مالٌ ولا حميم ينفق عليه فإن نفقته من بيت مال المسلمين^(*).

٢ - دفع المهور من بيت المال:

اهتمَّ عمر بأداء مهور الزواج من بيت مال المسلمين لمن لم يستطع توفيره^(٣)، وهذا قرارٌ مهمٌ في إصلاح المجتمع، لأن صلاحه يتوقف على تحصين أبنائه بالزواج وقد يكون المهر عائقاً لبعض الفقراء دون الزواج، ولا سيما في حال غلاء المهور، فإذا أمّنت الدولة ذلك لمن لا يستطيع تأمينه؛ فإنها تُسهم في تكوين المجتمع الصالح وحفظه من أسباب الفساد^(٤).

١ - التجديد في الفكر الإسلامي، ص (٨٧).

٢ - تاريخ الطبري (٤٧٧/٧).

* - فقه عمر (٣٥٣/٢). الطبقات (٣٨٠/٥).

٣ - طبقات ابن سعد (٣٧٤/٥).

٤ - التاريخ الإسلامي (١٥، ١٦/١٣٩).

٣- الإنفاق على الفقراء:

خصص عمر داراً لإطعام الفقراء والمساكين وأبناء السبيل، ولم يكتفِ عمر بذلك بل امتدت رعايته إلى المرضى وذوي الاحتياجات والأيتام، وكتب بذلك إلى الولايات، فعم الأمن والرخاء الحضاري أرجاء الدولة^(١).

٤- الإنفاق على المسافرين:

اهتم عمر بالمسافرين وأبناء السبيل؛ فأمر عماله ببناء بيوت الضيافة على الطرق لرعاية المسافرين والاهتمام بهم، وأمر بالاهتمام بالحجاج، والإنفاق عليهم ورعاية ضعيفهم وإمداده بالمال إذا عجز عن العودة إلى بلاده^(٢).

٥- في أحكام السجناء:

أمر عمر بتعجيل النظر في أمور المتهمين، فمن كان عليه أدبٌ فيؤدب ويطلق سراحه، ومن لم يثبت عليه قضيةٌ يُخلَى سبيله، وأمر بالاهتمام بأحوالهم، ونوعية طعامهم وكسوتهم^(٣).

خامساً: جهود عمر والتابعين في خدمة السنة:

لعلَّ أولَ طلائع التدوين الرسمي للحديث النبوي، الذي قامت به جهة مسؤولةٌ في الدولة الإسلامية، كان على يد عبد العزيز بن مروان، بيد أنَّ التدوين الذي أتى ثماره هو ما قام به عمر بن عبد العزيز، وقد تجلَّى ذلك في إرشاداته لكتابة العلم وتدوين الحديث، وأوامره للخاصة والعامة بذلك.

١- سيرة ومناقب عمر، لابن الجوزي، ص (٢٠٢)، الطبقات (٣٧٨/٥).

٢- سيرة عمر، لابن عبد الحكم، ص (٦٥).

٣- فقه عمر (٢/٢٢٥، ٢٢٦).

فقد وجّه كتاباً بهذا الشأن إلى الإمام الحجة ابن شهاب الزهري^(١) يأمره بجمع السنن فيكتبها دفترًا دفترًا، وأن يُفعل ذات الأمر في كل الولايات^(٢). واهتم عمر باللغة العربية: فشجع أهل البلاد المفتوحة على تعلمها وإتقانها، وكان يغدق عليهم لأجل ذلك العطايا، كما أنه يعاقب من يلحن بالعربية وينقص من عطائه، لما يَعْلَمُه من أهمية العربية في فهم القرآن والسنة النبوية الشريفة^(٣). ويعتبر هذا التدوين الرسمي بحقّ أحد أهم الأعمال العظيمة التي تحققت في عهد عمر رحمه الله.

ومن أهم العلماء في عهده الحسن البصري: اسمه ونسبه:

هو أبو سعيد الحسن بن يسار - مولى زيد بن ثابت رضي الله عنه - من كبار التابعين، وإمام أهل البصرة وإليها ينسب، وحَبْرُ الأُمة وقتها، يعد من المعاصرين لعمر، كما أنه كان له تأثيرٌ واضح في الحياة الدينية والاجتماعية في عهد الدولة الأموية.

قسوة القلب وموته وإحيائه:

قال رجلٌ للحسن: يا أبا سعد، أشكو إليك قسوة قلبي، قال عليك بالذكر، وقال: «إن القلوب تموت وتحيأ، فإذا ماتت فاحملوها على الفرائض، وإذا أُحييت فأتبعوها بالتطوع»^(٤).

١- هو أبو بكر محمد بن مسلم بن عبد الله بن شهاب الزهري من بني زُهرة بن كلاب، كبير المحدثين وإمامهم بلا منازع، تابعي من أهل المدينة، وأول من دوّن الحديث، كان يحفظ ألفين ومائتي حديث نصفها مسند، وروي عنه أنه كان يسير ومعه الألواح والصحف، ويكتب كل ما يسمع.

٢- جامع بيان العلم (١/٩١، ٩٢).

٣- عمر بن عبد العزيز، للشرقاوي، ص (١٧٨).

٤- الزهد، للحسن البصري، ص (١٢٣، ١٢٤).

كثرة ذكر الموت:

قيل: رأى الحسن شيخاً في جنازة فلما فرغ من الدفن، قال له الحسن: يا شيخ، أسألك بربك: أتظن أن هذا الميت يود أن يردَّ إلى الدنيا فيتزيد من عمله الصالح ويستغفر الله من ذنوبه؟ فقال الشيخ: اللهم نعم، فقال الحسن: فما بالناس لا نكون كهذا الميت، ثم انصرف وهو يقول: أي موعظة! ما أنفعها لو بالقلوب حياة ولكن لا حياة لمن تنادي^(١).

وقال مرة: «إياكم وما شغل من الدنيا، فإن الدنيا كثيرة الاشتغال، ولا يفتح رجلٌ على نفسه باب شغلٍ، إلا أوشك ذلك الباب أن يفتح عليه عشرة أبواب»^(٢). ومن قوله أيضاً: «يا ابن آدم إنما أنت أيام، كلما ذهب يومٌ ذهب بعضك»^(٣).

من تلاميذ الحسن البصري:

• مالك بن دينار:

يذكر أنه دخل عليه لصٌ، فما وجد ما يأخذ، فناداه مالك: لم تجد شيئاً من الدنيا؛ أفترغب في شيءٍ من الآخرة؟ قال: نعم، قال توضأ، وصلَّ ركعتين، ففعل ثم جلس وخرج إلى المسجد، فسئل مالك: من هذا، فقال: جاء ليسرقنا فسرقتناه^(٤). وقال مرةً:

«خرج أهل الدنيا من الدنيا ولم يذوقوا أطيب شيءٍ فيها، فقيل: وما هو، قال: معرفة الله عز وجل».

١- المصدر السابق، ص (٢١).

٢- المصدر السابق، ص (٢٦).

٣- المصدر السابق، ص (٨١).

٤- سير أعلام النبلاء (٥/٣٦٣).

● محمد بن واسع:

الإمام الرباني القدوة، كان من ضمن جيش قتيبة بن مسلم، وقد قام مدةً في خراسان يعلم أهلها، ومن أقواله:

«إذا أقبل العبد بقلبه على الله أقبل الله بقلوب العباد عليه»^(١).

سادساً: الاهتمام بالدعوة والعلم الشرعي:

ألزم عمر الدولة بكفالة عدد من العلماء والدعاة والمفكرين، كي تتيح لهم التفرغ الكامل لإنجاز مشاريع فكرية دعوية تخدم المجتمع الذي هو أساس الدولة ومنشؤها، فأجرى لهم الأرزاق، ورَتَّبَ لهم الرواتب ليتفرغوا لنشر العلم، فشجع بذلك كل من وجد في نفسه الإمكانية لنشر العلم وخدمة الدين والأمة^(٢). فكان يمنح من بيت المال مبلغاً قدره مئة دينار لكل من انقطع إلى المسجد في بلدٍ إسلامي، لغرض التفقه ونشر العلم، وتدريس القرآن الكريم وتلاوته.

سابعاً: الفتوحات:

كانت سياسة عمر تقوم على ضبط الثغور وحدود الدولة الإسلامية، والاهتمام بفتح العقول، وإحياء القلوب، وتطهير النفوس للشعوب الجديدة التي دخلت في الإسلام، ولذلك بدأ يرسل سرايا الدعاة والعلماء للبدو القاطنين داخل الدولة الإسلامية وللشعوب التي كانت في أشد الحاجة لتعلم الإسلام^(٣).

١- المصدر السابق (٦/١١٩، ١٢١).

٢- عمر، عبد الستار الشيخ، ص (٧٢).

٣- الدولة الأموية، الصلابي، ص (٤١٨).

هذا شيءٌ من أخبار الخليفة العربي عمر بن عبد العزيز، الذي صدق فيه قوله تعالى: ﴿مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَلُوا بَدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٢].

ثامناً: أيامه الأخيرة:

١- آخر خطبة خطبها:

«أيها الناس، إنكم لم تخلقوا عبثاً ولن تتركوا سدى، وإن لكم معاداً ينزل الله فيه للحكم فيكم، والفصل بينكم، وقد خاب وخسر من خرج من رحمة الله التي وسعت كل شيء، وحرّم الجنة التي عرضها السموات والأرض. ألا ترون أنكم في كل يوم تشيعون غادياً ورائحاً إلى الله قد قضى نحباً. وانقضى أجله فتغيبونه في صدع من الأرض، ثم تدعونه غير موسى ولا ممد، فارق الأحباب، وخلع الأسباب، وسكن التراب، ليوافقه الحساب، وإيم الله إني لأقول لكم هذه المقالة وما أعلم عند أحد من الناس ذنوب أكثر مما عندى، فأستغفر الله وأتوب إليه. ثم رفع طرف رداءه فبكى حتى شهق، وأبكى الناس حوله، ثم نزل ولم يخطب بعدها حتى مات رحمه الله^(٩).

*- تاريخ الطبري (٧/٤٧٥).

٢- كيفية موته:

عندما ملّه بنو أمية، وضاقوا مما فعله بهم؛ من تجريد الأملاك، ومعاملة كأفراد الرعية، عمدوا إلى خادمه ووعدوه بألف دينار وأن يعتق إن هو أعطاه السم في الطعام، فكان الغلام يضطرب كلما أقبل على تلك الفعلة، فأخذوه وهددوه بالقتل إن لم يفعل، ففعل، فشرب عمر كوب مائه فأحسّ بالسم وعلم أنّها النهاية، فنادى الغلام وقال له: ويحك ما حملك على هذا؟ قال ألف دينار

توفي رحمه الله إثر هذه الجريمة التي لن ينساها التاريخ، وكان نقش خاتمه:
عمر بن عبد العزيز يؤمن بالله^(٣).

۱۷۱

(٩) يزيد بن عبد الملك

(١٠١-١٠٥ هـ)، (٧٢٠-٧٢٤ م)

أولاً: اسمه ونسبه وشيء من صفاته:

هو يزيد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم، أبو خالد القرشي الأموي، أمير المؤمنين، وأمه عاتكة بنت يزيد بن معاوية^(١). ولد بدمشق وكان رجلاً طويلاً جسيماً أبيض مدور الوجه^(٢).

كان قبل الخلافة محبوباً في قريش، بجميل مأخذه بنفسه وهديه وتواضعه وقصده، وكان الناس لا يشكّون إذا صار إليه الأمر أن يسير بسيرة عمر لما ظهر منه^(٣)، وقد تلقى تربيته على علماء من أهل الدين والفضل.

وكان يُكثر من مجالسة العلماء قبل أن يلي الخلافة، ويحضر مجالسهم، ويتأدب بأدابهم ويصغي لكلامهم ويقبل توجيهاتهم ويأخذ العلم عنهم، وقد كان رأي عمر بن عبد العزيز فيه حسناً^(٤). فعلى ما يبدو أنه بلغ درجة رفيعة من العلم، ولا سيّما حفظ الحديث وروايته مما جعل بعضهم يعدّه من المحدثين^(٥).

ثانياً: توليه الخلافة:

بويع له بالخلافة بعد عمر بن عبد العزيز، وسار في بداية حكمه بسيرة عمر ابن عبد العزيز إلا أنّه لم يستطع المواصلة.

١- البداية والنهاية (١٣/١٢).

٢- سير أعلام النبلاء (٥/١٥٠).

٣- الدولة الأموية في عهد يزيد، عبد الله الشريف ص ٤٦.

٤- الدولة الأموية في عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك ص (٦٥).

٥- الدولة الأموية في عهد يزيد، عبد الله الشريف ص (٦٥).

يقول الدكتور عبد الله الشريف: ... لكن الواضح أن قدراته السياسية وكفاءته الإدارية، لم تكن تؤهله لملء مكانة وقيادة الدولة باقتدار، أو تحقيق العظميم من المنجزات والفريد من السياسات التي تلتفت إليه الأنظار، فكذلك أن يزيد حاكماً عادياً، ليس سياسياً مقتدرًا كمعاوية، أو إدارياً ناجحاً كعبد الملك، أو مصلحاً كعمر، كما لم يكن سيئاً كابنه الوليد بن يزيد، ويمكن القول: إن توليه الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز جعل المفارقة بينه وبين عمر واضحة وكبيرة وأدت إلى عتامة صورته لدى جمهرة المسلمين^(٩).

ثالثاً: أعماله في فترة الخلافة:

حرص يزيد على بقاء دولته مهيبة مصونة في الداخل والخارج، ونجح في ذلك بإخماد كل الحركات الداخلية التي حدثت في زمنه وصدّ القوى الخارجية الطامعة في حدود دولته، وإن كان قد اتخذ في سبيل تحقيق ذلك سياساتٍ تخالف نهج سلفه عمر^(١).

ومن سمات سياسته الإدارية إتاحة الفرصة للموالي في إدارة الدولة، وشغل بعض الأعمال الكبيرة^(٢)، فقد سار يزيد على نهج عمر في استعمال الموالي في وظيفة القضاء.

١ - سياسة يزيد بن عبد الملك المالية:

قد عمل يزيد بن عبد الملك على ضبط الأمور المالية بما يكفل زيادة الواردات ونقص المصروفات في شيءٍ من الدقة والضبط والتشدد والجور، وذلك لتلبية ظروف الدولة في زمنه، والمتمثلة في خوض حروبٍ خارجية في كل الجبهات^(٣).

* - الدولة الأموية في عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك ص (٧٣).

١ - دراسة مقارنة، عماد الدين خليل، ص (٣٠٤).

٢ - الدولة الأموية في عهد الخليفة يزيد ص ٣٣٢.

٣ - المصدر السابق، ص (٤١٨، ٤١٩).

٢- الفتوحات في عهد يزيد بن عبد الملك:

نشطت الفتوحات الإسلامية في عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك، بعد حالة الاستقرار التي عاشتها أيام سلفه الخليفة عمر بن عبد العزيز، والذي لجأ لذلك لفعل شيء من التوازن من أجل التفرغ لحركة الإصلاح الكبرى التي شهدها عهده^(١). وشهد عصره، حملة من أهم الحملات التي قام بها المسلمون لفتح بلاد الغال^(٢) عن طريق الأندلس؛ وهي الغزوة التي قادها السموح بن مالك الخولاني (١٠١-١٠٢هـ) إلى تلك الأصقاع^(٣)، إلا أن تلك الحملة لم تحقق أهدافها.

رابعاً: كارل بروكلمان يرفض الروايات التي تطعن بيزيد:

لقد انتبه المستشرق كارل بروكلمان^(٤) إلى الروايات المزورة عن الخليفة الأموي يزيد بن عبد الملك، فقال فيه: والروايات المعادية للأمويين تصور يزيد الثاني كما صوّرت سميّه (يزيد الأول) من قبل رجلاً مستهتراً انغمس في مناعم اللهو والموسيقى، وشغلته القيان والمغنيات، فترك شؤون الأمصار إلى أمرائه وعماله يصرفونها كما يشاؤون. إلا أن الواقع يشهد أن عهده القصير ظلّ حافلاً بضروب النشاط الجدي حتى بعد القضاء على الفتنة بالعراق، فقد وُحِدَ الإدارة في مكة والمدينة وأدخل إصلاحات مالية كثيرة.. وإنّه لمن العسير أن يُنسب إلى مثل هذا الرجل من العاطفة ما جعله يحزن لوفاة جارية من جواريه- كما تحاول بعض الروايات أن تُثبت- حزناً أدى إلى وفاته^(٥).

١- المصدر نفسه ٢٣٣.

٢- بلاد الغال: تغني فرنسا أيام الإمبراطورية الرومانية .

٣- الدولة الأموية في عهد الخليفة يزيد ص (٢٩٠).

٤- كارل بروكلمان: (١٨٦٨-١٩٥٦) مستشرق ألماني يعتبر أحد أبرز المستشرقين في

العصر الحديث، وهو عالم بتاريخ الأدب العربي.

٥- تاريخ الشعوب، ج١، ص (١٨٣، ١٨٤).

خامساً: وفاة يزيد بن عبد الملك:

قيل إنَّ يزيد مرض بالسل، ومات يوم الجمعة لخمس بقين من شعبان من سنة ١٠٥هـ، وحمل على أعناق الرجال حتى دُفن بين باب الجابية وباب الصَّغير بدمشق، وكان قد عهد بالأمر من بعده لأخيه هشام ومن بعده لولده، فبايع الناس من بعده هشاماً^(١)، وكان نقش خاتم يزيد: قني السيئات يا عزيز^(٢).

١- المنتظم (٩٩/٧).

٢- البداية والنهاية (١٣/١٢).

إذا لم تحاول أن تفعل شيئاً أبعد مما قد أتقنته.. فأنت لا تتقدم أبداً
(رونالد.اسبورت)

(١٠) هشام بن عبد الملك

(١٠٥ - ١٢٥ هـ)، (٧٢٤ - ٧٤٤ م)

أولاً: اسمه ونسبه وشيء من صفاته:

هو هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم، أبو الوليد القرشي الأموي الدمشقي، أمير المؤمنين^(١). وكان جميلاً أبيض البشرة، وهو الرابع من ولد عبد الملك الذين ولّوا الخلافة، وكان ذكياً فيه حلم وأناة^(٢). قال فيه الذهبي: كان عاقلاً حازماً سائساً فيه ظلم وعدل^(٣).

ثانياً: نبذة عن حياته الخاصة:

١ - اتهامه بالبخل:

وُصف هشام بالبخل وجمع المال، قال الجاحظ: كان هشام يقول: ضع الدرهم على الدرهم يكون مالاً^(٤). ويبدو أن السبب في هذا الوصف شدة مراقبته للمال العام، فقد كان شديد المحاسبة للمشرفين على الديوان، وحريصاً على مال المسلمين ولذلك وصفه الشعراء والكتاب بالبخل؛ لأنّ الشعراء اعتادوا الهبات الكبيرة من ملوك بني أمية^(٥).

١ - البداية والنهاية (١٣/١٥١).

٢ - الكامل في التاريخ (٣/٣٠٨).

٣ - سير أعلام النبلاء (٥/٣٥٢).

٤ - عصر هشام بن عبد الملك ص (٥٩).

٥ - الخلافة الأموية، عبد المنعم الهاشمي ص (٣٧١).

وقد شهد لجدارته أحد خصومه حيث قال عبد الله بن علي بن العباس: جمعت دواوين بني مروان؛ فلم أر ديواناً أصحَّ ولا أصلح للعامة والسلطان من ديوان هشام^(١).

٢- اتهامه بشرب الخمر:

جاءت روايات لا يصحُّ إسنادها تُشير إلى أنَّ هشام بن عبد الملك كان يشرب الخمر، وتلك الروايات لا تصحُّ من حيث السند، كما أنَّ سيرة هشام منافيةٌ لهذا الاتهام الباطل، فقد عاقب وليَّ عهده، لإقباله على الشرب، كما كان يلزم ابنه مسلمة الأدب وحضور الجماعة^(٢).

٣- تربيته لأولاده:

اختار هشام لأولاده العالم الفاضل محمد بن مسلم بن عبيد الله ابن شهاب الزهري لتأديبهم^(٣)، واختار هشامٌ لأولاده أيضاً من يعلمهم اللغة والشعر وكان يحضر أحياناً مجالس مؤديبهم^(٤)، وكان يعطي مؤدبَ ولده ألف درهم كل شهر، إلى جانب الكسوة والجوائز^(٥).

كان من ثمرات هذه التربية الفاضلة ولادةُ حفيده عبد الرحمن بن معاوية بن هشام مؤسس الدولة الأموية في الأندلس.

١- عصر هشام بن عبد الملك، ص ٥٩.

٢- عصر هشام بن عبد الملك ص ٦٣.

٣- البداية والنهاية نقلاً عن عصر هشام بن عبد الملك ص ٧٣.

٤- عصر هشام بن عبد الملك ص ٧٣.

٥- مكانة المعلم في التراث العربي الإسلامي ص ١٥٤.

ثالثاً: أعمال خلافته:

١ - علاقته بالرعية:

كان هشام يستقبل وفود الأمصار فيلي حاجاتهم، ويخرج مع مستشاريه يصنعُ لهم الطعام بنفسه، فيأكل منه، ويأكل معه الناس، وإن نشبت بينه وبين أحدٍ من أشراف رعيته خصومةٌ لم يجد سبيلاً لقضاءها إلا أن يمثلَ بنفسه أمام القضاء مع خصمه ويُلزم أهل بيته بذلك، حتى لو كان خصم أحدهم نصرانياً^(١).

٢ - اهتمامه بالآثار الأدبية الخاصة بالأمم الأخرى:

كان الخليفة هشام بن عبد الملك مشغولاً بالاطلاع على الآثار الأدبية الخاصة بالأمم الأخرى، فقد أمر بترجمة كتبٍ عن تاريخ فارس وغيرها من الأمم، وتسرب هذا الشغف إلى المحيطين به، فترجم مولاه سالم بعض كتب أرسطو إلى العربية.

٣ - النظام الإداري:

كان النظام الإداري للولايات الأموية امتداداً للعهود التي سبقتها، وكانت الولايات أيام هشام بن عبد الملك بصورة عامة هادئة، سوى بعض حركات الخوارج التي قامت في العراق وثورة زيد بن علي بالكوفة، والدعوة العباسية التي كانت تنتشر بصمتٍ في خراسان، فإذا عُرف بعض أتباعها قُتلوا، أما في الأندلس وفرنسا فقد كانت فيها فتوحاتٌ عظيمة؛ فكان المجاهدون فيها لا يزالون بعيدين عن التناحر، ولكنه لم يلبث أن دخل إليهم، فانسحب المسلمون من وسط فرنسا

١ - الكامل في التاريخ (٣/٣٩٢).

بعد معركة بلاط الشهداء، واستقروا في جنوبها^(١).

٤ - الفتوحات:

لم يشهد عهد هشام فتوحاتٍ واسعةً كالتّي حدثت أيام الوليد، وإنّما كانت غزواتٍ يحدثُ فيها تقدّمٌ قليل ثم يعود المسلمون على إثرها إلى ثغورهم، أو تُفتحُ رقعةٌ صغيرة من الأرض، أو بعض الحصون، أو يحدث قتالٌ بسبب نقض العهد من قبل أعداء المسلمين، الأمر الذي يضطر فيه المسلمون إلى معاودة قتالهم وإجبارهم إلى طلب الصلح ثانية ودفع الجزية^(٢).

بلاط الشهداء:

من أشهر معارك الفتوح التي حدثت في عهد هشام معركة بلاط الشهداء التي قادها البطل المسلم عبد الرحمن الغافقي^(٣)؛ الذي اشتهر بورعه وتقواه وصلاحه، فقد استطاع هذا القائد العظيم أن يعبرَ جبال البرنيه^(٤) في أوائل عام ١١٤هـ، مع نحو سبعين ألفاً من المسلمين، فاستطاع فتح مدينة آزل، ثم سجّل

١- التاريخ الإسلامي، محمود شاكر (٢٦٧/٤).

٢- التاريخ الإسلامي (٢٧٤/٤).

٣- عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي: يعود نسبه إلى قبيلة غافق اليمنية، وهو قائد عربي مسلم وأمير الأندلس، شارك في فتح الأندلس في عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك، وتولى إمارتها مرتين عام ٧٢١م، ثم في عام ٧٣٠م، قام عبد الرحمن بإخماد الثورات والفتن القائمة في الأندلس بين العرب والبربر، وبين العرب أنفسهم، وعمل على تحسين وضع البلاد الأمني. استشهد في معركة بلاط الشهداء سنة (٧٣٢م) الموافق ١١٤هـ) قرب مدينتي تور وبواتيه الفرنسيتين وذلك بعد أن حاول فتح أراضي الفرنجة (فرنسا اليوم).

٤- سلسلة جبلية تقع جنوب غرب أوروبا، تشكل الحدود الطبيعية بين فرنسا وإسبانيا.

عبد الرحمن نصراً رائعاً على الدوق أودو، فأُسرع أودو إلى كارل مارتل يستنجد^(١)، ولا سيّما بعد أن اجتاحت الغافقي نصف فرنسا الجنوبي كلّ من الغرب إلى الشرق، ووصلت جيوش المسلمين للمرة الثانية إلى أبواب باريس في غضون سبع سنوات، واستولوا على بواتيه^(٢)، فأدرك حينها كارل مارتل أنّ دولة الفرنجة ذاتها هي الخطوة التالية للمسلمين، فقرر التحالف مع الدوق أودو لمواجهة الخطر الإسلامي المشترك، فكانت المنازلة الكبرى بين الجيش الإسلامي والجيش الفرنجي في ١١٤هـ/٧٣٢م في سهل يقع شمال بواتيه، فعرفت المعركة في المصادر الأجنبية باسم معركة بواتيه، ولكنها عرفت في المصادر العربية باسم بلاط الشهداء لكثرة من قُتل من المسلمين، وعلى رأسهم الغافقي فكانت الهزيمة للمسلمين^(٣).



لوحة فنية للفنان كارل فان ستوبين تصور معركة بلاط الشهداء أو بواتيه

-
- ١- عوامل النصر والهزيمة عبر تاريخنا الإسلامي ص ١٠٧.
 - ٢- مدينة تقع على نهر (كلين) في وسط غرب فرنسا، ومن هذه المدينة اكتسبت المعركة اسمها لدى الغرب.
 - ٣- الدولة الأموية دولة الفتوحات ص (٦٥).

كانت بواتييه «بلاط الشهداء» في أواسط تشرين الأول ٧٣٢م، أواخر شعبان ١١٤هـ، وتُثبت المراجع تفوق المسلمين على أعدائهم في بدء المعركة، ثم حدث أن اندفعت فرقة من الفرنجة إلى خلف صفوف المسلمين، حيث أودع المسلمون غنائمهم، فخشى الكثير منهم أن يستولي الفرنجة على غنائمهم، فالتفت بعضهم وعاد إلى الخلف ليُبعد الأعداء عنها، وهنا اضطربت صفوف المسلمين، واتسعت الثغرة التي دخل منها الفرنجة، ودار القتال بعنف وقوة فزلزل نظام المسلمين، وحاول عبد الرحمن بكل جهده أن يثبت جنده، ويُعيد النظام، وأن يصرف الجند عن الهلع عن الغنائم، فلم يُوفق، وأصابه سهمٌ أودي بحياته، فكان ذلك بداية الهزيمة؛ إذ انهال الفرنجة على المسلمين من كل جانب، وصبر المسلمون حتى أقبل الليل فانتهزوا فرصة حلول الظلام، وتسَلَّلوا متراجعين إلى الجنوب على عجل وكان ذلك في ٢٠ تشرين الأول ٧٣٢م أوائل شهر رمضان ١١٤هـ^(١).

لقد ترتب على نتائج بلاط الشهداء تغييرٌ مجرى التاريخ إلى حدٍ كبير، ولم تحُل هذه الصدمة دون إعادة الكرة على فرنسا، إذ إنَّ الهزيمة وحدها لم تكن لتوقف المسلمين عند هذا الحد، بل كانت لهم بعد بلاط الشهداء كراتٌ أعقبها النصر والفتح لبعض الحصون والمواقع، غير أنَّ أهمية بلاط الشهداء ترجع إلى أنَّ المسلمين ارتدوا عن فرنسا ولم يستطيعوا إخضاعها تماماً... ولو تحقق إخضاعها كاملةً لزالَت عصورها الوسطى المظلمة باكراً، ولحقت بركب الحضارة والتقدم في الأندلس خلال عيشها في رحاب الإسلام، فلا غرابة إذ إنَّ العديد من الكتَّاب الغربيين الذين رأوا روعة الإسلام وحضارته أينما حلَّ، عدُّوا نتيجة بلاط الشهداء نكبةً كبيرةً أصابت أوربة، وضربةً عنيفةً حرمتها من الحضارة المنيرة وكرامة

١- عوامل النصر والهزيمة ص (١٠٩).

الإنسان^(١) التي كانت في أوجها في الدولة الإسلامية آنذاك، بينما أورها تعيش في عصورها المظلمة.

الأثر الحضاري للفتوحات في عهد هشام:

كان قادة الخليفة في فتوحاتهم يتخبرون رُسُلهم من أهل العلم والورع والفضل لدعوة أهل الكفر إلى الإسلام، هذا مع استعانتهم بالمرجمين الحاذقين بلغة العدو، وكان الجند يواظبون على تلاوة القرآن الكريم ويتناشدون الأشعار فيما بينهم أثناء وجودهم في جبهة القتال، فكان ذلك يؤثر في حركتهم ونشاطهم ويزيد من حماسهم وتضحياتهم، وكان انتشر الفتوحات مرافقاً لانتشار الإسلام، فما من قرية تفتح حتى يدخلها العلماء وحفظة القرآن لتعليم أهل البلد، ودعوتهم للشريعة الإسلامية^(٢).

رابعاً: العلماء في عهد هشام:

حاول هشام أن يُمسك العصا من الوسط، فحاول أن يسير وسطاً بين سياسة عمر بن عبد العزيز الإسلامية الخالصة وسياسة الملك، ووسطاً بين عصبية القبائل القيسية واليمانية^(٣)، وهذا ما دعا الذهبي حين وصف سياسته أن يقول فيه: ... فيه ظلمٌ مع عدل^(٤).

١ - سالم بن عبد الله بن عمر مع هشام بن عبد الملك:

دخل هشام مرةً إلى الكعبة فإذا هو بسالم بن عبد الله بن عمر، فقال: سَلْنِي حاجتك، قال: إني أستحي من الله أن أسأل في بيته غيره، فلما خرجا قال: الآن

١- التاريخ الأندلسي ص ١٩٩، ٢٠٢.

٢- الإدارة العسكرية (٢/٧٣٠، ٧٣١).

٣- أثر العلماء على الحياة السياسية، ص ١١٦

٤- سير أعلام النبلاء (٥/٣٥٢).

فسلني حاجتك. فقال له سالم: من حوائج الدنيا أم من حوائج الآخرة؟ فقال: من حوائج الدنيا، قال: والله ما سألت الدنيا من يملكها فكيف أسألها من لا يملكها^(١).

٢ - الإمام محمد بن شهاب الزهري:

نشأ الإمام الزهري في المدينة المنورة بعد ولادته فيها، وكانت المدينة محطاً أنظار طلاب العلم، وعشاق المعرفة الذين وفدوا إليها من كل حذب وصوب، وقد بدأ رحمه الله طلبه للعلم باكراً وكان أول شيء اتجه إليه القرآن الكريم، فقد حفظه في ثمانين ليلة، وتعلّم علم الأنساب ثم السنة المطهرة، ومعرفة الحلال والحرام، ويعتبر الزهري من التابعين^(٢).

ويعدُّ الزهري من العلماء الذين خالطوا خلفاء بني أمية وصاحبوهم، وكانت له عندهم منزلة رفيعة، يقول عنه الذهبي: كان رحمه الله - محتشماً جليلاً له مكانة كبيرة في دولة بني أمية، ويُذكر أنه كان برتبة أمير^(٣).

كانت وفاة الزهري عن نيف وسبعين سنة ليلة الثلاثاء، لتسع عشرة أو لسبع عشرة ليلة خلت من شهر رمضان، سنة أربع وعشرين ومائة على أرجح الأقوال^(٤).

خامساً: وفاة هشام بن عبد الملك:

توفي - رحمه الله - عام ١٢٥ هـ^(٥)، وكان نقش خاتمه: الحُكْمُ لِلْحَكَمِ الْحَكِيمِ^(٦).

١ - سير أعلام النبلاء (٤٦/٤).

٢ - تذكرة الحفاظ (١٨٠/١)، سير أعلام النبلاء (٩٣/٥).

٣ - سير أعلام النبلاء (٣٣٧/٥ ، ٣٤١).

٤ - السنة قبل التدوين، ص (٥٠٠).

٥ - البداية والنهاية (١٥٨/١٣).

٦ - المصدر السابق (١٥٩/١٣).

سادساً: هشام وولاية العهد:

كان هشام خليفةً مهيباً فيه حكمة وقوة من سبقه من خلفاء بني أمية، ولكنه لم يتكر شيئاً جديداً للأمة، ولم يضيف لصفحة إنجازات الأمويين شيئاً يذكر، بل إنَّه عندما أراد أن يحدث شيئاً جديداً بعزل ولي عهده - ابن أخيه يزيد - وذلك لقلَّة حكمته، ولهو زاد الأمر سوءاً، إذ شاور جميع أركان دولته بهذا وأخذ منهم العهود والموافقة، إلا أنَّه تردد في حسم الأمر وسبقته المنية، فاعتلى الوليد عرش الخلافة من بعده لينتقم ممن وافق على خلعه من رجال الدولة وقادتها^(١).

١ - ولذا اخترنا لهشام بن عبد الملك جملة رونالد. اسبورت.

(١١) الوليد بن يزيد بن عبد الملك

(١٢٥هـ / ٧٤٤م)

أولاً: اسمه وشيء من صفاته:

هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم، أبو العباس الأموي الدمشقي، ولد سنة ٩٠هـ / ٧٠٩هـ^(١). ويقول العصامي: كان أكمل بني أمية أدباً وفصاحةً، وأعرفهم باللغة والحديث، وكان جواداً، وتبالغ بعض المصادر في وصف سلوكه السيئ، في حين تنفي بعض المصادر الأخرى عنه ذلك، وتصفه بالخليفة المجمع عليه^(٢).

ثانياً: أعماله في فترة الخلافة:

استهل الوليد خلافته بالاهتمام بأحوال رعيته اهتماماً شاملاً؛ إذ شرع في إعداد الخطط، وجدّ في تنفيذها لتحسين أوضاع المواطنين المعيشية تحسناً ملحوظاً، كسباً لودّهم، وإظهاراً لفضله على هشام بن عبد الملك، ولبلوغ هذه الأهداف اتخذ الوليد ثلاثة قرارات:

١- رفع مستوى الخدمات التي تُقدمها الدولة: للمواطنين في العاصمة، فوأسى البؤساء والضعفاء والعجزة والقاعدين والمكفوفين من أهل الشام ووزّع المعونات والهدايا على أطفالهم^(٣).

٢- زيادة رواتب المواطنين المسجلين في ديوان العطاء: فرفع رواتب أهل الأمصار جميعاً عشرة دراهم، ومنح أهل الشام عشرة دراهم أخرى، وضايف

١- تاريخ الخلفاء، ص (٢٥٠)، الخلافة الأموية، للهاشمي، ص (٣٨٩).

٢- الكامل في التاريخ نقلاً عن الخلافة الأموية ص (٣٩٠).

٣- سيرة الوليد بن يزيد، د. حسين عطوان، ص (٢٥٥).

الأعطيات والهبات لأقربائه الذين قدموا عليه، وأعلنوا مساندتهم له، وأكرم كلَّ من قصدوه وسألوه، وتألَّفَ أهلَ المدينة ومكة واسترضاهم، فأعاد إليهم أرزاقهم وحقوقهم المالية.. فأنفق الوليد في هذه الوجوه والسبل الإصلاحية ما حاز من ثروة هشام، وما وجد في خزائن الدولة من أموال، حتَّى أفلس، ووقع في ضائقةٍ خانقة^(١).

٣- اهتمامه بشؤون الدولة العسكرية: اعتنى الوليد بشؤون الدولة العسكرية، ولم يُفِرِّط فيها ولكنَّ حركة الجهاد كانت قد ضعُفت منذ نهاية العقد الأخير من القرن الأول، وتحوَّل دور المسلمين في حدودهم الشرقية مع الترك، وحدودهم الشمالية مع الروم من الهجوم والفتح إلى الدفاع والحفاظ على البلدان التي نشروا الإسلام فيها، وبسطوا سلطانهم عليها، ومع ذلك فإنَّه تَمَّت في عهد الوليد بعض الفتوح الجديدة، وأغار بعض إخوته على الروم غاراتٍ كثيرة ناجحة^(٢)، ففتحت قبرص في عهده.

ثالثاً: يزيد بن الوليد بن عبد الملك والانتقال:

كثُر الأمراء الأمويون في الفترة الأخيرة من دولتهم، وكان أغلبهم من ذرية عبد الملك وعبد العزيز، ومحمد بن مروان بن الحكم، وأقلهم من حفدة يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، ويستفاد من أخبارهم أنَّهم كانوا طائفتين، فمعظمُ الأمراء الصغار من أولاد الوليد وهشام والحجاج بن عبد الملك بن مروان، ومن أبناء عمر بن عبد العزيز كانوا عصابة واحدة على الوليد، جمع بينهم التَّدبُّر منه والمنافسة له والطمع في عزله، وكان يزيد بن الوليد بن عبد الملك أدهى خصوم الوليد وأشدَّهم طعنًا فيه، وأكثرهم تحريضاً عليه، وأقواهم عزماً على الإطاحة به،

١- المصدر السابق، ص (٢٥٦).

٢- المصدر السابق، ص (٢٥٧).

وقد حاول أخوه العباس بن الوليد أن يعارضه ويمنعه من الخروج عن الطاعة حرصاً على وحدة بني أمية ومصلحتهم وحمايةً لسلطانهم ودولتهم^(١).

إلا أن يزيد أصرَّ على خروجه، فأقنع الأمراء الصغار بضرورة الثورة على الخليفة الوليد، فأجابوه لذلك مما علموا من تواضعه وأخلاقه الرفيعة. وقد ذكر بعض المؤرخين أن يزيد كان ابن أم فارسية، ولم يكن له من المنزلة في الأسرة المروانية ما كان لغيره من أبناء الخلفاء من الحرائر العرييات، فحُرم هو وإخوته وسواهم من الأمراء الأمويين من أبناء الأعجميات من الخلافة^(٢).

ويقول الدكتور الصلابي في مسألة يزيد بن الوليد: «ورأيي أن يزيد. د. ب. ن. الوليد بن عبد الملك طالب ملك، وصراعه مع ابن عمه. ه. الوليد. د. سياس. ي، ولأجل ذلك نظم يزيد حملةً إعلاميةً شرسةً لتلطيخ سمعة الوليد. د، وس. د. حب بساط الخلافة من تحته»^(*).

بدء المعركة:

وضع يزيد بن الوليد خطةً محكمةً لإعلان الحركة، واستيلائها على مقاليد الأمور بدمشق، مُستغلاً الظروف في تلك الفترة؛ فقد انتشر الطاعون في بلاد الشام، إضافةً إلى انحباس المطر وانتشار الجفاف، وكانت العاصمة دمشق خاليةً في تلك الأيام من الخليفة وكبار رجال دولته، حيث كان الخليفة الوليد بن يزيد معتزلاً في البادية للعلاج من عارضٍ صحيٍّ ألمَّ به، وتجنباً من الطاعون^(٣). فبدأ

١- المصدر السابق، ص (٢٨٥، ٢٨٦).

٢- سيرة الوليد بن يزيد، ص (٣١٩).

*- الدولة الأموية، د. الصلابي، ج ٢، ص (٦٧٠).

٣- القدرية جدلية الدين والسياسية في الإسلام ١٠٤.

يزيد بتحركاته ليلة الجمعة ٢١ جمادى الآخرة ١٢٦هـ / ٩ نيسان ٧٤٤م، فاستطاع السيطرة على دمشق، وبدأ يستميل أهلها بالعطايا استعداداً للخروج على الخليفة والقضاء عليه^(١).

ووصلت الجيوش المعارضة إلى الخليفة، وابتدأ القتال بين الجانبين، وكان نجاح المعركة في صف المعارضين نظراً لاستعدادهم التام لهذا الأمر، على عكس الخليفة الذي لم يكن يتوقع هذا الهجوم الغادر.

وتمكن المعارضون من محاصرة قصر الخليفة، ودخلوا عليه من كل جانب فحاول الخليفة استعطاف جيش الحركة بتذكيرهم بمآثره عندهم، فدنا من باب القصر، وقال: هل فيكم رجلٌ شريف له حسبٌ وحياءٌ أكلّمه، فقام له رجلٌ يدعى يزيد بن عنبسة السكسكي، فقال له الوليد: يا أبا السكاسك ألم أزد في أعطياتكم؟ ألم أدفع المؤن عنكم؟ ألم أعط فقراءكم؟ ألم أخدم زمناكم؟ فقال: إنّنا ما ننقم عليك في أنفسنا، ولكن ننقم عليك في انتهاك ما حرم الله فقال الخليفة: حسبك يا أبا السكاسك، فلعمري لقد أكثرت وأغرقت، وإنّ فيما أحل الله لي لسعةً عمّا ذكرت^(٢).

ولكن لم يجد الخليفة آذاناً صاغية من أفراد جيش المعارضة، فرجع عندها الوليد إلى داخل الحصن، ونشر مصحفاً يقرؤه بين يديه وقال: يوم كيوم عثمان^(٣).

فكان قتله في يوم الخميس ٢٧ جمادى الآخرة ١٢٦هـ / ١٦ نيسان ٧٤٤م، وكان خاتم الوليد منقوش عليه: يا وليد احذر الموت^(٤).

١- انظر: تاريخ الطبري (١١٨/٨).

٢- تاريخ الطبري (١٢٢/٨).

٣- المصدر نفسه (١٢٢/٨).

٤- تاريخ القضاعي ص ٣٧٥.

رابعاً: نتائج قتل الوليد:

- أ- ضعفُ الخلافة الأموية، وذهاب هيبتها وضياع جلالها وانهيار سلطانها على العامة والخاصة والجند في الأمصار المختلفة وذلك بسبب مقتل الوليد بن يزيد.
- ب- نشأ عن قتل الوليد تفسخُ الأسرة الأموية بفرعيها السُفْياني والمرواني وتناحرهما وتفانيهما في سبيل الفوز بالحكم والملك^(١).
- ج- تتابع الفتن: اضطرب حبل بني مروان بعد مقتل الوليد وهاجت الفتن وتتابع الأحداث، ولم تنقطع إلا بزوال الملك.

خامساً: شهادة العباسيين بالوليد:

كان المهدي الخليفة العباسي إذ ذُكر الوليد في مجلسه يقول: رحمه الله، ولا رحم قاتله، فإنه كان خليفة مجمعاً عليه. وقيل لـه: إن الوليد د.ك.ان زنديقاً، فقال: إن خلافة الله أعز وأجلُّ من أن يوليها من لا يؤمن به^(*). ويروى أن ابناً للغمر بن يزيد بن عبد الملك دخل على الرشيد الخليفة العباسي فقال: ممن أنت ؟ قال: من قریش، قال: من أيها؟ فأمسك، فقال: قل وأنت آمن ولو أنك مرواني، فقال: أنا ابن الغمر بن يزيد، فقال: رحمه الله عمك، ولعن يزيد الناقص وقتله عمك جميعاً، فإنهم قتلوا خليفة مجمعاً عليه ارفع حوائجك لأفضيها لك^(*).

١- سيرة الوليد بن يزيد ص ٣٣٠.

*- أنساب الإشراف نقلاً عن سيرة الوليد بن يزيد ص ٢٣٧.

*- الكامل في التاريخ (٤١٢/٣).

(١٢) يزيد بن الوليد بن عبد الملك

(١٢٦هـ/٧٤٥م)

أولاً: اسمه ونسبه:

هو يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم، وأمه شاه آفريد بنت فيروز بن يزدجرد، آخر ملوك الفرس^(١)، وكان يجمع في أصوله بين الدم العربي والفارسي والرومي والتركي، فجدّه لأبيه عبد الملك بن مروان، وهو عربي، وجدّه لأمّه فيروز بن يزدجرد وهو فارسي، وجدة جدّه لأمّه ابنة قيصر، وأم جدته لأمّه ابنة خاقان الترك^(٢)، فكان يفخر بذلك ويقول:

أنا ابنُ كسرى وأبي مروان وقيصرُ جدي وجدي خاقان^(٣)

ثانياً: خلافته:

لم تدم خلافة يزيد التي خرقت الصفّ الأموي أكثر من ستة أشهر إذ توفي بالطاعون^(٤)، وكان نقش خاتمه: يا يزيد قم بالحق^(٥).

ثالثاً: ولاية العهد:

ولي بعد يزيد أخوه إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك بن الحكم، وأمه أمة بربرية، وكان قد بويع له بالخلافة بعد وفاة أخيه يزيد بعهدٍ منه، في نهاية ذي حجة سنة ١٢٦هـ ولكن لم يتمّ له الأمر، فكان الناس كما يقول الطبري: جمعة

١- سير أعلام النبلاء (٣٧٤/٥) العالم الإسلامي في العصر الأموي ص ٢٠٣

٢- العالم الإسلامي في العصر الأموي ص ٢٠٣.

٣- سير أعلام النبلاء (٣٧٥/٥).

٤- المصدر السابق (٣٧٦/٥).

٥- تاريخ القضاء، ص (٣٧٧).

يسلمون عليه بالخلافة وجمعةً بالإمارة، وجمعةً لا يسلمون عيه بالخلافة ولا بالإمارة^(١).

وفي تلك الأثناء علم مروان بن محمد بن مروان بن الحكم بوفاة يزيد وبيعة أخيه إبراهيم فأخذ يزحف إلى دمشق ففرَّ إبراهيم وبعض الأمراء هارين قبل قدومه؛ وكان قد خرج مروان للمطالبة بدم الوليد بن يزيد، وإنهاء هذا التحارب والاختلاف بين الأمراء الصغار، فلمَّا دخل دمشق بايعه الناس بعد أن أخبروه بهرب الأمراء الصغار، وبذلك أصبح مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين^(٢).

١- تاريخ الطبري (١٨٢/٨).

٢- تاريخ الطبري (١٩٥/٨، ١٩٦).

(١٢) مروان بن محمد

(١٢٧ - ١٣٢ هـ)، (٧٤٤ - ٧٤٩ م)

أولاً: اسمه ونسبه:

هو مروان بن محمد بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية، كنيته أبو عبد الملك، أمير المؤمنين، آخر الخلفاء الأمويين ولقب الجعدي نسبةً إلى مؤدبه الجعد بن درهم^(١) ولقب بالحمار؛ لصبره على الحروب والوقائع التي مرّت على رأسه أيام إمارته وخلافته^(٢). وتلقب بالحمار من ظلم المؤرخين لأنها تسمية بعيدة عن العدل والإنصاف؛ إذ كان الأولى أن يسمى الشجاع أو الصبور.

ثانياً: صفاته:

كان - رحمه الله - مشهوراً بالفروسية والإقدام، والرجولة والدهاء وكان أشقر، أبيض مشرباً بحمرة، أزرق العينين كبير اللحية، ضخم الهامة، وكان شجاعاً بطلاً مقداماً حازم الري^(٣).

وكان مروان من القادة المبدعين، فهو إلى جانب مهارته في القيادة وحيله الحربية ومعرفته بنفوس الحاربيين، كان يفاجئ العدو بخطط حربية لم يألّفها، فكان بعدد صغير من الجيش يقضي على عدد كبير من الأعداء، ويذكرنا مروان بن محمد في حروبه برومل^(٤) بطل الألمان في حربه للإنجليز بشمال إفريقيا في الحرب العالمية الأخيرة^(٥).

١- تاريخ الخلفاء ص (٢٥٤)، البداية والنهاية (٢٦٢/١٣).

٢- الحركات المناهضة لخلافة مروان بن محمد، مهند ماهر ص ١٩.

٣- سمط النجوم (٢٢٩/٣) الخلافة الأموية للهاشيم ص (٤٠٩).

٤- إرفين رومل بالألمانية: (Erwin Rommel): ١٨٩١ - ١٩٤٤، كان يلقب بشعلب الصحراء أثناء قيادته للقوات الألمانية في شمال إفريقيا سنة ١٩٤٢.

٥- الدولة الأموية، يوسف العش، ص (٤١٠).

فكان من عبقرية مروان أنه لم يعتمد على التنظيم القبلي، بل جعل جيشه مقسماً أقساماً متشابهة متكاملة في أجزائها، تستطيع الفرقة أن تلعب في ميدان القتال بمفردها ما تفعله عدة قبائل غير متجانسة، وكان مروان يلقي بكتيبة من كتائبه في الحرب فرقة بعد فرقة، فإذا ظن العدو أنه تمكن من الكتيبة التي تحاربه، أته كتيبة أخرى تذهله بقوتها الجديدة.

أضف إلى ذلك أن مروان كان شيخاً محنكاً حين توفي يزيد بن الوليد، فقد كان تجاوز الخامسة والخمسين من العمر، وكان يعد شيخ بني أمية، وهو رجل ذو طموح عجيب، وقد وجد أن من بقي من بني أمية لم يكونوا بمستواه من القدرة والقوة والكفاية، فطمع بالخلافة، وتلك بادرة من بوادر انهيار الدولة الأموية، فبدلاً من أن تنتقل الخلافة بالعهد - كما هو السائد في النظام الأموي - صار الطامحون يسعون إليها بالقوة، أو بالمؤامرات، كما فعل يزيد بن الوليد قبل مجيء مروان^(١).

وبالرغم مما كان يتمتع به مروان بن محمد من صفاتٍ مثل الشجاعة والإقدام وسداد الرأي وغيرها من الصفات التي تؤهله لمنصب الخلافة، إلا أن الله قدّر أن تُكتب على يديه نهاية الدولة الأموية، وأن يكون هو الفصل الأخير في تاريخها، وقد لا يكون هو المسؤول الأول عن ذلك، فإن العوامل التي أدت إلى زوال الدولة كانت تتفاعل منذ زمن بعيد، فقدّر له وحده أن يصارع أحداثاً كانت كلها تعمل ضده، وأولها انقسام الأمويين على أنفسهم^(٢).

١ - الدولة الأموية، ص (٣٠٦).

٢ - الدولة الأموية، د. الصلابي، ج ٢، ص (٦٩٣)

ثالثاً: خلافته وزوال الدولة:

بدأت الأمور وكأنَّها آخذةٌ في الاستقرار له، ولكنَّ ذلك الهدوء لم يكن إلا بمنزلة السكون الذي يسبق العاصفة، فلم تلبث الأنبياءُ أن وافت دار الخليفة بنشوب الاضطراب في الشام مرَّةً ثانية، وبسريان حمَّى الثورة من جديد^(١).

فسرعان ما قلبَ له أمراءُ بني أمية وجوهمهم ، وقابلوه بالعصيان والتمرد^(٢). وفي هذا الجو العصيب الذي انقسم فيه الأمويون على أنفسهم وأخذوا يحاربون بعضهم البعض، وبينما مروان يحاولُ رأب الصدع وإعادة الأمور إلى نصابها في الشام والحجاز والعراق واليمن، وينتقل من ميدانٍ إلى ميدان، فاجأته الثورة العباسية من خراسان كالسيل المُنهمر، فاكسحت قوَّاته في خراسان والعراق، ثمَّ كانت هزيمته الساحقة في موقعة الزاب في جمادى الآخرة ١٣٢ هـ محاولاً مواجهة جيوش الثورة العباسية، فهرب إلى مصر وقُتل هناك في ذي الحجة من العام نفسه^(٣).

١- العالم الإسلامي في العصر الأموي ص (٢١٠).

٢- المصدر نفسه ص (٢١٢).

٣- العالم الإسلامي في العصر الأموي ص (٢١٤).

إيضاحات

مروان بن محمد وعبد الملك بن مروان

واجه مروان بن محمد الظروف ذاتها التي سبق أن واجهها عمه عبد الملك بن مروان، حيث قمع الثورات الداخلية بين القبائل الناتجة عن أزمة ما بعد معاوية الثاني، وأسقط دولة ابن الزبير التي كانت قائمة فعلاً، لا في طور التأسيس كما هي دولة بني العباس عهد مروان بن محمد، ومن ثمَّ نحن لا ننقص محمد بن مروان حقَّه ووزنه التاريخي، ولكننا نشير أنَّه لو كانت عزيمة وحكمة محمد شبيهةً بعزيمة وحكمة عمه عبد الملك؛ لاستطاع أن يعيد الأمور إلى نصابها ولكن يبدو أنَّ الخطر الذي هدد دولة الأمويين كان قد عظمُ تراكمه فغلب محمداً ودولته.

الخاتمة

قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران، آية: ٢٦].

فقد حان وقت زوال ملك بني أمية، وساق الله لذلك الأسباب؛ ولعلَّ أبرزها الانهزام الكبير لجيوشهم في معركة الزاب، فقد تحركت جيوش الثورة العباسية التي كان يقودها داود بن علي بن عبد الله بن العباس لملاقاة جيوش الدولة الأموية التي كان يقودها الخليفة الأموي مروان بن محمد الذي تخندق بين دجلة والزاب الكبير، وكانت القوات الأموية والعباسية بنفس العدد تقريباً على أنَّ الأمويين لم يكونوا بنفس الانسجام والقوة المعنوية التي تميَّز بها جند الدعوة العباسية، وقد عملت العصبية القبلية عملها في جيش مروان الذي كان يتكون في غالبيته من القبائل القيسية^(١).

وكلمة الحق والإنصاف تقول: إنَّه لو لم تخرج الرايات السود من خراسان حاملةً معها عرش الخلافة العباسية، لتمكن مروان من إعادة الأمور إلى نصابها، لتشرق الشمس الأموية من جديد، كما أشرقت من قبل على يديَّ جده مروان ابن الحكم، إلا أنَّ مشيئة الله سبحانه وتعالى في اختبار الأمم أنهت نهار الأمويين برايتهم البيضاء، ليبدأ الليل العباسي برايته السوداء.

وهكذا انتهت اثنتان وتسعون سنةً من الفتوحات المذهلة، والأسس الرائعة في ميادين إدارة الدول واقتصادها، واللبنة الأولى للعلوم والترجمة وأصول الشريعة، وروائع الأشعار البليغة، وأخيراً أجماد العرب الذين آمنوا بأنَّ الإسلام أصلُ مجدٍ وعِزةٍ عروبتهم.

١ - الثورة العباسية ص (١٥٣)، تاريخ خليفة ص (٢٩٧).

لقد كانت حدود الأمويين مفخرة للعرب؛ فالصين شرقاً والمحيط الأطلسي غرباً، وصحراء إفريقية جنوباً، وفرنسا في الشمال الغربي والإمبراطورية البيزنطية في الشمال الشرقي، فهي دولةٌ واسعة يقودها رجلٌ واحد لا لأنه يملك كل أسباب الحكم، بل لأنَّ الأُمَّةَ بأجمعها ولاةً وقادةً وأفراداً قد آمنوا بحكمة خليفتهم، وبايعوه على ما فيه صلاح أمرهم وأمن حياتهم، هذه هي حضارة الإسلام التي ما زالت قصورها ومتاحفها وجهةً لعلماء التاريخ والآثار والسياح أيضاً من مختلف أنحاء العالم إلى يومنا هذا.

ولا ننسى الأعمال الإدارية اللامعة لعبد الملك بن مروان؛ التي لو جمعت بكتبٍ في ذلك الزمان لدرّست إلى يومنا هذا؛ فقد عرّب دواوين دولته ففرض بذلك لغة دينه وقرآنه الذي نزل بلغة قومه، وعرّب الأموال فحرّر من بعده من تبعيّة مذلة للروم، فقد علم ببُعد نظره أنَّ علاقة دولته بدولة الروم علاقةُ حربٍ، ولا بدَّ أن تنتهي على يد المسلمين بالنصر - الذي أنجزه السلطان العثماني محمد الثاني - فليس المناسب أن تبقى الدولة المسلمة مرتبطةً بعملة عدوها.

وللهُ درُّ المسلمين إن نسوا سيرة الخليفة الراشدي عمر بن عبد العزيز؛ الذي رسم أبواب الحضارة والرقى، وزيّن العالم بالرفعة والعزة، من خلال تقيّده بأركان الإسلام وهدى المصطفى عليه أفضل الصلاة والسلام، فكان عهده يوم صفاءٍ في نهار الأمويين؛ فاختمى الفقر والتسول عندما أصرَّ هذا العربي المؤمن على تطبيق الزكاة والإشراف عليها، وارتقت خصالُ وتصرفاتُ المسلمين بفضل اهتمامه بالشيوخ والمفكرين الذين انكبوا على علمهم ليعلموا المسلمين شرائع دينهم، بل دخل الناس في دين الله أفواجاً.

لن ننسى التاريخ الأموي أبداً، ولن نسمح أن يُلَوَّثَ أو يُحرف؛ فهو تاريخ العرب الذين آمنوا بالإسلام، فانتصروا بالإسلام وانتصر الإسلام بهم.

الدَّولة العباسيَّة

شمسُ الحضارة الإسلاميَّة

مقدمة

بعد أن وقفنا على أبرز أحداث الخلافة الأموية، وما كان من أمر خلفائها، وتاريخ فتوحاتها، نكمل مع التاريخ الإسلامي العريق، ومع الباب الثالث الذي سنتحدث فيه عن الخلافة العباسية؛ التي دامت قرابة ستّة قرون، أنيرت فيها مشاعل العلم والمعرفة على المجالات كافة؛ لذا يمكننا أن نصف هذه الحقبة من تاريخنا بـ: «شمس الحضارة الإسلامية».

والتاريخ العباسي حافلٌ بالأحداث والمجريات العظيمة، فقد تعاقب من خلفاء الدولة العباسية سبعة وثلاثون خليفة، وظهر خلال حكمهم ما لا يقل عن ثلاثٍ وعشرين ولايةً شبه منفصلةٍ عن لواء الخلافة.

لذلك رأيتُ أن نكتفي في كتابنا هذا بالعرض السريع لأبرز وأهمّ الأحداث التي تتعلّق بالتاريخ الإسلامي العام، محاولاً قدر الإمكان أن أحافظ على شموليّة الفكرة ومتانة السرد وتسلسل الأحداث، والله الموفق.

تمهيد

تختلف آراء الناس باختلاف علومهم حول الخلافة العباسية فمنهم من يقول إنَّها كانت نقمةً ووبالاً على الأمة الإسلامية آنذاك، وحسبهم في ذلك ما تنقله لنا كتب التاريخ من وصفِ المعارك الضَّارية والدِّماء التي أُرِقت بهدف وصولهم إلى سُدَّة الخلافة، أضف إلى ذلك إهمالُ كثيرٍ منهم النَّظر في أحوال الرعية، وغلبةُ العناصر الأجنبية على شؤون ملكهم؛ ونذكر من تلك العناصر الأجنبية مثلاً: مماليك الأتراك، وأمراء بني بويه، والسلاجقة.

وذهب قسمٌ آخر في قوله بأنَّها كانت خيراً وسعادةً على الأمة الإسلامية آنذاك، وحسبهم في ذلك تلك الإنجازات العلمية من فلكٍ وطبٍ وفلسفةٍ وغير ذلك من العلوم الدُّنيوية، وأضف لها ذاك الكمَّ الهائل من المؤلفات والمجلدات التي تبحث في العلوم الدينية، هذا كلُّه عدا الذكر المطوَّل لأسماء عظماء الأدب والشعر العربي الذين نبغوا في عصر الخلافة العباسية.

وبناءً على ما سبق، فإنَّ الكمَّ الهائل من العلوم والاكتشافات العظيمة، والعدد الوافر من العلماء والمحدِّثين والشعراء، هو بالشيء العظيم الذي يغفر أو يُنسي كافة الأخطاء التي ارتكبت في عصر الخلافة الإسلامية العباسية؛ لذلك عملت جاهداً على أن أُسلطَ الضوء على أشكال الحضارة والعلوم التي وصل إليها أصحاب الفكر في ظلِّ خلافة بني العباس.

أبرز الأحداث في خلافة بني العباس

أولاً: البيت العباسي:

يعود نسبُ الخلفاء العباسيين إلى العباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف. فمن هو العباس: هو عم الرسول ﷺ وأحد سادات بني هاشم، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحبه ويكرمه، وعلى ذلك جرى الخلفاء من بعده، وكانت وفاته في خلافة عثمان رضي الله عنه سنة ٣٢هـ، وهو ابن ثمان وثمانين سنة، ودفن بالبقيع. وأعقب من الولد اثني عشر ولداً وكان ابنه عبد الله أكثر أولاده أبناءً.

فمن هو عبد الله بن العباس: هو ثاني ولد العباس ﷺ، ولد قبل الهجرة بستين فكانت سنُّه حين توفي رسول الله ﷺ ثلاث عشرة سنة، وكان عليه السلام يحبه، فدعا له يوماً فقال: ((اللهم علِّمه التأويل)) وكان عمر ﷺ يحبه ويدخله مع كبار الصحابة في مجلس الشورى ويستفتيه في كثير من المسائل على صغر سنه، وكان يُعِينُ علياً ﷺ في حروبه؛ ولكن بعد أن توفي عليّ رحل عبد الله عن البصرة وقد كان علي ﷺ قد ولاه عليها متجهاً إلى الطائف ليقيم فيها، وحين ولي معاوية بن أبي سفيان ﷺ أمر المسلمين؛ كان يتودد إليه كثيراً ويُكنى له الاحترام. وقد توفي عبد الله ﷺ سنة ٦٨هـ، ويعدُّ جدَّ العباسيين لأن إخوته لم يكن لهم نسلٌ باق، أما نسل عبد الله فقد كان نَمَاؤُهُ من ولده علي.

فمن هو علي بن عبد الله بن العباس: ولد ليلة قتل علي بن أبي طالب ﷺ سنة ٤٠هـ، فسمي باسمه وكني بكنيته أبي الحسن، وهو أصغر أولاد أبيه وكان سيداً شريفاً، ويُقال إنَّه أجمل قُرَشِيٍّ على وجه الأرض وأوسمهم وأكثرهم صلاةً. وقد أقطعهُ بنو أميَّة قرية اسمها الحميمة^(١)، فأقام بها وفيها وُلِدَ أكثرُ أولاده

١- تقع في طريق المدينة من دمشق

وكانت وفاته سنة ١١٧هـ. وأعقب على اثنين وعشرين ولداً ذكراً وإحدى عشرة أنثى، وأشهرُ ذكوره هم محمد وداود وعيسى وسليمان، وهم من رجال الخلافة العباسية.

فمن هو محمد بن علي بن عبد الله بن العباس: هو الذي ابْتُدِئَت الدعوة على يديه وكان ذلك في حياة أبيه، إلا أنَّ أباه لم يكن له ذكرٌ في هذه الدعوة، وهو والد إبراهيم الإمام الذي نقل الدعوة من القول إلى الفعل، ووالد أبي العباس السفاح أول خليفة عَبَّاسِي، ووالد أبي جعفر المنصور الذي ثَبَّتَ الحكم العباسي وقضى على أعدائه والناظرين للملكة^(١).

هذا بيتٌ أصيلُ النسبِ عظيمُ الفعل؛ ذكرنا منه اليسيرَ الجليلَ وها نحن الآن سنبدأ بسرد أخبار الخلافة العباسية.

ثانياً: من الدعوة إلى الخلافة:

بدأت الدعوة العباسية في طلب الخلافة على يد محمد بن علي كما علمنا سابقاً، فكان مركز الدعوة هو قرية الحميمة. وإنَّ ممَّا يميز هذه الدعوة هو التنظيم وحسن الاتصال، فكانت الرسل والدعاة تلتقي على محور (الحميمة- الكوفة- خراسان) فتكون الحميمة مكان التدبير والتنظيم، وتكون الكوفة نقطة الاتصال يلتقي فيها الذين يحملون الأوامر والتوجيهات من الحميمة، مع الدعاة الذين عادوا من خراسان لينقلوا إلى القادة نتائج أعمالهم، وليتلقوا التعليمات الجديدة، أمَّا مقر العمل فهو خراسان، فهو اختيار ناجح كلَّ النجاح لكلِّ مركزٍ من مراكز هذا المحور^(٢).

١- محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية، الدولة العباسية، الشيخ محمد الخضري بك، ص (٩-١٢)

٢- موسوعة التاريخ الإسلامي، الخلافة العباسية ج٣، د. أحمد شليبي، ص (٣١).

رأى محمدٌ أن نقل الخلافة من بيتٍ إلى بيتٍ لا بدَّ أن يسبقه إعداد الأفكار وتهيئة النفوس لهذا التغير، وأنَّ كلَّ محاولة فجائية قد تكون عاقبتها الإخفاق، فرأى أنَّ الأمر يحتاج إلى شدَّة الحيلة؛ فطلب من شيعته أن يدعوا الناس إلى ولاية آل البيت دون تسمية أحد خوفاً عليه من بني أمية.

ووجد أنَّ كلاً من الكوفة وخراسان يصحُّ أن يكون مركزاً لنشر الدعوة؛ ذلك لأن الكوفة مهدُّ التشيع لآل البيت منذ زمن طويل، ولأنَّ أهل خراسان يفهمون فكرة التشيع بسهولة، ويؤمنون بنظرية الحق الملكي التي كانت سائدةً في بلاد فارس منذ أيام آل ساسان، هذا بالإضافة إلى ما كان يقاسيه الفرس من ظلم بني أمية^(*).

*- تاريخ الإسلام، د. حسن إبراهيم حسن، ج ٢، ص (١٢)

ثمَّ آل أمر الدعوة إلى إبراهيم بن محمد بعد وفاة أبيه؛ الذي بدأ نقل الدعوة إلى طور العمل والمواجهة مع بني أمية، وكان لظهور أبي مسلم الخراساني - في ذلك الوقت الحاسم -، أثرٌ كبير؛ فقد قام إبراهيم بإرساله إلى خراسان ليتولى أمر الدعوة فيها ويثبت أركان دولتهم الجديدة .

ففي سنة ١٢٨هـ، تسلَّم أبو مسلم مقاليد الأمور في خراسان وكان من الأسباب التي أعانته على إسقاط الحكم الأمويِّ فيها؛ هو اشتعال نارِ العصبية بين المضرية واليمانية، وبالرغم من فطنة وقوة واليها نصر بن سيار عامل الأمويين على خراسان، إلا أنَّ مكر أبي مسلم ودهاءه كان أقوى من أيِّ شيء، فسقطت خراسان في يده^(١)، وارتفعت الرايات السود زاحفةً إلى الكوفة، حيث قام أبو

١- المصدر السابق، ص (١٧).

العباس السفاح في يوم الجمعة ١٣ من شهر ربيع الأول، فصلَّى بالناس وأعلن لهم ابتداء الخلافة العباسية ليكون هو أول خلفائها، ثمَّ واصلت الجيوش مسيرها بقيادة داود بن علي - عمُّ أبي العباس - والتقت بمروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، ووقعت بينهم معركة الزاب وذلك لإحدى عشرة خلون من جمادى الآخرة سنة ١٣٢هـ، وكان النصر في جانب العباسيين^(١) وبهذه المعركة طويت صفحة الخلافة الأموية، ليبدأ عهدٌ جديد يُخطُّه بنو العباس لقراءة ٥٢٤ سنة.

ثالثاً: أدوار الخلافة العباسية:

تولَّى العباسيون الخلافة الإسلامية سنة ١٣٢هـ، حيث بويع لأولهم أبي العباس عبد الله السفاح بالكوفة واستمرت خلافتهم إلى سنة ٦٥٦هـ؛ حيث سقط عبد الله المستعصم قتيلاً بين يدي هولاكو خان المغولي^(٢) من أعقاب جنكيز خان، وبهذا تكون الرايات السود قد جاءت من المشرق فأقعدت بني العباس على عرش بني أمية، وجاءت رايات التتار من المشرق فدمّرت عرشهم في بغداد زهرة المشرق وجنة الدنيا، فمن الشرق أشرق كوكب سعدهم ومن الشرق ظهر نجم نحسهم، وبهذا تكون خلافتهم قد دامت ٥٢٤ سنة استخلف فيها منهم ٣٧ خليفة، وأكبر مدَّةٍ قام بها خليفة عباسي هي ٤٦ سنة^(٣).

١- محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية، الدولة العباسية، الشيخ محمد الخضري بك، ص (٣٥، ٣٦).

٢- هولاكو خان: (١٢١٧-١٢٦٥ م). وهو حفيد جنكيز خان، وهو الحاكم المنغولي الذي نجح في فتح معظم بلاد جنوب غرب آسيا. وتحت قيادته اجتاح المغول بغداد مركز الإسلام، وأضعف دمشق، وتسبب في تغيير الحكم إلى المماليك بمصر الذين تلقى جيشه منهم الهزيمة في موقعة عين جالوت.

٣- محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية، الدولة العباسية، الشيخ محمد الخضري بك، ص (٥٥٤).

أدوار الخلافة العباسية:

٢٣٢ - ١٣٢

١٠٠ سنة عصر القوة والعمل

٣٣٤ - ٢٣٢

١٠٢ سنة عصر استبداد المماليك الأتراك

٤٤٧ - ٣٣٤

١١٣ سنة عصر استبداد الملوك من آل بويه

٥٣٠ - ٤٤٧

٨٣ سنة عصر استبداد الملوك من آل سلجوق

٦٥٦ - ٥٣٠

١٢٦ سنة عصر استعادة العباسيين شيئاً من

نفوذهم السياسي^(١).

والجدير بالذكر أن البيت العباسي بقي له اسم الخلافة بعد أن قضى هولاء على خلافتهم في بغداد، وذلك في مصر تحت لواء المماليك وبقي كذلك حتى سنة ٩٢٣هـ^(٢)، حيث ساءت أحوال المماليك وفسدت أخلاقهم وتكالبت القوى البرتغالية والإسبانية على البلاد العربية، مما دفع بالسلطان العثماني سليم الأول^(٣) بالتوجه إلى مصر وضم الأقاليم العربية المسلمة إلى سلطنته، حيث تنازل الخليفة العباسي المتوكل على الله له وسلّمه الآثار النبوية الشريفة وهي؛ اللواء والبردة، كما حضر أبو نمي ابن شريف مكة إلى مصر فقدم الطاعة للسلطان سليم، وسلّمه مفاتيح الحرمين الشريفين^(٤).

١- المصدر السابق، ص (٥٥٦).

٢- المصدر السابق، ص (٧).

٣- سليم الأول بن بايزيد الثاني بن محمد الفاتح: (١٤٧٠ - ١٥٢٠ م)، سلطان الدولة العثمانية وخليفة المسلمين وأول من تلقب بأمر المؤمنين من خلفاء بني عثمان.

٤- تاريخ الدولة العثمانية، د. علي حسون، ص (٦٢).

رابعاً: أقاليم الخلافة العباسية:

لقد كانت الأقاليم الإسلامية في عهد الدولة العباسية ميداناً عظيماً للأفراد الذين ينتمون إلى بيوتٍ قديمةٍ المجد، والأفراد العصامين، يتسابقون إلى التغلب عليها من بلاد الأندلس غرباً إلى بلاد الترك والهند شرقاً، فكم من دول قامت وعظُمت مدينتها ثم انتهت بغلبة غيرها عليها، ومن هذه الدول من كان يقوم باسم الملك تاركاً اسم الخلافة لبني العباس، ومنهم من كان يقوم باسم الخلافة والملك معاً^(١).

دويلات متناحرة:

الدولة الأموية:

دولة الرجال، ومهد الحضارة والعمران، فبعد أن طُردوا وشُردوا من الشام حاضرة خلافتهم بسبب بطش العباسيين بهم، ارتحل عبد الرحمن الداخل، صقر قریش إلى الأندلس، فأعاد فيها ملك آبائه، الذي استمرَّ منذ أن دخلها سنة ١٣٨هـ إلى أن سلَّم أبو عبد الله الصغير مدينة غرناطة للفرنجة وهو ييكي على ملكٍ مُضاع، وذلك سنة ٨٩٧هـ / ١٤٩٢م.

وتاريخ الأندلس حافلٌ بالحضارة والأعمال المشرفة، فضلاً عن الفتوحات والحروب التي خاضها المسلمون هناك ضدَّ الفرنجة، الأمر الذي لا يمكن الإمام به دون العودة إلى أمَّهات الكتب.

من هو صقر قریش:

يروى عن أبي جعفر المنصور العباسي أنَّه قال لأصحابه يوماً أتدرون من هو صقر قریش، فقالوا: أنت يا أمير المؤمنين، فقال: ما صنعت شيئاً؛ فقد نهضت

١ - محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية، الدولة العباسية، الشيخ محمد الخضري بك، ص (٨).

باجتماع شيعتي وطلبهم الأمر لي، فقالوا: فمعاوية إذن، فقال: ولا هذا؛ فقد نهض بمركب حمله عليه عمر وعثمان، فقالوا: فهو عبد الملك، فقال: ولا هذا؛ فقد نهض ببيعة عقدت له، فقالوا: فمن هو يا أمير المؤمنين، فقال: هو عبد الرحمن بن معاوية ابن هشام الذي عبر البحر، ودخل الأندلس مفرداً فمصرّ الأمصار، وجنّد الأجناد، ودون الدواوين، وأقام ملكاً بعد انقطاعه بحسن تدبيره وشدة شكيمة.

الدولة الفاطمية: (٢٩٧-٥٦٧)

كان ظهورها الأول في إفريقية على أنقاض دولة الأغالبة وبعض من أراضي دولة الأدارسة، وكان مقرها مدينة المهديّة التي أسسها عبيد الله المهدي - أول خليفة فاطمي - وهي بالقرب من القيروان، وكانت همته العالية تدفعه لمد سلطانه إلى مصر، ولكن ذلك لم يكتب له النجاح إلى أن جاء عهد المعز لدين الله - رابع خليفة فاطمي - فكان استيلائهم على مصر بعد زوال الدولة الإخشيدية على أيديهم.

ولم تكن على علاقة جيدة مع الخلافة العباسية فقد كانت بينهم حروب عدة، وهي الثانية في طول الامتداد الزمني، والثانية في القوة والمكانة بين الدويلات المتشكلة خلال الحكم العباسي.

ثلاثة خلفاء:

حدث زمن المقتدر العباسي أغرب وأول حدث يمر على الأمة الإسلامية؛ فقد كان المقتدر في بغداد خليفة للمسلمين، وكان عبد الرحمن الأموي أول أمير أموي في الأندلس يُلقب نفسه بالخليفة، وكان قد لقب عبيد الله الفاطمي نفسه في المهديّة بالخليفة أيضاً، فخليفة عباسي وآخر أموي وآخر فاطمي.

دولة الأدارسة: (١٧٢-٣٧٥):

أول الدول في المغرب الأقصى التي استقلت عن الخلافة العباسية، وذلك في زمن الرشيد، مؤسسها إدريس بن عبد الله - من أحفاد علي عليه السلام -، ولم تهناً هذه

الدولة بشيء من الاستقرار الذي يمكن القائمين فيها من توجيه جهودهم إلى نشر العلوم والفنون والأخذ بأسباب الحضارة.

دولة الأغالبة: (١٨٤-٢٩٦):

أسست في إفريقية على مقربة من دولة الأدارسة وذلك زمن الرشيد أيضاً، ويعود سبب تأسيسها إلى إنَّ الرشيد ولَّاهُ إبراهيم بن الأغلب، ليكون حاجزاً بين الخلافة العباسية وبين الأدارسة، فعظم أمره فيها وسار ملكاً مستقلاً، إلى أن ظهرت على أنقاضها الدولة الفاطمية.

الدولة الطولونية: (٢٥٤-٢٩٢):

أسست في مصر وشام، وكان ظهورها زمن المعتمد، وهي تابعة للخلافة العباسية تدعو باسم الخليفة وتضرب النقود باسمه، مؤسسها: أحمد بن طولون وهو من الأتراك، وكانت على علاقة جيدة بالخليفة العباسي، إلى أن ظهرت على أنقاضها الدولة الإخشيدية.

الدولة الإخشيدية: (٣٢٣-٣٥٨):

أسست في مصر والشام، كان ظهورها زمن الخليفة الراضي، مؤسسها محمد بن طغج الإخشيد وهو من موالى آل طولون، وقد ظهرت على أنقاضها: الدولة الفاطمية.

الدولة الأيوبية: (٥٦٧-٦٤٨):

ظهرت على أنقاض الدولة الفاطمية، وكانت على علاقة جيدة بالخليفة العباسي فكانت تخطب باسمه على المنابر، ولها يعود الفضل بعد الله سبحانه وتعالى في طرد الحملات الصليبية التي احتلت بيت المقدس.

مؤسسها صلاح الدين الأيوبي، ويمكن القول إنّ الدولة الأيوبية ظهرت على أنقاض الدولة الزنكية؛ فصلاح الدين كان من رجال نور الدين، ولكنه تولى الأمر بعد أن اصطالح هو وإسماعيل بن نور الدين على أمر البلاد التابعة له.

جملة القول فيها: كانت النية الأولى في تأسيس هذه الدولة قد نمت في نفس صلاح الدين الذي يمكن تقسيم عهده إلى ثلاثة أدوار: الأول في مصر وهو دفاعي، والثاني في الشام وهو إعداد العدة والتأهب، والثالث في فلسطين وهو هجومي؛ وهذه الأدوار الثلاثة تعبر عن رغبته الصادقة في طرد الصليبيين إلى بلادهم وتأسيس دولة إسلامية موحدة تستطيع الحفاظ على حرمة البلاد الإسلامية بعد أن غفلت عنها الخلافة العباسية، أما خلفاؤه فقد ساروا على الدرب نفسه إلى أن جاء آخرهم وهو تورن شاه؛ حيث ثار عليه المماليك و غضبوا منه لسوء معاملته إياهم، فقتلوه وأسسوا من بعده دولة المماليك البحرية من سنة ١٢٥٠ - ١٣٨٢م، ومن ثمّ دولة المماليك البرجية ١٣٨٢ - ١٥١٧م، ومنها تسلم العثمانيون حكم هذه البلاد.

الدولة الحمدانية: (٣١٧-٣٩٤)

أسست في حلب والموصل، وكانت على علاقة جيدة بالخلافة العباسية، إلى أن ظهرت على أنقاضها الدولة البويهية في الموصل والفاطمية في حلب. وجملة القول فيها: صحيح أنها لم تدم طويلاً، ولكن كان لها أثر واضح في الدفاع عن الثغور الإسلامية في وجه الروم.

دولة المرابطين: (٤٤٨-٥٤١)

أسست في بلاد المغرب ومن ثمّ توسع ملكها ليضم الأندلس، ومؤسسها: يوسف بن تاشفين، والذي اعتبره بعض المؤرخين أعظم حكام المسلمين في

عصره؛ إذ كان له الفضل في استمرار وجود دولة قوية في الأندلس؛ حيث حارب ملوك الإفرنج وحاول الدفاع عما بقي من بلاد ملوك الطوائف.

جملة القول فيها: ظهرت هذه الدولة زمن الخليفة القائم، وكانت تدعو باسمه وتضرب النقود باسمه أيضاً؛ مع أن الخليفة القائم لم يكن له أي علاقة بهم، وهم على مذهب أهل السنة والجماعة، ومن أشهر معاركهم مع الفرنجة هي معركة الزلاقة.

دولة الموحدين (٥٢٤-٦٦٧)

أسست على أنقاض دولة المرابطين، ومؤسسها: عبد المؤمن بن علي. جملة القول فيها: ظهرت في زمن الخليفة المسترشد بالله، فكانوا على سيرة من سبقهم بالجهاد في الأندلس، ومن أشهر معاركهم معركة الأرك والعقاب.

وعلى الرغم من كثرة هذه الدويلات واختلافها إلا أن قيامها زاد في إغناء الحضارة الإسلامية بكميات هائلة من العلوم ورجال المعرفة، فمكاتب الأندلس عامرة برونقها إلى وقتنا هذا، وفن العمارة من مساجد وقصور في كل من مصر وبلاد المغرب شهدا نهضة إلى الآن على روعة الحضارة الإسلامية على مر العصور.

خامساً: دولٌ فوق عرش الخلافة:

ظهر خلال العصر العباسي حدثٌ مميزٌ لم يأتِ التاريخ الإسلامي بمثله من قبل، فمع تعاقب الحقب الزمنية كانت تظهر بيوتٌ عريقة الأصل قوية الأفراد، تشارك الخلفاء العباسيين بالملك، وتستفرد به وحدها أحياناً، ويبقى للخليفة العباسي اسمُ الخلافة فقط.

ولما كان لهؤلاء الأثر البالغ بالتاريخ الإسلامي العام، أكثر مما كان لخلفاء بني العباس، أحببت أن أقف عند أبرز سمات وأحداث دولهم، موضّحاً أسباب نشوء كل من هذه الدويلات، وهي أربع؛ دولة البرامكة، ممالك الأتراك، بنو بويه، وآل سلجوق.

أسرة البرامكة:

تنسبُ هذه الأسرة إلى جدها برمك، وهو من المجوس، وكان يخدم في معبدٍ من معابدهم، ولما جاءت الدعوة العباسية إلى خراسان كان خالد بن برمك من أكبر دعايتها وزعمائها، وكان ذا صفاتٍ عاليةٍ أهّلته للسيادة، حتى استوزره السفاح بعد حادثة أبي سَلَمَه^(١)، وكانت وفاة خالد سنة ١٦٣ هـ، في أوائل خلافة المهدي.

أما ابنه يحيى فقد اختاره المنصور لولاية أذربيجان، ثمّ اختاره المهدي ليكون كاتباً ووزيراً لابنه الرشيد؛ وهنا ابتداء نجم هذه الأسرة بالظهور، فقد لزم يحيى الرشيد إلى أن غدا خليفة للمسلمين، وفي يوم توليه الخلافة قلّده الرشيد وزارته وزارةً تفويضٍ حيث قال له: «قلّدتك أمر الرعية وأخرجته من حقي إليك فاحكم في ذلك بما ترى من الصواب واستعمل من رأيت واعزل من رأيت وامض الأمور على ما ترى». ودفع إليه بالخاتم^(٢).

١- كان أبو سلمه الخلال من أشهر رجال الدعوة العباسية، إلا أنه قبل اعتلاء أبي العباس منبر الكوفة، كان أبو سلمه قد راسل أشهر أحفاد علي رضي الله عنه قاصداً بذلك نقل الخلافة لهم، إلا أنّهم رفضوا مطلبه، فكان أن علم العباسيون أمره هذا، فما إن اعتلوا عرش الخلافة حتى قضوا عليه، وهو أول من لُقّب بالوزير.

٢- محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية، الدولة العباسية، الشيخ محمد الخضري بك، ص (١٢٩-١٣٢).

وبذلك نرى بأنَّ التفويض كان برغبة من الرشيد لا بإكراهه كغيره ممن تلاه من الخلفاء. والجدير بالذكر أنَّ الرشيد لا تنطبق عليه صفة الملك الغافل لأنَّه كان يراقب ما يجري بدولته وأوامره هي التي تطبَّق؛ ومن ثمَّ فهو توكيلٌ للبرامكة وليس تنازلاً عن الحكم.

وبالرغم مما عرف عن البرامكة من الكرم والفتنة، إلا أنَّ آثارهم في التاريخ الإسلامي بسيطةٌ جداً، فدولتهم بدأت مع خلافة الرشيد حينما أشركهم بمُلْكِهِ، وانتهت في زمنه حينما قامت نكبتهم علي يديّ الرشيد لسببٍ لا يعلمه سوى الرشيد نفسه، وأمَّا التفسيرات والأقاويل التي تناولها كتب التاريخ فما هي إلا اجتهداتٌ اجتهد بها المحللون آنذاك - إن صحَّ التعبير -.

وقبل أن نشرع بالحديث عن الدولة الأخرى، نقف عند ذكر أسماء خلفاء العصر العباسي الأول؛ الذي كان الأمرُ والملكُ فيه بيد الخلفاء ولا أحد معهم.

١- أبو العباس السفاح ١٣٢ - ١٣٦هـ.

٢- أبو جعفر المنصور ١٣٦ - ١٥٨هـ.

٣- أبو عبد الله المهدي ١٥٨ - ١٦٩هـ.

٤- أبو محمد الهادي ١٦٩ - ١٧٠هـ.

٥- هارون الرشيد ١٧٠ - ١٩٣هـ.

٦- محمد الأمين ١٩٣ - ١٩٨هـ.

٧- عبد الله المأمون ١٩٨ - ٢١٨هـ.

٨- محمد المعتصم ٢١٨ - ٢٢٧هـ.

٩- هارون الواثق ٢٢٧ - ٢٣٢هـ.

مماليك الأتراك:

هم مجموعة من المماليك لا يجمعهم سوى حب المال، والطمع بكرسي الوزارة، ويمكن القول بأن الخلافة العباسية لاقت الكثير من المصاعب والفتن في عهدهم، إضافة إلى حياة الشقاء والبؤس التي عاشها الخليفة العباسي؛ ذلك لأن هؤلاء المماليك لم يعطوا الخلفاء أي احترام أو طاعة تُذكر - اللهم إلا المعتصم وابنه الواثق -.

سبب إحضارهم:

دفعت الأحداث المعتصم إلى فقدان الثقة في الفرس والعرب، أمّا الفرس فقد اتضح أنهم يقصدون الاستبداد بالسلطان، وقد ظهر ذلك منهم في ظروف عدّة، وأنزل بهم الخلفاء العباسيون ألوان العذاب والتنكيل، ابتداءً بأبي سلمه الخلال، فأبي مسلم الخراساني، فالبرامكة^(١)، فالفضل بن سهل^(٢)، ومن ثم أصبح واضحاً انعدام الثقة بين الخلفاء وبين الفرس، وأمّا العرب فقد أدركوا أنّ سلطانهم قد زال بزوال دولة الأمين بسيف الفرس مما دفع بعضهم للثورة، ومن ثم فقدت الثقة بين العرب والخلفاء العباسيين أيضاً، فاضطر المعتصم في أوج هذه الاضطرابات أن يبحث عن عنصر جديد يعتمد عليه ويثق به، فكان اختياره لمماليك الأتراك^(٣).

وكان المعتصم ينوي التخلص من سلطان الفرس وسلطان العرب ولكنه وقع وأوقع أولاده وأوقع الدولة الإسلامية في شر مرير، حيث وضع - شاء أم لم يشأ - أمور الدولة في أيدي هؤلاء الأوغاد الطغاة^(٤).

١ - كانت نهايتهم على يد الرشيد كما ذكرنا سابقاً.

٢ - وزير المأمون وساعده الأمين، أعانه على حرب أخيه الأمين، وثبت أركان ملكه إلا أنّ مكره وخيانتته بدت للمأمون فقد كان ينوي نقل مقر الخلافة إلى مرو حاضرة خراسان ليعيد لأمة الفرس مجدها، ونتيجة لذلك قُتل وانتهى أمره أيام المأمون.

٣ - موسوعة التاريخ الإسلامي، الخلافة العباسية ج-٣، د. أحمد شليبي، ص (٣٩٢).

٤ - كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ج-٢، ص (٤٦-٤٨).

ومع اغترار المعتصم بهم إلا أنه كان يشعر بما وقع فيه من الخطأ باختيارهم ولا سيما أنه ليس لأكثرهم نسبٌ معروف؛ فقد حدثَ المعتصم مرةً إسحاق بن إبراهيم فقال «إنَّ أخي المأمون اصطنع أربعةً فنجحوا وأنجبوا واصطنعت أربعةً فخابوا وما أنجبوا؛ أمّا أربعةُ المأمون فهم طاهر بن الحسين^(١) وعبد الله بن طاهر وأنت وأخوك محمد، وأمّا أنا فاصطنعت الأفشين وقد رأيت ما صار إليه وأشناس ففشل رأيه وإيتاخ فلا شيء منه ووصيف فلا معنى منه». فقال إسحاق جعلني الله فداك أجيب، وعليّ أمانٌ من غضبك، قال: قل، فقال إسحاق: «نظر أخوك إلى الأصول فاستعملها فأنجبت فروعها واستعملت فروعاً لم تنجب إذ لا أصول لها»^(٢).

خلفاء هذا العصر هم:

- | | |
|---------------------------|---------------------------|
| ١٠- المتوكل ٢٣٢ - ٢٤٧ هـ | ١٦- المعتضد ٢٧٩ - ٢٨٩ هـ |
| ١١- المنتصر ٢٤٧ - ٢٤٨ هـ | ١٧- المكتفي ٢٨٩ - ٢٩٥ هـ |
| ١٢- المستعين ٢٤٨ - ٢٥٢ هـ | ١٨- المقتدر ٢٩٥ - ٣٢٠ هـ |
| ١٣- المعتز ٢٥٢ - ٢٥٥ هـ | ١٩- القاهر ٣٢٠ - ٣٢٢ هـ |
| ١٤- المهتدي ٢٥٥ - ٢٥٦ هـ | ٢٠- الراضي ٣٢٢ - ٣٢٩ هـ |
| ١٥- المعتمد ٢٥٦ - ٢٧٩ هـ | ٢١- المتقي ٣٢٩ - ٣٣٣ هـ |
| | ٢٢- المستكفي ٣٣٣ - ٣٣٤ هـ |

١- طاهر بن الحسين: اسمه طاهر بن الحسين بن ماهان الخزاعي ولد سنة ١٥٩ هـ وهو أحد أشهر قواد الخليفة العباسي المأمون.

٢- محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية، الدولة العباسية، الشيخ محمد الخضري بك، ص (٢٦٩).

وقد عاصر المستكفي آخر نفوذ عهد المماليك ومطلع نفوذ البويهيين^(١).

دولة بني بويه:

نشأتهم:

يعود أصلهم إلى بلاد الديلم^(٢) التي تقع في الجنوب الغربي لبحر قزوين^(٣) ويسكنها عنصرٌ ممتاز يطلق عليه اسم الديلمة، وقد خضعت هذه البلاد للحكم الإسلامي منذ عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ولكن أهلها ظلوا على دينهم وآثروا دفع الجزية. وعلى الجنوب الشرقي لبحر قزوين تقع بلاد طبرستان والتي كانت على عكس بلاد الديلم، حيث انتشر الإسلام بين أهلها^(٤).

ومع قدوم الخلافة العباسية، مرّت الأيام سريعةً حتى رحل إلى بلادهم رجلٌ اسمه الحسن بن علي الملقب بالأطروش، فأقام بينهم ثلاث عشرة سنة يدعوهم إلى الإسلام، فأسلم منهم خلقٌ كثير واجتمعوا عليه، فبنى في أرضهم المساجد ودور العلم^(٥).

كيفية وصولهم إلى عرش بغداد:

كان لبويه أبناءٌ ثلاثة هم علي والحسن وأحمد، وقد رأى هؤلاء أن يتخذوا الجندية مرتزقاً لهم؛ ومع مرور الأيام أثبت هؤلاء الأخوة مدى قوتهم وشدة فطنتهم، ففتح باب الانتصارات لهم؛ إذ استطاع الحسن أن يستولي على الري

١- موسوعة التاريخ الإسلامي، الخلافة العباسية ج-٣، د. أحمد شليبي، ص (٣٩٥).

٢- الديلم أو الديلمة: هم إحدى الشعوب الإيرانية التي عاشت في شمال الهضبة الإيرانية. ويذكر أنهم كانوا يتحدثون لغة من فروع اللغات الإيرانية الشمالية الغربية.

٣- بحر قزوين: هو بحر مغلق بين آسيا وأوروبا ويسمى أيضاً بحر الخزر. يعد أكبر مسطح مائي مغلق على سطح الأرض.

٤- موسوعة التاريخ الإسلامي، الخلافة العباسية ج-٣، د. أحمد شليبي، ص (٤٠٦).

٥- محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية، الدولة العباسية، الشيخ محمد الحضري بك، ص (٤١٧).

وهمدان وبقية بلاد فارس، كما استطاع أحمد أن يستولي على كرمان، وزحف علي إلى بلاد الأهواز فاحتلها، واحتل بعدها واسط، وبذلك اكتمل لبني بويه السلطان على مساحة واسعة من أملاك الدولة العباسية، التي كانت تعاني اضطرابات بين مماليك الأتراك المسيطرين عليها والمتكاليين على كنوزها ومناصبها العليا^(١).

وكان الخليفة العباسي يومها المستكفي، وكان دخول أحمد بن بويه إلى بغداد في ١١ جمادى الأولى سنة ٣٣٤هـ، فقابله الخليفة واحتفى به وبايعه أحمد وحلف كل منها للآخر هذا بالخلافة، وذاك بالسلطنة وفي ذلك شرف الخليفة بني بويه بالألقاب فلقب علياً صاحب بلاد فارس عماد الدولة، وهو أكبرهم، ولقب الحسن صاحب الري بركن الدولة، ولقب أحمد صاحب العراق بمعز الدولة، وأمر أن تضرب ألقابهم على النقود^(٢).

وبناءً على ما سبق خضع خلفاء بني العباس حيناً من الزمن لبني بويه، وأصبح مصير العالم الإسلامي مرتبطاً بهؤلاء السلاطين الجدد، ولم يبق للخلفاء معهم نفوذ ولا سلطان، وذهبت هيبة الخلافة طوال هذا العهد^(٣).

وكان يدور في خلد أحمد معز الدولة^(٤) أن يُزيل اسم الخلافة عن بني العباس ويوليها أحد أحفاد علي عليه السلام لأنَّ القوم كانوا شيعة زيدية؛ ومن ثمَّ فهم يعتقدون أنَّ بني العباس قد غصبوا الخلافة وأخذوها من مستحقيها ولكن بعض خواصه أشار عليه ألا يفعل وقال له إنَّك اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك أنه ليس من أهل الخلافة ولو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحلين دمه مطيعين أمرك، ومتى

١- موسوعة التاريخ الإسلامي، الخلافة العباسية ج٣، د. أحمد شلي، ص (٤١٠).

٢- ابن الأثير: الكامل في التاريخ حوادث سنة ٣٣٤.

٣- أبو الريحان البيروني: الآثار الباقية، ص (١٣٢).

٤- أحمد معز الدولة: (٩٣٢-٩٦٧ م)

أجلست بعض الطالبين كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحت خلافته فلو أمرهم بقتلك لفعلوا، فأعرضَ عما كان قد عزم عليه^(١).

ويمكن أن نقول في آخر بحثنا عن دولة بني بويه إنهم لم يكونوا على قدر المسؤولية، وإنَّ الخلافة العباسية ازدادت سوءاً في عهدهم، فقد كان همهم نيل المناصب ومنافسة الخليفة على كل صغيرة وكبيرة يمتاز بها؛ حيث كان الخليفة لا يستطيع أن يعين كتابه ووزرائه، وإنما كان يعينهم الملك البويهي بنفسه، وكان يضع اسمه على النقود، بل أمروا بأن تفرع الطبول لأجلهم حالهم كحال الخليفة^(٢).

وخلفاء هذا العصر هم:

٢٣- المطيع ٣٣٤-٣٦٣هـ ٢٥- القادر ٣٨١-٤٢٢هـ

٢٤- الطائع ٣٦٣-٣٨١هـ ٢٦- القائم ٤٢٢-٤٦٧هـ

وقد عاصر القائم آخر عهد البويهيين ومطلع عهد السلاجقة^(٣).

دولة آل سلجوق:

نشأة السلاجقة:

شهد القرن الثاني الهجري، وكذلك الثالث والرابع أفوجاً من قبائل الأتراك (الغز) تهاجر من أقصى تركستان تحت ضغطٍ سياسيٍّ أو اقتصاديٍّ أو كليهما، متجهةً نحو الغرب، محاولة الاستقرار في إقليم ما وراء النهر وإقليم خراسان، ولما ظهر رجلٌ منهم اسمه سلجوق، وكان قد عُرف بالذكاء والفتنة، قام على توحيدهم، حتى خضعت كل القبائل لزعامته، وكان الحدثُ الأهم في تاريخ هذه

١- الخضري بك، ص (٤٢٤) / أحمد شلي، ص (٤١٥) / يوسف العش، ص (١٨٧).

٢- تاريخ عصر الخلافة العباسية، د. يوسف العش، ص (١٩١).

٣- أحمد شلي، ج٣، ص (٤١١).

القبائل هو دخولهم الإسلام وتعصبهم للمذهب السني الذي كان سائداً آنذاك في تلك البقاع، ثمَّ كان أن أعلن طغرل بك^(١) وهو من نسل سلجوق قيام دولة السلاجقة سنة ٤٢٩هـ، وبعد أن تمَّ استقرارها اعترف الخليفة العباسي بها وذلك سنة ٤٣٢هـ^(٢).

كيفية وصولهم إلى عرش بغداد:

بينما كان نجم السلاجقة يتألق، كان نجم البويهيين في طريقه إلى الأفول، ووجدت ظروفٌ أُسرعت بالسلاجقة إلى بغداد، فقد كان السلطان البويهي (الملك الرحيم) ضعيفاً، استبد من حوله بالأمور حتى بلغت أوج فسادها، فكان أن استنجد الخليفة العباسي (القائم) بزعيم السلاجقة طغرل بك، فانتهاز طغرل بك هذه الفرصة وسار بجيوشه حتى دخل بغداد سنة ٤٤٧هـ، وأحسن الخليفة استقباله، وولاه الأمر، وبذلك انتهى عهد البويهيين، ليبدأ سلطان السلاجقة^(٣).

وكان حال السلاجقة أفضل ممن قبلهم في كل شيء، فازدهرت البلاد في عهدهم وتقدمت العلوم، وعادت روح الجهاد تحف في قلوب المسلمين تحت لواء السلطان ألب أرسلان والسلطان ملكشاه، حتى فرضت الجزية من جديد على كثيرٍ من مدن الإمبراطورية الرومانية.

١- ركن الدين طغرل بك بن سلجوق: (٩٩٠-١٠٦٣م) ثالث حكام السلاجقة، ويعد طغرل بك المؤسس الحقيقي لدولة السلاجقة، وهو أول من حمل الراية الحمراء ذات الهلال والنجمة، والذي أصبح فيما بعد علماً لتركيا، اعتلى السلطة في عام ١٠١٦م. وتوفي سنة (٤٥٥ هـ/ ١٠٦٣) في الري دون أن يترك ولداً يخلفه على الحكم، فشب صراع على السلطة حسمه ابن أخيه ألب أرسلان لصالحه، بمساعدة وزيره النابه نظام الملك.

٢- أحمد شلي، ج٣، ص (٤١٨).

٣- المصدر السابق، ص (٤٢٠-٤٢١).

السلطان ألب أرسلان:

عضد الدولة أبو شجاع ألب أرسلان بن داود رابع حكام السلاجقة، ويعني اسم ألب أرسلان الأسد الثائر، وهو الاسم الذي اكتسبه من مهاراته في القتال وانتصاراته العسكرية.

وكان ألب أرسلان قبل أن يتولى السلطنة يحكم خراسان وما وراء النهر بعد وفاة أبيه داود عام ١٠٥٩م، واستطاع في عهده أن يفتح أجزاءً كبيرة من آسيا الصغرى وأرمينيا وجورجيا.

وكانت سياسته امتداداً لسياسة عمه طغرل بك في القدرة والكفاية والمهارة والقيادة، فحافظ على ممتلكات دولته، ووسع حدودها على حساب أقاليم الأرمن وبلاد الروم، وتوجّ جهوده في هذه الجبهة بانتصاره على الإمبراطور ألكسيوس الأول في معركة ملاذكرد في ٤٦٣هـ / ١٠٧١ وأسر الإمبراطور ألكسيوس الذي لم يخلص نفسه إلا بفدية كبيرة قدرها مليون ونصف دينار، وعقد البيزنطيون صلحاً مع السلاجقة مدته خمسون عاماً، واعترفوا بسيطرة السلاجقة على المناطق التي فتحوها من بلاد الروم.

ثم كان أن قُتل ألب أرسلان بعدها في ٤٦٥هـ / ١٠٧٢ على يد أحد الثائرين عليه، وهو في الرابعة والأربعين من عمره.

السلطان ملكشاه:

لما توفي أبوه ألب أرسلان خلفه ابنه ملكشاه، وكان من أحسن الملوك سيرة حتى كان يلقب بالسلطان العادل، وكان منصوراً في الحروب ومغرمّاً بالعمائر، فحفر كثيراً من الأنهار، كما عمرت في عهده كلية الإمام الأعظم في بغداد، توفي في عام ٤٨٥هـ / ١٠٩٢م.

خلفاء العباسيين خلال عهد السلاجقة هم:

- ٢٧- المقتدي ٤٦٧-٤٨٧ هـ ٣١- المقتفي ٥٣٠-٥٥٥ هـ
٢٨- المستظهر ٤٨٧-٥١٢ هـ ٣٢- المستنجد ٥٥٥-٥٦٦ هـ
٢٩- المسترشد ٥١٢-٥٢٩ هـ ٣٣- المستضيء ٥٦٦-٥٧٥ هـ
٣٠- الراشد ٥٢٩-٥٣٠ هـ ٣٤- الناصر ٥٧٥-٦٢٢ هـ
- وقد عاصر الناصر آخر عهد السلاجقة ثمَّ استقل ببغداد وما حولها سنة ٥٩٠ هـ^(١).

آخر العصور:

مكث العباسيون بعد سقوط دولة السلاجقة منفردين بالملك، دون مشاركة سلطانٍ آخر لهم، ليس لهم إلا ملك العراق، ومن كان يدعو لهم من بقية الأقاليم، إلى أن قام المغول والتتار بحركتهم التي ابتُدِئت بأقصى تركستان وعصفت ريجهم على البلاد الإسلامية، فأخذت أنفاس الدولة العباسية^(٢).

وخلفاء هذا العصر:

- ٣٥- الظاهر ٦٢٢-٦٢٣ هـ ٣٦- المستنصر ٦٢٣-٦٤٠ هـ
٣٧- المستعصم ٦٤٠-٦٥٦ هـ.

١- أحمد شلبي، ج٣، ص (٤٢٢).

٢- محمد الخضري بك، ص (٥٥٦).

كفى بميادين الحضارة فخراً لعصر بني العباس

أولاً: النظام السياسي:

لقد قام النظام السياسي العباسي على أسس ومقومات كان الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور أول من وضعها، وأتقن في تفصيلها، وتوزيعها. ونذكر على وجه السرعة بعض مناصب الدولة آنذاك: الخلافة والوزارة والكتابة والحجابة.

ثانياً: النظام الإداري:

نذكر من مناصبه: الإمارة على البلدان والأقاليم والدواوين والبريد والشرطة.

وقد نقلت لنا كتب التاريخ كلاماً رائعاً ووصفاً بليغاً لأبي جعفر منصور حول الوظائف المذكورة آنفاً، إذ يقول: «ما كان أحوجني إلى أن يكون على بابي أربعة نفر لا يكون على بابي أعف منهم، قيل له فمن هم؟ قال: هم أركان الملك لا يصلح الملك إلا بهم كما أنّ السرير لا يصلح إلا بأربع قوائم إن نقصت واحدة تداعى وهوى: أمّا أحدهم فقاض لا تأخذه في الله لومة لائم، والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوي، والثالث صاحب خراج يستقصي ولا يظلم الرعية فإني عن ظلمهم غني والرابع، ثمّ عضّ على إصبعه السبابة ثلاث مراتٍ يقول في كل مرةٍ آهٍ آهٍ. فقيل له: ومن هو يا أمير المؤمنين؟ قال صاحب بريدٍ يكتب بخبر هؤلاء على الصّحة^(١).

وقد روي أنّ عبد الملك قال لحاجبه قد وليتك حجابة بابي إلا عن ثلاثة:

١ - الطبري، ج٩، ص (٢٩٧).

المؤذن للصلاة فإنه داعي الله، وصاحب البريد فأمر ما جاء به، وصاحب الطعام لئلا يفسد^(١).

ثالثاً: النظام الحربي:

بلغ عدد الجيش في عهد الخلفاء العباسيين مئات الألوف من الجند الذين كانوا يكونون الجيش النظامي للدولة، وكانت رواتبهم تدفع لهم بانتظام، ولما بلغت قوة العباسيين أشدها في بغداد أصبح الجندي يتقاضى راتباً شهرياً قدره عشرون درهماً^(٢).

رابعاً: النظام الاقتصادي:

١- الزراعة:

اعتنى العباسيون بالزراعة اعتناءً رائعاً لا مثيل له، ابتداءً من شق قنوات الري، إلى دراسة أنواع التربة، والتفصيل في اختيار مواسم الزراعة، ومن الفواكه التي أدخلت زراعتها في أرض الدولة العباسية النارج، وقد ذكر (المقدسي) في كتابه «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» أن ثمار النارج في فلسطين كانت من أحسن الأنواع.

وكانت بلاد الشام تشتهر بتفاحها الذي أصبح مضرب المثل بين البلدان، كما كثرت أشجار الزيتون بفلسطين ولا سيما بنابلس التي كان أهلها يستخرجون منها الزيوت^(٣).

١- الشيخ محمد الخضري بك، ص (٨٧).

٢- د. حسن إبراهيم حسن، ج٢، ص (٢٧٤).

٣- المصدر السابق، ص (٣٠٧).

٢- الصناعة:

اشتهرت بلاد الشام بصناعة الزجاج والخزف، وفي مستهل القرن الثاني للهجرة كان الزجاج الملون يُصدّر إلى كثير من جهات العالم، وبلغت هذه البلاد في نقش الزجاج بالذهب والألوان الأخرى درجةً كبيرةً من الإتقان^(١).

واشتهرت البصرة بصناعة الصابون والزجاج، ولا سيما في عهد الخليفة المعتصم الذي شيد مصانع جديدةً في بغداد وسامرا وغيرها من المدن؛ كما أنشأ مصانع للورق في عدة مدن، وجلب لها الأساتذة، والصنّاع من مصر التي اشتهرت بصناعة الورق منذ عهدٍ بعيد^(٢)، وكان لكل صناعةٍ سوق خاص بها، كسوق الوراقين والنجارين والحدادين^(٣).

أمّا عن الأندلس فقد أسس بغرناطة حديقةً للنباتات، سمح بدخولها للأطباء لدراسة النباتات النادرة، وقد أقام ابن البيطار النباتي المشهور الذي عاش في القرن السابع للهجرة (الثالث عشر الميلادي) بغرس نباتات الشام وآسيا ومصر فيها، ولا ننسى ذكر صناعة أدوات الحروب التي برع بها أهل الأندلس من سفنٍ ودروعٍ ورماحٍ وسروجٍ تذهل الأبصار^(٤).

وقد ذكر لنا المقريزي نوعاً رائعاً من الصناعة؛ ذلك أنّ الخليفة الفاطمي المعز أمر في سنة ٣٥٣هـ بعمل خريطةٍ من الحرير الأزرق المنسوج بالذهب، وكان قد بُني عليها بالذهب كافة أقطار العالم بما فيها من جبالٍ وبحارٍ وطرق

١- أمير علي: مختصر تاريخ العرب، ص (٣٦٤، ٣٦٥).

٢- د. حسن إبراهيم حسن ج٢، ص (٣٠٨).

٣- أمين زكي، كتاب عمران بغداد، ص (١٠٨).

٤- المقرئ، نفح الطيب، ج١، ص (٩٥، ٩٦).

ومدن، كما عُمِلَ جاهداً أن تظهر المدينة المنورة ومكة على نحوٍ ينتبه إليه الناظر لأول وهلة^(١).

٣- التجارة:

ازدهرت التجارة على نحوٍ واسعٍ في عصر العباسيين، وكان اهتمام الخلفاء، وولاة الأقاليم بها كبيراً؛ فقد كان المسلمون في العصر العباسي الأول يُصدرون الشعير والحنطة، والأرز والفاكهة، والأقمشة الصوفية والحريرية، والزيت والعمور، كماء الورد والزعفران وزيت البنفسج وغيرها الكثير^(٢).

خامساً: أمراء الشعر العربي:

نبغ في الشعر عددٌ هائل من الشعراء في عصر الخلافة العباسية، فكانت أشعارهم تتقلب بتقلب الأحوال السياسية الاجتماعية، وسنكتفي هنا بسرد بعض أعظم شعراء العصر العباسي آنذاك:

١- أبو العلاء المعري^(٣).

٢- أبو الطيب المتنبّي^(٤).

٣- ابن الرومي^(٥).

١- نقلاً من كتاب حسن إبراهيم حسن، تاريخ الدولة الفاطمية، ص (٥٢٢).

٢- سيد أمير علي، مختصر تاريخ العرب، ص (٢٦٦).

٣- أبو العلاء المعري (٣٦٣ هـ - ٤٤٩ هـ)، (٩٧٣-١٠٥٧ م)، شاعر وفيلسوف وأديب

عربي من العصر العباسي، ولد وتوفي في معرة النعمان في الشمال السوري.

٤- هو أحمد بن الحسين أبو الطيب الكوفي، ولد سنة ٣٠٣ هـ في الكوفة بالعراق، وكان

أحد أعظم شعراء العرب، وأكثرهم تمكنًا باللغة العربية وأعلمهم بقواعدها ومفرداتها. ترك تراثاً عظيماً من الشعر، يضم ٣٢٦ قصيدة.

٥- أبو الحسن علي بن الشهير بابن الرومي الشاعر. (٢٢١ هـ - ٢٨٣ هـ).

٤- البحتري^(١)

٥- أبو نواس^(٢)

٦- أبو العتاهية



صورة متخيلة للمتنبى
بريشة أرتورو أوريس



تمثال للشاعر أبو نواس
في العاصمة العراقية بغداد

سادساً: المذاهب الفقهيّة:

١- المذهب الحنفي:

ينسب المذهب الحنفي إلى النعمان بن ثابت؛ المولود في الكوفة سنة ٨٠هـ، والمتوفى عام ١٥٠هـ، وقد نشأ في الكوفة، حيث الحركة العلمية الدائبة، فتأثر في طفولته، وتلقى العلم عن كبار علماء الكوفة، وبفضل ذكائه وصبره استطاع أن

١- البحتري (٨٢١ م - ٨٩٨ م): هو أبو عبادة الوليد بن عبيد، أحد أشهر الشعراء العرب في العصر العباسي.

٢- أبو نواس أو الحسن بن هانئ الحكمي الدمشقي شاعر عربي من أشهر شعراء العصر العباسي.

يحتل مكانةً كبيرةً بين علماء عصره، ممّا مكّنه أن يقوم للتدريس، فالتفّ الناس حوله، ووجدوا فيه علماً غزيراً، وقدرةً على المناظرة والمجادلة.

ومما ساعد على انتشار مذهبه أنّه كان المذهب الرسمي للدولة العباسيّة؛ نظراً لأن قاضي القضاة هو الإمام أبو يوسف تلميذ أبي حنيفة؛ إذ كان يختار للقضاء من درس الفقه الحنفي.

٢- المذهب المالكي:

ينسب المذهب المالكي إلى شيخه الإمام مالك بن أنس، المولود في المدينة سنة ٩٣هـ، والمتوفى فيها سنة ١٧٩هـ، وقد نشأ مالك في المدينة، فتأثر بالبيئة العلمية التي كانت مسيطرةً على مدينة الرسول الكريم، وتلقى العلم من علماء المدينة، فاستطاع بجهده ودأبه وإلحاحه في طلب العلم، أن يتبوأ مكانةً كبيرةً في النفوس، وقد ترك كتابه الشهير ((الموطأ)) الذي جمع فيه الأحاديث الصحاح والفتاوى، فكان كتاب فقهٍ وحديثٍ في آنٍ واحد.

٣- المذهب الشافعي:

ينسب المذهب الشافعي إلى محمد بن إدريس الشافعي المولود في غزوة سنة ١٥٠هـ، والمتوفى في مصر سنة ٢٠٤هـ، وقد نشأ يتيماً بسبب فقد والده، فانتقلت به أمه إلى مكة، وفي مكة تلقى العلم عن شيوخه فيها، ثم رحل إلى المدينة حيث التقى بالإمام مالك وأخذ عنه العلم.

وكان على صلةٍ وثيقة بالإمام محمد بن حسن الشيباني تلميذ أبي حنيفة، فأخذ عنه كثيراً من علمه وفقهه.... وهكذا استطاع الشافعي أن يجمع بين منهجي مالك رائد مدرسة الحديث، وأبي حنيفة رائد مدرسة الرأي، فألف كتباً عديدة أهمها كتاب ((الأم)).

٤- المذهب الحنبلي:

ينسب هذا المذهب إلى الإمام أحمد بن حنبل المولود في بغداد سنة ١٦٤هـ، والمتوفى فيها سنة ٢٤١هـ. والذي بدت عليه منذ طفولته علائم النجابة والنبوغ والتقوى والصلاح، ولهذا اتجه إلى دراسة الحديث والرواية، فكان يرحل إلى مختلف الأمصار، وأتاح له ذلك أن التقى الإمام الشافعي في الحجاز فأخذ عنه الفقه والأصول.

سابعاً: العلوم بأنواعها:

وهنا يطول بنا البحث، فقد أبدع العرب زمن الخلافة العباسية في مجالات العلوم كافة، وقبل أن نشرع بالحديث عن تلك العلوم يجدر الإشارة إلى أنَّ لفظ العرب هنا يشمل كلَّ من تكلم بالعربية وكتب بها، دون النظر إلى أصله أعربياً كان أم أعجمياً.

ولننتقل ببحثنا هذا من شهادات الغرب الذين شهدوا على أنفسهم بمقدار الفائدة التي حصلوها من علمائنا الذين - ويا للأسف الشديد - كثيرٌ ممَّا لا يعلم عنهم إلا الاسم.

جاء في كتاب (القيم الخالدة في الإسلام) للعالم الشهير ((اميل درمنغم^(١))): «إنَّ حضارة الإسلام تقوم على رسالة سماوية، نظامها الاجتماعي يقوم على أسرة متماسكة، ونظامها الاقتصادي يعتبر المال وسيلة لا غاية، ويحترم الملكية الفردية غير المستغلة، وثقافتها تستخدم العقل في كسب المعارف»^(٢).

١- اميل درمنغم: (١٨٩٢-١٩٧١ م).

٢- أثر العلماء المسلمين، ص (١١٦).

وقال الدكتور ((غوستاف لوبون^(١))) المؤرخ الفرنسي في كتابه (حضارة العرب): «إنَّ فلاسفة العرب والمسلمين هم أول من علَّم العالم كيف تتَّفَقُ حرية الفكر مع استقام الدين»^(٢).

ويقول الأستاذ ((كريستوفر داوس))^(٣): «عن العرب أخذت التقاليد العلميَّة في أوربا الحديثة، وقد أسهم العرب في توسيع آفاق الأوربيين توسيعاً لم يسبق له مثيل؛ إذ بفضلهم انتقلت إلى أوروبا حضارات الصين والهند والفرس، وبفضل العرب انتقلت علوم الشرق إلى أوروبا، لتكون شاهدةً بما للإسلام من عظيمة علميَّة تربويَّة وفضلٍ على الإنسان والإنسانيَّة»^(٤).

يقول Bolus في كتابه the influence of Islam: «إنَّ من الحق أن نؤكد أنَّ المسلمين حين ترجموا هذه العلوم إلى لغتهم زادوا عليها وحورَّوا فيها، وصبغوها صبغةً جديدة، حتى أصبحت علومهم هم، وسارع العرب فترجموا إلى لغتهم من الهندية ما يعرف الآن بالأرقام العربية، كما ترجموا علم الحساب بما في ذلك الكسور العشرية، أما علم الجبر فإذا لم نقل إنه من اختراعهم فمن الواجب أن نعترف بمجهودهم في ترقيته والتطور به، ونحن الأوربيون مدينون للعرب بما وصلنا له في هذه العلوم الرياضية من نتائج، لم يكن العرب مترجمين وحسب، بل إنهم اخترعوا كثيراً ولاسيما بالفلك، فاخترعوا الاسطرلاب^(٥)، وتعرَّفوا ساعة

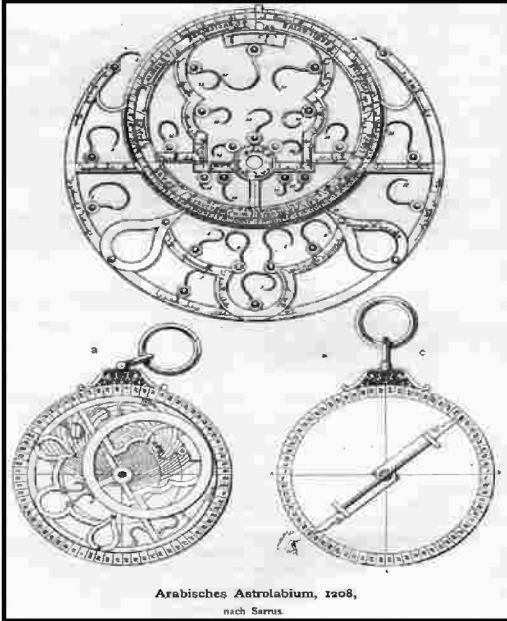
١- طبيب ومؤرخ فرنسي (١٨٤١ - ١٩٣١م) وهو أحد أشهر فلاسفة الغرب وأحد الذين أنصفوا الحضارة الإسلامية. ألف كتابه حضارة العرب عام ١٨٨٤.

٢- المصدر السابق، ص (١١٧).

٣- المصدر السابق، ص (٢١٦).

٤- آلة فلكية قديمة يطلق عليها العرب اسم ذات الصفائح، ويعود اختراعها إلى العالم الدمشقي ابن الشاطر.

كسوف الشمس وخسوف القمر، وفي الطب استطاع المسلمون أن يكتشفوا مرض الجدري، وكانوا يعرفون علم الكيمياء معرفةً تدعو للإجلال والتقدير، ونجحوا في معرفة صفات أحماض المعادن وغيرها من العلوم التي نقلت عنهم إلى أوروبا^(١).



الاسطرلاب العربي سنة ١٢٠٨ م

لقد انتقلت الثقافة الإسلامية إلى أوروبا المسيحية، عن طريق معابر ثلاثة: إسبانيا وصقلية وسورية أيام الحروب الصليبية.

وبعد هذه الاعترافات والشهادات، والكثير الكثير غيرها مما لا يمكن سرده هنا نبدأ بالحديث عن أبرز وأجل العلوم التي برع بها المسلمون زمن الخلافة العباسية.

١- الطب:

اهتمَّ العباسيون بنشر العلوم الطبية وتقديمها، فشجعوا الأطباء، وأسسوا المدارس الطبية والمستشفيات، ودعوا إلى عقد المؤتمرات الطبية؛ التي كان يجتمع فيها الأطباء من البلاد كافة في موسم الحج، حيث يعرض الأطباء نتائج أبحاثهم، ويعرضون نباتات العالم الإسلامي ويصفون خواصها الطبية، فأصبحت بغداد في الشرق وقرطبة في الغرب من أهم مراكز الثقافة الطبية الإسلامية، ومما يذكر أنَّ

١- نقلاً عن كتاب موسوعة التاريخ الإسلامي، د. أحمد شلبي، ج٣، ص (٢٤٦، ٢٤٧)

الخليفة العباسي أبا جعفر المنصور أمر ببناء مستشفى للعميان وملجأً للعجائز في بغداد، وقد شيد هارون الرشيد مستشفى كبيراً لتعليم الطب وزوّده بالمؤلفات العلمية كافة^(١).

وقد بنى صلاح الدين الأيوبي المستشفى الناصري في القاهرة، وبيمارستان الإسكندرية، كما بنى نور الدين بن محمود الزنكي المستشفى النوري الكبير في دمشق^(٢).

ومن مجالات الطب التي برع بها المسلمون آنذاك؛ طب الأسنان:

فقد وصف أطباء العصر العباسي الفم والأسنان وأنواعها وعددها ووظيفة كلٍّ منها ولقد أعجب الخليفة الواثق بوصف حنين بن إسحاق^(٣) لها؛ الذي كان قد اشتهر بعلمه في الطب، إضافةً إلى علمه بالمواد السامة، فكان أن طلب منه الواثق أن يُصنف له كتاباً يذكر فيه جميع ما يشمل هذا العلم، فصنف له كتاباً جعله ثلاث مقالات، يذكر فيه الفرق بين الغذاء والدواء، ويصف آلات الجسد^(٤).

ومما يذكر في هذا المجال أن حدث في عهد الخليفة العباسي المتوكل أن عقد سنان بن ثابت (وكان شيخاً كبيراً من شيوخ الطب) امتحاناً لأطباء بغداد، رخص بعده لثمانية وستين رجلاً بمزاولة مهنة الطب، وكان ذلك على أثر وفاة مريضٍ بسبب إهمال أحد الأطباء^(٥).

١- تاريخ الإسلام، حسن إبراهيم حسن، ج٢، ص (٣٥٥).

٢- أثر العلماء المسلمين، ص (١٤٠).

٣- عالم ومترجم وطبيب؛ يعد أهم مترجمٍ إلى العربية على مر العصور، وقد عاصر تسعةً من خلفاء بني العباس.

٤- المسعودي، مروج الذهب، ج٢، ص (٣٦٤، ٣٦٦).

٥- تاريخ الخلافة العباسية، د. يوسف العش، ص (٢٤٥).

وكان يشرف على هؤلاء الأطباء رؤساء ومفتشون، وقد أمر كل طبيب بأن يحتفظ بصورة من تذكرة الدواء التي يعطيها للمريض، وذلك لتقديمها إلى الرئيس ليفحصها ويحكم فيما إذا كان العلاج متفقاً مع القوانين، وكان ينزل العقاب على الطبيب إذا مات المريض بسبب إهماله أو عدم كفايته^(١).

بل زاد العلماء من اهتمامهم بأساليب الشفاء والمداواة؛ فمما يذكر أن علي ابن عيسى بن الجراح (وزير المقتدر) كتب إلى سنان بن ثابت - المذكور آنفاً - يطلب منه أن يعدّ مجموعة من الأطباء وخزانة من الأدوية تطوف في بعض القرى النائية، فيقيمون في كل قرية مدّة ما تدعو الحاجة إلى إقامتهم، ويعالجون من فيها، ثم ينتقلون إلى غيرها، ففعل سنان ما طلب منه^(٢).

ونذكر شيئاً من حضارة دولة المرابطين^(٣) في الشمال الإفريقي، فقد فاق اهتمامهم أن أوجدوا منصباً يعرف برئيس الصناعة الطبية، وهو منصب مهم يقابل ما نطلق عليه اليوم اسم وزير الصحة، فكان هو المسؤول الأول أمام الأمير في صناعة الطب، وما يتعلق بها من الأدوية والعقاقير^(٤).

وفي سنة ٨٣٦م أمر الخليفة المعتصم ببناء مشرحة كبيرة على شاطئ نهر دجلة في بغداد وأن تزود هذه المشرحة بأنواع من القروء الشبيهة في تركيبها بجسم الإنسان وذلك لكي يتدرب طلبة الطب على تشريحها.

١- د. حسن إبراهيم حسن ج٣، ص (٣٨٧).

٢- طبقات ابن القفطي، ص (١٣٢).

٣- دولة المرابطين ظهرت في الشمال الإفريقي على يد القائد العظيم يوسف بن تاشفين الذي كان له الفضل بعد الله سبحانه وتعالى بإطالة بقاء المسلمين بالأندلس بعد أن فترت همم أصحابها، ومن أشهر معارك هذه الدولة مع الفريجة الإسبان معركة الزلاقة.

٤- انظر: تاريخ المغرب والأندلس، د. أحمد العبادي، ص (٤٠٧، ٤٠٩).

ولم يخل كتابٌ من مؤلفات المسلمين في الطب من باب مستقل عن التشريح توصف فيه الأعضاء المختلفة بالتفصيل وكل عضلة وعرق وعصب باسمه وكان الرازي يقول في كتابه: «يمتحن المتقدم للإجازة الطبية في التشريح أولاً، فإذا لم يعرفه فلا حاجة بك أن تمتحنه على المرضى».

قام ابن الهيثم المتوفى سنة ١٠٣٧م بتشريح طبقات العين واكتشاف وظائفها؛ كالعدسة والحدقة والشبكية وتركيب الأعصاب المتصلة من العين إلى المخ. كما اكتشف ابن رشد وظائف شبكية العين.

وكان المسلمون يعتمدون أول أمرهم على ما كتبه الإغريق في تشريح جسم الإنسان وذلك تجنباً للهرج الديني، ولكنهم اكتشفوا عن طريق التشريح المقارن (أي تشريح الحيوانات) الكثير من الأخطاء في معلومات الإغريق فبدؤوا بالاعتماد على أنفسهم فاكتشفوا أن الكبد يتكون من فصين وليس من خمسة فصوص كما كان يعتقد الإغريق. واكتشف عبد اللطيف البغدادي المتوفى سنة ١٢٣١م أن الفك السفلي للإنسان يتكون من عظمة واحدة وليس من عظمتين كما ذكر جالينوس. واكتشف أن عظمة العجز تتكون من قطعة واحدة وليس من ست قطع كما ذكر جالينوس الإغريقي.

وفي علم طب الأعشاب اكتشفوا ألوف النباتات التي لم تكن معروفة وبينوا فوائدها. وكانت معظم الأعشاب تجرب على الحيوانات كالقروود أولاً. وكان الطبيب المعالج هو الصيدلي أو العشاب في آن واحد. ثم انفصلت التخصصات وأصبح الطبيب يكتب الوصفات وتسمى (الأنعات). وكان يسلمها المريض إلى العشاب أو العطار الذي يركبها له.

وقد اشتهرت دمشق بطب الأعشاب وكان بها أشهر العطارين والمعالجين والعاملين بالأعشاب، وكان العلماء المسلمون يتحايلون على الأدوية المرة التي تعافها نفس المريض بطرق مختلفة، فابن سينا أول من أوصى بتغليف الدواء بأملح الذهب أو الفضة لهذا السبب، فأصبحت أقراص الدواء عند المسلمين مغلفة ليس لها طعم. وقد ألف كبار العشائين العديد من الكتب والموسوعات العلمية في هذا العلم ومن أهمهم ابن البيطار في كتابه «مفردات الأدوية».

كان ابن رشد قد اكتشف المناعة التي تتولد لدى المريض بعد إصـد ابته بمرض معد مثل الجدري. وبين أنه لا يصاب به مرة أذ.رى. وك.انوا يصنعون نوعاً من التطعيم ضد الجدري.

وكان الطب العربي قد عني «بطب المسنين» وعرف «الطب النفسي العضوي» كطب المجانين والمسجونين، وكان ابن سينا أول من أشار إلى أثر الأحوال النفسية على الجهاز الهضمي، وقرحة المعدة، وعلى الدورة الدموية وسرعة النبض. وبينوا أضرار مخالطة المريض بمرضٍ معد أو استعمال آنيته، ودور البصاق والإفرازات في نقل العدوى.

وقد اهتم الأمويون بتنظيم مهنة الطب وطرق العمل بها، والمعالجة وأصدروا التشريعات المنظمة لذلك، وكان يوجد قانون تشريعي ينظم مزاولة مهنة الطب، وفي عهد الخليفة المقتدر العباسي صدر أول قانون للرخص الطبية وبموجبه لا يجوز ممارسة الطب إلا بعد امتحان وشهادة. ووضعت آداب وأخلاقيات للمهنة.

وكان كل من يقوم بممارسة مهنة الطب، يؤخذ عليه قسم الطبيب المسلم والذي كان يعتمد على المحافظة على سر المريض وعلاجه دون تمييز وأن يحفظ كرامة المهنة وأسرارها.

وفي عهد الخليفة المأمون سنة ٨٣٣ م-٢١٨ هـ صدر أول قانون للرخص الصيدلية، وبموجبه يجري امتحان للصيادلة ثم يعطى مرسوماً يجيز له العمل. وأخضع القانون الصيدليات للحسبة (التفتيش).



فإذا زاد العصير نصفه فهذا الشراب موافق لجميع الحلق والجيب والربو

والإسهال والنفث ولين يملأ غليظ في حلقه يصفى اللون ويكثر القيح



وليت له غايلة موافق للثبات والكلام ع ع

صنعه شراب للزكام والسعال

ووزن البطيخ واسترخا المعدن خذ أربع أوقية واصلح ثوبين شراويف

وقطع البصل أربع شراويف وقطع جيعا واربطه خرقه واجعله في ثوبه انشأ شراب

طيب حلاوة ثلثة أيام ونصفه وازرقه في الماء لطيف اشربه بعد العشا

شخص يقوم بتركيب دواء من عشبة بريّة.

مشاهير الأطباء في العصر العباسي:

أ- أبو بكر الرازي:

محمد بن زكريا الرازي، المولود في بلدة الريّ من أقاليم فارس جنوبي طهران عام ٨٥٤م والمتوفى في بغداد عام ٩٣٢م، وقد لُقِبَ بـ(جالينوس العرب)^(١)، ويُعرف عند الأوروبيين باسم Rhazee، وقد أَلَفَ الرازي في الطب كتباً كثيرة، وكان متقناً لهذه الصناعة حاذقاً بها، تشد إليه الرحال للأخذ عنه، ومن الكتب التي صنفها، كتاب الحاوي؛ وهو من الكتب الكبار يدخل في مقدار ثلاثين مجلداً، ومن كتبه أيضاً كتاب الجامع؛ وهو من الكتب النافعة^(٢).

واشتهر الرازي بالكرم والعطف على الفقراء المرضى، فكان يعالجهم وينفق عليهم، ومن إرشاداته الطبية: «مهما قدرت أن تعالج بالأغذية فلا تعالج بالأدوية»^(٣).

شهادة الغرب: خصصت جامعة برنستون^(٤) الأمريكية أفخم ناحيةٍ في أجمل أبنيتها لمآثر علمٍ من علماء الحضارة الإسلامية ألا وهو الرازي^(٥).

ب- ابن سينا:

أبو علي الحسين بن عبد الله المشهور بابن سينا، ولد في إحدى قرى بخارى عام ٩٨٠ م وتوفي عام ١٠٣٧م^(٦)، حفظ القرآن الكريم ودرس الآداب، وأصول الدين، والهندسة، والجبر وهو في العاشرة من عمره، ثم درس الطب ونبغ فيه ولم يكن قد

١- أثر العلماء المسلمين، ص (١٣٨).

٢- د. حسن إبراهيم حسن ج٣، ص (٣٨٩).

٣- د. حسن إبراهيم، ص (٣٩٠)، نقلاً من كتاب ابن خلكان، ج٢، ص (٧٨).

٤- جامعة خاصة تقع في ولاية نيوجرسي الأمريكية.

٥- أثر العلماء المسلمين، ص (١٣٨).

٦- المصدر السابق، ص (١٣٤).

جاء السابع عشرة، وقد ترك ابن سينا كثيراً من كتب الطب أشهرها كتاب القانون الذي كان يدرس في مدارس أوروبا أكثر من ستة قرون، ولا سيما ما يتعلق منه بعلم الصحة والرضاع، والشروط التي يجب أن تتوفر فيمن ترضع الطفل^(١).

كما حدد العالم ابن سينا في كتابه «القانون» القواعد الرئيسية لجراحة السرطانات. في مراحل ثلاث هي: الاكتشاف الباكر، ثم الجراحة الباكرة، فالاستئصال التام.

وعن ابن سينا يقول السمرقندي أن «كل من يحيط علماً بما في الجلد الأول من (القانون) لا يخفى عليه شيء من أصول علم الطب وكنياته، ولو بعث بقراط وجالينوس إلى الحياة لحقّ لهما أن يسجدا لهذا الكتاب».

وقبل أن تنتقل إلى عالم آخر نذكر هنا قول الدكتور أوسلي^(٢) عن كتاب القانون لابن سينا: «إنّ هذا الكتاب دُرّس في العالم الغربي مدّة فاقت أي كتاب آخر دُرّس فيه».

ج- الزهراوي^(٣):

أبو القاسم القرطبي الشهير بالزهراوي (٩٣٦ - ١٠١٣ م) عالم وطبيب أندلسي، ولد في الزهراء، ويعتبر أشهر جراح مسلم في العصور الوسطى، له كتاب ((التصريف لمن عجز عن التأليف)) وهو مؤلف من ثلاثة أقسام: قسم طبيّ، وقسم صيدليّ، وقسم جراحيّ. ومن أبرز أعماله ذكره وصف عملية سحق

١- د. حسن إبراهيم حسن، ص (٣٩٢).

٢- وهو sir William Osler طبيب كندي، عمل كأستاذ في جامعة أوكسفورد، وهو أول من أدخل استعمال المجاهر، ومعامل التشريح في الجامعات الكندية.

٣- أثر العلماء، ص (١٣٦، ١٣٧).

الحصاة في وهي عملية لم يجرؤ أي جراح في أوروبا على إجرائها إلا في القرن التاسع عشر أي بعده بتسعة قرون.



صورة تخيلية للزهرائي

وذكر الزهرائي علاج السرطان في كتابه «التصريف» قائلاً: «متى كان السرطان في موضع يمكن استئصاله كله كالسرطان الذي يكون في الثدي ونحوه من الأعضاء المتمكنة لإخراجه بجملته، فإذا كان مبتدئاً صغيراً فافعل. أما متى تقدم فلا ينبغي أن تقربه فإني ما استطعت أن أبرئ منه أحداً. ولا رأيت أحداً قبلي وصل إلى ذلك».

شهادة الغرب: طبع كتاب الزهرائي باللاتينية عام ١٤٩٧م، وحسبنا أن نعلم أن كتاب الزهرائي المؤلف من واحدٍ وعشرين جزءاً في الطب والجراحة، قد اشتمل على أكثر من مائتي شكل لآلات والأدوات الجراحية، التي كان العالم يستعملها في ممارسة أعمال الجراحة، وهو أحد الكتب السبعة التي قام عليها العلاج والصيدلة في أوروبا، وهو أول من وفق في ربط الشرايين لمنع النزيف (على ما ورد في دائرة المعارف البريطانية).

د- ابن البيطار النباتي:

ضياء الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد المالقي، ولد في مدينة مالقة في الأندلس عام ١١٩٧م، واشتهر بلقب ابن البيطار لأن والده كان طبيباً بيطرياً ماهراً، وقد اهتم بالنباتات فألف موسوعةً عن إعداد وتركيب الدواء، ذكر فيها ١٤٠٠ نوع من النباتات، حيث كان يجوب العالم ومعه رسام يرسم له في كتابه النبات بالألوان في

شتى أحواله وأطواره ونموه. وقد اكتشف وحده ٣٠٠ نبات طبي جديد شرحها في كتبه واستجلبها معه. وكانت وفاته رحمه الله بدمشق سنة ١٢٤٨م.

هـ- ابن النفيس:



صورة تخيلية لابن النفيس

أبو الحسن علاء الدين بن أبي الحرم الدمشقي الملقب بابن النفيس، ولد بدمشق في سورية (٦٠٧هـ/١٢١٣م، ٦٨٧هـ/١٢٨٨م) وهو عالم وطبيب عربي مسلم، له مساهمات كثيرة في تطور الطب، ويعد مكتشف الدورة الدموية الصغرى، ويعتبر من رواد علم وظائف الأعضاء في الإنسان، حيث وضع نظريات يعتمد عليها العلماء إلى الآن. ويعتبره كثيرون أعظم شخصية طبية في القرن السابع الهجري.



صورة تخيلية لابن سينا



تمثال لابن البيطار في مدينة مالقة في إسبانيا

٢ - الكيمياء:

كان العرب هم أول من صنع بارود المدافع واستعملوه كقوةٍ دافعةٍ تدميريةٍ في الحروب. بينما كان الصينيون يستخدمون الملح الصيني من ملح البارود الخام لخاصية الاشتعال في الألعاب النارية في أعيادهم، وقد نقل العالم (بيكون) لأوروبا تقنية صناعة البارود بعد ثلاثة قرون من استعمال العرب واختراعهم له.

وكانت المناجيق العربية تطلق قذائف النيران الحارقة. وكانت القذيفة تتكون من خليط من الكبريت والنفط والحجارة ملفوفة في الكتان، وفي الحروب الصليبية ابتكر المسلمون آلة جديدة أطلقوا عليها (الزيار) لرمي أعداد كبيرة من السهام الثقيلة دفعة واحدة.

وكان الأسطول الأموي يستخدم النفاطة (مزيج من السوائل الحارقة تطلق من أسطوانة في مقدمة السفينة وتسمى النار الإغريقية، وهي خليط من الكبريت والمواد سهلة الاشتعال ومادة الجير الحي التي تتفاعل مع الماء فتنتج الحرارة). وفي علم السبائك كانت صناعة الصلب العربي الذي تُصنع منه الأسلحة فقد بلغت هذه الصناعة أوجها في دمشق والقاهرة، وأصبح السيف العربي لا يدانيه سيف، وقد اشتهر السيف الدمشقي شهرةً كبيرةً من حيث حدة شفرته وعدم قابليته للصدأ أو الاعوجاج، وسمي المعدن الذي يصنع منه السيف الدمشقي بالمعدن الأسطوري. وكان المسلمون قد طوروا في أسلحتهم فكانوا يستخدمون الأسلحة الثقيلة كالدبابة والمنجنيق لمهاجمة البيزنطيين.

ومن أشهر الكيميائيين جابر بن حيان: (١٠١هـ/٧٢١م - ١٩٩هـ/٨١٥م).

عالم عربي من أعظم علماء القرون الوسطى، أصله من خراسان، عاش معظم حياته في الكوفة، ويعرفه الأوروبيون باسم Geber وتوفي في عهد الخليفة

المهدي^(١)، وقد ألف جابر كتباً كثيرة في الكيمياء والمعادن انتفع بها الأوربيون^(٢).

وهذه قائمة بسيطة حول بعض منجزاته في علوم الكيمياء:

١- اكتشف الصودا الكاوية أو القطران (Na Oh).

٢- نجح في وضع أول طريقة للتقطير في العالم.

٣- أول من اكتشف حمض النتريك.

٣- الحساب والجبر:

أمّا علم الرياضيات فقد لقي اهتماماً خاصاً وكبيراً من العلماء المسلمين من أمثال الخوارزمي والبتاني والبيروني، وفي هذا يقول الأستاذ دو هينولد: «يجب عدُّ العرب مؤسسين حقيقيين للعلوم الطبيعية»^(٣).

فقد كان أثر العرب في الرياضيات كبيراً، فهم الذين أدخلوا التقييم العشري في الحساب؛ وفي هذا رقيٌّ كبير في العلم، وكانت الأعداد حتى الـ(٩) معروفةً ترقم، إلا أن الصفر لم يكن معروفاً، والخوارزمي هو من عمم الصفر، أمّا الجبر فقد وضع لأول مرةً باللغة العربية، وذلك على يد الخوارزمي في كتابه (الجبر والمقابلة) فمنه تبدو أصول الجبر، أمّا الذي تقدم بالجبر خطوات كبيرة فهو عمر الخيام والذي حل حلولاً هندسيةً من الدرجة الثالثة^(٤).

ونذكر بعض أسماء علماء الرياضيات في ذلك العصر كأمثال:

١- (١٥٨-١٦٩هـ)

٢- د. حسن إبراهيم، ج٢، ص (٣٥٢).

٣- أثر العلماء، ص (١٥١).

٤- تاريخ الخلافة العباسية، د. يوسف العش، ص (٢٤٩).

١- أبو علي محمد بن الحسن بن الهيثم:



رسم تخيلي
لابن الهيثم

ولد سنة ٩٦٥م في مدينة البصرة، وهو عالم عربي اشتهر اسمه في علم الرياضيات والهندسة، ونال شهرته على الجهود التي بذلها والدراسات التي قدّمها عن ((علم الضوء)) والمعروف بالبصريّات^(١). فقد وضع أسس علم الضوء في كتابه المناظر الذي ألفه عام ٤١١هـ / ١٠٢١م، وفيه استثمر خبرته الطبية، وتجاربه العلمية، فتوصل فيه إلى نتائج وضعته على قمة عالية في المجال العلمي، وصار بها أحد المؤسسين لعلوم غيّرت من

نظرة العلماء لأُمور كثيرة في هذا المجال حتى لقبه العلماء (أمير النور).

أما في علم الفلك فلا بن الهيثم نحو ٢٠ مخطوطة في هذا المجال، وقد استخدم عبقريته الرياضية في مناقشة كثير من الأمور الفلكية، كما ناقش في رسائله بعض الأمور الفلكية مناقشة منطقية، عكست عبقرية الرجل من جانب، ومن جانب آخر عمق خبرته وعلمه بالفلك، ومن مؤلفاته:

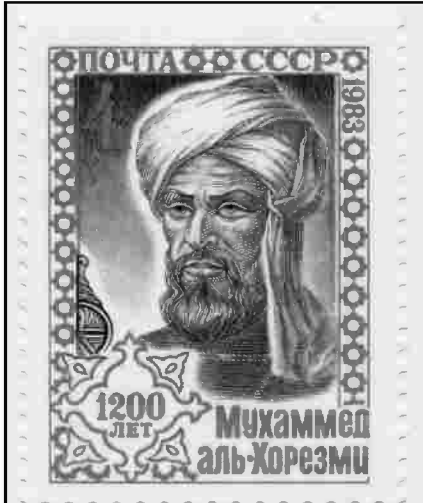
ارتفاع القطب: وفيه استخرج ارتفاع القطب، وتحديد خط عرض أي مكان.

ضوء القمر: وأثبت أن القمر يعكس ضوء الشمس وليس له ضوء ذاتي.

١- أثر العلماء، ص (١٥١).

الأثر الذي في وجه القمر: وفيها ناقش الخطوط التي تُرى في وجه القمر، وتوصل إلى أن القمر يتكون من عدة عناصر، يختلف كل منها في امتصاص وعكس الضوء الساقط عليه من الشمس، ومن ثمَّ يظهر هذا الأثر.

٢- الخوارزمي:



محمد بن موسى الخوارزمي طابع بريدي
أصدره الاتحاد السوفيتي عام ١٩٨٣م في
الذكرى ١٢٠٠ لميلاد الخوارزمي

عبد الله بن موسى ظهر في عصر المأمون، وكان ذا مقامٍ كبيرٍ عنده، فأحاطه بأشكال الرعاية والعناية، وولاه منصب رئيس ((بيت الحكمة)) كما جعله على رأس بعثةٍ علميةٍ إلى الأفغان بقصد البحث والتنقيب^(١).

وقد ترك العديد من المؤلفات في علوم الفلك والجغرافيا من أهمها كتاب الجبر والمقابلة الذي يعد أهم كتبه، وقد ترجم الكتاب إلى اللغة اللاتينية في سنة ١١٣٥م، وقد دخلت على إثر ذلك

كلمات مثل الجبر Algebra والصفـر Zero إلى اللغات اللاتينية.

وقد عرض في كتابه (حساب الجبر والمقابلة) أو (الجبر) أول حل منهجي للمعادلات الخطية والتربيعية. ويعتبر مؤسس علم الجبر، اللقب الذي يتقاسمه مع (ديوفانتس).

١- أثر العلماء، ص (١٥٣).

٣- البيروني^(١):



صورة رمزية للبيروني على طابع
بريدي إيراني عام ١٩٧٣

وهو أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني، أصله من فارس، ومولده في بيرون عاصمة خوارزم في التركستان سنة ٩٧٣ م وتوفي فيها عام ١٠٤٨ م. من أشهر مؤلفاته ((الجماهر في معرفة الجواهر)) وقد قام بتحقيق بعض فصوله المستشرق الألماني ((ادوارد سخاو)) ونشر في لندن عام ١٨٧٨ م. أمّا المستشرق الألماني ((شاخ^(٢))) فيقول: «كان البيروني يتمتع بشجاعة فكرية فائقة وكان مولعاً بالاطلاع العلمي أشد الولع بعيداً عن الأوهام، محباً للحقيقة، مخلصاً لأبحاثه العلمية إخلاصاً نادراً...».

وقد أطلق عليه المستشرقون تسمية بطليموس العرب.

٥- علم الفلك:

كان أثر الحضارة الإسلامية في الفلك كبيراً جداً، فقد حصلت حركة هائلة في هذا المجال، وأسست المراصد؛ فكان أول مرصد كبير قد بُني زمن المأمون في

١- المصدر السابق، ص (١٥٨).

٢- Joseph Schacht (١٩٠٢-١٩٥٩ م): مستشرق ألماني متخصص في الفقه الإسلامي شغل منصب أستاذ في جامعة كولومبيا بالولايات المتحدة الأمريكية.

بغداد، ومرصدٌ آخر أوجده على جبل قاسيون بدمشق^(١).

ويُعدُّ الخليفة المأمون أول من اهتمَّ بعلم الفلك، وجعل بغداد مركزاً للعلم، وأقام المأمون عنده جماعةً من فحول العلماء وأمرهم بترجمة كتاب ((المجسطي))^(٢).

وبلغ الاهتمام برصد الكواكب ذروته في القرن الرابع الهجري، وقد قيل إن شرف الدولة بن عضد الدولة (٣٧٦ - ٣٧٩ هـ) لما استقرت قدمه في العراق أمر بأن ترصد الكواكب السبعة في مسيرها وتنقلها في بروجها على مثال ما كان المأمون يفعل^(٣). ونذكر من علماء الفلك:

أبو عبد الله محمد بن جابر بن سنان البتاني (٨٥٠ - ٩٢٩ م):

عالم فلكي سوري، ولد في مدينة بتان من نواحي حران الواقعة على نهر الفرات في سوريا، وهو مهندس وجغرافي وفلكي ورياضياتي من مشاهير أعلام العلوم الطبيعية عند المسلمين، يسميه علماء أوروبا: Albategni، وقد أطلق اسمه على منطقة من مناطق القمر، عاش في عصر ازدهار العلوم في عهد الخليفة المغفور له المأمون بن الخليفة هارون الرشيد.

إسهاماته:

- ١- يقال أن البتاني أسهم في مجال علم حساب المثلثات.
- ٢- يقال أيضاً إن البتاني كان من أوائل من اكتشفوا كروية الأرض، وأن كل كوكب يسير في مسار بيضاوي.
- ٣- أول من اكتشف حركة الأوج الشمسي وتقدم المدار الشمسي وانحرافه.

١- تاريخ الدولة، د. العش، ص (٢٤٩).

٢- أقدم كتاب وصل إلينا مما وضعه الفلكيون في علم الهيئة، معرب عن اليونانية، ومعناه الأكبر، ألفه بطليموس، وعربه حنين بن إسحاق. أثر العلماء، ص (١٦١).

٣- أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج٤، ص (١٥٢).

- ٤- يقول (نيلنو): «إن له رسداً جليلاً للكسوف والخسوف اعتمد عليها العالم دنتورن سنة ١٧٤٩ م في تحديد تسارع القمر في حركته خلال قرن من الزمان».
- ٥- يقول (لالند) الفرنسي: «البتاني أحد الفلكيين العشرين الأئمة الذين ظهروا في العالم كله».

ملاحظة: البتاني، تنطق (البتّاني) بكسر الباء أو (البتّاني) بفتح الباء.

٦- الترجمة:

كان الخلفاء العباسيون يشجعون على تنشيط حركة الترجمة، فأقبل العلماء والأدباء إليهم نتيجة الاهتمام الهائل الذي وجدوه من الخلفاء.

ومن المترجمين المهرة نذكر عبد الله بن المقفع^(١)، وأشهر ما ترجمه كتاب (كليلة ودمنة)، وقد وضع الأصل بالسنسكريتية^(٢)، ثم ترجم إلى الفارسية، ومنها ترجمه ابن المقفع إلى العربية، وقد حفظته اللغة العربية للفكر الإنساني، ومنها ترجم إلى جميع اللغات الأوربية وإلى كثير من اللغات الأخرى^(٣).

ونذكر أيضاً الحجاج بن يوسف بن مطر وهو أول مترجم لكتاب العناصر لإقليدس، ونقل إسحاق بن حنين^(٤) إلى اللغة العربية كتباً كثيرة منسوبة إلى أفلاطون وأرسطو والإسكندر وغيرهم^(٥).

١- (٧٢٤-٧٥٩م) مؤلف وكاتب عربي مسلم، فارسي الأصل عاش في البصرة.

٢- هي اللغة الهندية القديمة.

٣- د. أحمد شليبي، ج٣، ص (٢٤١).

٤- (٢١٥-٢٩٨هـ / ٨٣٠-٩١٠م) كان أواحد عصره في الطب، وهو ينتمي لقبيلة عباد العربية النصرانية، وقد اعتنق الإسلام في آخر حياته.

٥- المصدر السابق، ص (٢٤٢، ٢٤٣)

٧- الفلسفة:

أ- الكندي:

يعقوب بن إسحاق الكندي، من قبيلة كِنْدَة اليمينية التي ينسب إليها امرؤ القيس الشاعر وسمي لأجل ذلك فيلسوف العرب وكان- كما يقول ابن النديم في وصفه «فاضل دهره وواحدُ عصره في معرفة العلوم القديمة بأسرها... وكتب في علوم مختلفة مثل المنطق والفلسفة والهندسة والموسيقى والنجوم».

نشأ الكندي في الكوفة وتعلم في البصرة ثم في بغداد، واشتهر الكندي بترجمة الكتب اليونانية إلى العربية، وتنقيح ما ترجمه غيره من المترجمين، واشتغل بالرياضيات، وما وراء الطبيعة، وقد حذا في تأليفه حذو أرسطو، وترجم كثيراً من كتب الفلسفة وشرح غوامضها، وكان معاصراً للمأمون والمعتصم والواثق والمتوكل^(١).

ب- الفارابي:

أبو نصر محمد بن محمد الفارابي، كان أبوه من كبار القواد وقد تنقل الفارابي في أمهات المدن يجمع العلم، وكان أن اتصل الفارابي ببلاط سيف الدولة الحمداني صاحب حلب، وصحب سيف الدولة عند دخوله دمشق، ومات بها سنة ٣٩٩هـ، وترجع شهرته إلى شروحه الكثيرة على مؤلفات أرسطو، حيث لقب بالمعلم الثاني، تميزاً له عن أرسطو الذي لقد بالمعلم الأول، كما يمتاز الفارابي برسائله الكثيرة في علم النفس والإلهيات، كما كتب عدة رسائل للتوفيق بين آراء أرسطو وأفلاطون، كما نشرت له رسالة آراء أهل المدينة الفاضلة^(٢)، كما تكلم الفارابي في الأخلاق والمنطق، وتكلم عن الوجود والله، وعن العالم

١- د. حسن إبراهيم حسن، ج٣، ص (٣٨٠، ٣٨١).

٢- طبعة مصر سنة ١٣٢٣هـ.

العلوي، والعلم السُفلي، وبحث في النفس الإنسانية والعقل^(١).

أبو القاسم عباس بن فرناس:

ولد برندة^(٢) عام ٨١٠ م، وتوفي بقرطبة عام ٨٨٧ م، وهو مخترع وفيلسوف أندلسي. عاش في عصر الخليفة الأموي الحكم بن هشام، وعبد الرحمن الناصر لدين الله، ومحمد بن عبد الرحمن الأوسط وذلك في القرن التاسع للميلاد.

كان له اهتمامات في الرياضيات والفلك والكيمياء والفيزياء. ذكر المؤرخون بعض اختراعاته، ومنها ساعة مائية سماها «الميقات»، وهو أول من وضع تقنيات التعامل مع الكريستال، وصنع عدة أدوات لمراقبة النجوم.

وهو أول من اخترق الجو من البشر وأول من فكر في الطيران، فقد كسا نفسه الريش ومد له جناحين طار بهما في الجو مسافة بعيدة ثم سقط فتأذى في ظهره لأنه لم يعمل له ذنباً، وقد وصف شعراء عصره هذا الطيران وأكثروا في الثناء عليه.

ومن الواضح حسب المصادر أن عباس بن فرناس قام بتجربته في الطيران بعد أبحاث وتجارب عدة، وقد قام بشرح تلك الأبحاث أمام جمع من الناس دعاهم ليريهام مغامرته القائمة على الأسس العلمية.

فقد قام عباس بن فرناس بتجارب كثيرة، درس في خلالها ثقل الأجسام ومقاومة الهواء لها، وتأثير ضغط الهواء فيها إذا ما حلقت في الفضاء، وكان له خير معين على هذا الدرس تبخره في العلوم الطبيعية والرياضية والكيمياء فاطلع على خواص الأجسام، واتفق لديه من المعلومات ما حمله على أن يجرب الطيران الحقيقي بنفسه.

١- راجع كتاب دي بور، تاريخ الفلسفة الإسلامية، ص (١٢٧) وما يليها.

٢- مدينة إسبانيا.

صمم في ليبيا طابع بريد يصور محاولته الطيران ، وضع له تمثالٌ على طريق مطار بغداد الدولي، وسمي مطار آخر شمال بغداد باسمه. تكريماً له، وسميت فوهة قمرية باسمه وتعرف بفوهة ابن فرناس القمرية.

محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الشهير بالإمام الطبري:

(٨٣٨-٩٢٣م / ٢٢٤-٣١٠ هـ) مؤرخ ومفسر وفقيه مسلم صاحب أكبر كتابين في التفسير والتاريخ. يعتبر أكبر علماء الإسلام تأليفاً وتصنيفاً.

محمد بن عبد الله بن محمد الطنجي الشهير بابن بطوطة:

(١٣٠٤-١٣٧٧م / ٧٠٣-٧٧٩ هـ) هو رحّالة ومؤرخ وقاضٍ وفقيه مغربي، ولد في طنجة بالمغرب. ألف كتاب تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار؛ الذي ترجم إلى اللغات البرتغالية والفرنسية والإنجليزية، ونشر فيها، وترجم فصولٌ منه إلى الألمانية.



صورة تخيلية لابن بطوطة

كان ابن بطوطة يحسن التركية والفارسية، وقام بثلاث رحلات استغرقت في مجموعها نحو ثلاثين سنة، وكان أطولها الرحلة الأولى التي زار خلالها معظم نواحي المغرب والمشرق، حيث كانت أطول إقامة له في بلاد الهند حيث تولى القضاء سنتين، ثم في الصين حيث تولى

القضاء سنة ونصف السنة، وفي هذه الفترة وصف كل ما شاهده وعائنه فيهما

وذكر كل من عرفه من سلاطين ورجال ونساء ووصف ملابسه وعاداتهم وأخلاقهم وضيافتهم وما حدث في أثناء إقامته من حوادث.

تلقبه جامعة كامبريدج في كتبها وأطالسها بأمير الرحالة المسلمين الوطنيين.

شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي:

أديب ومؤلف موسوعات وخطاط اشتغل بالعلم وأكثر من دراسة الأدب.

وأهم مؤلفاته كتابه المعروف (معجم البلدان) الذي ترجم وطبع عدة مرات.

وهو سوري ولد في مدينة حماة عام ٥٧٤هـ / ١١٧٨م، ويلقب بالحموي

نسبة لمدينته حماة، وقد أسر الروم والدته في غارة لهم على مدينة حماة، فلم يستطع

الحمدايون فداءه مثل غيره من العرب فبقي أسيراً بها، وتزوج من فتاة رومية

فقيرة أنجبت «ياقوتاً» ولهذا لقب بالرومي. توفي سنة ٦٢٣هـ / ١٢٢٥م.

أحمد ابن العباس ابن رشيد المعروف بابن فضلان:

عالم مسلم من القرن العاشر الميلادي وإليه يعود أقدم وصف لروسيا والذي

قام بكتابته عام ٩٢٢ م، حيث زارها بصفته عضواً في سفارة الخليفة العباسي إلى

ملك الصقالبة.

علي بن حزم الأندلسي (٣٨٤هـ - ٤٥٦هـ / ٩٩٤ - ١٠٦٤م):

هو الإمام البحر، ذو الفنون والمعارف، أكبر علماء الإسلام تصنيفاً وتأليفاً

بعد الطبري، وهو الإمام الحافظ، ووزير سياسي لبني أمية. يعد من أكبر علماء

الأندلس.

ابن خلدون (٧٣٢ - ٨٠٨هـ / ١٣٣٢ - ١٤٠٦م):

مؤسس علم الاجتماع ومؤرخ مسلم، ولد في تونس وكانت أسرته أسرة

علم وأدب، فقد حفظ القرآن الكريم في طفولته، وكان أبوه هو معلمه الأول،

وقد شغل أجداده في الأندلس وتونس مناصب سياسية ودينية مهمة وكانوا أهل جاه ونفوذ.

ما قيل في وصفه:

«ابتكر ابن خلدون فلسفةً للتاريخ هي بدون شك أعظم ما توصل إليه الفكر البشري في مختلف العصور والأمم». أرنولد توينبي.

«إن مؤلف ابن خلدون يمثل ظهور التاريخ كعلم، وهو أروع عنصر فيما يمكن أن يسمى بالمعجزة العربية». ايف لاکوست.

«تُرى أليس في الشرق آخرون من أمثال هذا الفيلسوف». لينين

أبو حامد محمد بن أحمد الغزالي الشافعي:

الملقب بحجة الإسلام، مجدد القرن الخامس الهجري، ولد في مدينة طوس الفارسية في خراسان عام ٤٥٠هـ. وهو عالم وفقه إسلامي، أحد أهم أعلام عصره وأحد أشهر علماء الدين في التاريخ الإسلامي.

التربية الأخلاقية عند الغزالي

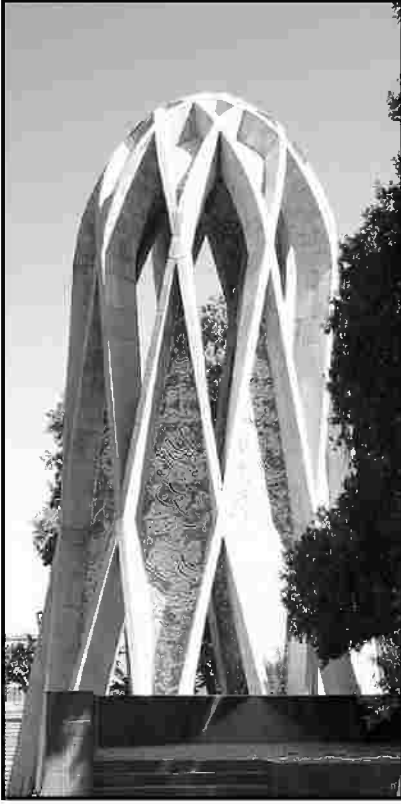
يرى الغزالي أن الأخلاق الفاضلة لا تولد مع الإنسان، وإنما يكتسبها عن طريق التربية والتعليم من البيئة التي يعيش فيها.

والتربية الأخلاقية السليمة في نظر الغزالي تبدأ بتعويد الطفل على فضائل الأخلاق وممارستها مع الحرص على تجنبه مخالطة قرناء السوء حتى لا يكتسب منهم الرذائل، وفي سن النضج العقلي تشرح له الفضائل شرحاً علمياً يبين سبب عدها فضائل وكذلك الرذائل وسبب عدها رذائل حتى يصبح سلوكه مبنياً على علم ومعرفة واعية.

رسم تخيلي
للغزالي



تمثال لابن خلدون في قلب العاصمة بساحة الاستقلال في تونس



قبر عمر الخيام في
نياسبور في إيران



تمثال لمحمد ب. ن موسى الخوارزمي



ثامناً: مراكز الثقافة:

ونذكر في هذه الفقرة حال بلاط بعض الأقاليم التي انفصلت عن جسد الخلافة:

أ- البلاط الساماني في بخارى:

يصف الثعالبي مدينة بخارى قائلاً: «كانت بخارى في الدولة السامانية مثابة المجد، وكعبة الملك، ومجمع أفراد الزمان، ومطلع نجوم الأرض»^(١). وكانت مكتبة نوح بن نصر الساماني - كما يقول ابن خلكان - «عديمة المثل، فيها من كل فن من الكتب المشهورة بأيدي الناس، وغيرها مما لا يوجد في سواها، ولا سمع باسمه فضلاً عن معرفته»^(٢).

١- يتيمة الدهر، ج٤، ص (٩٥).

٢- وفيات الأعيان، ج١، ص (١٥٢، ١٥٣).

ب- بلاط الحمدانيين في الموصل وفي حلب خاصة:

لقد كانت حاضرة سيف الدولة مقصد الوفود وموسم الأدباء وحلبة الشعراء، ويقال إنه لم يجتمع قط بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع على بابه من شيوخ الشعراء ونجوم الدهر، فقد كان سيف الدولة أديباً شاعراً محباً للشعر شديد الاعتزاز بمدح به^(١).

ج- بلاط الطولونيين والإخشيديين، والفاطمين في مصر:

اشتهر عصر الطولونيين بمصر بطائفة كبيرة من العلماء والمحدثين والأدباء والمؤرخين، وكذلك كان حال الفاطميين أيضاً فقد اتخذوا من قصورهم مراكز لنشر الثقافة، وألحقوا بها مكتبات تحتوي مئات الألوف من المصنفات، وروى المقرئزي «أنه كان في القصر أربعون خزانة، منها خزانة تحتوي على ١٨٠,٠٠٠ مجلد في العلوم القديمة»^(٢).

وقد أسس الخليفة الفاطمي الحاكم في سنة ٣٩٥هـ (١٠٠٥م) «دار الحكمة» على مثال أكاديميات بغداد وقرطبة، وألحق بها مكتبة أطلق عليها «دار العلم» حوت ما لم يجتمع مثله في مكتبة من المكتبات آنذاك^(٣).

د- بلاط الأمويين في قرطبة:

لقد نافست قرطبة بغداد والقاهرة وبخارى وأصبهان وغيرها من أمهات المدن الإسلامية، فأصبحت حاضرة الأندلس سوقاً نافقاً للعلم، وكعبة لرجال الأدب، وجذبت مساجدها الأوربيين الذين وفدوا إليها لارتشاف العلم من

١- د. حسن إبراهيم حسن ج٣، ص (٣٣٦).

٢- المقرئزي، خطط، ج١، ص (٤٠٧)

٣- المصدر السابق، ص (٤٥٨)، والسيوطي، تاريخ الخلفاء، ص (٢٧٣).

مناهلها والتزود من الثقافة الإسلامية^(١).

وقد زحرت مكتبة قرطبة بكثيرٍ من المصنفات في مختلف العلوم والفنون، فقد بذل الحكم المستنصر الأموي جهوداً بعيدة الأثر في توجيه الدراسة الأندلسية في ميادين العلوم والطب فكانت المكتبة التي أنشأها تضم بين خزائنها أربعمئة ألف مجلد في وقت لم تُعرف فيه الطباعة، وكانت الفهارس التي وضعت لها في غاية الاختصار، وكان في قرطبة نفسها عدد كبيرٌ من النّاسخين والمجلدين والمزخرفين^(٢).

تاسعاً: قصور الخلفاء:

كانت قصور الخلفاء أشبه بمدنٍ كبيرة لاتساعها، ويشتمل القصر على دورٍ وبساتين وبركٍ مائية تظللها الأشجار، كما كانت تشتمل على قاعاتٍ ذات قبابٍ وأورقة، ويزيد في جمال هذه القصور البرك والأنهار الجارية، وكان القادر يجلس في قصره المعروف ببيت الرصاص بين يديه نهرٌ يجري الماء فيه إلى دجلة^(٣).

ولم تكن قصور الأمويين في الأندلس بأقل روعة وبهاء من قصور العباسيين، فقد اشتهرت قرطبة والزهراء وطليطلة وغيرها من أمهات مدن الأندلس بقصورها الفخمة. ومن قصور الأندلس القصر الذي بناه المأمون بن ذي النون بطليطلة، وقد أنفق على بنائه أموالاً ضخمة، وكان قد جعل في وسطه بحيرةً في وسطها قبةٌ من زجاجٍ ملونٍ منقوش، وجلب الماء إلى القبة بحيث كان ينزل من أعلاها ويحيط بها من جوانبها، وتوقد فيها الشموع، فيُرى لذلك منظر عجيب بديع^(٤).

١- د. حسن إبراهيم، ج٣، ص (٣٣٨).

٢- المصدر السابق نفسه.

٣- هلال الصابي، تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، ص (٤٢٠).

٤- المقرئ، نفح الطيب، ج١، ص (٢٥٠، ٢٥١).

ونذكر من القصور الإسلامية ما يلي:

قصر الحير الشرقي:

يقع القصر في البادية السورية بالقرب من مدينة السخنة^(١) نحو ١٠ كم شرقاً. بناه الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك عام ١١٠ هجرية، يقع القصر ضمن نطاق مدينة أثرية كاملة كانت منتجعاً للخليفة في العصر الأموي.

ويتألف القصر من طابقين، وله بوابة ضخمة محاطة ببرجين دائريين وثلاث بوابات في محيط القصر وأبراجه مستديرة، وتحيط به البساتين والبيوت الخاصة بالحاشية ودور الخدمة والمخازن والمطابخ والحمامات.

وقد أوضح (هرزفيلد) أحد الأثريين الذين عملوا في موقع المدينة أن بناء المسجد وبعض المرافق قد سبقت بناء القصر، ويعد قصر الحير الشرقي مع قصر الحير الغربي الواقع غرب مدينة تدمر نموذج للفن الأموي الذي انتشر في المدن الإسلامية والأندلس بعد ذلك.

وقد زار القصر الكثير من الرحالة والكتاب والمستشرقين وكتب عنه الكثير حيث كتب عنه الكاتب (ألبرت غرييل) وأطلق عليه اسم «مدينة في الصحراء».

قصر المشتى:

هو أحد القصور العربية التي بناها الأمويون في الشام. يقع القصر على مسافة ٣٢ كم جنوب شرق مدينة عمّان. بناه الخليفة الأموي الوليد بن يزيد عام ٧٤٤م. ويحيط بالقصر سور مربع طوله ١٤٤ متراً فيه ٢٥ برجاً دائرياً، عدا برج المدخل فهما بشكل نصف مئمن.

١- السخنة: مدينة سورية تابعة لمحافظة حمص، تقع بين مدينة حمص ومحافظة دير الزور وتبعد عن مدينة تدمر الأثرية قرابة ٧٠ كيلومتراً شرقاً.

يقسم القصر إلى ثلاثة أجنحة، الجناح الأوسط مقسم بدوره إلى ثلاثة أقسام هم القسمان الشمالي والجنوبي ويضمّان الأبنية الرئيسية، أما القسم المتوسط في الجناح الأوسط فهو يشكّل صحناً مكشوفاً.

إلا أن أجمل ما في قصر المشتى من الناحية الفنية هو الزخارف المحفورة في الحجر الجيري في الواجهة القبلية التي يقع بها المدخل. ونقلت تلك الواجهة إلى قسم الفنون الإسلامية بمتحف برلين، ونرى في قصر المشتى بعض العناصر الفنية التي تشبه زخارف قبة الصخرة.

قصر أو قصر عمرة:

هو قصر صحراوي أموي يقع في شمال الصحراء الأردنية في منطقة الأزرق في محافظة الزرقاء حوالي ٧٥ كم شرقي عمان، بناؤه صغير نسبياً لذلك يُسمّيه البعض بالقصير.

شيد القصر في عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك سادس الخلفاء الأمويين ٧٠٥-٧١٥م. ويعتقد أن القصر كان يستخدم لرحلات الصيد التي يقوم بها الخلفاء وأمراء بني أمية.

وللقصر حمام مجاور لقاعة الاستقبال يتكون من ثلاث قاعات، اثنتان مسقوفتان بأقبية نصف دائرية والثالثة مسقوفة بقبة صغيرة. يتكون الحمام، الذي لا زال بحالة جيدة؛ من ثلاث قاعات: باردة وفاترة وساخنة، الأخيرة مزودة بأنابيب للبخار. ملحق بالحمام غرفة كبيرة لخلع الملابس مزودة بمقصورتين.

زخرفت جُدُر القصر برسومٍ ونقوشٍ عديدة، مواضيعها تتعدد من مشاهد من رحلات الصيد والحيوانات التي وجدت في المنطقة في تلك الحقبة، ومنها النمر والغزلان والنعام، أما قبة الحمام تظهر فيها الأبراج السماوية مرسومةً على نحوٍ هندسي ويشبه الحمامات الرومانية بشكلها ومكوناتها.

قصر الحمراء:

هو قصر أثري وحصن انتهى بناؤه في عصر بني الأحمر حكام غرناطة المسلمين في الأندلس بعد سقوط دولة الموحدين. وهو من أهم المعالم السياحية بإسبانيا، ويقع على بعد ٤٣٠ كيلومتراً جنوب مدينة مدريد. تعود بداية تشييد قصر الحمراء إلى القرن السابع الهجري، الموافق للقرن الثالث عشر الميلادي، ومن سمات العمارة الإسلامية الواضحة في أبنية القصر؛ استخدام العناصر الزخرفية الرقيقة في تنظيمات هندسية كزخارف السجاد، وكتابة الآيات القرآنية والأدعية، بل حتى بعض المدائح والأوصاف من نظم الشعراء كابن زمرك، ويتكون القصر من:

فناء الريحان الكبير: هو مستطيل الشكل، تتوسطه بركة المياه التي تظللها أشجار الريحان؛ نقش في زوايا فناء الريحان الآية الكريمة «وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم»، وفي النهاية الجنوبية لهذا البهو باب عربي ضخمة.

بهو السفراء: يؤدي البهو الذي يلي فناء الريحان من الجهة الشمالية إلى بهو السفراء الذي يعد أضخم أبهاء الحمراء سعةً، ويبلغ ارتفاع قبة ٢٣ م. ولهذا البهو شكل مستطيل أبعاده (١٨ × ١١ م). وفيه كان يعقد مجلس العرش، ويعلوه برج السفراء المستطيل.

فناء السرو: يؤدي بهو البركة من جهة اليمين إلى باحة السرو. وإلى جانبها الحمامات الملكية، وأول ما يلفت النظر غرفة فسحة زخارفها متعددة الألوان مع بروز اللون الذهبي ثم الأزرق والأخضر والأحمر، وفي وسطها نافورة ماء صغيرة، وتعرف باسم غرفة الانتظار. أما الحمامات فتغمرها الأنوار الداخلة عبر كوات بشكل ثريات وأرضها مرصوفة بالرخام الأبيض.

بهو الأسود: أشهر أجنحة قصر الحمراء. قام بإنشاء هذا الجناح السلطان محمد الغني بالله ٧٥٥هـ/ ١٣٥٤م - ٧٩٣هـ/ ١٣٩١م. وهو بهو مستطيل الشكل أبعاده (٣٥م × ٢٠م) تحيط به من الجهات الأربع أروقة ذات عقود يحملها /١٢٤/ عموداً من الرخام الأبيض صغيرة الحجم وعليها أربع قباب مضلعة. في وسط البهو (نافورة الأسود)، على حوضها المرمرى المستدير اثنا عشر أسداً من الرخام، تخرج المياه من أفواهها بحسب ساعات النهار والليل. وقد تعطلت مخارج المياه في هذه البركة حين حاول الإسبان تعرّف سر انتظام تدفق المياه بالشكل الزمني الذي كانت عليه.

ومن الجدير بالذكر أن الحضارة الإسلامية استخدمت الفوارات في زخرفة الحدائق العامة والخاصة، وقد وصلت براعة المهندسين المسلمين في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، حداً كبيراً في صنع أشكال مختلفة من الفوارات يفور منها الماء كهيئة السوسنة، ويتم تغييرها حسب الحاجة ليفور الماء كهيئة الترس وفي أوقات زمنية محددة، وتمثل فوارات قصر الحمراء نموذجاً متطوراً لما وصلت إليه إبداعات المسلمين في ذلك الوقت.

قاعة الملوك (أو قاعة العدل): في جهة شرق بهو الأسود مدخل قاعة الملوك. زين سقف القاعة الوسطى بصور عشرة من ملوك غرناطة تعلوهم العمائم، تعبر ملامحهم عن الوقار والكبرياء. أولهم محمد الغني بالله. وآخرهم السلطان أبو الحسن والد أبي عبد الله. وهناك صور فرسان ومشاهد صيد.



واجهة قصر الحير الشرقي



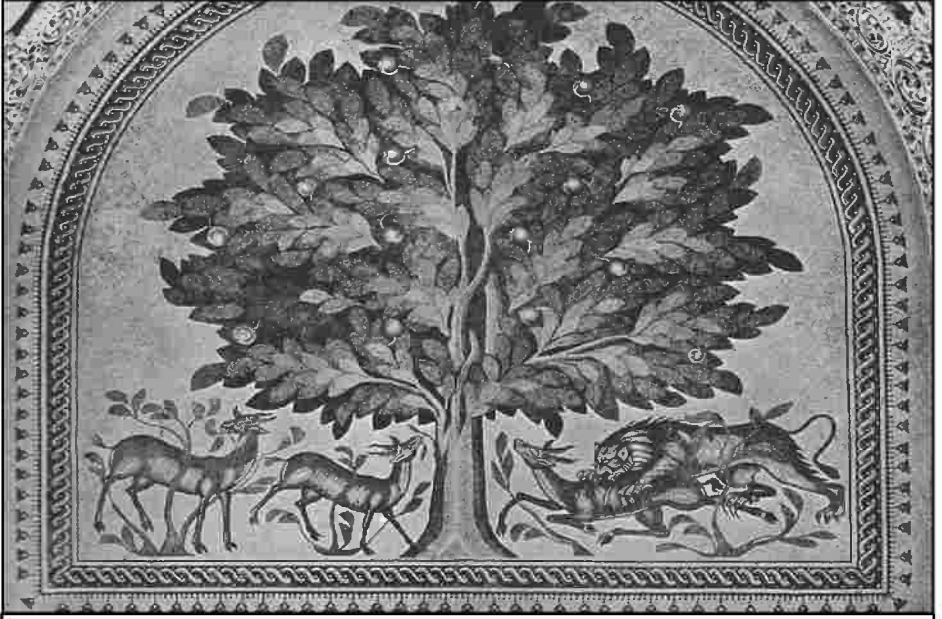
النجمة الشهيرة لقصر هشام



صورة خلفية للقصر وتتضح الأقواس الثلاثة لقصر عمرة



ب. هو الأسود أشهر أجنحة قصر الحمراء



فسيفساء على أرضية إحدى قاعات قصر هشام في أريحا

الخاتمة

وبهذه العلوم البهيّة، وأفانين الحضارة الإسلامية العريقة نكون قد أنهينا بحثنا عن الخلافة العباسيّة صاحبة أطول مدّة بقاء، فإذا أخذنا بالحسبان زمن مكوثهم في مصر والخلافة باسمهم فقط مجردين من الملك والسلطان، يكون البيت العباسي بذلك أطول بيت بقيت الخلافة باسمه، وهذه المدّة التي نتكلم عنها هي: (١٣٢ - ٦٥٦هـ) في العراق، ثمّ (٦٥٦ - ٩٢٣هـ) في مصر تحت سلطان المماليك.

وكان سبب عدم خوضنا في التاريخ المطوّل لخلفاء بني العباس هو اتساعه وكثرة أحداثه وتعدد أسماء رجاله وأمرائه، فقد كان بعض الخلفاء العباسيين على سبيل المثال يكثر من تبديل وزرائهم؛ فقد تولى الوزارة في عهد المقتدر اثنا عشر وزيراً، ومنهم من تقلد الوزارة مرتين أو ثلاثاً، - ويا للأسف - كانت تنال بالرشوة ولم يكن الصالح منهم يبقى في العمل طويلاً؛ لأن مقدار طول المدة كان على رضا أم الخليفة المقتدر وخدم الدار وهؤلاء لا يرضون إلا إذا أعطوا المال الكثير^(١).

ولما كانت دراسة التاريخ دراسة موضوعيّة وحياديّة، وجب عليّ أن أقف عند بعض المنغصات، والمساوئ التي عكّرت صفو هذه الحضارة الإسلامية العباسية.

والتي نذكر منها على سبيل المثال تلك الثورات الكثيرة، والفرق المتعددة المتناحرة التي ظهرت في عصر الخلافة العباسية، والتي لا يمكن الوقوف على أسبابها وتفصيلها دون اللجوء إلى أمهات الكتب التاريخية، ولكن نسوق هنا بعضاً من أبرزها؛ كثورة بابك الخرمي^(٢) التي ظهرت في عهد المأمون، وتمّ القضاء عليها زمن المعتصم.

١ - تاريخ الأمم الإسلامية / التاريخ العباسي، الشيخ محمد الخضري بك، ص (٣٩٠).

٢ - فتنة بابك الخرمي (٢٠١ - ٢٢٢هـ) .

وظهر في زمن المعتمد على الله^(١) رجلٌ عُرف (بدعيّ آل علي)، وكان قد خدع الناس بنسبه لآل البيت، وكان رجال ثورته من الزنوج؛ لذا عرف أيضاً باسم صاحب الزنج.

ويقول الشيخ محمد الخضري بك عن تلك الثورة: «كان خروج صاحب الزنج في يوم الأربعاء لأربعٍ من شهر رمضان سنة ٢٥٥هـ، وقتل يوم السبت لليلتين خلتا من صفر سنة ٢٧٠هـ، وكان دخوله على البصرة وقتله أهلها وإحراقها سنة ٢٥٧هـ»^(٢).

وكانت نهاية صاحب الزنج على يد الموفق أخي الخليفة المعتمد. وذكر ابن طباطبا في الفخري أن عدد قتلى هذه الثورة هو مليونان ونصف المليون، وفي رواية للسيوطي في تاريخ الخلفاء أن عدد القتلى كان مليوناً ونصف المليون، والله تعالى أعلم بعدد القتلى إلا أن المتفق عليه أن الله أنجى العالم الإسلامي من الفوضى والجهل اللذين كانا طابع هؤلاء الرعاع^(٣).

ونُهي تلك الثورات، بأكثر الحوادث بشاعةً وخُرُياً؛ وهي حادثة القرامطة؛ حيث كان القرامطة حركةً ثوريةً تعترض طرق القوافل وتسرق ما يحلو لها من الأمتعة والأموال، كان ظهورهم أواخر دولة المعتمد إلا أن أعدادهم أخذت تتزايد، وقويت شكيمتهم، حتى هابتهم الولايات الأخرى كافة.

أمّا حادثة القرامطة: فكان قد اتجه قائدهم سنة ٣١٧هـ نحو مكة، فدخلها يوم التروية ولم يرع حرمة البيت الحرام، بل نهب هو وأصحابه أموال الحجاج

١- المعتمد بالله (٨٧٠-٨٩٢م) هو أحمد المعتمد على الله. أبو العباس ابن المتوكل على الله.

٢- تاريخ الأمم الإسلامية / التاريخ العباسي، الشيخ محمد الخضري بك، ص (٢٤٠-٢٤٢).

٣- د. أحمد شليبي، ج٣، ص (٤٠٠).

وقتلوهم عند المسجد الحرام وقلع الحجر الأسود وباب البيت وألقى الجثث في بئر زمزم وأخذ كسوة البيت فقسمها بين أصحابه، ولم يحصل في التاريخ كله أن انتهكت حرمة البيت المحرم إلى هذا الحد^(١).

ثم كان أن أُرجع الحجر الأسود إلى مكة بعد أن أبقاه عنده قرابة ثلاثين عاماً، وذلك عندما توسَّط الخليفة الفاطمي المهدي عبيد الله العلوي معهم بشأن إعادته^(٢).

وبهذا الوصف السريع لبعض أخطر وأعظم الحوادث والثورات ننهي بحثنا عن الخلافة العباسية، مستدلين بخلاصة مفادها:

«أن الشعوب وحدها هي التي تقدر على صنع التاريخ فبالرغم من كلِّ ما ذكرناه، أو لم نذكره من حوادث يندى لها الجبين، فقد كان علماء ذلك العصر يزاولون علومهم ويزدادون في الرقي مكانة تشمخ لها الأبصار». ولنكن واقعيين بما نقول: «هل امتنع الغرب عن التعلم مثلاً والأخذ به من علومنا بسبب ما كان من حوادث مخزية، هل اسد تقاض علماء الغرب بالحديث عن أخطاء العصر العباسي فاستذكروه، وشوهوه كما فعل بعض أدبائنا ومؤرخينا، أم أنهم أخذوا المفيد النافع، لا بل شهر عدد من أدبائهم أقلام الصدق ليعترفوا بفضل هذا العصر الذهبي، وما حمل إليهم من علوم واكتشافات».

لقد ذكرت هذا الكلام لأوضح مدى السلبية التي تعيشها مجتمعاتنا، فهمم بالإضافة إلى جهلهم بتاريخ أجدادهم، وتقاعسهم عن القراءة والتحقيق بمجريات الماضي، يهاجمون رجاله وينسبون كلَّ نقيصة لهم، شأنهم شأن الظمان يمسك الماء بين يديه ولا يعلم أن به ارتواءه.

١- تاريخ الأمم الإسلامية / التاريخ العباسي، الشيخ محمد الخضري بك، ص (٣٩٤).

٢- د. يوسف العش، ص (١٦٢).

أفلا يجب على كلِّ منَّا أن يعتز بالتاريخ الإسلامي، وأن يحفظه في صدره، بل أن يورث أبنائه عشقه وفهمه، فنحن أمةٌ كان لها تاريخها المشرق، فإمَّا أن نكتفي بمعرفته؛ لكي لا نشعر بعجزنا وضعفنا، وأنا عالة على الغرب الذي تعلَّم العلم من أجدادنا الذين أدركنا لهم ظهورنا، أو أن نعيد قراءة التاريخ على نحوٍ أعمق وأوسع، على نحوٍ يدفعنا إلى إعادة تطبيق ذلك المنهج الذي به هابنا العالم، وأسرع في طلب علومنا ومعرفتنا، فبالقراءة والعمل الدؤوبين والإيمان التَّام بالله تعالى يمكننا أن نعيد مجد أمتنا الضائع، ونُخطَّ التاريخ من جديد بقلوبٍ يملؤها الإيمانُ بالله ورسوله، وبأيدي تدفعها الغيرةُ والحماس. وحسبنا قوله عزَّ وجل: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

الدَّوْلَةُ العُثْمَانِيَّةُ

كفانا افتراءً عليها

مقدمة

بعد أن تعرّفنا العلوم والإنجازات الإسلامية، والأسس التي قامت عليها زمن العصر العباسي، نوصلُ رحلتنا الشائقة مع التاريخ الإسلامي، ومع الباب الرابع والأخير منها؛ والذي سنتحدث فيه عن أخبار سلاطين آل عثمان المسلمين، وكيف كان جهادهم، ودعوتهم في سبيل الله، وحبهم للعلم والآداب وكيف تعاملوا مع سنن الله في بناء الدولة؛ كسنة التدرج، الأخذ بالأسباب، تغيير النفوس، التدافع والابتلاء.

وهدي من هذا الباب الأخير:

- ١ - تسليط الضوء على زعماء الدولة العثمانية وتبيان خدماتهم للدين والأمة.
- ٢ - التركيز على أسباب النهضة العثمانية، والأسباب التي نخرتها، وأسهمت في إضعافها، ثم زوالها.
- ٣ - بيان الكيد العظيم، والتآمر الشديد الذي تعرضت له الدولة العثمانية من قبل دول أوروبية، واليهود.

تمهيد:

((الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها)) د. عبد العزيز الشناوي،
((العثمانيون في التاريخ والحضارة)) د. الدكتور محمد حرب، ((تاريخ الدولة
العثمانية)) د. علي حسون، ((تاريخ الدولة العثمانية)) الأمير شكيب أرسلان،
((الدولة العثمانية)) د. علي الصلابي...

إنَّ للدولة العثمانية كتباً بل مجلّداتٍ فاقت صفحاتها المئات، خُطّت بأيدي
الكتاب الكبار، شهد على أحداثها عظماءُ الرجال، كان امتدادها على قرابة من
سبعة قرون، لم تغفل عيون المتأمّرين عنها حتى بعد القضاء عليها، حاولوا تحريف
مجرياتها، شوّهوا صورة سلاطينها، بل تهادوا إلى أن أنسوننا جليل خدماتها وعظيم
تضحياتها.

نسب العثمانيين:

يعود نسب السلاطين العثمانيين إلى عثمان بن أرطغرل بن سليمان شاه بن
قيا ألب رئيس قبيلة ((قايي)) إحدى قبائل الغزّ التركية المعروفة جيداً بين قبائل
الأتراك سابقاً^(١)، ففي منطقة ما وراء النهر التي نسميها اليوم (تركستان) والتي
تمتدُّ من هضبة منغوليا، وشمال الصين شرقاً إلى بحر الخزر (بحر قزوين) غرباً، ومن
السّهول السيبرية شمالاً إلى شبه القارة الهندية، وفارس جنوباً استوطنت عشائر
الغز^(٢)، وعُرفوا بالترك، أو الأتراك^(٣).

١- تاريخ الدولة العثمانية، د. علي حسون، ص (١٢).

٢- انظر: تاريخ الترك في آسيا الوسطى، بارتولد، ترجمة أحمد العيد، ص (١٠٦).

٣- انظر: أخبار الأمراء والملوك السلجوقية، تحقيق د. محمد نور الدين، ص (٢-٤).

ومع تعاقب السنين اتسعت الدولة العثمانية وعظم أمرها، حتى غدت إمبراطورية تضم أجناساً مختلفة من الشعوب، فهابها العالم أجمع، وخافتها دول أوروبا خاصة، فقد كانت أسلحة العثمانيين لا تعرف الملل أو التعب من مواجهة دول أوروبا التي وقفت عاجزة تملأها الحيرة بسبب هزائمها المتكررة أمام هؤلاء الأبطال المسلمين.

فلم يجدوا بديلاً للقضاء على هذه القوة إلا أن يدمروها من الداخل بإشعال الفتن وإثارة الأفكار المنحرفة بين شعوبها، فيضمنوا تشتت كلمتهم وتفرقهم إلى شعوب كل حسب انتمائه فيسهل عليهم بذلك مواجهتها، ومن ثم القضاء عليها.

لو لم تكن عصبية المسلمين الدينية هي الغالبة، ولو قاموا بناذ.سون اب.ن سلجوق (ساعد على استمرار الخلافة العباسية) لكونه تركياً، وصلاح الدين الأيوبي (محرر القدس) لكونه كردياً، وابن تاشفين (ساعد على بقاء الإسلام في الأندلس) لكونه بربرياً، أو أوصى علماءهم بخلع طاعة هؤلاء الملوك لمخالفتهم لهم في الجنس، أو سمحوا بنقض بيعتهم، لكان وقع الخلف، وتفرقت الكلمة، ولكان الإفرنج أخذوا جميع بلاد المسلمين وغير الإفرنج. رنج أخذ الباقي، وصيروا المسلمين عبيداً، وطمسوا معالم الإسلام من كل بقاع الأرض، وصارت هذه الأمة أثراً بعد عين^(*).

بل إن كلمة ابن عباد صاحب إشبيلية ما زالت تحفظ إلى الآن ألا وه.ي: «رعي الجمال خير من رعي الخنازير»^(**).

قد قالها بحق ابن تاشفين حين فضل أن يدخل في حمايته عن أن يدخل في حماية الإفرنج.

إذا كان هذا شأن الملوك من أبناء المماليك، الذين لا يعرف لهم أصل، فما قولك بأسرة آل عثمان، وهي التي حاطت الإسلام منذ ستمئة سنة، وقامت بدفع دول أوربة عن المشرق بأسره منفردة بنفسها^(***).

*- تاريخ الدولة العثمانية، الأمير شكيب أرسلان، ص (٥٢٩).

** - انظر:- المعتمد ابن عباد للأستاذ علي أدهم، ص (٢٠٧).

*** - تاريخ الدولة العثمانية، الأمير شكيب أرسلان ص (٥٣١).

كيف نشأت الدولة العثمانية:

تبدأ القصة العثمانية مع سليمان شاه جد عثمان، والذي هاجر بعدة قبائل من الترك - منهم ألف فارس - من بلادهم تركستان إلى بلاد الأناضول، واستقر بهم في أحلاط^(١) ثم كانت وفاته سنة ٦٢٨ هـ، ليتولى زعامة القبيلة من بعده ابنه أرطغرل، حيث سكنوا بعض الوقت قريباً من أراضي السلاجقة، وبينما هم على تلك الحالة؛ إذ بهم يلمحون جيوشين يقتتلان من بعيد وهم لا يعلمون عن هويتهما شيئاً، وكان أحد هذين الجيشين قليل العدد، فما لبثت قبائل الترك بقيادة أرطغرل أن انخرطوا يقاتلون في صفوفه بدافع النخوة ونصرة الضعيف، وتم النصر لذلك الجيش، وتبين فيما بعد أنه جيش المسلمين السلاجقة، وأما الجيش الآخر فكان جيشاً بيزنطياً، فما كان من السلطان السلجوقي علاء الدين إلا أن كافأ أرطغرل على عمله هذا، وأقطعته وقيبلته أرضاً في محاذاة بلاد الروم غربي دولة السلاجقة، فكانت مساحة تلك الأرض ٢٠٠٠ كم^٢، واستطاع أرطغرل بجهدده ضد البيزنطيين توسيعها إلى ٤٨٠٠ كم^٢. ولما توفي أرطغرل سنة ٦٩٩ هـ، تولى مكانه ابنه الأكبر عثمان، وحدث أيضاً أن توفي السلطان السلجوقي علاء الدين ونظراً لعدم وجود خليفة له قام عثمان بضم الأراضي التي كانت تحت حكم علاء الدين، واتخذ مدينة يكي شهر^(٢) عاصمةً له، واشتغل عثمان بعد ذلك بتنظيم البلاد، وترتيب الجنود، وجهاد البيزنطيين، وبذلك ظهرت البداية الحقيقية للدولة العثمانية التي تنسب إليه^(٣).

١- أحلاط: بلدة في شرقي تركيا اليوم قريباً من بحيرة وان في هضبة أرمينيا.

٢- يكي شهر: مدينة في وسط الأناضول.

٣- تاريخ الدولة العثمانية، د. علي حسون، ص (١٢، ١٣).

الحضارة العثمانية وافتراءاتٌ يجب تصحيحها:

إنَّ التُّهمة الأولى التي تُنسَبُ للدولة العثمانية هي تخلفها العلمي، وعدم مواكبتها للتطور الفكري والحضاري الذي كان في أوجه في بلاد أوروبا، ولكنَّ المتَّهم يتجاهل حقائق عدَّة يجب تسليط الضوء عليها لكونها أدلةً وقرائن تُخفي وراءها حقيقة الأمر.

لم تكن الحضارة العثمانية تعاني تخلفاً علمياً أو فكرياً، بل كانت تعاني بطئاً في عجلة التطور في الميادين كافة، وذلك لا لمشكلةٍ فيها بل من تربص أعدائها لها؛ فقد اتفقت عليها دول أوروبا تسعاً وأربعين مرَّةً، مثني، وثلاث، ورباع... فهي تقوم في وقت واحد بدفع أعداء الإسلام من الأمام، ودفع العجم من الوراء، وقمع الفتن الداخلية من الوسط، وتوغل في الفتوحات حتى تبلغ عاصمة النمسة، وحتى ينزل جنودها في سواحل إيطاليا، وفي نيس^(١) من فرنسة، فلا جرمَ أنَّ دولةً هذه آثارها في حفظ البيضة المحمدية، لا تكون إلا محمودةً، بل مقدَّسةً عند المسلمين^(٢).

وإن لم تكتفِ بهذا الكلام فإليك نص الحوار الذي كان يجريه فؤاد باشا الصَّدر الأعظم العثماني مع بعض الزعماء الأوربيين:

سُئل فؤاد باشا أثناء هذه الرحلة (كان في رحلة إلى أوروبا): بكم تبيعون جزيرة كريت؟

فردَّ الباشا قائلاً: (بالثمن الذي اشتريناها به)، وكان يعني بذلك أنَّ العثمانيين حاربوا في سبيل الحفاظ على جزيرة كريت ٢٧ عاماً كلها حروب. وسئل أيضاً: ما هي أقوى دولةٍ في العالم الآن؟ فردَّ قائلاً: أقوى دولةٍ الآن هي

١- مدينة تقع في جنوب فرنسا على ساحل البحر الأبيض المتوسط بين مارسيليا وجنوه.

٢- المصدر السابق نفسه.

الدولة العثمانية، وذلك لأنكم تهدمونها من الخارج، ونحن نهدمها من الداخل. ولم يستطع كلانا هدمها^(١). هذا الكلام كان سنة ١٨٦٧ م.

فإن لم تقتنع بمغزى هذه الجمل البراقة، سأزيدك من الشعر بيتاً آخر:

قام السلطان عبد الحميد الثاني بإرسال رسالة إلى هرتزل بواسطة صديقه نيولنسكي جاء فيها: «انصح صديقك هرتزل، ألا يتخذ خطوات جديدة حول هذا الموضوع، لأنني لا أستطيع أن أتنازل عن شبر واحد من الأراضي المقدسة، لأنها ليست ملكي، بل هي ملك شعبي. وقد قاتل أسلافي من أجل هذه الأرض ورووها بدمائهم؛ فليحتفظ اليهود بملايينهم، إذا مزقت دولتي، من الممكن الحصول على فلسطين بدون مقابل، ولكن لزم أن يبدأ التمزيق أولاً في جثتنا، ولكن لا أوافق على تشريح جثتي وأنا على قيد الحياة»^(٢).

والله لو وضعت الأخطاء كافة التي تنسب للدولة العثمانية بكفة وهذه الحملة العظيمة بكفة أخرى؛ لرجحت هذه الحملة على كل ما سوها؛ فهي تؤكد على عمق الشعور بالمسؤولية تجاه أملاك الدولة.

وإن الحاكم الذي يحمل هذا الشعور من المحال أن يُنسب له أيُّ منع أو تقاعس عن السير بعجلة التطور إلى الأمام.

والتاريخ العثماني ينقسم إلى ثلاثة أدوار:

١- دور الازدهار والقوة:

يبدأ من عهد السلطان عثمان الأول (٦٩٩هـ - ١٣٠٠م) وينتهي في عهد السلطان سليمان القانوني (٩٧٤هـ - ١٥٦٦م)، وفي هذا العصر وصلت الدولة

١- السلطان عبد الحميد الثاني، محمد حرب، ص (٥٨).

٢- اليهود والدولة العثمانية، د. أحمد النعيمي، ص (١٢٠).

العثمانية إلى قمة مجدها وأوج اتساعها، فكانت الدّول الأوربيّة جميعها تدفع الجزى لها، ومن الجدير بالذكر أنّ سلاطين هذا العصر كانوا قوّاداً عسكريين من الطراز الأول، فكانوا يقودون الجيوش بأنفسهم، ويقاتلون كأبي جنديّ، مما كان له أكبر الأثر في استبسال الجنود العثمانيين وبقاء الجيش قوياً بعيداً عن المفاسد.

٢- دور الركود:

ويبدأ من عهد سليم الثاني (٩٧٤هـ - ١٥٦٦) وينتهي في عهد مصطفى الثاني (١١١٥هـ - ١٧٠٣م) الذي في عهده وقّعت معاهدة كارلو فيتس بين الدولة العثمانية والنمسة في (٢٦) كانون الثاني عام (١٦٩٩م / ١١١٠هـ) وفي هذه المعاهدة ألغيت جميع الجزى التي كانت الدّول الأوربيّة تدفعها للدولة العثمانية، وفي هذا الدور كانت زمام الأمور في الدّولة للصدور العظام الذين نبغ منهم آل الصوقلي، وآل كوبرلي.

٣- دور الانحدار والانكماش:

ويبدأ من عهد السلطان أحمد الثالث (١١١٥هـ - ١٧٠٣م) وينتهي في عهد محمد وحيد الدين المعروف بمحمّد السّادس (١٣٤٤هـ - ١٩٢٢م) وهذا الدور كان دور هزائم متلاحقة، وكانت الدولة تحارب على عدّة جبهات، وفي هذا الدور بدأ الاحتلال الأوربي يقطّع أطراف الدّولة دون أن تستطيع الدولة العثمانية أن تفعل شيئاً لضعف الجيش والدولة وانتهى هذا الدور بانفراط عقد الدّولة العثمانية وإغائها بعد أن عاشت نحو سبعة قرون.

وفي هذا العصر أطلق على الدّولة اسم الرجل المريض، والذي كان يحول دون وفاته؛ عدم اتفاق الدول المعاديّة له على الغنائم^(١).

١- تاريخ الدولة العثمانية، الأمير شكيب أرسلان، ص (١٠-١١)

اغرس اليوم شجرة
تنم في ظلها غداً

المبحث الأول

دور الازدهار والقوة

(١) عثمان بن أرطغرل

(٦٩٩-٥٧٢٦ هـ)، (١٣٠٠-١٣٢٦ م)

إنَّ بداية أيِّ أُمَّةٍ في التَّمَكِين والقوَّة هي أقصى نقطة لها من الضَّعْف والانحطاط. هكذا هي حكمة الله، وإرادته، ومشيئته النافذة ^(١). قال تعالى: ﴿وَرِيدُ أَنْ تَمَنَّ عَلَى الَّذِينَ أَسْتَضِعُّوْا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: ٥]. ففي عام ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م؛ شاء الله تعالى أن تزول الخلافة الإسلامية العباسية في بغداد، وأن يتفرق المسلمون إلى أقاليم ودويلاتٍ متعددة، ولكنَّ رحمته عزَّ وجلَّ قضت في العام ذاته أن يولد عثمان بن أرطغرل الذي حمل راية الإسلام في بلاد الأناضول، وأكملت ذريته المسيرة من بعده لتدخل البلاد الإسلامية من جديد ظلَّ شجرة خلافة إسلامية رابعة نسب تأسيسها إلى عثمان بن أرطغرل فاستحقت اسم الخلافة العثمانية.

أهم الصفات القيادية في عثمان الأول:

كانت شخصية عثمان متزنة وخلافة بسبب إيمانه العظيم بالله واليوم الآخر، ولذلك لم تطغ قوته على عدالته، ولا سلطانه على رحمته، ولا غناه على تواضعه، وأصبح مستحقاً لتأييد الله وعونه، ولذلك أكرمه الله بالأخذ بأسباب التمكين والغلبة، فجعل له مكانة وقدرة على التصرف في آسيا الصغرى من حيث التدبير

١ - الدولة العثمانية، د. علي محمد الصلابي، ص (٤٤).

والرأي وكثرة الجنود والهيبة والوقار، لقد كانت رعاية الله له عظيمة ولذلك فتح له باب التوفيق وحقق ما تَطَلَّع إليه من أهداف وغاية سامية. ونذكر من صفاته:

١- التجرد لله في فتوحاته:

يصفه المؤرِّخ أحمد رفيق في موسوعته التاريخ العام الكبير: «كان عثمان متديناً للغاية، وكان يعلم أنَّ نشر الإسلام، وتعميمه واجبٌ مقدَّسٌ، وكان يتمتع بفكرٍ سياسيٍّ واسعٍ متين، ولم يؤسس عثمان دولته حباً في السُّلطة، وإنَّما حباً في نشر الإسلام». نشر الإسلام».

٢- الحكمة:

لقد رأى من الحكمة أن يقف مع السلطان علاء الدين ضد النصاري، وساعده في افتتاح جملة من المدن المنيعة، وعدة قلاع حصينة، ولذلك نال رتبة الإمارة من السلطان السلجوقي علاء الدين. وسمح له بسك العملة باسمه، مع الدعاء له في خطبة الجمعة في المناطق التي تحت إمرته^(١).

٣- الإخلاص:

عندما أحسَّ سكان الأراضي القريبة من إمارة عثمان إخلاصه للدين تحرکوا لمساندته والوقوف معه لتوطيد دعائم دولة إسلامية تقف سداً منيعاً أمام الدولة المعادية للإسلام والمسلمين. يقول مصر أوغلو: «لقد كان عثمان بن أرطغرل يؤمن إيماناً عميقاً بأن وظيفته الوحيدة في الحياة هي الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، وقد كان مندفعاً بكل حواسه وقواه نحو تحقيق هذا الهدف».

١- انظر: تاريخ الدولة العثمانية، د. علي حسون، ص (١٣) / تاريخ الدولة العلية

العثمانية، محمد فريد بك المحامي، ص (١١٨).

الدستور الذي سار عليه العثمانيون:

حفظ لنا التاريخ وصية عثمان لابنه أورخان، وهي دليل حضاري مشرف للإسلام والمسلمين، ولهذه الوصية أشكال عدة تصب جميعها في بوتقة واحدة. وهي: «اعلم يا بني أن نشر الإسلام، وهداية الناس إليه، وحماية أعراض المسلمين، وأمواهم أمانة في عنقك، سيسألك الله - عز وجل - عنها»^(١).

وفاة الأمير عثمان:

توفي رحمه الله في ٢١ رمضان سنة ٧٢٦هـ / ٢١ آب ١٣٢٦م، عن سبعين سنة قضى معظمها في تأسيس هذه الدولة الملحوظة بعين العناية الربانية وتوسيع نطاقها، ودفن في مدينة بورصة^(٢).

١- جوانب مضيئة، ص (٢١).

٢- تاريخ الدولة العلية، محمد فريد بك المحامي، ص (١٢٢).

إذا كنت تجد المتعة في عملك ف. سيجد
الآخرون المتعة في العمل تحت إمرتك



(٢) أورخان بن عثمان

(٧٢٦-٥٧٦١ هـ.)، (١٣٢٦-١٣٦٠ م)

ولد أورخان سنة ١٢٨١ م، كان طويل القامة أشقر اللحية أزرق العينين، رقيق الفؤاد شفوفاً على الضعفاء حليماً مع الأعداء^(١). وهذا ما أكده الرحالة (ابن بطوطة) الذي زار بلاده آنذاك والتقى به إذ يقول عنه:

«وهذا السلطان أكبر ملوك التركمان وأكثرهم مالاً وبلاداً وعسكراً، له من الحصون ما يقارب مائة حصن، وهو في أكثر أوقاته لا يزال يطوف عليها... ويقال إنه لم يقم قط شهراً كاملاً ببلده، ويقا تل الكفار ويحاصرهم...»^(٢).

الفتوحات في عهده^(٣):

ساهم أورخان بتوسعة رقعة الدولة التي عمل والده على إيجادها وتقويتها، فحاض المعارك بنفسه وقاد الجيوش ضد النصاري المتآمرين عليه.

١- تاريخ الدولة العثمانية، د. علي حشون، ص (٢٥).

٢- تحفة النظر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ص (٢٠٥).

٣- تاريخ الدولة العلية، محمد فريد بك، ص (١٢٦، ١٢٧).

وقد اعتمد على أعوان أقوياء لوضع القوانين وسن الأنظمة، ومن أبرزهم أخوه الأمير علاء الدين الذي نصبه وزيراً له.

كما حرص على تحقيق بشارة الرسول ﷺ في فتح القسطنطينية^(١)، ووضع خطة إستراتيجية تهدف إلى محاصرة العاصمة البيزنطية من الغرب والشرق في آن واحد، ولتحقيق ذلك أرسل ابنه وولي عهده سليمان لعبور مضيق الدردنيل^(٢) والاستيلاء على بعض المواقع في الناحية الغربية.

وفي عام ٧٥٨هـ / ١٣٥٧م اجتاز سليمان باشا مضيق الدردنيل ليلاً مع أربعين جندياً، ولما أدركوا الضفة الغربية قاموا بفتح عدة قلاع جميعها يقع على مضيق الدردنيل من الجنوب إلى الشمال، واستولوا على عدد من الزوارق الرومية هناك وعادوا بها إلى الضفة الشرقية؛ إذ لم يكن للعثمانيين أسطول حينذاك حيث لا تزال دولتهم في بداية تأسيسها، وبهذا خطا السلطان خطوة كبيرة استفاد بها من جاء بعده في فتح القسطنطينية.

وفي سنة ١٣٥٩م توفي سليمان باشا وليُّ عهد الدولة بسبب سقوطه من على ظهر جواده، وبذلك صارت ولاية العهد إلى أخيه مراد الأول.

-
- ١- القسطنطينية: عاصمة الإمبراطورية الرومانية خلال الفترة من ٣٣٠ إلى ٣٩٥ وعاصمة الدولة البيزنطية من ٣٩٥ إلى ١٤٥٣، حين فتحها العثمانيون، فدخل محمد الفاتح القسطنطينية، وأطلق عليها (إسلام بول) أو الآستانة وبدخوله صارت المدينة عاصمة السلطنة العثمانية. غير اسمها في عام ١٩٣٠ إلى اسطنبول ضمن إصلاحات أتاتورك القومية.
 - ٢- مضيق الدردنيل: هو مضيق بحري واقع بين شبه جزيرة جاليبولي، وشاطئ آسيا الصغرى، وقد اعتنت الدولة العثمانية بعد امتلاكها للقسطنطينية بتحصينه فبنت القلاع على جانبيه حتى أصبح منيعاً يستحيل على أكبر أسطول أن يقتحمه بدون أن يتعرض لأكبر الأخطار.

وفي عهده نقلت عاصمة الدولة العثمانية إلى بورصة ^(١) كما تم سك أول نقد عثماني وتمكن من انتزاع أزمير ^(٢) وأنقرة ^(٣).

جيش الإنكشارية ^(٤):

اهتم الأمير أورخان بأمر الجيش كثيراً نظراً لأهميته في الدولة، فأمر بإعداد جيوش منظمة وأنشأ لهم أماكن تدريب خاصة، أما جيش الإنكشارية فتعود فكرته إلى الأمير علاء الدين أخي الأمير أورخان؛ حيث اتسعت رقعة الدولة، وكثرت انتصاراتها في حروبها مع أعدائها من غير المسلمين، ودخلت أعداد كبيرة من أبناء تلك البلاد المفتوحة في الإسلام، وانضموا إلى صفوف المجاهدين، فتمت تربيتهم تربيةً إسلاميةً فكريةً وحربيةً، فغرس حب الجهاد في قلوبهم، وأصبح شعارهم (غازياً أو شهيداً) عندما يذهبون إلى ساحات الوغى ^(٥)، وكانت راية الجيش الجديد من قماش أحمر، وسطها هلال، وتحت الهلال صورةٌ لسيفٍ أطلقوا عليه اسم (ذو الفقار) تيمناً بسيف الإمام عليٍّ، رضي الله عنه ^(٦).

-
- ١- بورصة: رابع أكبر مدن تركيا، تقع في غرب البلاد بين مدينتي اسطنبول وأنقرة.
 - ٢- أزمير (بالتركية: Izmir): ثالث أكبر مدن وثاني أكبر موانئ تركيا. تسمى أيضاً بلؤلؤة إيجه لوقوعها على الشاطئ الشرقي لبحر إيجه وجمالها.
 - ٣- أنقرة: عاصمة تركيا وثاني أكبر مدنها بعد اسطنبول، بقيت تحت حكم البيزنطيين حتى فتحها السلاجقة، ثم سقطت في أيدي المغول إلى أن سيطر عليها العثمانيون في القرن الرابع عشر، ومنذ عام ١٩٢٣ أعلن مصطفى كمال أتاتورك أنقرة عاصمة للجمهورية التركية.
 - ٤- يعود سبب تسميته إلى الحاج بكطاش الذي بارك تأسيسه وسماه (يبي تشاري) ويرسم بالتركية هكذا (يكيچاري) أي الجيش الجديد، ثم أصبح يلفظ في العربية باسم الانكشاري.

٥- المصدر السابق نفسه.

٦- جوانب مضيئة، ص (١٤٧).

ولكن أعداء الدولة العثمانية اتهموا الأمير أورخان بأنه أوجد نظام (الدَّفْشَرِيَّة) وأنه نظامٌ يستند إلى ضريبة إسلامية أطلقوا عليها اسم (ضريبة الغلمان) وهي تسمح للعثمانيين بأخذ خمس عدد أطفال كل مدينة، وزجهم بين صفوف الجيش^(١).

وهذا ليس بصحيح، فالأمير أورخان لم ينتزع غلاماً واحداً من بيت أبيه، ولم يكره أحداً على اعتناق الإسلام، وأنَّ كل ما زعمه (بروكلمان، جب، جيبونز) كذبٌ واختلاقٌ، ينبغي أن تزال آثاره من كتب تاريخنا الإسلامي^(٢).

سياسته الداخلية:

اهتم أورخان بتوطيد أركان دولته، فعمد إلى الأعمال الإصلاحية والعمرانية، ونظم شؤون الإدارة، وقوى الجيش، وبنى المساجد، وأنشأ المعاهد العلمية^(٣) وأشرف عليها خيرة العلماء والمعلمين، وكانوا يحظون بقدر كبير من الاحترام في الدولة، وكانت كل قرية بها مدارسها، وكل مدينة بها كلية التي تعلم النحو والتراكيب اللغوية والمنطق والميتافيزيقا والهندسة والفلك وبالطبع تحفيظ القرآن وتدريس علومه والسنة والفقه^(٤).

وفاة أورخان:

انتقل الأمير أورخان سنة ١٣٦٠م إلى الدار الآخرة وعمره ٨١ سنة ومدة حكمه ٣٥ سنة، وذلك بعد أن أيد الله الدولة بفتوحاته الجديدة وتنظيماته

١- جوانب مضيئة، ص(١٢٢).

٢- المصدر السابق نفسه، ص (١٥٥).

٣- انظر: محمد الفاتح، د. سالم الرشدي، ص (٢٥).

٤- انظر: في أصول التاريخ العثماني، محمد عبد الرحيم، ص (٤٠).

العديدة، وقد وسَّع مساحة الدولة العثمانية من ١٦ ألف كم^٢ إلى ٩٥ ألف كم^٢^(١). ودفن في مدينة بورصة حيث دفن سلاطين آل عثمان الستة الأوائل^(٢).



رسم لجندي من الإنكشارية في القرن الخامس عشر، بريشة جنتيلي بللين

١- تاريخ الدولة العثمانية، د. علي حسن، ص (٢٦).

٢- تاريخ الدولة العلية، محمد فريد بك، ص (١٢٩).

(٣) مراد الأول ابن أورخان

(٧٦١ - ٥٧٩١ هـ)، (١٣٦٠ - ١٣٨٩ م)

كان مراد الأول ابن أورخان، المولود عام ١٣٢٦ م، والمتوفى عام ١٣٨٩ م،



رجلاً طويلاً بيضاوي الوجه ضخيم الجسم مفتول العضلات ويضع عمامة على رأسه لباسه بسيطاً جداً، وكان عطوفاً وعاقلاً يقيم اعتباراً خاصاً للعلماء وأصحاب الفنون، ويعامل الفقير والمحروم بإكرام وسخاء. أمضى طفولته وفتوته في بورصة حيث درس على يد العلماء فيها، أحب الجهاد في سبيل الله، واهتم بإشادة الأبنية العظيمة والنفيسة

وأعمال الفنون، وبناء المساجد والمدارس الإسلامية، ومطاعم الفقراء، وأسس أيضاً أول قصر سلطاني أثناء حكمه^(١).

فتوحاته والتحالفات الصليبية ضده:

كان الأمير مراد رجلاً ذا همّة عالية محباً للجهاد ونشر الإسلام؛ ففي أوربة هاجم الجيش العثماني أملاك الدولة البيزنطية، واستولى على مدينة أدرنة^(٢) في عام ٧٦٢ هـ / ١٣٦٠ م، وكان لتلك المدينة أهمية استراتيجية في البلقان، فقد كانت ثاني مدن الإمبراطورية البيزنطية بعد القسطنطينية، واتخذها الأمير مراد

١- انظر: تاريخ الدولة العثمانية، د. علي حسون، ص (٢٦).

٢- أدرنة: إحدى مدن تركيا وتقع في أقصى الجهة الغربية من القسم الواقع في أوروبا قريبا من حدود بلغاريا واليونان. أسسها الرومان في القرن الثاني الميلادي وسقطت في يد العثمانيين في سنة ١٣٦٠ م وصارت عاصمتهم من ١٣٦٥ م إلى ١٤٥٣ م.

عاصمة لدولته، وبذلك انتقلت العاصمة إلى أوربة، وأصبحت أدرنة عاصمةً إسلاميةً^(١).

فاضطرب لذلك الملوك المسيحيون المجاورون للدولة العثمانية وطلبوا من البابا أوربانوس^(٢) الخامس أن يتوسط لدى ملوك أوروبا ليساعدوهم على محاربة المسلمين وإخراجهم من أوروبا خوفاً من امتداد فتوحاتهم إلى ما وراء جبال البلقان.

فلبى البابا استغاثتهم وشُكل حلفاً صليبيّاً لمواجهة الأمير مراد، ووقف الزحف العثماني على أوروبا، فحشد جيشاً بلغ عدده ستين ألف جنديٍّ نصراني تصدّى لهم القائد العثمانيّ (لا لا شاهين)، وقابلهم على مقربةٍ من نهر مارتيزا^(٣)، حيث وقعت معركةٌ مروّعة، انهزم فيها الجيش المتحالف هزيمةً نكراء^(٤).

وفي تلك الأثناء كان الأمير مراد مشغولاً بالقتال في بلاد آسيا الصُغرى، حيث فتح عدّة مدن ثمّ عاد إلى مقرّ سلطته لتنظيم ما فتحه من الأقاليم والبلدان كما هو شأن القائد الحكيم^(٥).

كان من نتائج انتصار العثمانيين في هذه المعركة أن وصلوا إلى جنوب بلغاريا، وإلى شرق صربيا^(٦).

١- الدولة العثمانية، د. الصلابي، ص (٥٩).

٢- وهو فرنسي المولد ولد سنة ١٣١٠م ومات سنة ١٣٧٠م، وانتخب بابا سنة ١٣٦٢م.

٣- نهر مارتيزا: وهو يتجه من بلغاريا نحو الشرق حتى أدرنة حيث يتجه جنوباً ليشكل الحدود التركية اليونانية، ثم يصب في بحر إيجه.

٤- انظر تاريخ الدولة العلية العثمانية، محمد فريد، ص (١٣١).

٥- المصدر السابق.

٦- الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، د. إسماعيل ياغي، ص (٣٧).

معركة قوصوة أو كوسوفو^(١):

كما قلنا في بداية البحث لم تكن القوى الأوربية تهدأ أو تكلُّ عن مقاتلة العثمانيين الأبطال فإذ بتحالفٍ آخر يتم بين الصرب، والبوسنيين البلغار، الذين أعدُّوا جيشاً أوربياً كثيفاً، للوقوف في وجه فتوحات العثمانيين، فكان التقاء الجيشين في منطقة كوسوفو في البلقان^(٢).

وبدأ القتال بين الجيشين بحالةٍ يشيب من هولها الولدان، دافع أثناءها الصربون دفاعاً مستميتاً، وبقيت الحرب بينهما سجلاً مدةً من الزمن تأثرت فيها الرؤوس وزهقت النفوس لتنتهي المعركة بنصر العثمانيين^(٣).

استشهاد الأمير مراد:

بعد الانتصار في قوصوة قام الأمير مراد يتفقد ساحة المعركة، ويدور بنفسه بين صفوف القتلى من المسلمين، ويدعو لهم، كما كان يتفقد الجرحى، وفي أثناء ذلك قام جنديٌّ من الصرب كان قد تظاهر بالموت، وأسرع نحو الأمير، فتمكن الحراس من القبض عليه، ولكنَّه تظاهر بأنَّه جاء يريد محادثة السلطان، ويريد أن يعلن إسلامه على يديه، وعند ذلك أشار الأمير مراد للحرس بأن يطلقوه، فتظاهر بأنَّه يريد تقبيل يد الأمير وقام بحركةٍ سريعةٍ مخرجاً خنجرًا مسموماً، طعنَ به الأمير، فاستشهد رحمه الله في ١٥ شعبان ٧٩١هـ^(٤). وكان عمره ٦٥ عاماً، توسعت حدود الدولة في عهده من مساحة ٩٥ ألف كم^٢ إلى ٥٠٠ ألف كم^٢.

١- معركة قوصوة: هي معركة وقعت سنة ٧٩١ هـ / ١٣٨٩ م بين جيش العثمانيين وجيوش الصليبيين المكونة من الجيش الصربي والألباني بقيادة ملك الصرب أوروك الخامس. حدثت المعركة في مكان يسمى قوصوة (كوسوفو حالياً).

٢- انظر: محمد الفاتح، د. سالم الرشدي، ص (٣٠).

٣- تاريخ الدولة العلية، محمد فريد، ص (١٣٥).

٤- انظر: تاريخ سلاطين آل عثمان، للقرماني، ص (١٦).

٥- album of the ottomans

ما الفشل إلا هزيمة مؤقتة تخلق
لك فرص النجاح

(٤) بايزيد ابن مراد الأول

(٧٩١ - ٨٠٥ هـ)، (١٣٨٩ - ١٤٠٢ م)

ولد سنة ٧٦١ هـ / ١٣٦٠ م، وهو أكبر أولاد أبيه الأمير مراد الأول. كان كمثل البرق في تحركاته بين الجبهتين البلقانية، والأناضولية، ولذلك أطلق عليه لقب ((يلدرم)) أي الصّاعقة، فقد استهدف الإمارات الصغيرة المتفرقة في الأناضول، وخلال عام واحد جعلها تابعة للدولة العثمانية^(١).

والسلطان بايزيد هو أول من لُقّب بالسلطان، وقد كان رجلاً متديناً مقيماً لصلاة الجماعة، ويروى أنه شهد يوماً بقضية أمام القاضي ((شمس الدين حمزة الفناري))، فردّ القاضي شهادة بايزيد، فسأله عن سبب ردّه، فقال القاضي: إنك تارك للجماعة، فأمر بايزيد ببناء جامع أمام قصره وعيّن لنفسه فيه موضعاً، ولم يترك الجماعة بعد ذلك^(٢).

حكّمته مع الصرب وحزمه تجاه بلغاريا:

عمل السلطان بايزيد على ترتيب الشأن الداخلي والقضاء على الثورات في الأناضول^(٣)؛ إذ انقرضت في عهده جميع الإمارات السلجوقية^(٤) الصغيرة القائمة

١- انظر: الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، ص (٤٠).

٢- كتاب الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية، ص (١٩).

٣- الأناضول شبه جزيرة جبلية في غرب آسيا على البحر المتوسط تشمل معظم الأراضي التركية وتعرف أيضاً بآسيا الصغرى. تحيط بها بحار إيجه ومرمرة والبحر الأسود.

٤- لما سقطت دولة السلجوقيين التي كانت مرافقة للخلافة العباسية تجزأت أملاكهم في بلاد الأناضول إلى عشر إمارات صغيرة، ضمت جميعها بالفتح الإسلامي إلى مملكة آل عثمان.

ببلاد الأناضول، وصار العلم العثماني يخفق منصوراً فوق صروحها^(١).

ثمّ اتجه إلى أوروبا وبدأ أوّل خطواته هناك بإقامة حلف ودي مع الصرب، وربما يستغرب القارئ من هذه المحالفة؛ ذلك لأن الصرب كانوا من أشد الناس عداوةً للمسلمين، ولأنهم كانوا السبب في قيام تحالف بلقاني صليبي ضد المسلمين، بل إن الأمير مراد الأول والد السلطان بايزيد قد قُتل في حربه ضدهم، وكل هذه الأسباب كافية لمنع التحالف معهم، ولكن السلطان بايزيد كان له وجهة نظر ذكية؛ وهي أن الحلف مع الصرب يجعلهم بمنزلة الحاجز القوي بين الدولة العثمانية وإمبراطورية المجر^(٢) التي كانت وقتها أقوى الممالك الأوروبية، وكانت علاقة المجر والصرب متوترة، فاستغل بايزيد ذلك للتفرغ إلى الغرب والوسط الأوروبي وفتح القسطنطينية.

إن تحالف بايزيد مع الصرب هو من فقه الموازنة بين المصالح والمفاسد الذي يحتاجه الحاكم المسلم على الدوام، ولا يفهم من هذا الفقه إباحة ما حرمه الله عز وجل أو الإخلال بعقيدة الولاء والبراء، إنما هو من جنس المعاهدات المؤقتة التي تخدم هدفاً معيناً لفترة معينة، أي أنها لا تبطل شريعة الجهاد في سبيل الله أبداً وهي تشبه جنس معاهدة الحديدية^(*) وغيرها.

١- تاريخ الدولة العلية، محمد فريد بك، ص (١٤٠).

٢- المجر: (التي تعرف أيضاً بهنغاريا) هي دولة أوروبية تقع في شرق أوروبا. يحدها من الشمال سلوفاكيا، من الشمال الشرقي أوكرانيا، من الشرق رومانيا، من الجنوب كرواتيا وسلوفينيا، من الغرب النمسا ولا تملك الدولة منفذاً على البحر.

*- صلح الحديدية: هو صلح عقد في شهر شوال من العام السادس للهجرة (مارس ١٢٢٨م) بين المسلمين وقریش وبعثضاه عقدت هدنة بين الطرفين مدتها عشر سنوات.

وبناءً على هذا التحالف قام بتوجيه ضربةٍ خاطفةٍ إلى بلغاريا وفتحها سنة ٧٩٧هـ / ١٣٩٣م، وبذلك أصبحت بلغاريا من وقتها إمارة تابعة للدولة العثمانية، مما جعل أوروبا ترتجف رعباً من (الصاعقة الإسلامية) التي فتحت البلاد الواحدة تلو الأخرى^(١).

واستطاع السلطان بايزيد أن يفرض على إمبراطور بيزنطة مانويل عدة شروط منها:

١- إنشاء محكمة إسلامية وتعيين قضاة مسلمين بها للفصل في شؤون الرعية المسلمة بها.

٢- بناء مسجد كبير بها والدعاء فيه للخليفة العباسي بمصر ثم للسلطان بايزيد وذلك يوم الجمعة.

٣- تخصيص ٧٠٠ منزل داخل المدينة للجالية المسلمة بها.

٤- زيادة الجزية المفروضة على الدولة البيزنطية^(٢).

معركة نيكوبوليس أو نيكوبلي:

كان النصر الذي قام به الجنود العثمانيون في بلغاريا سبباً في تحالفٍ صليبيٍّ آخر ضد هذه الدولة الإسلامية العظيمة؛ حيث قام سيجموند^(٣) ملك المجر، والبابا التاسع^(٤) بالدعوة لتكتلٍ أوروبيٍّ مسيحيٍّ ضدَّ الدولة العثمانية، فكان ذلك

١- الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، ص (٤١).

٢- اختصار من (في أصول التاريخ العثماني)، أحمد عبد الحليم، ص (٥٤، ٥٥).

٣- هو Sigis Mond de ملك المجر من ١٣٨٧ إلى ١٤٣٧م، وملك رومانيا من ١٤١١ إلى ١٤٣٣م، وإمبراطور ألمانيا من ١٤٣٣ إلى ١٤٣٧م وهو تاريخ وفاته.

٤- البابا بونيفاس التاسع (١٣٥٦-١٤٠٤)، بابا الكنيسة الكاثوليكية الـ ٢٠١. تولى البابوية من ٢ نوفمبر ١٣٨٩ حتى وفاته في ١ أكتوبر ١٤٠٤.

التَّكْتُلُ من أكبر التكتلات التي واجهتها الدولة العثمانية في القرن الرابع عشر، من حيث عدد الدول التي اشتركت وأسهمت فيه بالسلاح والفرسان وبلغ العدد الإجمالي لهذه الحملة ١٢٠,٠٠٠ مقاتل من مختلف الجنسيات (ألمانيا، فرنسا، إنجلترا، سويسرا، وبعض الإمارات الإيطالية)^(١).

تحرّكت الحملة عام (٨٠٠هـ / ١٣٩٦م) إلى المجر، وكادت الدول المتحالفة أن تنتصر لولا ظهور بايزيد المفاجئ ومعه نحو مئة ألف جنديٍّ، ففرّق صفوفهم وألحق الهزيمة بهم وذلك بفضلٍ من الله، وبجسن التنظيم والتخطيط الذي اتبعه بايزيد، وخرج العثمانيون من معركة نيكوبوليس بغنائم كثيرة وفيرة، واستولوا على ذخائر العدو^(٢).

هذه هي معالم القوة الإسلامية التي تتجلى على المسلمين عندما يحسنون الإيمان بالله ويتجهون بجوارحهم كلها لعبادته وتنفيذ شريعته الحنيفة، هكذا تكون الأجيال المؤمنة حينما تُزرع في قلوبها العقيدة السليمة، وتُزَيَّنُ أفعالها بالسنة الحمديّة الشريفة.

الصدّام بين تيمورلنك وبايزيد:

ينتمي تيمورلنك^(٣) إلى الأسر النّبيلة في بلاد ما وراء النهر، وفي عام ١٣٦٩م جلس على عرش

إن ما يسعى إليه الإنسان
السامي يكمن في ذاته. هـ
هو، أما الدنيء في. سعى
لم... لا... دى الآخ... رين
(كونفوشيوس)

١- انظر: الدولة العثمانية، د. الصلابي، ص (٦٨).

٢- اختصار من كتاب الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، ص (٤٢)

٣- تيمورلنك (١٣٣٦-١٤٠٥ م): قائد مغولي من القرن الرابع عشر ومؤسس الإمبراطورية التيمورية (١٣٧٠-١٤٠٥ م) في وسط آسيا، وأول الحكام في العائلة التيمورية الحاكمة والتي استمرت حتى عام ١٥٠٦ م. وتعني كلمة «لنك» «الأعرج» نتيجة لإصابته بجرح خلال إحدى معاركه. أما كلمة تيمور فتعني بالمنغولية=

خراسان، وقاعدته سمرقند، استطاع أن يتوسع بجيوشه الرهيبة وأن يهيمن على القسم الأكبر من العالم الإسلامي، حيث انتشرت قواته الضخمة في آسيا من دلهي إلى دمشق^(١).

وكانت هناك عوامل، وأسباب أسهمت في إيجاد صراع بين تيمورلنك وبايزيد، منها:

١- لجأ أمراء العراق الذين استولى تيمور على بلادهم إلى بايزيد، كما لجأ إلى تيمور بعض أمراء آسيا الصغرى، وفي كلا الجانبين كان اللاجئين يحرّضون من استجاروا به على شن الحرب ضدّ الطرف الآخر.

٢- تشجيع النصاري لتيمورلنك، ودفعه للقضاء على بايزيد.

٣- الرسائل النارية بين الطرفين، ففي إحدى الرسائل التي بعث بها تيمور إلى بايزيد أهانه ضمناً حين ذكره بغموض أصل أسرته، وعرض عليه العفو على اعتبار أن آل عثمان قد قدموا خدمات جلية إلى الإسلام، مما جعل بايزيد يقبل تحدّيه^(٢). إضافة إلى أن كلا منهما يطمح لتوسيع دولته.

معركة أنقرة:

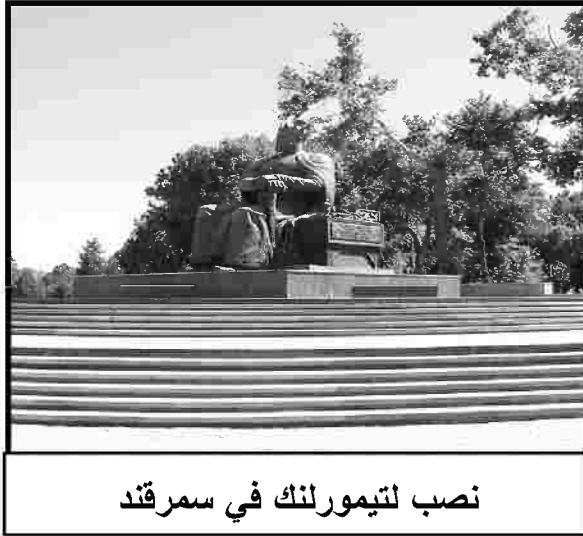
تقدّم تيمورلنك بجيوشه، واحتلّ (سيواس)، وأباد حاميتها التي كان يقودها الأمير أرطغرل ابن بايزيد، ثم التقى بالسلطان بايزيد قرب أنقرة في عام ٨٠٤هـ/١٤٠٢م، حيث زحف تيمور على رأس قوّة جرارة، فاجتاح الجيوش

=«الحديد». كان تيمورلنك قائداً عسكرياً فذاً قام بحملات توسعية شرسة أدّت إلى مقتل العديد من المدنيين وإلى اغتنام مجتمعات برمتها. وكان تيمورلنك مسلماً.

١- في أصول التاريخ العثماني، ص (٥٦).

٢- المصدر السابق نفسه، ص (٥٧)

العثمانية فشلت جمعها وأباد معظم فرسانها، وبذلك انتصر المغول، ووقع بايزيد في الأسر، وظلَّ يعاني في أغلاله حتَّى وافاه الأجل في السنة التَّالية^(١).



نصب لتيمورلنك في سمرقند

وهكذا وقعت هزيمة أنقرة بسبب اندفاع، وعجلة بايزيد، إذ لم يحسن اختيار المكان الذي نزل فيه جيشه؛ الذي لم يكن يزيد عن مئة وعشرين ألف مقاتل، بينما كان جيش خصمه لا يقل عن ثمانمئة ألف، ومات كثيرٌ من جنود بايزيد عطشاً لقلة الماء، حيث كان الوقت صيفاً شديداً الحر، ولم يكد يلتقي الجيشان في أنقرة حتَّى فرَّ الجنود التتار؛ الذين كانوا في جيش بايزيد، وجنود الإمارات الآسيويَّة التي فتحها منذ عهدٍ قريب، وانضموا إلى جيش تيمورلنك، فلم يُجدِ بايزيد بعد ذلك ما أظهره هو وبقية جيشه من الشجاعة، والاستماتة في القتال^(٢).

يضيف الدكتور علي حسون في أسباب هذه الهزيمة أنَّ الجنود العثمانيين لم تكن تملؤهم الحماسة، والاندفاع لهذه الحرب بسبب الأخوة الدينيَّة بينهم وبين

١- الدولة العثمانية، د. علي الصلابي، ص (٧٢).

٢- محمد الفاتح، د. سالم الرشيد، ص (٣٥).

المغول الذين كان إيمانهم الباكر لم يرسخ بعد في قلوبهم ليحول دون وقوع هذه الحرب بين شعبين يجمعهم دينٌ واحد^(١).

لقد فرحت الدول النَّصرانيَّة في الغرب بنصر تيمورلنك، وهزها الطرب لمصرع بايزيد، وما آلت إليه دولته من التفكك، وبعث ملوك إنجلترا وفرنسا وقشتالة إلى تيمور يهنتونه على ما أحرزه من النصر العظيم، واعتقدت أوربة أنَّها تخلصت إلى الأبد من الخطر العثماني الذي طالما روعَّها، وهددها^(٢).

١- تاريخ الدولة العثمانية، د. علي حسون، ص (٢١).

٢- محمد الفاتح، د. سالم الرشيد، ص (٣٦).

الابتلاء قبل التمكين

(٨٠٦ - ٨١٦ هـ / ١٤٠٣ - ١٤١٣ م)

تعرّضت الدولة العثمانية لخطرٍ داخليٍّ تمثل في نشوب حربٍ أهليةٍ في الدولة بين أبناء بايزيد على العرش، واستمرت هذه الحرب عشر سنوات^(١).

فقد كان لبازيد خمسة أبناء اشتركوا معه في القتال، أمّا مصطفى؛ فقد ظنَّ أنّه قتل في المعركة، وأمّا موسى؛ فقد أسر مع والده، ونجح الثلاثة الآخرون في الفرار، أمّا أكبرهم سليمان؛ فقد ذهب إلى أدرنة، وأعلن نفسه سلطاناً هناك، وذهب عيسى إلى بورصة، وأعلن للنّاس أنّه خليفة أبيه، وأمّا محمد، وهو أصغرهم، فقد انسحب مع بعض الجند إلى أماسيا^(٢)، لتشتعل نار الحرب بين هؤلاء الأخوة الثلاثة يتنازعوا بينهم أشلاء هذه الدولة الممزقة، والأعداء يتربصون بهم من كل جانب، ثم أطلق تيمور الأمير موسى ليؤجج به نار الفتنة، ويزيدها شدةً، وأخذ يحرضهم على القتال، ويغري بعضهم ببعض، وبعد عام ارتحل تيمور بجيشه بعد أن أحرق الأخضر واليابس، وترك وراءه البلاد على أسوأ حال من الدمار والخراب^(٣).

لقد كانت هذه المرحلة في تاريخ الدولة العثمانية مرحلة اختبار وابتلاء، سبقت التّمكن الفعلي المتمثل في فتح القسطنطينية، وهكذا جرت سنة الله تعالى ألا يمكن لأمة إلا بعد أن تمر بمراحل الاختبار المختلفة، وأن ينصهر معدنها في بوتقة الأحداث، فيميز الله الخبيث من الطيب، وهي سنةٌ جاريةٌ على الأمة

١ - الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، ص (٤٣).

٢ - مدينة في الشمال الشرقي من آسيا الصغرى.

٣ - انظر: محمد الفاتح، ص (٣٦).

الإسلامية لا تتخلف، فقد شاء الله أن يتلي المؤمنين، ويختبرهم، ليمحص إيمانهم ثم ليكون لهم التمكين في الأرض بعد ذلك ^(١).

وبعد هذا كله فقد صَمَدَ العثمانيون لحنة أنقرة بالرغم مما عانوه من خلافات داخلية إلى أن انفرد محمد الأول بالحكم في عام ١٤١٣م، وتمكّن من لم شتات الأراضي التي سبق للدولة أن فقدتها ^(٢). فقامت الدولة بعد كارثة أنقرة وبعثت من جديد من بين الأنقاض والأطلال، وانتعشت، وسرى في عروقها ماء الحياة، وروح الشريعة، واستأنفت سيرها إلى الأمام في عزمٍ، وإصرارٍ حيّر الأعداء، والأصدقاء ^(٣).

إن نهوض الدولة من كارثة أنقرة يرجع إلى منهجها الرباني الذي سارت عليه، حيث جعل من العثمانيين أمةً متفوقةً في جانبها الإيماني والسلوكي والجهادي، وبفضل من الله حافظ العثمانيون على حماسهم الدينية، وأخلاقهم الكريمة.

١- الدولة العثمانية، د. علي الصلابي، ص (٧٤).

٢- في أصول التاريخ العثماني، ص (٦١).

٣- انظر: محمد الفاتح، ص (٣٧).

إذا لم تفشل، فلن تعمل بجد



(٥) محمد الأول ابن بايزيد

(٨١٦-٨٨٢٤ هـ)، (١٤١٣-١٤٢١ م)

ولد السلطان محمد الأول عام (٧٨١ هـ / ١٣٧٩ م)^(١)، وتولّى أمر الأمّة بعد وفاة والده بايزيد، وعرف في التاريخ بمحمد جلبي . كان متوسط القامة، مستدير الوجه، أبيض البشرة، يمارس المصارعة، ويسحب أقوى أوتار الأقواس، اشترك أثناء حكمه في ٢٤ حرباً، وأصيب بأربعين جرحاً^(٢).

سياسته الداخلية:

استطاع السلطان محمد جلبي أن يقضي على الحرب الأهلية بسبب ما أوتي من الحزم، والكياسة، وتغلب على أخوته واحداً واحداً حتّى خلص له الأمر، وتفرّد بالسلطان، وقضى سني حكمه الثماني في إعادة بناء الدولة، وتوطيد أركانها^(٣).

فقد استعمل السلطان محمد سياسة الحزم مع الحلم في معاملة من قهرهم ممن شقّ عصا طاعة الدولة، وكانت سياسته تهدف إلى إعادة بناء الدولة، وتقويتها من الداخل، ولذلك سالم إمبراطور القسطنطينية، وحالفه، وأعاد إليه بعض المدن،

١ - انظر: أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ (الدولة العثمانية) ص (٣٣).

٢ - انظر السلاطين العثمانيون، ص (٤١).

٣ - انظر: محمد الفاتح، ص (٣٧).

ثمَّ صالح البندقية بعد هزيمة أسطوله عند غاليلي سنة ٨١٨هـ، وقمع الفتن والثورات في آسيا وأخضع بعض الإمارات الآسيوية التي أحيها تيمور، فدانت له بالطاعة والولاء^(١).

وفي عهده استغلت اليهودية ضعف الدولة التي كانت لا تزال تئن من جراحها السابقة، فدست بين صفوف الناس شخصاً دعي الشيخ بدر الدين السيمائي، كان قد شغل منصباً جيداً في الدولة متسترّاً بالتدين والعلم، فدعا لآراء هدامة من أعمال اليهود المعروفة، وبات يشكل بعض الخطر على كيان الدولة، فتمكن السلطان من قتله وأخذت دعوته^(٢).

وفاة السلطان محمد الأول وبعض صفاته:

كان محباً للشعر، والأدب، وقيل: هو أول سلطان عثماني أرسل الهدية السنوية إلى أمير مكة التي يطلق عليها اسم الصرة، وهي عبارة على قدر معين من النقود ترسل إلى الأمير لتوزيعها على فقراء مكة والمدينة^(٣).

لقد أحبَّ الشعب العثماني السلطان محمد الأول، وأطلقوا عليه لقب (بهلوان) ومعناه البطل وذلك بسبب نشاطه الجسمي، وأعماله العظيمة، وعبقريته الفذة؛ التي قاد من خلالها الدولة العثمانية إلى بر الأمان^(٤). توفي في أدرنة، وعمره ٤٣ سنة، ودفن في مدينة بورصة.

١- انظر: محمد الفاتح، ص (٣٧).

٢- تاريخ الدولة العثمانية، د. علي حسون، ص (٢٢).

٣- انظر: تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص (١٥٢).

٤- الدولة العثمانية، د. علي الصلابي، ص (٨٠).

(٦) مراد الثاني ابن محمد الأول (٨٢٤-٥٨٥٥ هـ)، (١٤٢١-١٤٥١ م)



تولّى السلطان مراد الثاني أمر الدولة بعد وفاة أبيه محمد وكان عمره لا يزيد على ثماني عشرة سنة، وكان محباً للجهاد في سبيل الله، والدعوة إلى الإسلام في ربوع أوربة^(١).

كان يحب حياة الهدوء والسلم، ولكنه فاعلٌ ونشطٌ في الشدائد وعندما تقتضي الحاجة، أدار شؤون البلاد أثناء سني حكمه التي امتدت إلى ما ينوف عن ثلث قرن بحكمة وفخر، فكان موضع اعتزاز كبير جداً^(٢).

فتوحاته والتحالفات الصليبية ضده:

ألبانيا:

استطاع العثمانيون في عهده أن يفتحوا ألبانيا^(٣) عام (٨٣٤هـ/١٤٣١م)، حيث ركّزوا هجومهم على الجزء الجنوبي من البلاد، أمّا في شمال ألبانيا فقد واجهوا فيه بعض الصّعوبات، حيث كانت دول أوروبا تقف خلف الألبان

١- انظر: أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ (الدولة العثمانية)، ص (٣٨).

٢- تاريخ الدولة العثمانية، علي حسون، ص (٢٨).

٣- ألبانيا (بالألبانية: Shqip وتُنطق: شقيب) هي إحدى دول البلقان الواقعة في جنوب أوروبا. يحدها من الشمال صربيا والجبل الأسود ومن الشرق جمهورية مقدونيا واليونان ومن الجنوب اليونان مجدداً ومن الغرب البحر الأدرياتيكي.

وتدعمهم، ولاسيما حكومة البندقية التي كانت تدرك خطورة الفتح العثماني لهذا الإقليم المهم بشاطئيه، وموانئه البحرية التي تربط البندقية بحوض البحر المتوسط^(١).

المجر وتحالف صليبي:

استطاع العثمانيون في عام (٨٤٢هـ/١٤٣٨م) أن يهزموا المجرين، ويأسروا منهم سبعين ألف جندي، وأن يستولوا على بعض المواقع، ثم تقدّم السلطان مراد لفتح بلغراد^(٢) عاصمة الصرب، ولكنه أخفق في محاولته؛ إذ سرعان ما تكوّن حلف صليبي كبير باركه البابا، ضمّ عدداً هائلاً من الدول النصرانية، فكان هدف هذا الحلف طرد العثمانيين من أوربة كلها، وأعطيت القيادة إلى قائد مجري هو جان هونيادي^(٣)، وكان النصر في هذه المعركة من نصيب القوات الصليبية، فاضطر العثمانيون لطلب الصلح الذي عقد لمدة عشر سنوات^(٤).

زهده بالسلطة وتنازله عنها:

حين فرغ مراد من عقد الصلح مع أعدائه الأوربيين، عاد إلى الأناضول، ليُفجّع بموت ابنه الأمير علاء، فاشتدّ حزنه عليه، وزهد في الدنيا والملك، ونزل

١ - انظر: الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، ص (٤٦).

٢ - بلجراد (بالصربية: Beograd) هي عاصمة صربيا وأكبر مدنها. وتعد واحدة من أقدم مدن أوروبا على الإطلاق؛ إذ يعود تاريخ تأسيسها إلى القرن الثالث قبل الميلاد.

وبلغراد هي آخر بقعة مسيحية دانت للمسلمين العثمانيين في البلقان.

٣ - جان هونيادي: يذكر التاريخ الفرنسي أنه ولد سنة ١٣٨٧ ومات سنة ١٤٥٦م، عينه لادسلاس ملك بولونيا والمجر حاكماً على إقليم ترانسافانيا، وهو من أقاليم مملكة النمسا التي تبعت مدةً للدولة العثمانية، واشتهر جان بمحاربة العثمانيين، وكانت وفاته إثر جراح أصابته أثناء دفاعه عن مدينة بلغراد عند محاصرة السلطان محمد الفاتح لها.

٤ - الدولة العثمانية، د. الصلابي، ص (٨٣).

عن السلطنة لابنه محمد الذي كان في الرابعة عشرة من عمره؛ ولصغر سنه أحاطه والده ببعض أهل الرأي والنظر من رجال دولته، ثم ذهب إلى مغنيسيا^(١) ليقضي بقية حياته في عزلة، وطمأنينة، ويتفرغ إلى عبادة الله، والتأمل في ملكوته بعد أن اطمأن إلى استتباب الأمن في أرجاء دولته^(٢).

إلا أن ذلك لم يدم طويلاً فقد قام الكاردينال سيزاريني وبعض أعوانه بالدعوة إلى نقض العهد مع العثمانيين وطردهم من أوربة، ولاسيما أن العرش العثماني قد ترك لفتى صغير لا خبرة له، ولا خطر منه^(٣).

فلبت دول أوروبا نداء الكاردينال سيزاريني، وزحفوا نحو الدولة العثمانية، فلما سمع المسلمون في أدرنة بحركة الصليبيين، انتابهم الفزع، والرعب، فكتب السلطان محمد الثاني إلى والده يطلب منه العودة ليتربع على عرش السلطنة تحسباً لوقوع معركة مع المجر، إلا أن مراد رفض هذا الطلب، فأثار هذا الرد غضب السلطان محمد الثاني فعاد وكتب إلى والده يقول:

«لو كنت أنت السلطان بحق، فارجع وسر بجيشك إلى المعركة. وإن كنت تراني أنا السلطان، فإني آمرك بالحيء وقيادة جيشي في المعركة».

وبناءً على هذه الرسالة خرج السلطان المجاهد من خلوته ليقود جيوش العثمانيين ضد الخطر الصليبي، واستطاع مراد أن يتفق مع أسطول جنوه^(٤) لينقل

١ - مدينة في غربي تركيا إلى الشمال الشرقي من أزمير.

٢ - محمد الفاتح، ص (٤٣، ٤٢).

٣ - المصدر السابق نفسه، ص (٤٣).

٤ - جنوة (بالإيطالية Genova، بالإنكليزية Genoa) مدينة وميناء بحري شمال إيطاليا. وهي حاضرة بحرية، ومدينة ذات تاريخ مجيد، وتقاليد عريقة وقوية متعلقة بالثقافة البحرية ليس بمنطقة البحر المتوسط فحسب.

أربعين ألفاً من الجيش العثمانيّ من آسيا إلى أوربة تحت سمع الأسطول الصليبي، وبصره في مقابل دينار لكل جندي^(١).

وفي اليوم التّالي نشبت المعركة بين الجيشين وكانت عنيفةً حاميةً، ووضع السلطان مراد المعاهدة التي نقضها أعداؤها على رأس رمح ليشهدهم، ويشهد السماء والأرض على الغدر والعدوان، وليزيد حماس جنده^(٢).

وابتدئ القتال وكاد يكون النصر للنصارى لولا حماسة العثمانيين واستبسالهم بالقتال في وجه النصارى، والتقى الملك ((لاديسلاس)) مع السلطان مراد وجهاً لوجه، واقتتلا، ودارت بينهما معركةٌ رهيبةٌ تمكّن فيها السلطان مراد من قتل الملك المجري، حيث عاجله بضربة قوية من رمحه أسقطته من على ظهر جواده^(٣).

كانت هذه المعركة في سهول قوصوة في ٨٥٢هـ / ١٤٤٨م، وهو نصر كوسوفو الثاني، حيث استمر القتال فيها ثلاثة أيام، وانتهت بفوز ساحق للعثمانيين، وقد أخرجت هذه المعركة بلاد المجر عشر سنواتٍ على الأقل من الدول التي تستطيع النهوض بعمليات حربية هجومية ضد العثمانيين^(٤).

لم يفارق السلطان مراد الزهد في الدنيا، والملك، فنزل عن العرش مرة أخرى لابنه محمد، وعاد إلى عزلته في مغنيسيا.

لم يذكر لنا التاريخ أن أحداً من الملوك أو الأمراء نزل عن العرش مرتين غير السلطان مراد.

١ - الدولة العثمانية، د. الصلابي، ص (٨٥).

٢ - المصدر السابق نفسه، ص (٤٥).

٣ - محمد الفاتح، د. عبد السلام عبد العزيز، ص (٢٢).

٤ - انظر: الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، ص (٤٧).

وما إن وصلها حتى ثارت الإنكشارية على ابنه محمد في أدرنة، وتمردوا وأفسدوا، فخاف بعض رجال الدولة أن يستفحل الأمر، ويتفاقم الشر، فبعثوا إلى السلطان مراد يستقدمونه ليتولَّى الأمر بنفسه، فجاء وقبض على زمام الأمور، وخضعت له الإنكشارية، وهكذا بقي السلطان مراد على العرش العثماني إلى آخر يوم في حياته، التي قضاها في الغزو والفتح^(١).

وفي عهده فتحت مدينة سالونيك^(٢) عام (٨٣٣هـ/١٤٣١م) وأصبحت جزءاً لا يتجزأ من الدولة^(٣).

وفاة السلطان مراد وبعض صفاته:

كان السلطان مراد يرسل لأهالي الحرمين الشريفين، وبيت المقدس من خاصة ماله في كل عام ثلاثة آلاف وخمسمئة دينار، وكان يُعنى بشأن العلم والعلماء^(٤) حيث حوّل قصره إلى نوع من الأكاديمية العلمية، ووصل به الأمر أن كان الشعراء يرافقونه في جهاده^(٥).

كانت وفاته في أدرنة عن عمر يناهز ٤٧ عاماً، وبناءً على وصيّته - رحمه الله - دفن بجانب جامع مرادية في بورصة، وأوصى بأن لا يبنى على قبره شيء، وأن يُعمل أماكن في جوانب القبر يجلس فيها الحفاظ لقراءة القرآن الكريم، وأن يدفن في يوم الجمعة، فنفذت وصيته^(٦).

١ - محمد الفاتح، ص (٤٧).

٢ - تعتبر سالونيك ثاني أكبر مركز اقتصادي، صناعي، تجاري وسياسي في اليونان، ومركز مواصلات مهم في جنوب شرق أوروبا، وهي مركز تعليمي وثقافي هام في منطقة البلقان. تحتوي المدينة على العديد من الصروح التي تعكس تاريخها البيزنطي والعثماني.

٣ - الدولة العثمانية، د. الصلابي، ص (٨٢).

٤ - انظر: تاريخ سلاطين آل عثمان للقرماني، ص (٢٥).

٥ - العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص (٢٤٦).

٦ - السلاطين العثمانيون، ص (٤٣).

يجب أن تثق بنفسك.. وإذا لم تثق
بنفسك فمن ذا الذي سيثق بك!



(٧) محمد الثاني ابن مراد الثاني

(٨٥٥ - ٨٨٦ هـ)، (١٤٥١ - ١٤٨١ م)

ولد السلطان محمد الفاتح في ٢٦ رجب من عام ٨٣٣ هـ، الموافق ٢٠ نيسان ١٤٢٩ م، وهو السلطان السابع في سلسلة آل عثمان^(١).

ولقد انتهج النهج الذي سار عليه والده، وأجداده في الفتوحات، واهتم كثيراً بالأمور المالية فعمل على تحديد موارد الدولة، وطرق الصرف منها على نحو يمنع الإسراف والبذخ، وكذلك ركّز على تطوير كتائب الجيش، وأعاد تنظيمها، ووضع سجلات خاصة بالجند، وزاد من مرتباتهم، وأمدهم بأحدث الأسلحة المتوافرة في ذلك العصر، وطوّر البلاط العثماني، وأمدّ رجاله بالخبرات الإدارية، والعسكرية الجيدة مما أسهم في استقرار الدولة، ودفعها إلى الأمام، وبعد أن قطع أشواطاً مثمرة في الإصلاح الداخلي، تطلّع إلى المناطق المسيحية في أوربة لفتحها، ونشر الإسلام فيها^(٢).

لا بد من كلمة:

عندما قرأت سيرة هذا السلطان العثماني أعجبت به كثيراً، وانطلقت أحدث أصحابي وأقاربي عنه؛ فإذا بي أتفاجأ بثقافتهم حول محمد الفاتح، إذ إنّ

١- تاريخ الدولة العثمانية، د. علي حسون، ص (٣١).

٢- انظر قيام الدولة العثمانية، ص (٤٣).

أكثرهم لا يعلم أنه سلطانٌ عثماني، بل إنَّ ما كاد يفقدني صوابي هو أحد أصدقائي - جامعيّ - عندما سألته: «ماذا تعلم عن محمد الفاتح» فأجابني بثقة تامّة: «كان نجاراً مسلماً يعمل في القسطنطينية فسمع يوماً من شيخه حديث رسول الله ﷺ عن فاتح القسطنطينية، فأراد أن يكون هو ذلك الفاتح، وفعلاً نجح ذلك النجار بفتح المدينة التي عجز أمامها خلفاء المسلمين» فما رددت عليه بحرف وقلت: «حسبي الله ونعم الوكيل».

وها هي البداية:

نبدأ حديثنا عن هذا السلطان العثماني بقصة ربما إذا ذُكرت وحدها كَفَتْ فضول المتلهفين لمعرفة هذا الفاتح المغوار؛ ففي إحدى المعارك في بلاد البلقان تعرّض الجيش العثمانيّ لـ ١٠٠٠٠ من قبل زعيم البغدان^(١) (أستفان)، حيث تخفّى مع جيشه خلف الأشجار الكثيفة المتلاصقة، وبينما المسلمون بجانب تلك الأشجار انهمرت عليهم نيران المدافع الشديدة، فانبطح الجنود على وجوههم، وكاد الاضطراب يسود صفوف الجيش لولا أن سارع السلطان محمد، وتباعد عن مرمى المدافع، وعنّف رئيس الإنكشارية على تخاذل جنّده، ثم صاح فيهم: «أيها الغزاة المجاهدون، كونوا جنود الله، ولتكنّ فيكم الحميّة الإسلاميّة». وأمسك بالثّرس، واستلّ سيفه، وركض بحصانه، واندفع إلى الأمام لا يُلوي على شيء، فألهب بذلك نار الحماس في جنده، فانطلقوا وراءه واقتحموا الغابة على من فيها، ونشب قتال عنيف بالسيوف استمر من الضحى إلى الأصيل^(٢).

١ - مولدافيا (اسمها القديم هو بغدان نسبة إلى الأسرة الحاكمة) دولة أوروبية ذات نظام جمهوري، تقع شرقي أوروبا بين أوكرانيا ورومانيا. وتعتبر مولدوفا من أصغر جمهوريات الاتحاد السوفيتي السابق.

٢ - السلطان محمد الفاتح، ص (١٠١، ٢٤٦، ٢٤٧).

ومما يذكر أيضاً أنه عندما طلب منه الإمبراطور قسطنطين الصُّلح أثناء حصاره للقسطنطينية، ردَّ عليه: «عن قريبٍ سيكون لي في القسطنطينية عرشٌ، أو يكون لي فيها قبر»^(١).

وقفه مع إنجازاته الحضارية:

١ - اهتمامه بالمدارس والمعاهد:

قام السلطان محمد بإنشاء المدارس، وربَّتها على درجاتٍ، ووضع لها المناهج، ونظام الامتحانات، وكان السلطان يتابع هذه الأمور، ويشرف عليها، ويزور المدارس بين الحين والحين. وقد أنشأ بجانب مسجده الذي بناه بالقسطنطينية ثمانى مدارس، بالإضافة لإنشاء مكتبةٍ خاصة يشترط بالقائم على أمرها أن يكون عالماً بالكتب وأسماء المؤلفين، وكان أن ألحقت بهذه المدارس مساكنٌ للطلبة، ينامون فيها ويأكلون فيها طعامهم، وخصصت لهم منحةٌ ماليةٌ شهرية^(٢).

٢ - اهتمامه بالطب والمستشفيات:

كثُر العُمرانُ وانتشر في أرجاء الدولة في عهده، وكان الاهتمام الأكبر بدور الشفاء، ووُضِعَ لها نظامٌ مثالي في غاية الروعة، فقد كان الفاتح يعهد بكل دارٍ من هذه الدُّور إلى طبييين من حدَّاق الأطباء من أي جنسٍ كان، ويشترط في جميع المشتغلين بالمستشفى أن يكونوا من ذوي القناعة، والشفقة، ويجب على الأطباء أن يزوروا المرضى مرَّتين في اليوم وألا تُصرَفَ الأدويةُ للمرضى إلا بعد التدقيق من إعدادها، بل كان يشترط في طبَّاخ المستشفى أن يكون عارفاً بطهي الأطعمة التي توافق المرضى، وكان العلاج والأدوية في هذه المستشفيات بالجحان ويدخلها

١ - انظر: الفتوح الإسلامية عبر العصور، ص (٣٧٦).

٢ - انظر: محمد الفاتح، ص (٣٨٥، ٣٨٤).

جميع الناس دون تمييز بين أجناسهم وأديانهم^(١).

٣- اهتمامه بالتنظيمات الإدارية:

شكّل السلطان محمد لجنة من خيار العلماء لثُشِرِفَ على وضع (قانون نامه) المستمد من الشريعة الإسلامية، وجعله أساساً لحكم دولته، وكان هذا القانون مكوناً من ثلاثة أبواب، يتعلق بمناصب الموظفين، و ببعض التقاليد، وما يجب أن يُتخذ من التشريفات والاحتفالات السلطانية، ويقرر العقوبات والغرامات، ونصّ صراحةً على جعل الدولة حكومةً إسلاميةً قائمةً على تفوق العنصر الإسلامي أياً كان أصله وجنسه^(٢).

٤- اهتمامه بالجيش، والبحرية:

لقد تميّز عصر السلطان محمد الفاتح بقوة الجيش البشرية، وتفوقه العددي، وبإنشاءات عسكرية عديدة، فقد أقام دور الصناعة العسكرية لسد احتياجات الجيش من الملابس والدروع ومصانع الذخيرة، وأقام القلاع والحصون في المواقع ذات الأهمية العسكرية، فأحدث تشكيلات عسكرية متنوعة في تمام الدقة، وحسّن التنظيم من فرسان، ومشاة، ومدفعية، وفرق مساعدة، تُمُدُّ القوات المحاربة بما تحتاجه من غذاء، وإعداد صناديق الذخيرة حتى ميادين القتال.

وكان هناك صنف من الجنود يسمى ((لغمجية)) وظيفته الحفر للألغام، وحفر الأنفاق تحت الأرض أثناء محاصرة القلاع، وبذلك تطوّرت الجامعة العسكرية زمن الفاتح، وأصبحت تخرّج الدفعات المتتالية من المهندسين والأطباء، وعلماء المساحات، وتُمُدُّ الجيش بالفنيين المتخصصين. وعندما نطالع كتاب

١- انظر: محمد الفاتح، ص (٤١٣).

٢- انظر: محمد الفاتح، ص (١٥٤).

((حقائق الأخبار عن دول البحار)) لمؤلفه إسماعيل سرهنك، نلاحظ اهتمام السلطان محمد الفاتح بالبحرية العثمانية، وإنَّه كان اهتماماً بالغاً استحق معه أن يعده المؤرخون مؤسس الأسطول البحري العثماني.

٥- اهتمامه بشؤون رعيته:

بالرغم من اشتغاله بالجهاد، إلا أنَّه كان يتتبع كلَّ ما يجري في أرجاء دولته بيقظة، واهتمام، كما ساعده على معرفة أحوال الناس جهاز أمن الدولة الذي كان يجمع المعلومات، والأخبار التي لها علاقة بالسلطنة، وتُرفعُ إلى السلطان الذي كان يحرص على دوام المباشرة لأحوال الرعية، وتفقد أمورها.

أهمية القسطنطينية:

تأتي أهمية القسطنطينية نظراً لموقعها الجغرافي عند نقطة اتصال آسيا بأوروبا عن طريق مضيق البوسفور، فهي عقدة المواصلات وطريق الملاحة، وقد قال نابليون مرّة: «لو كانت الدنيا مملكة واحدة لكانت القسطنطينية أصلح المدن لتكون عاصمة لها».

ولهذه المدينة أهمية خاصة لدى المسلمين، وقد وردت البشارة النبوية الشريفة بفتحها فجاء في الحديث الصحيح: «لنفتحن القسطنطينية، فلنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش».

ولقد حاول المسلمون فتحها عدّة مرات؛ أولها زمن معاوية بن أبي سفيان الخليفة الأموي وآخرها كان زمن بايزيد السلطان العثماني.

﴿وأعدوا لهم ما استطعتم﴾:

بذل السلطان محمد الثاني جهوده المختلفة للتخطيط، والترتيب لفتح القسطنطينية، وبذل في ذلك جهداً كبيراً في تقوية الجيش العثماني بالقوى

البشرية حتى وصل تعداده إلى قرابة ربع مليون مجاهد^(١)، وقد اعتنى بإقامة قلعة (روملي حصار) في الجانب الأوربي على مضيق البوسفور في أضيق نقطة منه مقابل القلعة التي أسست في عهد السلطان بايزيد في البر الآسيوي، وقد حاول الإمبراطور البيزنطي منع الفاتح من بنائها بأن عرض عليه الأموال والتنازلات العديدة، ولكن ذلك لم ينل من عزيمة الفاتح، واكتمل بناء القلعة التي وصل ارتفاعها إلى ٨٢ متراً، وأصبحت القلعتان متقابلتين ولا يفصل بينهما إلا ٦٦٠ م؛ تتحكمان في عبور السفن من شرق البوسفور إلى غربه، وتستطيع نيران مدافعهما منع أي سفينة من الوصول إلى القسطنطينية وتقديم المساعدة لها^(٢).

أمّا الأسلحة الهجومية فقد اعتنى السلطان عناية خاصة بالمدافع، حيث أحضر مهندساً مجرياً يدعى ((أوربان)) الذي كان بارعاً في صناعة المدافع، فأحسن السلطان استقباله، ووفّر له جميع الإمكانيات المالية، والبشرية، وقد تمكن هذا المهندس من تصميم وتنفيذ العديد من المدافع الضخمة وعلى رأسها المدفع السلطاني المشهور^(٣).

وأمّا السفن البحرية فقد ذكّر أنّ السفن التي أعدت لهذا الأمر بلغت أكثر من أربع مئة سفينة^(٤).

شدة تحصين القسطنطينية:

كانت القسطنطينية محاطة بالمياه البحرية من ثلاث جهات، مضيق البوسفور، وبحر مرمرة، والقرن الذهبي، بالإضافة إلى ذلك فإن خطين من الأسوار

١ - انظر: تاريخ الدولة العلية العثمانية، محمد فريد بك، ص (١٦١).

٢ - انظر: سلاطين آل عثمان، ص (٢٦).

٣ - انظر: الفتوح الإسلامية عبر العصور، ص (٣٦١).

٤ - انظر: محمد الفاتح، ص (٩٠)، د. سالم الرشيد.

كانت تحيط بها من الناحية البرية، وكان بين السورين فضاءً يبلغ عرضه ٦٠ قدماً، ويرتفع السور الداخلي منها ٤٠ قدماً، وعليه أبراج يصل ارتفاعها إلى ٦٠ قدماً، وأما السور الخارجي فيبلغ ارتفاعه قرابة ٢٥ قدماً، وعليه أبراجٌ موزعة مليئة بالجنود.



وبالنتيجة فإنَّ المدينة من الناحية العسكرية تعد من أفضل مدن العالم تحصيناً، لما تمتلكه من أسوارٍ وأبراجٍ يصعب اختراقها.

خطّة المعركة:

بدأ السلطان أعماله بتمهيد الطريق بين أدرنة والقسطنطينية؛ لكي تكون صالحةً لجرّ المدافع العملاقة خلالها، فتحرّكت المدافع في مدّة شهرين، حيث تمّت حمايتها بقسمٍ من الجيش، ووصلت الجنود العثمانية يقودها الفاتح بنفسه إلى مشارف القسطنطينية في ٢٦ ربيع الأول ٨٥٧هـ الموافق ١٤٥٣م^(١).

١- انظر: سلاطين آل عثمان، ص (٢٥، ٢٤).

وفي اليوم التالي قام السلطان بتوزيع جيشه البري أمام الأسوار الخارجية للمدينة، مشكلاً ثلاثة أقسام رئيسة، تمكنت من إحكام الحصار البري حول مختلف الجهات، كما وضع الفاتح جيوشاً احتياطية خلف الجيوش الرئيسية، وعمل على نصب المدافع أمام الأسوار، ومن أهمها المدفع السلطاني العملاق، وفي الوقت نفسه انتشرت السفن العثمانية في المياه المحيطة بالمدينة، إلا أنها لم تستطع الوصول إلى خليج القرن الذهبي بسبب وجود السلسلة الضخمة التي تمنع وتدمر كل سفينة تحاول الدنو منه^(١).

وبدأت المعركة:

كان الجيش البيزنطي على أهبة الاستعداد لمحاربة العثمانيين، فقد بذلوا كل جهدهم في الدفاع عن القسطنطينية، ووزعوا الجنود على الأسوار، وأحكموا من التحصينات، في الوقت الذي لم تنقطع فيه المساعدات المسيحية من أوربة، حيث وصلت إمدادات من جنوة مكونة من خمس سفن، يقودها القائد الجنوبي ((جستنيان)) يرافقه سبعمائة مقاتل متطوع من دول أوربية متعددة، واستطاعت سفنهم أن تصل إلى القسطنطينية بعد مواجهات عديدة مع السفن العثمانية، فكان لوصول هذه السفن أثر كبير في رفع معنويات البيزنطيين، وكان القتال عنيفاً على الجبهتين، وفتحت أبواب الشهادة ليفوز بها عدد كبير من العثمانيين، ولا سيما من الأفراد الموكلين بالاقتراب من الأبواب الرئيسية^(٢).

كان الحصار العثماني لا يزال ناقصاً ببقاء خليج القرن الذهبي في أيدي البحرية البيزنطية، ومع ذلك فإنَّ الهجوم العثماني كان مستمراً دون هوادة، حيث

١ - انظر: العثمانيون والبلقان، ص (٨٩).

٢ - انظر: الدولة العثمانية، د. الصلابي، ص (٩٩).

أظهر جنود الإنكشارية شجاعةً فائقةً، وبسالةً نادرةً، فكانوا يُقدِّمونَ على الموت دون خوفٍ في أعقاب كل قصف مدفعي، وفي يوم ١٨ أبريل^(١) تمكنت المدافع العثمانية من فتح ثغرةً في الأسوار البيزنطية عند وادي ((ليكوس)) في الجزء الغربي من الأسوار، فاندفع إليها الجنود العثمانيون بكل بسالةٍ محاولين اقتحام المدينة من تلك الثغرة، ولكنَّ المدافعين عن المدينة بقيادة ((جستنيان)) استماتوا في الدفاع عن الثغرة، ودفع العثمانيين عنها، واشتدَّ القتال بين الطرفين، وكثرت السهام، والقذائف على الجنود المسلمين، ومع حلول الظلام أصدر الفاتح أوامره بالانسحاب بعد أن أثاروا الرعب في قلوب أعدائهم^(٢).

أما على الجانب البحري فقد كانت السفن العثمانية تبذل كلَّ جهدها محاولةً السيطرة على المضيق الذهبي؛ حيث قام البيزنطيون بسد مداخل ميناء القسطنطينية بسلاسل حديدية غليظة حالت بين السفن العثمانية والوصول إلى القرن الذهبي، بل دمرت كل سفينة حاولت الدنو والاقتراب منه ، إلا أن الأسطول العثماني نجح على الرغم من ذلك في الاستيلاء على جزر الأمراء في بحر مرمره^(٣). ويذكر أنَّ السلطان قد أرسل إلى قائد الأسطول البحري بالطه أوغلي^(٤) يقول له:

١- انظر: الفتوح الإسلامية عبر العصور، ص (٣٦٧).

٢- انظر: محمد الفاتح، عبد السلام فهمي، ص (١٢٣).

٣- بحر مرمره: بحر داخلي يربط البحر الأسود ببحر إيجه ويفصل الجزء الآسيوي لتركيا عن جزئها الأوروبي. يتصل بحر مرمره بالبحر الأسود عن طريق مضيق البوسفور وبيحر إيجه عن طريق مضيق الدردنيل.

٤- أوغلي: معناها الابن؛ حيث إنه لم يكن للعثمانيين أسماء أسر أي ألقاب فإنهم كانوا ينتسبون إلى آبائهم.

«إمّا أن تستولي على سفن العدو، وإمّا أن تغرقها، وإذا لم توفق في ذلك؛ فلا ترجع إلينا حياً»^(١).

فحدثت معركةً عنيفةً بين الطرفين، إلا أن النصر لم يكن حليف الأسطول العثماني، وعاد ذلك القائد إلى مقره، فغضب منه الفاتح، وعزله من مهامه، وأتهمه بالجن، إلا أن بالطه أوغلي تأثر وقال له: «إني أستقبل الموت بجنون ثابت، ولكن يؤلمني أن أموت وأنا متهمٌ بمثل هذه التهمة لقد قاتلت أنا ورجالي بكل ما كان في وسعنا من حيلةٍ، وقوةٍ، ورفع طرف عمامته عن عينه المصابة»^(٢).

لم يكن كلُّ رجال الفاتح ذوي هممٍ عالية مثل هذا القائد البطل، فقد كان للهزائم البحرية للأسطول العثماني دورٌ كبيرٌ في محاولة بعض مستشاري السلطان، وعلى رأسهم الصدر الأعظم خليل باشا^(٣)، من إقناعه بالعدول عن الاستيلاء على القسطنطينية، والرضا بمصالحة أهلها دون السيطرة عليها، ومن ثمّ رفع الحصار عنها، ولكن السلطان أصرَّ على محاولة الفتح، واستمرَّ في قصف دفعات المدينة بالمدافع من كل جانب، وفي الوقت نفسه كان يفكر بجديّة في إدخال السفن الإسلامية إلى القرن الذهبي، وذلك لأنَّ الأسوار من جهته كانت متهاويةً، مما يسهل اقتحامها أو ربما على الأقل يخفف من شدة دفاع البيزنطيين على الأطراف الأخرى^(٤).

١- انظر، محمد الفاتح، للرشيدي، ص (١٠١).

٢- انظر: مواقف حاسمة، محمد عبد الله عنان، ص (١٨٠)، محمد الفاتح، للرشيدي، ص (١٠٣).

٣- كان السلطان محمد قد أمر بحبسه لاتهامه أثناء حصار القسطنطينية بالتعامل مع العدو أو تلقيه رشوةً منهم لفضح تحركات الجيش العثماني، فحُبس لمدة أربعين يوماً، ثم حُكم عليه بالإعدام فأعدم.

٤- انظر: الفتوحات الإسلامية عبر العصور، ص (٣٦٩).

وبناءً على هذا لمعت في عقله فكرة حربية عبقرية لم يحدث مثلها في ذلك الزمان، مما أبهر المؤرخين بعبقريته، وحير الأعداء بعزيمته؛ وهي نقل السفن من مرساها في بشكطاش^(١) إلى القرن الذهبي، وذلك بجرها على الطريق البري الواقع بين الميناءين، تجنباً للمواجهة العنيفة التي تتلقاها السفن التي تحاول العبور إلى القرن الذهبي، وبذلك يكتمل الحصار، وقد كانت المسافة بين الميناءين نحو ثلاثة أميال، ولم تكن أرضاً مبسوطة سهلة، بل وهاداً وتلالاً غير ممهدة.

جمع السلطان محمد أركان حربه، وعرض عليهم فكرته، التي نالت إعجابهم^(٢)، فأمر السلطان ببدء الخطة فمهدت الأرض، وسويت في ساعات قليلة، وأُتِيَ بِالْوَاحِ مِنَ الْخَشَبِ دُهْنَتْ بِالزَيْتِ، وَالشَّحْمِ، ثُمَّ وَضَعَتْ عَلَى الطَّرِيقِ الْمَمْهَدِ بِطَرِيقَةٍ يَسْهُلُ بِهَا انْزِلَاقُ السَّفِينِ، وَجَرُّهَا، وَكَانَ أَصْعَبُ جُزْءٍ مِنَ الْمَشْرُوعِ هُوَ نَقْلُ السَّفِينِ عَلَى انْحِدَارِ التَّلَالِ الْمُرْتَفِعَةِ، إِلَّا أَنَّهُ بِصِفَةِ عَامَّةٍ كَانَتْ السَّفِينُ الْعُثْمَانِيَّةُ صَغِيرَةً الْحَجْمِ، خَفِيفَةُ الْوِزْنِ^(٣).

وَجُرَّتِ السَّفِينُ مَسَافَةً ثَلَاثَةَ أَمْيَالٍ، حَتَّى وَصَلَتْ إِلَى نَقْطَةٍ آمِنَةٍ، فَأُنْزِلَتْ فِي الْقَرْنِ الذَّهَبِيِّ، وَتَمَكَّنَ الْعُثْمَانِيُّونَ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ مِنْ سَحْبِ أَكْثَرِ مِنْ سَبْعِينَ سَفِينَةً، وَإِنْزَالِهَا هُنَاكَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنَ الْعَدُوِّ بِطَرِيقَةٍ لَمْ يَسْبِقْ أَحَدٌ أَنْ قَامَ بِهَا قَبْلَ السُّلْطَانِ مُحَمَّدٍ، حَيْثُ أَشْرَفَ بِنَفْسِهِ عَلَى الْعَمَلِيَّةِ الَّتِي جَرَتْ فِي اللَّيْلِ بَعِيداً عَنِ أَنْظَارِ الْعَدُوِّ، وَمَرَاقَبَتِهِ^(٤).

عبر أحد المؤرخين البيزنطيين عن عجبهم من هذا العمل فقال:

١- بشكطاش: حي من أحياء استانبول على مضيق البوسفور وفيه قصر يلدز.

٢- الدولة العثمانية، د. الصلابي، ص (١٠٣).

٣- انظر: السلطان محمد الفاتح، عبد السلام فهمي، ص (١٠٠).

٤- انظر: الفتوح الإسلامية عبر العصور، ص (٣٧٠).

«ما رأينا، ولا سمعنا من قبل يمثل هذا الشيء الخارق، محمد الفاتح يحول الأرض إلى بحار، وتعبّر سفنه فوق قمم الجبال بدلاً من الأمواج، لقد فاق محمد الثاني بهذا العمل الإسكندر الكبير»^(١).

وبذلك كان لوجود السفن الإسلامية في القرن الذهبي دورٌ كبيرٌ في إضعاف الروح المعنوية لدى المدافعين عن القسطنطينية؛ الذين اضطروا لسحب عددٍ من القوّات للدفاع عن الأسوار الواقعة على القرن الذهبي التي كانت تحميها المياه من قبل^(٢).

هكذا كان السلطان محمد - رحمه الله - يفاجئ عدوه من حين لآخر بفنٍ جديد من فنون القتال، والحصار، وحرب الأعصاب، وطرق حديثة مبتكرة غير معروفة للعدو^(٣).

ففي المراحل المتقدّمة من الحصار لجأ العثمانيون إلى طريقة عجيبة في محاولة دخول المدينة، حيث عملوا على حفر أنفاق تحت الأرض من مناطق مختلفة إلى داخل المدينة، وقد أصاب أهل القسطنطينية من جرّاء ذلك خوفٌ عظيم، وفزعٌ لا يوصف حتى صار كثيراً ما يخيّل لهم: أن الأرض ستتشق ويخرج منها الجند العثمانيون، فكانوا يلتفتون يمنةً ويسرة، ويشيرون هنا، وهناك في فزع، ويقولون: (هذا عثماني! هذا عثماني!)^(٤).

ولم تقف محاولات العثمانيين عند هذا الحد بل استمروا بالابتكارات الحربية الذكية، فقد صنعوا قلعةً خشبيةً ضخمة، متحركة، تتكون من ثلاثة أدوار، وبارتفاع أعلى من الأسوار، وكسيت بالدروع، والجلود المبللة بالماء لتمنع عنها

١- تاريخ الدولة العثمانية، يلماز أوزنتونا، ص (١٣٥).

٢- انظر: محمد الفاتح، ص (١٠٦).

٣- المصدر السابق نفسه، ص (١٠٨).

٤- انظر: الدولة العثمانية، د. الصلابي، ص (١٠٧).

النيران، فوق العربة في قلوب المدافعين عن المدينة حينما زحف العثمانيون بهذه القلاع، واقتربوا بها من الأسوار، فظنَّ الإمبراطور قسطنطين لما رآها: أنَّ الهزيمة حلَّت به، إلا أنَّ المدافعين كثفوا من قذف القلاع بالنيران حتى أحرقت، ووقعت على الأبراج البيزنطية فقتلت من فيها من المدافعين^(١).

وعندما أُخبرَ السلطان بالأمر كان جوابه: «لا بأس، غداً نصنع أربعاً أخرى»^(٢).

في هذه الأثناء كانت المدفعية العثمانية لا تنفك عن عملها في دك الأسوار، فتهدَّمت أجزاء كثيرة من الأسوار والأبراج، وأصبحت إمكانية اقتحام المدينة وارداً في أي لحظة، إلا أن اختيار موقع الاقتحام لم يحدد بعد^(٣).

ثم عمد السلطان بعد اليأس من تسليم المدينة صلحاً إلى تكثيف الهجوم، ولا سيَّما القصف المدفعي على المدينة، حتى إنَّ المدفع السلطاني الضخم انفجر من كثرة الاستخدام، وقتل المشتغلون به، وعلى رأسهم المهندس المجري الذي تولى الإشراف على تصميمه، وبالرغم من هذه المصيبة، فقد أمر السلطان بإجراء عمليات التبريد للمدافع بزيوت الزيتون، وقد نجح الفنيون في ذلك، وواصلت المدافع قصفها مرةً أخرى، بل تمكنت من توجيه القذائف بحيث تسقط وسط المدينة بالإضافة إلى ضربها للأسوار والأبراج^(٤).

١- انظر: محمد الفاتح، للرشدي، ص (١٤٤).

٢- الدولة العثمانية، د. الصلابي، ص (١٠٩).

٣- انظر: الفتوحات الإسلامية عبر العصور، ص (٣٧٥).

٤- المصدر السابق نفسه، ص (٣٧٦).

وحانت ساعة الفتح، واقترب الأمر إلى نهايته، ففي يوم الأحد ١٨ جمادى



قسطنطين الحادي عشر، آخر أباطرة
الدولة البيزنطية

الأولى، وجه السلطان الجنود إلى الخشوع، وتطهير النفوس والتقرب إلى الله تعالى بالصلاة وعموم الطاعات والتذل والدعاء بين يديه لعل الله ييسر لهم الفتح، كما قام الفاتح بنفسه في ذلك اليوم بتفقد أسوار المدينة ومعرفة أحوالها وما وصلت إليه أوضاع المدافعين عنها في النقاط المختلفة^(١).

وعلى الجهة المقابلة، كان الإمبراطور ومن معه من النصارى

يصلون الصلاة الأخيرة في كنيسة آيا صوفيا^(٢) أقدم الكنائس عندهم، ثم قصد الإمبراطور قصره يزوره الزيارة الأخيرة، وتوجه نحو صورة (يزعمون أنها صورة المسيح) معلقة في إحدى الغرف فركع تحتها وتمتم ببعض الدعوات^(٣).

١- الدولة العثمانية، د. الصلابي، ص (١١٣).

٢- آيا صوفيا: هي كاتدرائية سابقة ومسجد سابق وحالياً متحف يقع بمدينة إسطنبول بتركيا. وتعد من أبرز الأمثلة على العمارة البيزنطية والزخرفة العثمانية. بدأ الإمبراطور جستنيان في بناء هذه الكنيسة عام ٥٣٢م، وأستغرق بناؤها نحو خمس سنوات، حيث تم افتتاحها رسمياً عام ٥٣٧م.

٣- المصدر السابق نفسه، ص (١١٥).

فتح من الله، ونصر قريب:

عند الساعة الواحدة صباحاً من يوم الثلاثاء ٢٠ جمادى الأولى سنة ٨٥٧هـ، الموافق ١٤٣٥م، بُدئ الهجوم العام على المدينة بعد أن أصدرت الأوامر للمجاهدين الذين علت أصواتهم بالتكبير، وانطلقوا نحو الأسوار، الأمر الذي ألقى الرعب في قلوب البيزنطيين الذين شرعوا في دق نواقيس الكنائس، حيث التجأ إليها كثير من النصارى، وكان الهجوم متزامناً برياً وبحرياً في وقت واحد، ونال الكثير من المجاهدين الشهادة، وبعد أن أنهكت الفرقة الأولى الهجومية؛ كان السلطان قد أعد فرقة أخرى، فسحب الأولى، ووجه الثانية وهي بكامل نشاطها، واستمر القتال إلى بزوغ الفجر، حيث أمر السلطان جنوده بالانسحاب؛ لكي يتيحوا الفرصة للمدافع، لتقوم بعملها مرة أخرى، ثم هدأت المدفعية لتفسح المجال أمام قسم جديد من شجعان الإنكشارية يقودهم السلطان بنفسه، فأظهر جنود الإنكشارية بسالة نادرة في الهجوم، واستطاعوا رفع الأعلام العثمانية عند بعض الأسوار.

وعندما رأى قسطنطين الأعلام العثمانية ترفرف على الأبراج الشمالية للمدينة، أيقن بعدم جدوى الدفاع، فخلع ملابسه حتى لا يعرف، ونزل عن حصانه، وقاتل حتى قتل في ساحة المعركة^(١).

ومع حلول ظهيرة يوم الثلاثاء ٢٠ جمادى الأولى ٨٥٧هـ، الموافق ١٤٥٣م، كان السلطان الفاتح في وسط المدينة يحف به جنده، وقواده، وهم يرددون: ما شاء الله! فالتفت إليهم، وقال: لقد أصبحتم فاتحي القسطنطينية الذين أخبر عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهنأهم بالنصر ونهاهم عن القتل وأمرهم بالرفق بالناس والإحسان إليهم ثم ترجل عن فرسه وسجد لله شكراً، وتواضعاً^(٢).

١- انظر: الدولة العثمانية، د. الصلابي، ص (١١٧، ١١٦، ١١٥).

٢- الفتوحات الإسلامية عبر العصور، ص (٣٨٣).

سياسة التسامح بين الأديان في فكر السلطان:

توجه السلطان بعد إتمام الفتح إلى كنيسة آيا صوفيا، وقد اجتمع فيها خلق كبير من الناس ومعهم الرهبان الذين كانوا يتلون عليهم صلواتهم وأدعيتهم، وعندما اقترب السلطان من أبوابها خاف المسيحيون داخلها خوفاً عظيماً، وقام أحد الرهبان بفتح الأبواب له فطلب من الراهب تهدئة الناس وطمأنتهم والعودة

إلى بيوتهم بأمان، فأطمأن الناس، وكان بعض الرهبان مختبئين في سرايب الكنيسة فلما رأوا تسامح الفاتح وعفوه خرجوا وأعلنوا إسلامهم، وقد أمر الفاتح بعد ذلك بأن يؤذن في الكنيسة بالصلاة إعلاناً يجعلها مسجداً، وقد أعطى السلطان للنصارى حرية إقامة الشعائر الدينية واختيار رؤسائهم الدينين الذين لهم حق الحكم في النظر بالقضايا المدنية، كما أعطى هذا الحق لرجال الكنيسة في

قال بول كولندو في كتابه:
العثمانيون في أوروبا: لقد
مارس العالم العثماني تأثيراً
هائلاً على سائر الشعوب، فقد
كان العثمانيون يطبقون مبدأ
التسامح الديني على نطاق
واسع بينما كانت أوروبا تفتقر
إلى ذلك.

الأقاليم الأخرى، ولكنه في الوقت نفسه فرض الجزية على من لم يسلم منهم، ثم قام بجمع الأئمة المسيحيين لينتخبوا بطريركاً لهم، وأعطاهم نصف الكنائس الموجودة في المدينة، أمّا النصف الآخر فجعله جوامع للمسلمين. وبتمام فتح المدينة، نقل السلطان محمد مركز العاصمة إليها، وسُميت «إسلامبول»، أي «تحت الإسلام» أو «مدينة الإسلام».

فتوحات أخرى؛ بين الصرب والبوسنة وأترانت:

بعد النصر الساحق في القسطنطينية اتجه السلطان محمد قاصداً بلاد الصرب، فأسرع جان هونيادي الشجاع المجري الملقب «بالفارس الأبيض» وردّ عن الصرب مقدمة الجيوش العثمانية، إلا أن الصرب لم يتحمسوا لمساعدة المجر لهم لاختلاف مذهبهم، حيث كان المجر كاثوليكين تابعين لبابا روما، والصرب أرثوذكسيين لا يدعون لسلطة البابا، بل كانوا يفضلون تسلط المسلمين عليهم لما رأوه من عدم تعرضهم للدين مطلقاً. ولذلك أبرم أمير الصرب الصلح مع السلطان محمد الثاني على أن يدفع له سنوياً ثمانين ألفاً، وذلك في سنة ١٤٥٤.

يذكر أن جان هونيادي أرسل إلى ملك الصرب يعرض عليه التحالف للزحف معاً لقتال العثمانيين، فورد عليه سائلاً: فماذا تصنع بالكنيسة فيما إذا تغلبت أنت؟ فأجابه ج.ان: أقرر العقيدة الكاثوليكية. فسئل ملك الصرب السلطان محمد ذات السؤال، فأجاب: ه.ال.سلطان: بجانب كل كنيسة أبني جامعاً، وكلّ منا يعبد ربه كما يشاء.

وفي السنة التالية أعاد السلطان الكرّة على الصرب من جديد لتدخل المجر بشؤونها، فقصدها هذه المرة بجيش مؤلف من خمسين ألف مقاتل وثلاثمائة مدفع، ومر بجيوشه من جنوب تلك البلاد إلى شمالها بدون أن يلقي أقل معارضة تذكر، حتى وصل مدينة بلغراد وحاصرها. وكان هونيادي المجري دخل المدينة قبل إتمام

الحصار عليها، ودافع عنها دفاع الأبطال حتى يئس السلطان من فتحها ورفع عنها الحصار سنة ١٤٥٥، لكن وإن لم يتمكن العثمانيون من فتح عاصمة الصرب إلا أنهم أصابوا هونيادي بجراح بليغة توفي بسببها بعد رفع الحصار عن المدينة بنحو عشرين يوماً. ولما علم السلطان بموته أرسل الصدر الأعظم «محمود باشا» لإتمام فتح بلاد الصرب فأتمّ فتحها من سنة ١٤٥٨ إلى سنة ١٤٦٠^(١).

١- تاريخ الدولة العثمانية، الأمير شكيب أرسلان، ص (٨٧).

وفي سنة ١٤٦٢، حارب السلطان بلاد البوسنة^(١) لامتناع أميرها «استيفان توماسفيتش» عن دفع الخراج، وفي سنة ١٤٦٤، أراد متياس كرفن^(٢) ملك المجر استخلاص البوسنة من العثمانيين، فهُزم بعد أن قُتل معظم جيشه، وكانت عاقبة تدخله أن جعلت البوسنة ولاية كباقي ولايات الدولة، وسُلبت ما كان مُنح لها من الامتيازات، ودخل في جيش الإنكشارية ثلاثون ألفاً من شبانها وأسلم أغلب أشراف أهاليها^(٣)، كما فتحت أغلب الجزر الواقعة بين اليونان وإيطاليا ثم سار القائد البحري كدك أحمد باشا بمراكبه وافتتح مدين أوترانت^(٤) بإيطاليا^(٥).

وفاة السلطان محمد الفاتح:

في شهر ربيع من عام ٨٨٦هـ / ١٤٨١م، غادر السلطان القسطنطينية إلى آسيا الصغرى، حيث كان قد أُعدَّ في (إسكدار) جيشٌ آخر كبير، ولكنَّ وعكةً صحيةً أصابته قبل خروجه، إلا أنَّه أصر على الذهاب، حباً للجهاد، وامثالاً لأمر الله بنشر الدعوة في كل مكان، وكان المرض تضاعف عليه هذه المرة، فلم ينفع تطبيب ولا دواء، ومات السلطان وسط جيشه العرمرم يوم الخميس الرابع من ربيع الأول سنة ٨٨٦ هـ، وهو في الثانية والخمسين من عمره بعد أن حكم

١ - البوسنة: هي دولة تقع في البلقان بجنوب شرق أوروبا، إحدى جمهوريات يوغوسلافيا السابقة. يحدها من الشمال والغرب والجنوب كرواتيا، من الشرق صربيا ومن الجنوب الغربي جمهورية الجبل الأسود.

٢ - هو ابن هونيادي المجري ولد سنة ١٤٤٣، وانتخب ملكاً على بلاد المجر سنة ١٤٥٨، واشتهر بمحاربة كافة جيروانه دفاعاً عن استقلال المجر.

٣ - تاريخ الدولة العلية، محمد فريد بك، ص (١٧٠).

٤ - أوترانت: تقع على ساحل إيطاليا الشرقي في أقرب نقطة إلى ساحل ألبانيا. وهي مدينة قديمة بجنوب إيطاليا شهيرة باستخراج زيت الزيتون، وقد امتلكها العرب مدة من الزمن.

٥ - تاريخ الدولة العثمانية، د. علي حسون، ص (٣٩).

ثلاثين عاماً ونيف^(١).

ذات مرة سأل أحد القضاة: أين
تقصد بجيوشك أيها السلطان؟
فأجابه السلطان الفاتح:
«لو أن شعرةً في لحيتي عرفت
ذلك، لنتفتها وقذفت به. إ. ف. ي
النار».

لما وصل خبر الوفاة إلى روما؛ ابتهج البابا،
وأمر بفتح الكنائس، وأقيمت فيها الصلوات،
والاحتفالات، وسارت المواكب العامة تحوّل
الشوارع، وهي تنشد أناشيد النصر، والفرح بين
طلقات المدافع، وظلّت هذه الاحتفالات قائمةً
في روما طوال ثلاثة أيام فلقد تخلّصت النصرانية
ب وفاة محمد الفاتح من أعظم خطرٍ يهددها^(٢).

لم يكن أحدٌ يعلم شيئاً عن الجهة التي كان سيذهب إليها السلطان الفاتح بجيشه،
وذهبت ظنون الناس في ذلك مذاهب شتى، فهل كان يقصد رودوس^(٣) ليفتح هذه
الجزيرة التي امتنعت على قائد جيشه ((مسيح باشا)) أم كان يتأهب للحاق بجيشه
الظافر في جنوبي إيطاليا، ويزحف بنفسه بعد ذلك إلى روما، وفرنسا، وإسبانيا؟.

لقد كان من عادة الفاتح أن يحتفظ بالجهة التي يقصدها، ويترك أعداءه في
غفلة، وحيرة من أمرهم لا يدري أحد متى تنزل عليه الضربة القادمة، ثم يتبع
ذلك التكتّم الشديد بالسرعة الخاطفة في التنفيذ^(٤).

فرحمة الله، ومغفرته على السلطان محمد الفاتح، وأعلى ذكره في المصلحين.

١ - الدولة العثمانية، د. الصلابي، ص (١٧٢).

٢ - المصدر السابق نفسه، ص (١٧٣).

٣ - رودوس: (باليونانية: Ρόδος) هي جزيرة تقع في اليونان. تقع بالقرب من الساحل
الجنوبي لتركيا، في منتصف المسافة بين جزر اليونان الرئيسية وقبرص. يقدر عدد
المسلمين فيها بـ ٣٥٠٠ مسلم.

٤ - انظر: محمد الفاتح، ص (٢٦٠).



محمد الفاتح يقود جيش المسلمين في حصار القسطنطينية



مدفع سلطاني عثماني مماثل للمدفع الذي استخدم عند حصار القسطنطينية.
تم صب هذا المدفع عام ١٤٦٤، وهو الآن موجود في متحف الترسانة الملكية البريطانية



صورة توضح كلاً من مضيقي البوسفور والدردنيل

(٨) بايزيد الثاني ابن محمد الثاني

(٨٨٦ - ٩١٨ هـ)، (١٤٨١ - ١٥١٢ م)



بعد وفاة السلطان محمد الثاني تولّى ابنه بايزيد الثاني السلطة في البلاد، وكان سلطاناً وديعاً، نشأ محباً للأدب، متفقهاً بعلوم الشريعة الإسلامية، شغوفاً بعلم الفلك، واستعان بالخبراء الفنيين اليونانيين، والبلغاريين في تحسين شبكة الطرق والجسور؛ لربط أقاليم الدولة ببعضها^(١).

الأحداث الداخلية والخارجية في عهده:

أولاً: سياسته مع المماليك:

أسهمت سياسة بايزيد السلمية في عقد صلح مع المماليك ظلّ سارياً حتى نهاية عهد. ده. ع. ام. ١٥١٢ م، وأكّد. د. هـ. ذا. الح. د. ح. حرص السلاطين العثمانيين على سياسة. ا. ل. سلام. م. مع. أم. راء المسلمين ما دام. ت. ش. ع. وبهم تعيش حالة من الأمن والعدل.

حدثت معارك بين العثمانيين والمماليك على الحدود الشامية، إلا أنّها لم تستخدم إلى حدّ التهديد بحدوث حرب شاملة بينهما، وإن كانت قد أسهمت في أن يخيّم شعورٌ بعدم الثقة بينهما، وبالرغم من ذلك فقد شعر السلطان المملوكي ((قايتباي)) بمخاوف من احتمال قيام حربٍ واسعةٍ بينه وبين العثمانيين، سواءً

لإدراكه حجم القوة العثمانية، أو لانشغال جزءٍ من قوّاته في مواجهة البرتغاليين.

إلا أنّ السلطان العثمانيّ بايزيد الثاني قد بدّد له هذه المخاوف، حيث قام بإرسال رسولٍ من قبله إلى السلطان المملوكي سنة ١٤٩١ م، ومعه مفاتيح القلاع

١ - انظر: الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، ص (٥٠).

التي استولى عليها العثمانيون على الحدود بينهما، وقد لقي هذا الأمر ترحيباً لدى السلطان المملوكي، فقام بإطلاق سراح الأسرى العثمانيين لديه^(١).

ثانياً: الدبلوماسية الغربية، حرب من نوع آخر:

استمرت راية الجهاد مرفوعةً طوال عهد السلطان بايزيد، وأدرك الأعداء أنَّهم لا يستطيعون مواجهة العزيمة العثمانية في حربٍ نظاميةٍ يحققون فيها أطماعهم، لهذا لجؤوا إلى أسلوب خبيث تسَّروا به تحت مسمى العلاقات الدبلوماسية لكي ينخروا في عظام الأمة ويدمِّروا المجتمع المسلم من الداخل، ففي عهد السلطان بايزيد الثاني وصل أول سفيرٍ روسيٍّ إلى إستانبول عام (٨٩٨هـ / ١٤٩٢م).

إنَّ وصول السفير الروسي على عهد دوق موسكو إيفان الثالث^(٢) وما أعطى له ولغيره من حصانة وامتيازات فتح الباب أمام أعداء الأمة الإسلامية لكشف ضعفها ومعرفة عوراتها، والعمل على إفسادها^(٣).

إنَّ حدوث هذا الأمر لا يعني أنَّ السلطان بايزيد وقف موقفاً ضعيفاً أمام هذه الظروف، ولكنَّ الدولة كانت تمر بظروف صعبة في محاربتها لأعداء الإسلام على امتداد شبه جزيرة الأناضول، وأوربة الشرقية كلها^(٤).

ثالثاً: التنظيم الداخلي:

اهتمَّ بايزيد بإنشاء المباني العامة، وفعل الخيرات، والعطف على الفقراء، وكان أن حدث في زمانه زلازل عظيمةٌ في القسطنطينية، فخرَّبَت ألفاً وسبعين

١- انظر: قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين، ص (٦٦).

٢- القيصر الروسي إيفان الثالث (عاش بين ١٤٤٠ - ١٥٠٥) ويطلق عليه أيضاً إيفان الكبير.

٣- انظر: الدولة العثمانية، د. الصلابي، ص (١٧٨).

٤- الدولة العثمانية، د. جمال عبد الهادي، ص (٥٠).

بيتاً، وعدة جوامع، وجانباً عظيماً من القصور، وعطّلت مجاري المياه، وصعد البحر إلى البر فكانت أمواجه تتدفق فوق الأسوار، وظلّ هذا الزلزال يتكرر يومياً مدّة ٤٥ يوماً، وما إن سكنت الأمور؛ حتى كلّف السلطان ١٥ ألفاً من العمال بإصلاح ما تهدّم^(١).

رابعاً: تنازله عن السلطة، وبعض صفاته:

عاش السلطان بايزيد سبعة وستين عاماً، وكان قوي البنية، أحذب الأنف، أسود الشعر، محباً للعلوم، يقضي العشر الأخير من شهر رمضان في العبادة، والذكر، كان بارعاً في رمي السهام ويياشر الحروب بنفسه^(٢) دام ملكه إحدى وثلاثين سنة إلا أياماً^(٣).

وكان محباً للشعر والشعراء، وله أشعارٌ في الحكمة، يقول في بعضها:

استيقظ من نوم الغفلة وانظر إلى الزينة في الأشجار.

انظر إلى قدرة الله الحقّ.. انظر إلى رونق الأزهار.

فافتح عينيك لتشهد حياة الأرض بعد الممات^(٤).

وفي يوم ١٨ صفر ٩١٨هـ، ترك حكم الدولة لابنه سليم الأول، وذلك بدعم من الجيش، الذي كان ينظر إليه على أنّه الأمل المرتجى في بعث النشاط الحربيّ للدولة العثمانية بصورة أوسع، ودفع حركة الفتوحات إلى الأمام^(٥).

١- انظر: تاريخ سلاطين آل عثمان، يوسف أصف، ص (٦٦).

٢- المصدر السابق نفسه.

٣- انظر: تاريخ سلاطين آل عثمان، للقرماني، ص (٣٦).

٤- انظر: العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص (٢٤٩).

٥- انظر: قيام الدولة العثمانية، ص (٥٨).

٩١٨ - ٩٧٤ هـ . / ١٥١٢ - ١٥٦٦ م

الدولة العثمانية في أقصى اتساعها

(٩) سليم الأول ابن بايزيد الثاني

(٩١٨-٩٢٦ هـ)، (١٥١٢-١٥٢٠ م)

جلس السلطان سليم الأول على العرش العثماني في عام ٩١٨ هـ، وقد أظهر منذ بداية حكمه ميلاً إلى تصفية خصومه ولو كانوا إخوته، أو أبناءهم، وكان يحب الأدب، والشعر الفارسي، وبالرغم من قسوته فإنه كان يميل إلى صحبة رجال العلم^(١).

وهو أول من تلقب بأمر المؤمنين من سلاطين بني عثمان، عُرف لدى

الغرب بـ (Selim the Grim) أي سليم العابس، ويلقب كذلك بـ (ياوز) أي الشجاع القاطع عند الأتراك.

كان السلطان سليم
...صطحب معه...
الم... .. ورخين،
وال... شعراء إلى...
مي...ادين القت...ال
لي...سجلوا أحوال...
المعارك، وينشدوا
القصائد التي تحكي
أمجاد الماضي.

عندما ارتقى السلطان سليم العرش العثماني كانت الدولة قد وصلت إلى مفترق الطرق، هل تظل على هذا الوضع، وهذا القدر من الاتساع، دولة بلقانية أناضولية؟ أم تستمر في التوسع الإقليمي في أوروبا؟ أم تتجه نحو المشرق الإسلامي؟.

فشاءت مشيئة الله أن تتجه الجيوش العثمانية نحو

المشرق لأجل إنقاذ العالم الإسلامي بصورة عامة والمقدسات الإسلامية بصورة خاصة من الغزو الصليبي الجديد من جانب الإسبان في البحر المتوسط،

١ - انظر: في أصول التاريخ العثماني، ص (٧٦).

والبرتغاليين في المحيط الهندي، وبحر العرب، والبحر الأحمر؛ الذين أخذوا يطوّقون العالم الإسلامي، ويفرضون حصاراً اقتصادياً حتّى يسهل عليهم ابتلاعه^(١).

وفاة السلطان سليم، وبعض صفاته:

في التاسع من شوال سنة ست وعشرين وتسعمئة ليلة السبت توفي السلطان سليم الأول، وله من العمر أربع وخمسون سنة، وصلّوا عليه في جامع السلطان محمد، ثم حملوه، ودفنوه في محلّ قبره، وأمر ابنه السلطان سليمان ببناء جامعٍ عظيم، وعمارةٍ لطعام الفقراء صدقةً عن والده^(٢).

كان سليم الأول عالماً فاضلاً ذكياً، وكان يعرف الألسنة الثلاثة: العربية، والفارسية، والتركية، وامتاز بالحدّة والنشاط، وكان ينوي جعل اللغة العربية هي اللغة الرسمية في الدولة العثمانية، وقد كان شاعراً عظيماً نظم القصائد الجيدة باللغة الفارسية، وقد نشر ديوانه عام ١٩٠٤م، بأمر من القيصر الألماني فيلهلم الثاني وقُدّم هدية للسلطان عبد الحميد الثاني، وخلّدت ذكره عند الشعب التركي^(٣).

ويصفه من رآه من معاصريه بأنه كان عظيم اللحية شاحب الوجه ونحيف البدن ولا يضع الخلق في أذنيه كما تخيل بعض الرسامين الغربيين؛ لأنها محرمة على الرجال عند المسلمين. وعلى الرغم من بطشه وجبروته إلا أن السلطان سليم كان يجلّ العلماء والأدباء ويقدمهم في مجلسه ويحسن إليهم كذلك شجع رعاياه على العلم وطلبه، كما أنه أي السلطان كان عارفاً بالفقه والشعر والتاريخ.

١ - انظر: الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، ص (٢٦).

٢ - الدولة العثمانية، د. الصلابي، ص (٢١٦، ٢١٥).

٣ - انظر: تاريخ الدولة العثمانية، د. علي حسون، ص (٥٢).



فيلهلم الثاني

فيلهلم الثاني (بالألمانية Wilhelm II):

ولد في برلين سنة ١٨٥٩ وتوفي في هولندا سنة ١٩٤١. كان قيصرًا للرايخ الثاني الألماني من سنة ١٨٨٨ حتى سنة ١٩١٨، إلى جاذب كونه ملكاً لبروسيا. وهو ينحدر من أسرة هوهنتسولرن، التي حكمت مملكة بروسيا ابتداء من سنة ١٧٠٢. أجبر على التنازل عن العرش في سنة ١٩١٨ بعد هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الأولى ونفي إلى هولندا.

(١٠) سليمان القانوني ابن سليم الأول

(٩٢٦-٩٧٤هـ)، (١٥٢٠-١٥٦٦م)



ولد السلطان سليمان القانوني في شعبان سنة ٨٩٨هـ / ١٤٩٥م، وفي عهده بلغت الدولة أوج الكمال والقوة، وهو عاشر السلاطين العثمانيين^(١).

اهتمَّ به والده اهتماماً عظيماً، فنشأ محباً للعلم، والأدب، واشتهر منذ شبابه بالجدية،

والوقار، ارتقى عرش السلطنة في السادسة والعشرين من عمره، وكان متأنياً في جميع شؤونه، ولا يتعجل في الأمور التي يريد تنفيذها، وإذا اتخذ قراراً لا يرجع عنه^(٢).

الفتن التي واجهته في بداية حكمه:

ابتلي سليمان في السنوات الأولى في عهده بتمرديين شغلاه عن حركة الجهاد، حيث ظنَّ الولاة الطموحون أنَّ فرصة الاستقلال بأقاليمهم حان وقتها، فقام جان برد الغزالي والي الشام بتمرد على الدولة، وأعلن العصيان عليها، فأمر سليمان بقمع هذه الفتنة فقمعت، وقطع رأس المتمرّد وأرسل إلى إستانبول دلالة على انتهاء التمرد.

أمَّا التمرد الثَّاني: فقد قام به أحمد شاه الخائن في مصر، وكان هذا عام ٩٣٠هـ / ١٥٢٤م، فهو ما إن وصل إلى مصر حتَّى حاول استمالة النَّاس، وأعلن نفسه سلطاناً مستقلاً، إلا أنَّ أهل الشرع، وجنود الدولة العثمانية من الإنكشارية

١- المصدر السابق نفسه.

٢- انظر: السلاطين العثمانيون، الكتاب المصوّر، ص (٥١).

قاموا ضده وقاتلوه^(١).

وبعد هذا كله هدأت الأمور في الدولة العثمانية، وبدأ السلطان في التخطيط لسياسة جديدة للجهاد في أوروبا^(٢).

وفاة السلطان سليمان، وبعض صفاته:

اشتدَّ مرض السلطان، وتوفي في ٢٠ صفر عام ٩٧٤هـ، الموافق ١٥٦٦م، واستمر حكمه ٤٨ سنة. وكان أن أُشْتُهِرَ بالقانوني نظراً للقوانين العديدة التي وضعها؛ ففي مجال الأنظمة الداخلية أحدث بعض التغييرات في نظام العلماء والمدرسين الذي وضعه محمد الفاتح؛ فجعل أكبر الوظائف العلمية وظيفة المفتي، وقسم جيش الإنكشارية إلى ثلاث فرقٍ مختلفةٍ في المرتبات والرتب، وكان عدد الجيش عند وفاته ٣٠٠ ألف مقاتل فيه ٥٠ ألف جندي نظامي، كما أن عدد المدافع كان ٣٠٠ مدفع، وكذلك السفن البحرية تقارب العدد نفسه، وقد بدأ بعده توقف الفتوحات؛ إذ إنَّه أجاز للإنكشارية القتال تحت إمرة قائدهم بدلاً من قيادة السلطان، الأمر الذي دفع أغلب السلاطين من بعده إلى التقاعس عن الخروج للقتال^(٣).

١ - انظر: الدولة العثمانية، د. الصلابي، ص (٢١٨).

٢ - انظر: العثمانيون في التاريخ والحضارة، د. محمد حرب، ص (٩١).

٣ - انظر: تاريخ الدولة العثمانية، د. علي حسون، ص (٥٣، ٥٤).

«سياسة الدولة العثمانية الجهادية»

أولاً: محاربة الدولة الصفوية:

يعود نسب الصفويين إلى الشيخ صفي الدين الأردبيلي ٦٥٠-٧٣٥هـ

١٢٥٢-١٣٣٤م الجُدُّ الأكبر للشَّاه
إسماعيل الصَّوفي^(١) مؤسس الدَّولة
الصفويَّة^(٢).

وكان الشَّاه إسماعيل الصفوي
قد احتلَّ العراق العربي وخراسان
وديار بكر عام ٩١٤هـ/١٥٠٨م^(٣).

وبناءً على هذا سار السلطان
سليم بجيوشه من أدرنة باتجاه تبريز^(٤)
في ٢٢ محرَّم عام ٩٢٠هـ، الموافق
١٤ آذار عام ١٥١٤م، وسار الجيش
تحت قيادته، فتقهقرت أمامه الجيوش
الصفوية، واستمرَّت متظاهرةً
بالتراجع بقصد إنهك قوَّته حتَّى

اتصفت الفتوحات العثمانية بالحكمة،
ووجود الد.سبب، وم.ن.ث.م.ف.الجيوش
العثمانية في عهد السلطان سليم اتجهت
نحو المشرق الإسلامي لا بقصد التوسع
الإقليمي، بل بهدف حماية الم.سلمين
والأماكن المقدسة من الغ.زو البرتغ.الي
والإسباني.

وبالمقابل فإن توجه الجيوش العثمانية
في عهد السلطان س.ليمان ند.و.م.دن
أوروبا، كان بمنزلة رسالة تخاطب ملوك
العالم:

بأن الدولة العثمانية ستظل يافعةً، قويةً
قادرةً على حماية حدودها مهما ات.سعت
أراضيها، وكثر سكانها.

١- إسماعيل الصفوي (٨٩٢ هـ / ١٤٨٧ م - ٩٣٠ هـ / ١٥٢٤ م) مؤسس الدولة الصفوية في إيران.

٢- الدولة العثمانية، د. الصلابي، ص (١٩٠).

٣- تاريخ الدولة العثمانية، د. علي حسون، ص (٦٠).

٤- تبريز هي مدينة تقع في شمال غرب إيران.

جهات تبريز، وهناك وقع القتال في ((وادي جالديران)) في ٢ رجب سنة ٩٢٠هـ، الموافق ٢٤ آب ١٥١٤م، فانتصر العثمانيون بفضل مدافعهم الضخمة، وفرّ الشاه، ودخل السلطان سليم تبريز، واستولى على خزائن الشاه، وأرسلها للعاصمة، وكذلك أرسل إليها أربعين شخصاً من أمهر الصناع، الأمر الذي يدلُّ على عدم إغفاله تقدم الصناعة أثناء انشغاله بالحروب^(١).

ثمّ قام ببعض الفتوحات، وعاد بعدها إلى إستانبول تاركاً قوّاده لإتمام فتح الولايات الفارسيّة الشرقيّة، ففُتِحَ إقليم ديار بكر، وماردين والموصل والرّقة، وأطاعت قبائل الكرد شرط بقائهم تحت حكم رؤسائهم^(٢).

نتائج الحرب العثمانية الصفوية:

١- أمّن العثمانيون حدود دولتهم الشرقيّة.

٢- ضمّ شمالي العراق، وديار بكر إلى الدّولة العثمانيّة.

ثانياً: ضم دولة المماليك:

الأسباب التي دعت السلطان سليم إلى ضمّ دولة المماليك:

١- لم يكن الجيش المملوكي قادراً على الوقوف في وجه البرتغاليين الذين وصلوا إلى جنوب البلاد العربيّة، وهددوا الأماكن المقدّسة الإسلاميّة بما فيها بيت المقدس^(٣).

٢- تفشّي ظلم الدّولة المملوكيّة بين النّاس، ورغبة أهل الشّام، وعلماء مصر في التّخلص من الدّولة المملوكيّة، والانضمام إلى الدّولة العثمانيّة، فقد اجتمع

١- انظر: تاريخ الدّولة العثمانية، د. علي حسون، ص (٦١، ٦٠).

٢- المصدر السابق نفسه.

٣- المصدر السابق نفسه، ص (٥٨).

العلماء، والقضاة، وأهل الرأي، وتباحثوا في حالهم، ثمَّ قرروا أن يتولَّى قضاة المذاهب الأربعة والأشراف كتابة عريضة نيابةً عن الجميع، يخاطبون فيها السلطان العثماني سليم الأوَّل، ويقولون فيها:

«إنَّ أهل الشام ضاقوا بالظُّلم المملوكي، وإنَّ حكام الممالك يخالفون الشرع الشريف، وإنَّ السلطان إذا قرر الزَّحف على السلطنة المملوكية؛ فإنَّ الشعب سيرحب به، وسيخرج بجميع فئاته، ليرحبوا بقدومه، ويطلبون من سليم الأوَّل أن يرسل لهم رسولاً من عنده، يقابلهم سراً، ويعطيهم العهد بالأمان، حتَّى تطمئن قلوب النَّاس»^(١).

ولقد ذكر الدكتور محمد حرب: أنَّ هذه الوثيقة موجودةٌ في الأرشيف العثماني في متحف (طوب كايي) في إستانبول، رقم ١١٦٣٤ (٢٦).

والتقى الجمعان:

جَهَّز السلطان سليم جيشاً وسار به نحو بلاد الشَّام، والتقى الجمعان على مشارف حلب في مرج دابق^(٢) عام ١٥١٧م، وانتصر العثمانيون، وقُتِلَ الغوري^(٣) سلطانُ الممالك، وأكرم العثمانيون الغوري بعد مماته، وأقاموا عليه صلاة الجنازة ودفنوه في مشارف حلب، ودخل السلطان سليم مدينة حلب، ثمَّ دمشق، ودعي له في الجوامع، وسكَّت النقود باسمه سلطاناً، وخليفة^(٤).

-
- ١- انظر: العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص (١٧٠).
 - ٢- دابق: قرية بين عزاز وحلب أو إلى الشمال الغربي من حلب، وكان بنو مروان الأمويون يتخذونه قاعدةً لهم إذا غزوا بالصيف، وفيه قبر سليمان بن عبد الملك، إذ توفي هناك أثناء حصار جنوده للقسطنطينية.
 - ٣- الأشراف أبو النصر قانصوه الغوري آخر سلاطين الممالك البرجية. ولد سنة (٨٥٠ هـ-١٤٤٦م).
 - ٤- المصدر السابق نفسه.

وما إن وصل نبأ هزيمة المماليك وقَتْلُ سُلْطَانِهِمْ إلى مصر، حتَّى انتخبوا طومان باي^(١) سُلْطَانًا عَلَيْهِمْ، وهو الَّذِي عهد إليه الغوري بحكم مصر أثناء غيابه، فعرض السلطان سليم عليه الصلح شريطة اعترافه بالسيادة العثمانية، إلا أنَّه رفض ذلك فالتقت مقدمتا الجيشين قرب غزّة، فدخل العثمانيون غزّة، واتَّجهوا نحو القاهرة حتَّى وصلوا مشارفها، وعسكروا في مكان قريب منها، ونشب القتال بينهما في كانون الثاني ١٥١٧م، فقامت المدافع العثمانية بضرب جيوش المماليك فهزموا، وبعد ثمانية أيام دخل العثمانيون القاهرة، ومكث السلطان سليم نحو الشهر بالقاهرة، وزار الجوامع والآثار، ووزَّع العطايا وحضر الاحتفالات، ثمَّ تنازل الخليفة العبَّاسي المتوكل على الله له وسلَّمه الآثار النبوية الشريفة وهي؛ اللواء والبردة، كما حضر أبو نغمي ابن شريف مكة إلى مصر فقدَّم الطاعة للسلطان سليم، وسلَّمه مفاتيح الحرمين الشريفين^(٢).

ثمَّ أرسل السلطان سليم الأوَّل حملة إلى بلاد اليمن قضت على المماليك هناك، وبدأت الاستعدادات لقتال البرتغاليين، وتحرير المواقع التي سيطروا عليها، وفي أوائل شهر أيلول من عام ٩٢٣هـ، عاد السلطان من القاهرة بعد أن عيَّن خير بك والياً على مصر، وترك فيها حاميةً عثمانيةً، ثمَّ وصل دمشق في ٢٠ رمضان، ومكث فيها حتَّى ٢٢ صفر، وحضر الاحتفال بإقامة الصلاة لأول مرَّة في الجامع الذي أقامه هناك على ضريح الشيخ محيي الدين بن عربي، ثمَّ تابع سيره إلى العاصمة التي وصل إليها في ١٧ رجب سنة ٩٢٤هـ / ١٥١٨م، واتَّجه منها إلى أدرنة بقصد الرَّاحة، وهو يفكر في استئناف قتال أعداء الله في أوروبا، ولكنَّ المنية عاجلته في طريق عودته من إستانبول إلى أدرنة ١٥٢٠م^(٣).

١- الأشرف طومان باي آخر سلاطين المماليك الشراكسة في مصر.

٢- تاريخ الدولة العثمانية، د. علي حسون، ص (٦٢).

٣- المصدر السابق نفسه، ص (٦٣)

نتائج الحرب العثمانية البرتغالية:

- ١- احتفظ العثمانيون بالأماكن المقدسة، وطرق الحج.
- ٢- حماية الحدود البرية من هجمات البرتغاليين.
- ٣- استمرار عمليات تبادل البضائع الهندية مع تجار أوربة في أسواق حلب، والقاهرة، وإستانبول، ففي سنة ١٥٥٤م، اشترى البندقيون وحدهم ستة آلاف قنطار من التوابل، وفي الوقت نفسه كانت تصل إلى ميناء جدة عشرون سفينة محملة بالبضائع الهندية^(١).

إن النجاح الذي حققته الدولة العثمانية في درء الخطر البرتغالي على العالم الإسلامي يستحق كل تقدير وثناء، فدولة المماليك المتهاكمة كانت تؤشك على الانهيار، ولم تكن على مستوى من القوة يكفل لها الوقت. وفهم الغزو البرتغالي، فتحملت الدولة العثمانية أعباء الدفاع عن حق المسلمين، وممتلكاتهم، ونجحت أيما نجاح في الحد من مطامع الغزاة، ووصدوهم إلى الأماكن المقدسة، كما كانوا يرغبون.

ثالثاً: مسألة انتقال الخلافة:

إنَّ السلطان سليم وأجداده كانوا قد كسبوا مكانة عظيمة تلائم استعمال لقب الخلافة في الوقت الذي كان فيه مركز الخليفة العباسي في القاهرة لا يعتدُّ به، كما أنَّ فتوحات السلطان سليم أكسبته قوةً ونفوذاً، جعله مقصداً للمسلمين المستضعفين. والخلاصة أنَّ السلطان سليم لم يكن مهتماً بلقب الخلافة، وكذلك سلاطين آل عثمان من بعده، وأنَّ الاهتمام بهذا اللقب قد عاد بعد ضعف الدولة العثمانية^(٢).

١- انظر: تاريخ العرب الحديث، مجموعة من العلماء، ص (٤٦، ٤٥).

٢- انظر: الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، ص (٦٢، ٦١).

رابعاً: أخبار الشمال الإفريقي:

قام الدكتور عبد الجليل التّيمي بترجمة وثيقة تركيّة محفوظة في دار المحفوظات التّاريخيّة بإستانبول تحت رقم ٤٦٥٦، مؤرّخة في أوائل شهر ذي القعدة عام ٩٢٥هـ، الموافق ١٥١٩م، وهذه الوثيقة عبارة عن رسالة موجّهة من سكان بلاد الجزائر على اختلاف مستوياتهم، والغرض منها ربط الجزائر بالدّولة العثمانيّة وجاء فيها أنّ خير الدين بربروس^(١) كان شديد الرغبة في أن يذهب بنفسه إلى إستانبول ليعرض على السلطان سليم الأوّل شخصيّاً أبعاد قضيّة الجزائر، ولكنّ زعماء مدينة الجزائر توسّلوا إليه أن يبقى كي يستطيع مواجهة الأعداء إذا تحرّكوا^(٢).

فسارع السلطان سليم إلى منح رتبة بكربك إلى خير الدين بربروس، وأصبح القائد الأعلى للقوّات المسلّحة في إقليمه ممثلاً للسلطان، وبذلك دخلت الجزائر تحت حكم الدّولة العثمانيّة، وأصبح أيّ اعتداءٍ خارجيّ على أراضيها يعدّ اعتداءً على الدّولة العثمانيّة، وأرسل السلطان إلى الجزائر قوّة من سلاح المدفعية، وألفين من جنود الإنكشارية.

١- خير الدين بربروس (١٤٦٧-١٥٤٦) كان قائد الأساطيل العثمانية ومجاهداً بحرياً. ولد في جزيرة لسبوس في اليونان المعاصرة وتوفي في الآستانة (اسطنبول). اسمه الأصلي هو خضر بن يعقوب ولقبه خير الدين باشا. بينما عرف لدى الأوربيين ببارباروسا (ذو اللحية الحمراء). كانت وفاته في عام ٩٥٣هـ الموافق ١٥٤٦م، وكان ذكياً ذا مقدرة عسكرية وبلغت قوة الأسطول العثماني في زمانه مرحلة الأوج، فكان المسيطر على البحر الأبيض المتوسط لا ينازعه أسطول آخر.

٢- الدّولة العثمانيّة، د. الصلابي، ص (٢٣٠، ٢٣١).

نتائج دخول الجزائر في الحماية العثمانية:



صورة للقائد خير الدين بربوس

١- كانت الجزائر أول إقليم من أقاليم شمال أفريقية يدخل تحت السيادة العثمانية وذلك سنة ١٥١٩م، ودعي للسلطان العثماني على المنابر في المساجد، وضربت العملة باسمه.

٢- كانت الدولة حريصة على امتداد نفوذها بعد ذلك إلى كل أقاليم الشمال الإفريقي لتوحيده تحت راية الإسلام، والعمل على تخليص مسلمي الأندلس من الأعمال الوحشية التي كان يقوم بها الإسبان النصارى ضدهم^(١).

ولقد تضررت إسبانيا من نجاح

خير الدين في الشمال الإفريقي، وكان شارل الخامس^(٢) إمبراطور الدولة الرومانية، التي كانت تضم وقتذاك إسبانيا، بلجيكا، هولندا، ألمانيا، النمسا، إيطاليا، لذا يمكن القول إن الصراع بين شارل الخامس وبين خير الدين قائد الأسطول العثماني كان بمنزلة فتح جبهة حربية جديدة ضد الدولة العثمانية^(٣).

١- الدولة العثمانية، د. الصلابي، ص (٢٣٢).

٢- شارلكان أو شارل الخامس (١٥٠٠-١٥٥٨) ملك إسبانيا وإمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة.

٣- المصدر السابق نفسه، ص (٢٣٤).

وقد استطاع خير الدين أن يضمّ تونس إلى السيادة العثمانية، ولكن ذلك الأمر لم يلقَ استحسان شارل الخامس الذي أعدَّ عمليةً بحريّةً شاقّةً تكوَّنت من ثلاثين ألف مقاتل من الأقاليم المذكورة آنفاً، وركب الإمبراطور البحر من ميناء



كانت رغبة خير الدين والدولة العثمانية تتجلى في توحيد بلاد المغرب تحت حكم الدولة العثمانية ليتمكنوا من استرداد الأندلس من جديد.

برشلونة، وعندما رست سفنه أمام تونس قامت المعارك العنيفة بين الطرفين^(١)، الأمر الذي أعاد السيطرة الإسبانية على تونس في عام ٩٤٢هـ - ١٥٣٥م^(٢)؛ إذ لم تكن قوّة خير الدين بكافية للردّ على ذلك الهجوم، فكان الجيش الإسلامي تعداداه

سبعة آلاف جندي عثماني، وصلوا مع خير الدين، ونحو خمسة آلاف تونسي^(٣).

ولم تقف نار الحرب عند هذا الحدّ بين الطرفين فقد قام خير الدين بالردّ على ضربة تونس بضربةٍ مثلها، فقام بالهجوم على جزر البليار الإسبانية^(٤)، وعلى سواحلها الجنوبية، فاجتاز مضيق جبل طارق، وانقضّ على سفنٍ إسبانيةٍ وبرتغاليةٍ كانت عائدةً من الأراضي الأمريكية، ومحمّلةً بالذهب، والفضّة، فاهتزت لتلك الأحداث جميع الأوساط المسيحية، وأقلقت شارل الخامس الذي اعتقد أنّ خير الدين لن يقوى شأنه بعد حادثة تونس السابقة في ٩٤٢هـ / ١٥٣٥م^(٥).

١- انظر: حقائق الأخبار عن دول البحار، (١/٤٢٠).

٢- انظر: جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس، ص (٣٢١).

٣- انظر: حرب الثلاثئة سنة بين الجزائر وإسبانيا، ص (٣٢١).

٤- جزر البليار: تقع في جنوب إسبانيا الشرقي في البحر الأبيض المتوسط.

٥- انظر: الدولة العثمانية، د. الصلابي، ص (٢٤١).

خلاصة أخبار الشمال الإفريقي:

أصبحت طرابلس الغرب، وتونس، والجزائر أقاليم خاضعة للسيادة العثمانية وذلك بعد معارك عدّة انتهت ٩٩٧هـ/١٥٨٨م، وكانت طبيعة السلطة في داخل هذه الأقاليم، قد ضمنت تحقيق الأهداف العثمانية في الحكم من حيث الخطبة باسم السلطان وتحصيل الأموال سنوياً، والإسهام في حروب الدولة، والقبول بالباشا القادم من الآستانة (إستانبول) ممثلاً أعلى للسلطان في حكم الولاية، وهي جميعها من رموز السيادة العثمانية الرسمية^(١).

خامساً: الجبهة الأوربية:

عادت الحروب العثمانية الأوربية إلى أوجها السابق، في عهد السلطان سليمان القانوني ابن سليم الأول؛ حيث بدأ السلطان بالاستعداد لفتح جزيرة رودوس التي لها أهمية خاصة نظراً لكونها حلقة اتصال بين العاصمة ومصر، ولكسر شوكة فرسان القديس يوحنا؛ الذين كانوا يقطعون طريق الحجّاج المسلمين الأتراك إلى الحجاز، وقد عجز السلاطين السابقون عن فتح الجزيرة نظراً للتكتاف الصليبي المتين^(٢).

فأرسل السلطان إلى رئيس رهبان القديس يوحنا في الجزيرة عارضاً عليه إخلاءها من الرهبان، في الوقت الذي يختاره ومتعهداً إيّاه بعدم التعرض للأنفس والأموال، ولكنّ رئيس الرهبان رفض اقتراح السلطان سليمان الذي أمر بغزوها بجرأ، ووصل إليها وحاصرها حتى نفذت الذخيرة والمؤن عند أهلها، وعندئذٍ طلب رئيسها السماح لهم بالانسحاب منها فقبل السلطان بذلك^(٣).

١- انظر: جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس، ص (٤٧٧).

٢- التاريخ الدولة العثمانية، د. علي حسون، ص (٧٠).

٣- المصدر السابق نفسه.

وفي عام ٩٤٤هـ، جهز السلطان سليمان جيشاً في بلاد ألبانيا قوامه ١٠٠ ألف مقاتل لمهاجمة إيطاليا، ونزل خير الدين بربروس جنوبي إيطاليا في ميناء أترانت بغية فتحها من الجنوب، واتفق السلطان سليمان مع فرنسا على أن يهاجم هو من الشرق وملك فرنسا من الغرب، ولكن فرنسا نقضت موافقتها وأحجمت عن التقدم، ففشل المشروع وبذلك لم تدخل إيطاليا ضمن أراضي الدولة العثمانية^(١).

أمّا البندقية فقد عُقدَ صلحٌ بينها وبين الدولة بعد حروبٍ مستمرة سنة ٩٤٤هـ، قضى بتنازل البندقية عن بعض البلاد التي تحكمها لصالح السيادة العثمانية^(٢).

وأما بلاد المجر فنشب القتال معها من جديد حتى حلَّ عام ٩٤٧هـ، حيث أسرع السلطان سليمان بجيوشه ودخلها، وحول أكبر كنائسها إلى مسجد، وبذلك النصر أصبحت بلاد المجر ولايةً عثمانية^(٣).

أمّا في النمسا فقد استمرَّ القتال مع العثمانيين الذين كان النصر إلى جانبهم، إلى أن جرت مفاوضات، وعقدت هدنة مدتها خمس سنوات، بشرط أن يدفع (فرديناند) ملك النمسا جزية سنوية قدرها ٣٠ ألف دوكا للعثمانيين، مقابل البلاد التي بقيت تحت حكمه من بلاد المجر^(٤).

سادساً: معاهدة الامتيازات العثمانية الفرنسية:

حدثت هذه المعاهدة في عصر السلطان سليمان القانوني، وكان الهدف منها فتح أبواب التجارة مع المشرق دون الخضوع للاحتكار التجاري الذي

١- المصدر السابق نفسه، ص (٧٢).

٢- المصدر السابق نفسه، ص (٧٢).

٣- المصدر السابق نفسه، ص (٧٣).

٤- المصدر السابق نفسه.

فرضته البرتغال بعد اكتشافها طريق رأس الرجاء الصالح، وحصلت فرنسا بموجبها على الحق الكامل في حماية رعايا الدول الغربية كلها، مما أكسبها مكانة مرموقة بين دول أوروبا، وقد وافق السلطان سليمان القانوني على هذه المعاهدة ظناً منه أنه ما دامت دولته قوية، فإنه يستطيع إلغاء المعاهدة متى شاء^(١).

وفي الحقيقة كانت تلك الامتيازات بمنزلة خنجر مسموم في جسد الدولة، فقد كانت تزداد مع كل سلطان جديد، وأصبحت دول أوروبا كلها تحلم بالحصول على امتيازات في الدولة العثمانية مثل فرنسا.

أمّا حال الامتيازات الفرنسية فلم يكن يبشر بالخير، ففي عهد السلطان محمد الرابع (١٦٤٨ - ١٦٨٧ م) سُمح لفرنسا حق حماية بيت المقدس، وفي تجديد المعاهدة عام ١٧٤٠م أضافت الدولة العثمانية امتيازات تجارية لفرنسا، ولكن هذه الامتيازات تعرّضت لخطر حقيقي عندما احتل نابليون بونابرت^(٢) مصر، فأوقفت الدولة العمل بها، غير أن نابليون كان قد تراجع في الوقت المناسب حفاظاً على علاقته مع الدولة^(٣).

ولقد بين المؤرخ اليوناني كيتسيكس:

«إن الامتيازات حطمت اقتصاد الإمبراطورية بتحطيمها النظام الضريبي العثماني القائم على حماية التجارة المحلية ضد المنافسة الأجنبية»^(٤).

١- موقف أوروبا من الدولة العثمانية، ص (٤٧).

٢- نابليون بونابرت (بالفرنسية: Bonaparte Napoléon) (١٥ أغسطس ١٧٦٩/٥ مايو ١٨٢١م) قائد عسكري وإمبراطور فرنسي، ولد في جزيرة كورسيكا التي كانت فرنسا قد استولت عليها قبل ولادته بخمسة عشر شهراً.

٣- الدولة العثمانية قراءة جديدة لعوامل الانحطاط، جواد العزاوي، ص (٢٦).

٤- المصدر السابق نفسه، ص (٢٧).

سابعاً: ولا بد من خاتمةٍ تليق بما حققه العشرة الأوائل من سلاطين آل عثمان:

بلغت الفتوحات العثمانية أوجها في عهد السلطان سليمان القانوني، ودخل الناس في دين الله أفواجاً لا عن طريق القوة والإكراه، ولكن عن عقيدة واقتناع، وقد نقل الدكتور علي حسون في كتابه تاريخ الدولة العثمانية قول ((السير توماس آرنولد)) في كتابه الدعوة إلى الإسلام، إذ يقول فيه: «إنَّ المعاملة التي أظهرها الأباطرة العثمانيون للرعايا المسلمين بعد أن دخلوا بلاد اليونان لتدل على تسامحٍ لم يكن مثله حتَّى ذلك الوقت معروفاً في أوربا، وإنَّ أصحاب (كالفن) في البحر وترانسلفانيا وأصحاب مذهب التَّوحيد من المسيحيين الذين كانوا في ترانسلفانيا لطلما آثروا الخضوع للأتراك على الوقوع في أيدي أسرة هابسبورغ المتعصبة، ونظر البروتستانت إلى تركياً بعين الرِّغبة... وكذلك نرى القوازيق الذين ينتمون إلى فرقة المؤمنين القدماء الذين اضطهدتهم كنيسة الدولة الروسية قد وجدوا من التَّسامح في ممالك السلطان ما أنكره عليهم إخوانهم في المسيحية»^(١).

لقد استمر عهد القوة والازدهار متجلياً في الدولة العثمانية حتَّى وفاة السلطان سليمان القانوني وهذه المدة هي: (٦٩٩ - ٩٧٤هـ / ١٣٠٠ - ١٥٦٦م)، حكم فيها عشرة سلاطين عثمانيين كانت أعمالهم أساس قوةٍ وهيبةٍ لمن جاء بعدهم من السلاطين.

نعم لقد استطاعت الدولة العثمانية في أقل من قرنين من الزمن أن تمد جناحيها شرقاً وغرباً وجنوباً وتدق أبواب فيينا باسطةً لواء الإسلام على معظم ما يعرف اليوم بدول أوربا الشرقية واليونان وجزر البحر الأبيض المتوسط وأجزاء من إيطاليا

١- تاريخ الدولة العثمانية لدكتور علي حسون ، ص (٧٤)

والنمسا، كما خضعت لسيطرتها الأرض الممتدة من شمال القفقاس شمالاً حتى الصحراء الإفريقية جنوباً وحدود المغرب الأقصى غرباً، كما أنها مدت جناحها الشرقي حتى بلاد فارس وجبال كردستان، شاغلة مساحة من الأراضي قدرت بأكثر من ١٠ ملايين ميل مربع فكانت أقوى دولة في العالم آنذاك^(١).



لقطة داخلية لقبة آيا صوفيا تظهر بها الزخارف الإسلامية التي صنعت أثناء الوجود العثماني آنذاك.

١- تاريخ الدولة العثمانية للدكتور علي حسون ص (١١-١٢).

إنسان بدون هدف كسفينة بدون دفة كلاهما
سوف ينتهي به الأمر على الصخور
(توماس كارليل)



المبحث الثاني

دور الركود

(١١) سليم الثاني ابن سليمان القانوني

(٩٧٤ - ٩٨٢ هـ)، (١٥٦٦ - ١٥٧٤ م)

ولد في رجب عام ٩٣٠ هـ، وهو ابن سليمان القانوني من زوجته روكسلان الروسية، وفي عهده بدأ انخراط الدولة، وقد تولّى السلطة عام ٩٧٤ هـ، ولم يكن مؤهلاً لحفظ فتوحات والده، ولولا وجود الوزير الفدّ، والسياسيّ القدير محمد باشا الصوّقلّي^(١) لانهارت الدولة؛ إذ حافظ على هيبتها، وزرع الرهبة في قلوب أعدائها^(٢).

فتوحاته والتحالفات الصليبية ضده:

في ربيع الثاني عام ٩٧٩ هـ، الموافق ١٥٧١ م استسلمت جزيرة قبرص^(٣).

١- ولد عام ٩١١ هـ في بلدة سو كول في البوسنة التي تقع في يوغسلافيا اليوم، تولى الصدارة في الدولة العثمانية في عام ٩٧٣ هـ في عهد السلطان سليمان وابنه سليم، وربما كان الحاكم الحقيقي في الدولة حتى وفاة السلطان سليم عام ٩٨٢ هـ، جرى اغتياله وتوفي عام ٩٩٣ هـ في استانبول. وصقللي معناها ذو اللحية.

٢- تاريخ الدولة العثمانية، د. علي حسون، ص (١٢٣، ١٢٤).

٣- قبرص: جزيرة صغيرة مهمة لمركزها الجغرافي بالقرب من سواحل الشام ومصر واحتلالها ضروري لمن يريد بقاء هاتين الولايتين في حوزته، وبالرغم من ضرورتها للدولة العلية سلمتها لإنكلترا بمقتضى معاهدة ٤ يونيه سنة ١٨٧٨ حينما كان الروس محتلين ضواحي الأستانة.

ونقلت الدولة العثمانية بعد فتحها لقبرص عدداً كبيراً من سكان الأناضول إليها، ورحَّبَ القبارصة الأرثوذكس بالحكم العثماني الذي أنقذهم من الاضطهاد الكاثوليكي؛ الذي مارسه البندقية عليهم لعدة قرون^(١).

معركة ليبانتي^(٢):

ارتعدت الأمم المسيحية خوفاً من الخطر الإسلامي العظيم الذي هدّد القارة الأوروبية، من جرّاء تدفق الجيوش العثمانية برّاً، وبحراً، فأخذ البابا بيوس الخامس (١٥٦٦-١٥٧٢م) يسعى من جديد لجمع شمل البلاد الأوروبية المختلفة، وتوحيد قواها برّاً، وبحراً تحت راية البابوية^(٣).

وجاء في أحد بنود المعاهدة النصرانية: «إنَّ البابا بيوس الخامس، وفليب ملك إسبانيا، وجمهورية البندقية يعلنون الحرب الهجومية، والدفاعية على الأتراك لأجل أن يستردّوا جميع المواقع التي اغتصبوها من المسيحيين، ومن جملتها تونس، والجزائر، وطرابلس الغرب»^(٤).

بلغت قوّة الأساطيل المتحالفة قرابة ٢٢٥ سفينة حربية، و٧٠ مركب نقل. أمّا قوّة الأسطول العثماني فكانت ٢٤٥ سفينة حربية، و٧٨ مركب نقل. والتقى الطرفان في خليج ليبانتي^(٥).

لتبدأ المعركة في ١٧ جمادى الأولى سنة ٩٧٩هـ، حيث أحاط الأسطول الإسلامي بالأسطول المسيحي، وأوغل العثمانيون بين سفن العدو، ودارت

١- انظر: في أصول التاريخ العثماني، ص (١٤٦، ١٤٧).

٢- تقع في الطرف الشمالي للبحر الغربي لخليج كورنث في اليونان اليوم.

٣- حرب الثلاثمئة سنة بين الجزائر وإسبانيا، ص (٣٩٦).

٤- تاريخ الدولة العثمانية، د. علي حسون، ص (١٢٦).

٥- المصدر السابق نفسه.

معركة قاسية أظهر فيها الفريقان بطولة كبيرة، وشجاعة نادرة^(١)، وشاءت إرادة الله أن يهزم المسلمون في هذه المعركة، ففقدوا ثلاثين ألف مقاتل، وقيل عشرين ألفاً، وخسروا ٢٠٠ سفينة حربية منها ٩٣ غرقت، والباقي غنمه العدو، وتقاسمته الأساطيل النصرانية المتحدة^(٢).

واستطاع قلع علي قائد الجناح الأيسر للأسطول إنقاذ نفسه، والمحافظة على بعض السفن التي غنمها، ورجع بها إلى إستانبول التي استقبلته استقبال الفاتحين بالرغم من الشعور بمرارة الهزيمة^(٣).

احتفلت القارة الأوروبية بنصر ليانتو، فلأول مرة منذ أوائل القرن الخامس عشر تحلّ الهزيمة بالعثمانيين^(٤)، وظلّت دول أوروبا ومؤرخوها ينوّهون بهذا النصر البحري؛ حتّى إنّ القواميس المدرسيّة الحديثة لا تذكر ثغر ليانتو، إلا وتذكر معه اسم (دون جون) قائد الحملة الصليبية في تلك المعركة، على اعتبار أنّه أنقذ دول أوروبا من خطر كان يحيق بها^(٥).

إنّ أهمية ليانتي كانت عظيمة، فأسطورة عدم قهر العثمانيين قد اختفت، ولم تعد للوجود ثانية على أقل تقدير في البحر، وأزبح ذلك الخوف عن قلوب حكام إيطاليا، وإسبانيا، وتزعزع تأثير الدولة العثمانية على سياسة القوى الغربيّة في أوربة^(٦).

١- انظر: جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس، ص (٤٥٤).

٢- انظر: تاريخ الدولة العثمانية، د. علي حسون، ص (١٢٦).

٣- انظر: حرب الثلاثئة سنة، ص (٣٩٨، ٣٩٩).

٤- انظر: في أصول التاريخ العثماني، ص (١٤٧).

٥- انظر: فلسفة التاريخ العثماني، ص (١٤٣).

٦- انظر: جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس، ص (٤٥٥).

إعادة بناء الأسطول العثماني:

أقبل القبودان باشا قلج علي بهمة، ونشاط متزايد على تجديد الأسطول العثماني، وتعويض ما فقد منه، وما حلَّ صيف ٩٨٠هـ/١٥٧٢م حتَّى هَيَّا مئتين وخمسين سفينةً جديدةً، فارتعدت البندقية من هذا الاستعداد البحري، وطلبت الصلح من الدولة العثمانية بشروطٍ مخزية؛ إذ تنازلت عن جزيرة قبرص، كما دفعت غرامةً حربيةً قدرها ثلاثمئة ألف دوكة^(١).

مناوشات حربية على تونس:

خرج دون جون بأسطوله من جزيرة صقلية في رجب ٩٨١هـ/١٥٧٣م، على رأس أسطول مكوّن من ١٣٨ سفينة تحمل خمسة وعشرين ألف مقاتل، وباغت تونس، واحتلها، فهرب أهلها منها خوفاً على أرواحهم من بطش الجيوش النصرانية^(٢).

فأصدر السلطان سليم الثاني أوامره إلى وزيره سنان باشا^(٣)، وقبودانه قلج علي بالاستعداد للتوجه إلى تونس لفتحها نهائياً، ووقع القتال بين الطرفين، لتحسم المعركة بنصر العثمانيين^(٤).

١ - انظر: حرب الثلاثمئة سنة، ص (٣٩٩).

٢ - المصدر السابق نفسه، ص (٤٠٠).

٣ - وهو رجلٌ طلياني وقع أسيراً في أيدي المسلمين، فأسلم وحسن إيمانه، وساعدته الأقدار فصار من أعظم الرجال في الدولة العثمانية، وقد حاول البابا، وبدعم من ملك إسبانيا، إعادة الرجل إلى النصرانية، ووعده بحكم أملاك العثمانيين إن استطاع جعل الدولة العثمانية دولة كاثوليكية، ولكنه رفض أفكارهم، التي زادت غيرة على الإسلام، وحماية أراضيه، وشعبه.

٤ - انظر: الدولة العثمانية، د. الصلابي، ص (٣١٤...٣١٧).

يذكر أثناء هذه الحملة أن: الوزير سنان باشا، باشر الحرب بنفسه كواحد من الجند، حتّى إنّه أمر بعمل متراسٍ يشرف منه على القتال، كما أن ينقل الحجارة، والثّراب على ظهره مثل الجنود، فعرفه أحد أمراء الجنود، فقال له: ما هذا أيها الوزير ؟ نحن إلى رأيك أحوج ممّا إلى جسمك، فقال له سنان باشا: لا تحرمني من الثّواب^(*).

وفاة السلطان سليم الثّاني، وبعض صفاته:

لا بدّ من توضيح بعض الحقائق فيما يخص وفاة السلطان سليم الثّاني، فقد ذكر مؤرّخو الغرب أنّ سبب وفاة السلطان سليم الإفراط الشديد في تناوله الخمر، إلا أنّ المؤرّخين المسلمين يذكرون أنّ سبب وفاته انزلاق قدمه في الحمام فسقط سقطّة عظيمة مرض منها أيّاماً ثمّ توفي^(١).

١- تاريخ الدولة العثمانية، سرهنك، ص (١٢٠).

*- الدولة العثمانية، د. الصلابي، ص (٣١٦).

(١٢) مراد الثالث ابن سليم الثاني (٩٨٢-١٠٠٣ هـ)، (١٥٧٤-١٥٩٤ م)

ولد في ٥ جمادى الأولى ٩٥٣ هـ، الموافق ٤ تموز عام ١٥٤٦ م^(١)، وكان من أول أعماله أن أصدر أمراً بمنع الخمر بعدما شاعت بين الناس، وأفرط فيها الجند ولا سيما الإنكشارية، فثار الإنكشاريون وأجبروه على رفع أمره بالمنع، وهذا يدل على ظهور علامات ضعف الدولة، حيث إنَّ السلطان لا يستطيع منع الخمر وإقامة أحكام الشريعة الإسلامية، وكذلك يدل على انحراف الإنكشارية عن خطها الإسلاميِّ الأصيل الذي تربت عليه، من حبها للجهاد، وشوقها للشهادة^(٢).

فتوحاته والتّحالفات الصليبية ضده:

عمل السلطان مراد الثالث على تنفيذ السياسة التي انتهجها والده من قبل، ففي عهده قام بعدة حروب في أماكن مختلفة. وأصبحت بولونيا^(٣) (بولندا) فعلاً تحت حماية العثمانيين عام (٩٨٣ هـ / ١٥٧٥ م) واعترفت النمسا بذلك في معاهدة الصلح التي أبرمت مع الدولة في العام التالي، ومدتها ثماني سنوات^(٤).

١- المصدر السابق نفسه.

٢- تاريخ الدولة العثمانية العلية، ص (٢٥٩).

٣- بولندا (تعرف أيضاً باسم بولونيا) (بالبولندية: Polska): هي جمهورية تقع في شرق أوروبا.

٤- انظر: الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، ص (١٠٠).

وفي عام (٩٩٣هـ / ١٥٨٥م) تمكنت جيوش السلطان مراد من السيطرة على أذربيجان^(١)، وجورجيا، ولوزستان^(٢)، وذلك بعد أن دخلت تبريز مدينة الدولة الصفوية، فلما تولى الشاه عباس الكبير^(٣) حكم فارس سعى إلى إقامة صلح مع العثمانيين، تنازل بمقتضاه عن الأقاليم التي فتح العثمانيون مؤخراً، كما تعهد بعدم سب الخلفاء الراشدين - أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم - في أرض مملكته، وبعث بابن عم له يدعى: (حيدر ميرزا) رهينةً إلى إستانبول لضمان تنفيذ ما اتفقا عليه^(٤).

اليهود، والسلطان مراد الثالث:

ظنَّ اليهود أنَّ الفرصة سانحةٌ لهم لتحقيق حلم راودهم طويلاً، فنزحوا في هجرات متقطعة، ومقاربة إلى ((سيناء)) لاستيطانها، وكانت خطتهم تقوم في المراحل الأولى على تركيز إقامتهم في مدينة الطور؛ وذلك لكي يسهل عليهم إيجاد اتصالاتٍ خارجية، فلا يصبحون في عزلةٍ عن العالم، ومن ثمَّ فإنَّ السفن تستطيع أن ترسو في ميناء الطور، وتحمل أفواجاً من اليهود الجدد.

وقد تزعم حركة التهجير رجلٌ يهودي اسمه ((إبراهيم))، ولما أقام اليهود بالطور؛ تعرَّضوا بالأذى لرهبان ((دير سانت كاترين)) ممَّا دفعهم لإرسال شكاوى مكتوبة للسلطان.

١- أذربيجان هي جمهورية تقع في الجزء الشرقي لمنطقة ما وراء جبال القوقاز. تعرف أذربيجان باسم آخر ألا وهو «أرض النار» وعرفت بهذا الاسم لأن حقول الغاز فيها تنفث النار من الأرض عند خروجها؛ إذ تمتلك البلاد احتياطياً كبيراً من البترول والغاز.

٢- إقليم في إيران.

٣- الشاه عباس الأول (١٥٧١-١٦٢٩م) كان الحاكم الأكثر سموً من سلالة الصفويين. كان يعرف أيضاً باسم عباس الأكبر أصبح شاه إيران في بداية شهر أكتوبر عام ١٥٨٨، بعدما قُرد على أبيه محمد الصفوي وسجنه.

٤- المصدر السابق نفسه، ص (١٠١).

ولما كانت الدولة الإسلامية مسؤولةً بحكم الشرع عن حماية أهل الذمة، سارع على الفور المسؤولون العثمانيون إلى إصدار ثلاثة فرمانات ديوانية تقضي بإخراج إبراهيم اليهودي وأهله، وسائر اليهود من سيناء ومنعهم منعاً باتاً من العودة إليها، والإقامة بها^(١).

وفاة السلطان، وبعض صفاته:

اهتمَّ السلطان مراد بفنون العلم، والأدب، وكان يتقن اللغات الثلاث: التركيّة، والعربيّة، والفارسيّة^(٢)، وفي عهده بلغت مساحة الدولة العثمانية الأوج وذلك بمساحةٍ بلغت: ١٩,٩٠٢,٠٠٠ كم^٢^(٣).

كانت وفاته في ١٦ كانون الثاني ١٥٩٥م عن عمرٍ يناهز ٤٩ عاماً، ودفن في فناء آيا صوفيا^(٤).



دير سانت كاترين

- ١- الدولة العثمانية، د. جمال عبد الهادي، ص (٦٨).
- ٢- الدولة العثمانية، د. الصلابي، ص (٣٢٣).
- ٣- تاريخ الدولة، د. علي حسون، ص (١٣٠).
- ٤- السلاطين العثمانيون، ص (٥٥).

(١٣) محمد الثالث ابن مراد الثالث

(١٠٠٤-١٠١٢ هـ)، (١٥٩٥-١٦٠٣ م)

الحال في عهده:

بالرغم من حالة الضعف والتدهور التي كانت قد بدأت تعتري الدولة العثمانية إلا أن راية الجهاد ضد الصليبيين ظلت مرفوعة، ومما يذكر لهذا السلطان أنه لما تحقق له أن ضعف الدولة في حروبها بسبب عدم خروج السلاطين، وقيادة الجيوش بأنفسهم، خرج بنفسه، وتقلد المركز الذي تركه سليم الثاني، ومراد الثالث، ألا وهو قيادة عموم الجيوش، فسار إلى بلغراد، ومنها إلى ميادين الوغى، والجهاد، وبمجرد خروجه دبّت في الجيوش الغيرة الدينية، والحمية العسكرية، ففتح قلعة أرلو الحصينة، التي عجز السلطان سليمان عن فتحها في سنة ١٥٥٦ م، ودمر جيوش المجر، والنمسا في سهل (كرزت) بالقرب من تلك القلعة، وذلك سنة ١٥٩٦ م^(١).

ويقول إبراهيم أفندي في تاريخه، وكان حاضراً في تلك الواقعة: إنه لو أمضت العساكر العثمانية شتاء ذلك العام بالحدود ثم تقدّمت في الربيع لكان أمكن افتتاح مدينة فيينا^(٢).

وفاة السلطان، وبعض صفاته:

توفي السلطان محمد الثالث في رجب سنة اثني عشرة وألف، ومدة حكمه تسع سنين، وله من العمر ثمان وثلاثون سنة^(٣).

١ - انظر: تاريخ الدولة العثمانية العلية، ص (٢٦٨).

٢ - انظر: تاريخ الدولة العثمانية، سرهنك، ص (١٣٠).

٣ - المصدر السابق نفسه، ص (٦٤).

(١٤) أحمد الأول ابن محمد الثالث (١٠١٢ - ١٠٢٦ هـ)، (١٦٠٣ - ١٦١٧ م)

تولّى الحكم بعد وفاة والده وعمره ١٤ سنة، ولم يجلس أحد قبله من سلاطين آل عثمان في هذه السنّ على عرش الحكم، وكانت أحوال الدولة مرتبكة جداً لانشغالها بحروب النمسا في أوروپة، وحرب إيران، والثورات الداخليّة في آسيا^(١).

الحرب مع النمسا:

لقد نجحت الجيوش العثمانيّة في هزيمة النمسا، واسترداد القلاع الحصينة، كما نجحت الجيوش العثمانية في جهادها بالجزر، وهزمت قوات النمسا هناك أيضاً، فنجم عن ذلك قبول النمسا بطلب الصلح، ودفع جزية للدولة العثمانية، مقدارها مئتا ألف دوكة من الذهب، وبقيت بلاد المجر بموجب هذه المعاهدة تابعة للدولة العثمانية^(٢).

تجديد الامتيازات:

حصّلت هولندا على امتيازاتٍ، استغلت من خلالها نشر الدُّخان داخل ديار الإسلام، وبدأ تعاطيه من قبل الجنود، فأصدر المفتي فتوى بمنعه، فهاج الجند، وأيّدهم الموظفون، فاضطر العلماء إلى السُّكوت عنه^(٣).

١ - انظر: الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، ص (١٠٥).

٢ - المصدر السابق نفسه.

٣ - انظر: الدولة العثمانية، د. جمال عبد الهادي، ص (٧٢).

إنَّ القوى الأجنبية الكافرة تهتَّم بنشر كلِّ محرمٍ فالله تعالى أحلَّ لنا الطيبات النافعة، وحرَّم علينا الخبائث الضارة لأجسامنا، وعقولنا، ولذلك أفتى العلماء- رحمهم الله- بتحريم شرب الدخان، وبيعه، وشرائه؛ لما فيه من الأضرار الدنيئة، والدنيوية والصحية، وهو محرم في أوساط المسلمين وذلك للأسباب التالية:

- ١- إنَّه مضر بالصحة الغالية، وما كان كذلك يحرم استعماله.
- ٢- إنَّه من الخبائث المحرَّمة، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ [الأعراف: ١٧٥].
- ٣- إنَّ رائحة الدخان تؤذي الناس الذين لا يستعملونه، بل تؤذي الملائكة الكرام لأنَّ الملائكة تتأذى ممَّا يتأذى منه بنو آدم؛ وقد حرم الله تعالى أذية المسلم، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٨].

وغير ذلك من الأدلة التي ذكرها العلماء، ولكن لضعف الوازع التربوي، وضعف سلطان الدولة التي تشرف على تنفيذ الأحكام، حدث ذلك التمرد من قبل الجنود، والشعب على نحو عام^(١).

وفاة السلطان، وبعض صفاته:

كان رحمه الله في غاية التقوى، وكان رجلاً مثابراً في الطاعات، وياشر أمور الدولة بنفسه، وكان متواضعاً في ملابسه، كثير الاستشارة لأهل العلم،

١- الدولة العثمانية، د. الصلابي، ص (٣٣١، ٣٣٢).

والمعرفة، وفي عهده بدأ إرسال ستائر الكعبة الشريفة من إستانبول، وقبل ذلك كانت ترسل من مصر^(١).

توفي وعمره ٢٨ سنة، وأوصى بالحكم لأخيه نظراً لصغر سن ابنه عثمان، وبذلك أصبح مصطفى الأول أول سلطان يتولّى الخلافة بعد أخيه، والسلطان أحمد هو الذي بنى الجامع الأزرق الضخم مقابل جامع آيا صوفيا، والمعروف باسمه، وكان يعتكف فيه في شهر رمضان^(٢).

١- انظر: السلاطين العثمانيون، ص (٥٩).

٢- تاريخ الدولة العثمانية، د. علي حسون، ص (١٣٣).

السلّاطين العثمانيون بين الضعف والقوة

(١٥) مصطفى الأول ابن محمّد الثالث

(١٠٢٦ - ١٠٢٧ هـ)، (١٦١٧ - ١٦١٨ م)

ولد هذا السلطان سنة ١٠٠١ هـ، ونشأ جاهلاً بأمور السياسة لأنّ أخاه السلطان أحمد كان قد ضيق عليه الخناق، وحبسه بين جدران القصور، وبين الخدم والجدير بالملاحظة هنا أنّ هؤلاء الأمراء لو أنّهم كانوا يتولّون قيادة الجيوش، والمقاطعات بدلاً من الحبس أو القتل فرمما كانت الأمور أفضل ممّا حدث^(١).

ولقد تولّى السلطة بعد وفاة أخيه عام (١٠٢٦ هـ) ومنذ عهده يظهر جلياً أنّ يداً أجنبية كانت خلف تعيين وعزل الخلفاء، فهذا السلطان عُزل بعد ثلاثة أشهر وجيء بابن أخيه (عثمان الثاني) الذي لم يزد عمره على الثالثة عشرة^(٢).

وكان قد نُصّب السلطان مصطفى مرتين، امتدّت الفترة الأولى نحو ثلاثة أشهر، ثمّ خلع من قبل المفتي، ولكنّ الإنكشارية أعادوه بعد أن قتلوا السلطان عثمان الثاني، وذلك عام ١٦٢٢ م^(٣).

أما الفترة الثانية من حكمه فقد انتهت على يد الصدر الأعظم علي باشا؛ إذ أشار على رجال الدولة بعزله لضعف عزمته؛ فعزل في ١٥ ذي القعدة سنة

١- تاريخ الدولة العثمانية، د. علي حسون، ص (١٣٤).

٢- انظر: الدولة العثمانية، د. جمال عبد الهادي، ص (٧٢).

٣- تاريخ الدولة العثمانية، د. حسون، ص (١٣٤).

١٠٣٢ وولوا مكانه السلطان مراد الرابع، وكانت وفاة مصطفى الأول سنة ١٠٤٩ هـ / ١٦٣٩ م^(١).



شعار الدولة العثمانية

١- تاريخ الدولة العلية، فريد بك، ص (٢٧٩).

(١٦) عثمان الثاني ابن أحمد الأول (١٠٢٧ - ١٠٣١ هـ)، (١٦١٨ - ١٦٢٢ م)

تولّى الحكم بعد عزل عمّه مصطفى الأول، وكان صغيراً لم يزد عمره على الثالثة عشرة، وأعلن الجهاد على بولونيا (بولندا) لتدخلها في شؤون إمارة البغدان، وتمّ الصلح بين الطرفين عام ١٠٢٩ هـ/١٦٢٠ م بناءً على طلب بولونيا وطلب الإنكشارية الذين تعبوا من مواصلة القتال، فغضب السلطان عليهم من طلبهم الراحة، وخلودهم إلى الكسل^(١).

فعزم السلطان بعد ذلك على إفناء الإنكشارية، وأمر بتنظيم جيوش جديدة في آسيا وتدريبها لكنّ الإنكشارية استطاعت عزله في ٩ رجب عام ١٠٣١ هـ، وأعادوا مصطفى الأول الذي كانوا قد خلعوه سابقاً^(٢).

وقد ترك لنا بعض الأشعار منها:

«كانت نيتي الخدمة لحكومتى ودولتي وللعجب أنّ الحسود يعمل لنكبتى»^(٣).

١ - انظر: الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، ص (١٠٦).

٢ - تاريخ الدولة، د. حسون، ص (١٣٤).

٣ - انظر: السلاطين العثمانيون، ص (٦١).

(١٧) مراد الرابع ابن أحمد الأول

(١٠٣٢-١٠٤٩ هـ)، (١٦٢٣-١٦٤٠ م)



هو أخو عثمان الثاني، تولّى أمر السلطنة بعد أن عُزِلَ عمه مصطفى، وكانت أحوال الدولة سيئة جداً، فقام بإصلاح الأحوال الداخلية أولاً، حتّى يتسنى له التفرغ للأحوال الخارجية^(١).

الحروب الخارجية:

حدث في زمنه أن وسّع الشاه عباس حدود بلاده من جهة الدولة العثمانية، ثمّ توفي الشاه وتولى ابنه (ميرزا) وهو صغير السن، فاستغل العثمانيون صغر سنه، ووصلوا إلى همدان ثمّ بغداد^(٢).

وتعدّى ملك بولونيا (لاديسلاس السابع) على حدود السلطنة العثمانية، وفتح بعض القلاع التابعة لها، فاضطر السلطان إلى الخروج بنفسه إلى أدرنة ليستعد منها لحربه، فاضطر الملك المذكور إلى طلب الصلح بعد أن نازله (أباطة باشا) وكسره^(٣).

وفاة السلطان، وبعض صفاته:

كان مراد الرابع عاقلاً، شجاعاً، ثاقب الرأي، لقبه المؤرخون ((اسكندر الثاني)) فقد استأصل الفساد، وقمع العصاة، ولقب بمؤسس الدولة الثاني لأنّه

١- المصدر السابق نفسه.

٢- تاريخ الدولة، د. حسون، ص (١٣٥).

٣- المصدر السابق نفسه.

أحيائها بعد السقوط، وأصلح حال ماليّتها، ومنع في عهده الخمر، والتدخين،
وأعدم كلّ مرتد عن الإسلام في عهده. توفي وهو في ريعان الشباب في ١٦
شوال من عام ١٠٤٩هـ، بعد أن اشتدّ عليه مرض النقرس، وامتدّ حكمه ١٦
سنة و ١١ شهراً^(١).

١- المصدر السابق نفسه، ص (١٣٦).

(١٨) إبراهيم ابن أحمد الأول

(١٠٤٩ - ١٠٥٨ هـ)، (١٦٤٠ - ١٦٤٨)



تولّى الحكم بعد أخيه مراد الذي لم يعقب ذكوراً، ولم يبق بعد موت السلطان مراد الرابع من نسل آل عثمان سوى أخيه السلطان إبراهيم^(١). قال عند ارتقائه العرش: «الحمد لله، اللهم جعلت عبداً ضعيفاً مثلي لائقاً لهذا المقام! اللهم أصلح، وأحسن حال شعبي مدّة حكمي»^(٢).

الأحوال الداخلية:

كانت الأحوال الداخلية شبه مستقرّة في عهده بسبب إصلاحات أخيه نحو الإنكشارية، وتحديد الجيش، فاتّجه إلى الاقتصاد وإصلاح النّقد وإقامة النّظام الضرائبي على أسس جديدة^(٣).

وقد حافظ على سمعة الدولة فأرسل جيشاً إلى بلاد القرم لمحاربة القوزاق الروس وانتصر عليهم، واستردّ مدينة آزاق^(٤) من أيديهم عام ١٠٥٣ هـ، وفتح جزيرة كريت التابعة للبندقية تحت قيادة يوسف باشا وذلك عام ١٠٥٧ هـ، ثمّ حاصر عاصمتها، ولكنّ الجنود تمردوا في استانبول وأهاجوا الإنكشارية الذين قرروا عزل السلطان وتولية ابنه محمد الرابع الذي لم يتمّ السابعة من عمره، وقتل السلطان إبراهيم، وقد امتدّ حكمه ٨ سنين و ٩ أشهر وكان عمره ٣٤ سنة^(٥).

١ - الدولة العثمانية، د. الصلابي، ص (٣٣٧).

٢ - انظر: السلاطين العثمانيون، ص (٦٤).

٣ - انظر: الدولة العثمانية، د. إسماعيل ياغي، ص (١٠٨).

٤ - آزاق: هي آزوف Azov وتقع في الشمال الشرقي من بحر آزوف؛ ويطلق اسم بحر آزوف على الخليج الكبير الواقع شمال البحر الأسود.

٥ - تاريخ الدولة، د. حسون، ص (١٣٦، ١٣٧).

(١٩) محمد الرابع ابن إبراهيم الأول (١٠٥٨ - ١٠٩٩ هـ)، (١٦٤٨ - ١٦٨٧ م)

ولد هذا السلطان عام ١٠٥١ هـ، وتولّى المسؤولية وهو ابن سبع سنوات، فرأت أوربة أنّ الوقت حان للنيل من الدولة العثمانية، لذلك كوَّنت حلفاً ضمّ: النمسا، بولونيا، البندقية، رهبان مالطة، البابا، وروسيا، وسموه (الحلف المقدس) وذلك للوقوف في وجه المدّ الإسلامي، الذي أصبح قريباً من كل بيت في أوربة الشرقية بسبب جهاد العثمانيين الأبطال وبدأ الهجوم الصليبي على ديار الإسلام، وقبض الله لهذه الفترة (آل كوبريللي) الذين أسهموا في ردّ هجمات الأعداء وتقوية الدولة؛ فالصدر الأعظم محمد كوبريللي أعاد للدولة هيبتها، وسار على نهجه ابنه (أحمد كوبريللي) الذي رفض الصلح مع النمسا، والبندقية، وسار على رأس الجيش لقتالهم، فتمكن عام ١٠٧٤ هـ، من أن يفتح أعظم قلعة في النمسا، وهي قلعة نوهزل^(١)، وفي عهد هذا الصدر الأعظم حاولت فرنسا التّقرب من الدولة، وتحديد الامتيازات، غير أنّ الصدر الأعظم رفض ذلك ثمّ حاولت فرنسا التهديد؛ حيث أرسل ((لويس الرابع عشر)) ملك فرنسا السفير الفرنسي مع أسطول بحريّ، وهذا ما زاد الصدر الأعظم ثباتاً حيث قال: (إنّ الامتيازات كانت منحةً سلطانية، وليست معاهدةً واجبة التنفيذ)^(٢).

ارتعدت أوربا من هذا الصدر الأعظم، وتذكرت أيام السلطان سليمان القانوني، وفزع إمبراطور النمسا لدخول الجيوش العثمانية إلى بلاده، وانتشارها في إقليميّ (مورافيا، وسيليزيا)^(٣) فوسّط البابا اسكندر الرابع لدى لويس الرابع عشر

١ - تقع إلى الشرق من فينا.

٢ - انظر: الدولة العثمانية، د. جمال عبد الهادي، ص (٧٣).

٣ - مورافيا Moravie منطقة من تشيكوسلوفاكيا تقع إلى الشرق من بوهيميا، سيليزيا Silesie: منطقة في أوروبا الوسطى يخترقها نهر أودير.

ملك فرنسا بقصد مساعدته، فلبى لويس دعوة البابا لنصرة إخوانه في الدين ضد المسلمين واشتركت ألمانيا بعشرين ألف رجل، فأصدر السلطان العثماني أوامره بالهجوم على المجر، وانتصر العثمانيون في البداية، ودخلوا قلب جيوش العدو، ولكن الإنكشارية لم يتمكنوا من الثبات أمام التفوق العددي للعدو فحافظوا على مراكزهم دون تقدم في تلك الموقعة التي سميت موقعة سان جوتار^(١)، ثم أبرم الصلح، وجرى تقسيم المجر، وإبقاء بعض الحصون تابعة للدولة العثمانية بموجبه^(٢).

وخضع جميع القوزاق - جنوب روسيا - للخليفة العثماني دون حرب، بل حباً للدخول في حمى الإسلام ودولته، فقامت نتيجة لذلك بعض الحروب بين الدولة وبولونيا، انتهت عام ١٠٨٧هـ، بهزيمة بولونيا، وعقد الصلح، وتنازلت بولونيا عن بعض مواقعها، وكان ذلك خاتمة أعمال أحمد باشا كوبريللي إذ توفي بعدها في ٢٤ رمضان من عام ١٠٨٧هـ^(٣).

واتفق العلماء، ورجال الدولة بعد ذلك على عزل السلطان فعزل، وتولى مكانه أخوه سليمان الثاني^(٤).

هذه شهادة من أبناء النصارى على سماحة الإسلام الذي ما نعمت البشرية بنعمة الأمن والطمأنينة على الدين والمال والدم إلّا في ظلّه؛ وذلك لأن المسلمين طَبَّقُوا قوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِينِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المتحنة: ٨]^(*).

١ - سان جوتار Gotar: مدينة نمساوية تقع على الجانب الغربي من نهر الراب.

٢ - تاريخ الدولة، د. حسون، ص (١٣٨).

٣ - المصدر السابق نفسه.

٤ - الدولة العثمانية، د. جمال عبد الهادي، (٧٤). * - الدولة العثمانية، د. الصلابي، ص (٣٤٠).

(٢٠) سليمان الثاني ابن إبراهيم (١٠٩٩ - ١١٠٢ هـ)، (١٦٨٧ - ١٦٩١ م)

ولد عام ١٠٥٢ هـ، وتولّى الحكم بعد أخيه، واستمرّ التدهور في الدولة العثمانية في عهده، وازدادت شراسة الأعداء؛ فاغتصبت النمسا كثيراً من المواقع والمدن؛ منها بلغراد عام ١٠٩٩ هـ، كما احتُلت بعض الأماكن في اليونان، وتوالت الهزائم على الدولة، فأكرم الله الدولة في تلك الفترة بالصدر الأعظم ((مصطفى بن محمد كوبريللي)) الذي سار على نهج أبيه في مواجهة خصوم الدولة؛ فكان قد سمح للنصارى في إستانبول ببناء ما تهدم من كنائسهم، وأحسن إليهم^(١).

فكانت نتيجة معاملته المتساهلة للمسيحيين أن ثار أهالي (الأروام) على البنادقة الكاثوليك، وطرّدوا جيشها من بلادهم بسبب اضطهادهم، وإجبارهم على المذهب الكاثوليكي، ودخلوا في حماية الدولة العثمانية مختارين طائعين، لعدم تعرض الدولة لديانتهم إطلاقاً^(٢).

وفاة السلطان:

في ٢٦ رمضان سنة ١١٠٢ هـ، الموافق ١٦٩١ م، توفي السلطان سليمان الثاني عن غير عقب، وعمره خمسون سنة بعد أن حكم ثلاث سنوات وثمانية أشهر، ودفن في تربة جده السلطان سليمان الأول، وتولى بعده أخوه الأمير أحمد^(٣).

١ - انظر: الدولة العثمانية، د. جمال عبد الهادي، ص (٧٤).

٢ - انظر: تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص (٣٠٦).

٣ - المصدر السابق نفسه.

(٢١) أحمد الثاني ابن إبراهيم

(١١٠٢ - ١١٠٦ هـ)، (١٦٩١ - ١٦٩٥ م)

تولّى الحكم بعد وفاة أخيه سليمان الثاني، واستشهد في زمنه الصدر الأعظم مصطفى كوبريللي الذي كان عظيم النفع للدولة، فتولّى بعده الصدر الأعظم عربه جي باشا، ولكنه كان ضعيفاً، مما أتاح للبندقية أن تحتل بعض جزر بحر إيجه، ولم تطل أيام السلطان، فقد توفي في أدرنة ودفن في تربة سليمان الأول، وتولى الحكم بعده ابن أخيه^(١).

وكان هذا السلطان يجيد العربية والفارسية، وقد نَسَخَ القرآن الكريم بخط يده لعدة مرّات، وفي عهده شبَّ حريقٌ ضخمٌ في العاصمة، واحترق خمسة آلاف بيتٍ فيها^(٢).

١- انظر: الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي، ص (١١٥).

٢- تاريخ الدولة، د. حسون، ص (١٤١).

المبحث الثالث

دور الانحدار والانكماش

(٢٢) مصطفى الثاني ابن محمد الرابع

(١١٠٦ - ١١١٥ هـ)، (١٦٩٥ - ١٧٠٣ م)

كانت فاتحة سلطنة مصطفى الثاني فاتحة حزم وعزم، فما مضى ثلاثة أيام على استواء السلطان على سرير الملك حتّى أعلن نيّته أن يتولّى قيادة الجيوش بنفسه، خلافاً لما كان عليه أسلافه المتأخرون، وحاول بعض وزرائه أن يثبطوا من عزمه هذا، فلم يفلحوا بذلك، فبدأ عهد هذا السلطان بانتصاراتٍ عديدة، حيث تمكن الأسطول العثمانيّ من كسر أسطول البنادقة أمام جزيرة ساكس التي تمكن العثمانيون من إلحاقها بالدولة بعد هذه المعركة.

وزحف خان القرم على بولندا وأوغل فيها، أما على الجبهة الروسية فقد ترك الروس حصار آزوف بعد أن فقدوا ثلاثين ألف مقاتل، وذلك في تشرين الأول سنة ١١٠٧ هـ/ ١٦٩٥ م، ثمّ إنّ السلطان نفسه دخل بلاد المجر، وافتتح مدينة ليبه^(١) عنوةً، ثمّ تغلب السلطان في واقعة أولاش^(٢) على أمير (الساكس) قائد الجيش الألماني؛ فاشتعلت لأجل ذلك حماسة العثمانيين وصاروا يجودون بالعطايا لتجهيز الجيوش، والكتائب من المتطوعة^(٣).

إلا أنّ طالع النصر لم يستمر طويلاً على هذا النحو، فإنّ بطرس الأول قيصر روسية عاد فافتتح آزوف، وعادت الجيوش النمساوية فكسرت الجيوش العثمانية

١- تقع في بلاد المجر إلى الشمال الشرقي من العاصمة بودابست.

٢- أولاش: لم أعثر عليها، وهي على كل حال في رومانيا.

٣- تاريخ الدولة، الأمير شكيب أرسلان، ص (٢٣٩).

عند نهر تيس^(١)، وقُتِلَ الصدر الأعظم، وفرَّ السلطان، فدخل العدو بلاد البوسنة وذلك سنة ١١٠٩هـ/١٦٩٧م، وعاد الخطر يُحدِقُ بالسلطنة، فعوّل السلطان على وزيرٍ جديد من آل كوبريللي، وهو الكوبريللي حسين باشا (صهر محمد باشا) وكانت الخزانة فارغةً، فجاء الصدر الجديد ورّمَمَ الأحوال، وحشد جيشاً جديداً عهد بقيادته إلى (دالتبان باشا) الذي تمكّن من استرداد البوسنة، وأجبر النمساويين على الرجوع إلى الوراء^(٢).

معاهدة كارلو فيتس:

أجبرت السلطنة على الموافقة على معاهدة كارلو فيتس^(٣) وذلك عام ١١١٠هـ/١٦٩٩م، والتي تمت بين الدولة والنمسا وروسيا والبندقية وبولندا، فترك العثمانيون بموجبها بلاد المجر كافةً وإقليم ترانسلفانيا للنمسا، كما تنازلوا عن آراق لروسيا التي ازداد خطرهما، كما أرجعوا لبولندا إقليم كامنيك^(٤) وبعض الأقاليم الأخرى، وتنازلت للبندقية عن إقليم (دلماسيا) وقسم من جزيرة المورة^(٥)، وبذلك فقدت الدولة العثمانية قسماً كبيراً من أراضيها، وازداد تسلط الغرب عليها منذ ذلك التاريخ، فاتفق الأوروبيين أمامها، ومن ثمّ بدؤوا العمل على تقسيمها، وهو ما يسمّى بالمسألة الشرقية القائمة على خوفهم من انتشار الإسلام في أوروبا وزيادة قوته^(٦). وكان من شروط تلك المعاهدة؛ أن كلّ الدول التي

١- نهر في المجر ينبع من أوكرانيا ويتحد مع الدانوب في يوغوسلافيا.

٢- المصدر السابق نفسه.

٣- كارلو فيتس: مدينة يوغوسلافية واقعة على نهر الدانوب.

٤- تقع في جنوب بلاد أوكرانيا على حدود رومانيا.

٥- موره: هي شبه الجزيرة الكبيرة التي تشكل الجزء الجنوبي من بلاد اليونان.

٦- تاريخ الدولة، د. حسون، ص (١٤٢).

كانت تدفع الجزية قد أعفيت منها^(١).

كان تنازل العثمانيين عن أرضيهم بداية الانسحاب العثماني من أوربة،
كما أنه يسجل الانتقال إلى عصر التفكك والاضمحلال السريع.

عزل السلطان:

ثار الإنكشارية على السلطان، وقرروا عزله، وتوفي بعد ذلك بأربعة أشهر،
وكان عند وفاته في التاسعة والثلاثين من عمره^(٢).

١- الدولة العثمانية، د. الصلابي، ص (٣٤٢).

٢- المصدر السابق نفسه.

(٢٣) أحمد الثالث ابن محمد الرابع

(١١١٥ - ١١٤٣ هـ)، (١٧٠٣ - ١٧٣٠ م)

بقيت في عهده راية الجهاد مرفوعةً، واستطاعت الدولة أن تعيد (المورة، وآزاق)، وواصلت جهادها ضدَّ روسيا، وأنزلت بها ضربةً كادت تكون قاصمةً، حينما حاصر المجاهدون العثمانيون قيصر روسيا. ولكن انتهت تلك الأحداث بتوقيع معاهدة (فلكزن) في جمادى الآخرة عام ١١٢٣ هـ، حيث ترتب عليها إخلاء مدينة آزاق للروس، وعدم التدخل في شؤون القوزاق، وعلى إثر هذه المعاهدة عزل السلطان أحمد الثالث الصدر الأعظم ((بلطة جي باشا))، واستمرَّ الجهاد ضدَّ الروس ورأت هولندا وإنجلترا أنَّ من مصلحتَهُما إيقاف الحرب ولذلك تدخلوا ووقعت معاهدة أدرنة عام ١١٢٥ هـ/١٧١٦ م^(١)؛ التي تنازلت فيها روسيا عن كل ما استولت عليه من سواحل البحر الأسود، ولكنها تخلَّت في الوقت نفسه عمَّا كانت تدفعه إلى حكام القرم^(٢).

وحينما تولَّى علي باشا منصب الصدارة أعلن الحرب على البندقية فاسترجع ما فقدته بلاده من بلاد المورة وكريت، فاستعانت البندقية بالنمسا، التي أعلنت الحرب على الدولة العثمانية فدخل النمساويون بلغراد بعد أن قتلوا الصدر الأعظم واحتلوا بعض المواقع الأخرى، لتنتهي المعارك بينهما بتوقيع معاهدة صلح بين الطرفين عام ١١٣٠ هـ، أعطيت بموجبها للنمسا مدينة بلغراد، وجزءاً من

١- الدولة العثمانية، د. جمال عبد الهادي، ص (٧٦).

٢- الدولة العثمانية، د. إسماعيل ياغي، ص (١١٧).

صربيا، وآخر من الأفلاق وأرجعت بلاد المورة إلى الدولة، وسميت تلك المعاهدة بمعاهدة «بساو فيتس»^(١) «^(٢)».

وفاة السلطان، وبعض أعماله:

من إصلاحات السلطان أحمد الثالث تجديد الترسانة، وإنشاء المدارس الكثيرة، وإدخال المطبعة، وتأسيس دار لطباعة في إستانبول، وترقية الصناعات، وإنشاء معامل للنسيج، وتأسيس فرقة للإطفاء، ومن أعماله استرجاع المورة وقلعة آزاق، وفتح عدّة ولايات من بلاد العجم، وألحقت داغستان بالدولة العثمانية عام ١٧٢٢م^(٣).
ثمّ كان أن خلع السلطان بسبب ثورات الإنكشارية، ونُصّب مكانه ابن أخيه.

١- تقع إلى الجنوب الشرقي من مدينة بلغراد.

٢- تاريخ الدولة، د. حسون، ص (١٤٣).

٣- المصدر السابق نفسه، ص (١٤٤).

(٢٤) محمود الأول ابن مصطفى الثاني

(١١٤٣ - ١١٦٨ هـ)، (١٧٣٠ - ١٧٥٤ م)

من أبرز الأحداث في عصره انتصار العثمانيين على النمسا التي أغارت على بلاد البوسنة، وصربيا والأفلاق وطردهم إلى ما وراء نهر الدانوب وذلك عام ١١٥٢ هـ، ثم عُنُقَت معاهدة بلغراد التي ألغت معاهدة (بسارو فيتس) سابقة الذكر، حيث استردت الدولة مدينة بلغراد، والصرب والأفلاق^(١)، أمّا الروس فقد تعهدوا بهدم قلاع ميناء آزاق، وعدم تجديدها، وعدم إنشاء سفن تجارية أو حربية في البحر الأسود. وهكذا فإنَّ معاهدة بلغراد هذه أعادت للدولة شيئاً من هيبتها بفضل الوزراء، والقادة الأقوياء، ثمَّ عقدت الدولة معاهدةً عسكريةً مع السويد ضدَّ روسيا^(٢).

وفاة السلطان، وبعض أعماله:

توفي السلطان محمود الأول عام ١١٦٨ هـ، فجأةً، وهو يمتطي جواده بينما كان عائداً من صلاة الجمعة عند دخوله باب السراي.

كان محمود الأول متصفاً بالعدل والحلم والميل للمساواة بين الرعيّة، واتسع نطاق الدولة في عهده، ومحى عار معاهدة (بسارو فيتس)، وأسس أربع مكاتب في العاصمة، وعدَّ مؤرخو العثمانيين عصره أفخر عصر ترقّت فيه المعارف السياسية لدى العثمانيين، وعندما دُمِّرَ عددٌ كبيرٌ من مساجد العاصمة بسبب الحريق والزلازل، بادر فوراً لإعادة تجديدها، ودفع أموالاً طائلة لترميم المنازل المدمّرة^(٣).

١- الأفلاق أو فالاسيا هو اسم قديم لإحدى مقاطعات جمهورية رومانيا الحالية وعاصمتها بوخارست. وقد كان هذا الاسم الذي أطلق عليها في العهد العثماني.

٢- المصدر السابق نفسه، تاريخ الدولة العثمانية، إسماعيل سرهنك، ص (٢٠٨، ٢١٢).

٣- تاريخ الدولة، د. حسون، ص (١٤٥).

(٢٥) عثمان الثالث ابن مصطفى الثاني

(١١٦٨-١١٧١ هـ)، (١٧٥٤-١٧٥٧ م)

تولّى الحكم وعمره ٥٨ سنة، وبويع له في جامع أبي أيوب الأنصاري، وهنّاه سفراء أوربة، استمرّ حكمه ثلاث سنوات فقط، لم تحدث فيها حروب ولا نزاعات خارجيّة، حيث اهتمّ بالإصلاحات الداخليّة، وأصدر أوامر بمنع كلّ ما يخالف الشرع الشريف، وقضى على الثورات والانتفاضات التي قامت في أنحاء الدولة، ولاسيّما ثورات الأكراد^(١).

ويذكر عنه: أنّه كان يتحسّس أحوال الرّعية ليلاً متنبّراً^(٢).



السلطان عثمان الثالث

١- الدولة العثمانية، د. إسماعيل ياغي، ص (١٢١).

٢- الدولة العثمانية، د. جمال عبد الهادي، ص (٧٩).

(٢٦) مصطفى الثالث ابن أحمد الثالث

(١١٧١ - ١١٨٧ هـ)، (١٧٥٧ - ١٧٧٤ م)

حدثت في عهده بعض المعارك الحاسمة بين الدولة وروسيا وكادت الغلبة تكون إلى جانب الروس لولا مساعدة البارون المجري (دي توث) الذي كان قد



دخل في خدمة الدولة العثمانية، وقلب موازين الأمور، وهزم الروس في عدة مواقع^(١).

حينها أيقنت روسيا أنها لن تستطيع هزم الدولة العثمانية وجهاً لوجه، لذلك لجأت إلى طرق مأكرة ألا وهي دعم الثورات الداخلية، لمحاولة تمزيق الدولة من الداخل، فدفعوا والي مصر من قبل دولة

الخلافة وهو ((علي بك الكبير)) إلى الخروج على الدولة العثمانية، وذلك عام ١١٨٣ هـ / ١٧٧٠ م ففعل، وأمر بأن يُخطب باسمه على المنابر^(٢).

وفي جزيرة (باروس) تمّ لقاء بين الروس، ومبعوثين من قبل (علي بك)، وتمّ التخطيط الماكر لتدمير الدولة من الداخل، بحيث يكون فيها علي بك هو مقلب القط، ومعه طاهر العمر والي مدينة عكا، وبناءً عليه قاد علي بك أبناء مصر المسلمين لقتال قوَّات العثمانيين في بلاد الشام، ودخل سورية عنوةً عام ١١٨٥ هـ، فخرج محمد بك الشهير بأبي الذهب وقاتل جيوش علي بك وانتصر عليه، وقتله هو والخائن الآخر طاهر العمر بعد حصار عكا^(٣).

١ - انظر: الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي، ص (١٢٢) / د. حسون، ص (١٤٦).

٢ - الدولة العثمانية، د. الصلابي، ص (٣٤٨).

٣ - الدولة العثمانية، د. جمال عبد الهادي، ص (٨٠).

عندما عجزت دول أوروبا عن مقاتلة الدولة العثمانية في جبهات الوغى، لجأت إلى تفجير الدولة من الداخل عبر ضعفاء النفوس ممن ينتسبون إلى الإسلام ويُظهرون شعائره ويضيِّعون مفهوم الولاء والبراء في بحر شهواتهم وأطماعهم وإلا كيف يكون ذلك، والله تعالى يقول: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمُدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾ [المتحنة: ١]. وقوله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَنَّةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ. وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨]. إنَّ المسلم الصادق مع نفسه وربِّه وأُمته لا يقف مع الروس الأرثوذكس ضدَّ المسلمين العثمانيين ويستحلُّ دماءهم. إنَّ أعداء الأُمَّة الإسلاميَّة يلجؤون دوماً إلى إشعال نار الفتنة داخل ديار الإسلام لتدمير قوَّة الأُمَّة البشرية والاقتصادية والأخلاقية فتصبح مؤهلةً للسقوط بيد الأعداء^(١).

وفاة السلطان، وبعض صفاته:

كان السلطان مصطفى الثالث من السلاطين المجاهدين، توفي في ٨ ذي القعدة في عام ١١٨٧ هـ، عن عمر يناهز ٥٧ عاماً تقريباً^(٢). وقد تصدَّى للهجمات الروسية على الدولة، وأنزل بهم هزائم عدَّة، حيث استمرَّت الحروب العثمانية الروسية فترة طويلة حيث بدأت في عام ١٧٦٨م، وانتهت في ١٧٧٤م^(٣).

لقد كان مصطفى الثالث مصلحاً كبيراً جاء في زمن بلغت فيها الإدارة أبعد ما يتصوره العقل من الخلل، فلم يكن يفكر في حفظ شأن السلطنة غير السلطان

١- الدولة العثمانية، د الصلابي، ص (٣٤٨).

٢- انظر: السلاطين العثمانيون، ص (٧٢).

٣- الدولة العثمانية، د. الصلابي، ص (٣٤٩).

وحده، وكان الوزراء كلهم تحت تأثير الإنكليز يريدون الصلح، والمدفعية العثمانية تقهقرت إلى الدرك الأسفل، بعد أن كانت هي المدفعية الأولى في أوربة. فأنشأ السلطان مدرسة للمدفعية والهندسة ومدرسة للبحرية بعد أن بلغت البحرية أقصى حدود الخلل، فعالج أمراض السلطنة بصبر عجيب وأصلح جانباً كبيراً مما كان ينوي إصلاحه، وقد فُكّر في خرق برزخ السويس ولكنَّ المنية سبقته إلى ذلك^(١).

١- تاريخ الدولة، الأمير شكيب أرسلان، ص (٢٥٤).

(٢٧) عبد الحميد الأول ابن أحمد الثالث

(١١٨٧ - ١٢٠٣ هـ)، (١٧٧٤ - ١٧٨٩ م)

تولّى الحكم بعد وفاة أخيه مصطفى الثالث، وكان محجوزاً في قصره مدّة حكم أخيه.

الحرب العثمانية الروسية:

كانت الجبهة الروسية العثمانية دائمة التوتر والصراع، ففي عهد السلطان عبد الحميد اجتازت القوّات الروسيّة نهر (الطونة) والتقى العثمانيون بالروس في مدينة (شوملا) فانهزم العثمانيون، وطلبوا الصلح الذي عُقدَ في مدينة كينارجة في بلغاريا، وتمّ الاتفاق في عام ١١٨٧ هـ / ١٧٧٤ م، على استقلال تنار القرم، وكذلك أصبح للمراكب الروسية بمقتضى نصوص المعاهدة حرّية الملاحة في البحر المتوسط والبحر الأسود، وأن تُبنى لروسيا كنيسةٌ في ضاحية (بيرا) في استانبول فعاد ذلك على الدولة بأوخم العواقب، وبذلك فقد نالت روسيا أمانيتها، بسبب جهل السلطان، ووزرائه^(١).

وحين التمعّن في هذه الشروط يمكن ملاحظة ما يلي:

- ١ - إنهاء السيطرة العثمانية على البحر الأسود وتهيئة الأسس الدبلوماسية المقبلة للتدخل الروسي في القضايا العثمانية الداخلية.
- ٢ - أصبحت بلاد القرم مستقلة، ورعاياها لا يلحقون الدولة العثمانية إلا دينياً فقط.
- ٣ - سمحت المعاهدة للروس بالحصول على امتيازات مهمة ضمن البلاد العثمانية، مما سمح لها بحماية الأرثوذكس في أيّ مكانٍ في الدولة العثمانية^(٢).

١ - تاريخ الدولة، د. حسون، ص (١٤٨).

٢ - انظر: العثمانيون والروس، د. حسون، ص (٨٥).

ولم يكتف الروس بذلك، بل واصلوا تأمرهم وفاجؤوا الدولة العثمانية بدخول قواتهم بلاد القرم- التي سبق أن وافقوا على استقلالها- وذلك بسبعين ألف جندي غير مباين بمعاهدة (كينارجه) المذكورة آنفاً^(١).

فشارت الدولة العثمانية من جديد وأرسل الباب العالي مذكرةً إلى السفير الروسي بالأستانة، وذلك في صيف عام ١٢٠٠هـ فيها عدة مطالب منها: التنازل عن حماية بلاد جورجيا التي تخضع لسيادة العثمانية وتسليم حاكم الأفلاق العاصي للدولة. فرفضت روسيا المذكورة، فأعلن الباب العالي الحرب وحبس السفير الروسي^(٢).

فأخذ الروس يحصنون ميناء سباستبول^(٣) وأنشأوا ترسانة عظيمة، حيث كانت ملكتهم كاترينا^(٤) تخطط للوصول إلى استانبول^(٥).

وفاة السلطان وأثرها على الأحداث:

في تلك الأثناء توفي السلطان عبد الحميد الأول، فضعفت عزيمة الجند، ودخل اليأس قلوبهم، فاستغل الأعداء ما حدث وتضافرت جهودهم لإضعاف العثمانيين، حيث استولى الروس على مدينة بندر^(٦) الحصينة واحتلوا معظم الفلاح والبغدان ودخل النمساويون بلغراد، وبلاد الصرب التي ردّت بعد ذلك بمقتضى معاهدة (زشتوي)^(٧).

١- انظر: الدولة العثمانية، د. جمال عبد الهادي، ص (٨٢).

٢- انظر: العثمانيون والروس، د. حسون، ص (٨٦).

٣- مدينة على شاطئ البحر الأسود جنوبي شبه جزيرة القرم.

٤- الملكة كاترين الثانية (٢ مايو ١٧٢٩ - ٦ نوفمبر ١٧٩٦)، إمبراطورة روسيا من ٢٨ يونيو ١٧٦٢.

٥- تاريخ الدولة، د. علي حسون، ص (١٤٨).

٦- بندر: تقع في الاتحاد السوفييتي سابقاً، شرق رومانيا.

٧- انظر: العثمانيون والروس، د. حسون، ص (٨٧).

(٢٨) سليم الثالث ابن مصطفى الثالث (١٢٠٣ - ١٢٢٢ هـ)، (١٧٨٩ - ١٨٠٧ م)

تولّى السلطنة بعد وفاة عمّه عبد الحميد الأول، وقد تسلم السلطة واليأس مُستول على العباد نظراً لتدهور حالة البلاد، فقد تحالف الروس والنمساويون، وتغلبوا على العثمانيين مرّتين واستطاع كلّ منهما أن يحتل ما ذكرناه سابقاً. ولكنّ السلطان سليم الثالث شرع في إحياء الرّوح المعنويّة في نفوس جنده، واعتمد على تاريخ الدولة العثمانية، وما قامت به من أعمال بطوليّة، ففي مراسم توليه عرش الدولة قام السلطان بإلقاء خطبة حماسيّة أمام قادة الدولة، وتكلم عن سبب هزائمهم المتأخّرة أمام أعدائهم، وبيّن أنها بسبب ابتعادهم عن دينهم، وعدم اتباع كتابهم، وسنة نبيّهم^(١).

لقد أدرك السلطان المأساة التي يعيشها شعبه من جرّاء الهزائم المتوالية على الدولة، ولكي يخفف من حدّة الغضب والنفور رفض مساعي الصلح وقرّر التّوجه بنفسه على رأس جيش نحو نهر الدّانوب^(*).

ولم ييأس السلطان من تحاذل جنوده، بل كان يحدوه الأمل بنجاح المهمّة في حال قيادته للجيش، فأصدر أمره بتحريك القوّات العثمانية عبر البغدان، والأفلاق - أي رومانيا - حتى وصلت مقدمات جيشه إلى نهر ((رمينيك)) عند حدود النمسا، وهناك حدث ما لم يكن في الحسبان؛ حيث تمكن الجيشان الروسي والنمساوي من مباغطة الجيش العثماني على غفلة، وانتصرا عليه، وسميت تلك المواجهة بمعركة ((يوزا)) أو ((رمينيك)) نسبة إلى النهر الذي وقعت عنده المعركة^(٢).

١ - انظر: تاريخ سياسي، دولة عليّة عثمانية، كامل باشا، (٢/٢٥٠).

* - الدولة العثمانية، د. الصلابي، ص (٣٥٣).

٢ - انظر: موقف أوربة من الدولة العثمانية، ص (٧٣).

الثورة الفرنسية ومعاهدة زشتوي:

لاحت الثورة الفرنسية في الأفق، وبدأت أخطارها تظهر على مختلف الأصعدة في أوربة، وأوجدت شعوراً قوياً عند الدول الأوربية بأنّ الوقت قد حان للتعاطف مع الدولة العثمانية خوفاً من استفحال الثورة النابليونية، وهيمنة فرنسا على شؤون القارة الأوربية^(١).

الثورة الفرنسية تعتبر فترة تحولات سياسية واجتماعية كبرى في التاريخ السياسي والثقافي لفرنسا وأوروبا. بوجه عام. حيث ابتدأت الثورة سنة ١٧٨٩ وانتهت تقريباً سنة ١٧٩٩. وعملت الثورة الفرنسية على إلغاء الملكية المطلقة، والامتناع عن الإقطاعية للطبقة الارستقراطية، والنفوذ الديني الكاثوليكي.

فقد أدّى خطر انتشار الثورة الفرنسية التي هددت عروش ملوك أوروبا إلى طلب النمسا الصلح مع الدولة العثمانية الذي ردّت بموجبه بلاد الصرب وبلغراد ومعظم ما احتلته إلى حظيرة الدولة، وكذلك تمّ الأمر مع باقي الدول الأوربية التي رأت ضرورة التوصل إلى معاهدة مع الدولة العثمانية لجمع الشمل الأوربيّ أمام الحركة النابليونية التوسعية، وتمّ عقد معاهدة

((زشتوي)) في ٢٢ ذي الحجة من عام ١٢٠٥هـ الموافق ١٧٩١م^(٢).

أمّا الروس فقد استمروا بعدائهم، وشنّ الحملات، واستولوا عنوةً على مدينة إسماعيل^(٣)، وذلك عام ١٢٠٥هـ، وارتكبوا فيها الفظائع والأعمال

١- المصدر السابق نفسه.

٢- المصدر السابق نفسه، ص(٨٢)

٣- إسماعيل: مدينة في الاتحاد السوفيتي السابق وأوكرانيا اليوم، وهي بالقرب من الحدود الرومانية والبحر الأسود.

الوحشية وقتلوا النساء والأطفال؛ حيث تقدّم الجنرال ((سواروف)) وحاصر قلعتها الحصينة، وقطع عنها الإمدادات ثمّ استولى عليها بعد قتالٍ عنيف، ودام القتل، والنهب ثلاثة أيام بلياليها، سقط خلالها ما ينوف عن ثلاثين ألف شهيد، وانتهى الأمر بعقد معاهدة ياش^(١) وذلك عام ١٢٠٦ هـ الموافق ١٧٩٢م، وجرى بموجبها أن امتلكت روسيا بلاد القرم نهائياً، وبعض الأقاليم الأخرى^(٢).

ما بعد زشتوي:

التفتت الدولة بعد ذلك إلى إصلاح شؤونها الداخلية ولاسيّما الجيش، فأصلحت الثغور وبنّت القلاع والسفن الحربية الحديثة وصنعت المدافع، وترجمت المؤلفات العسكرية الحديثة ووضعت أنظمة للجيش على أحدث طراز، وأسست الفرق العسكرية النظامية الحديثة بقصد الاستغناء عن الإنكشارية فيما بعد^(٣).

إلا أنّ ذلك أثار جنود الإنكشارية، ورغم أنّ السلطان أصدر أمراً بإلغاء الفرق العسكرية الجديدة، إلا أنّ الثوار قرروا عزل الخليفة وخلعه من الحكم^(٤).

فدخل شيخ الإسلام على السلطان سليم متذللاً منخفض الرأس قائلاً: يا مولاي، قد حضرتُ بين يديك برسالة مخزنة، أرجو قبولها لتسكين الهيجان، وليس يخفى على عظمتكم أنّ عموم العساكر نادوا باسم السلطان مصطفى ابن عمك سلطاناً عليهم، ولا سبيل إلى المقاومة، فالتسليم لأمر الله أوفق، وأسلم من كلّ شيء، فأظهر السلطان تجلّداً ولم تبدُ عليه علامات الكدر من هذا الحديث

١- نسبة إلى مدينة ياشي، وهي تقع في الشمال الشرقي من رومانيا بالقرب من الحدود الرومانية الروسية.

٢- تاريخ الدولة، د. حسون، ص (١٤٩).

٣- المصدر السابق نفسه.

٤- الدولة العثمانية، د. إسماعيل ياغي، ص (١٢٧).

بل قبل كلام الشيخ، وتنازل عن السلطة في يوم ٢١ ربيع الأول عام ١٢٢٢هـ، وجلس بعده مصطفى الرابع^(١). ورغم ذلك فقد حدثت مشاكل في عهده أدت إلى الإطاحة به بعد أن حكم سنة واحدة فقط^(٢).

الحملة الفرنسية على مصر

أسبابها:



نابليون بونابرت من أعمال جاك لوي دافيد

استغلّت فرنسا انشغال الدولة العثمانية في حروبها مع النمسا، وروسيا، وحالة الوهن التي أصابتها نتيجة تلك الحروب، والمشكلات الداخليّة، كما أغراها الموقع ذو الأهمية الخاصة لبلاد مصر، ووجود طريق الهند، ولذلك فقد أراد النفوذ الفرنسي اكتساب جبهة صلبة ضدّ بريطانيا في تلك المنطقة خاصة، وكان قد أزعجهم موقفها ضدّ الثورة الفرنسية آنذاك، كما أنّ الحروب التي سبق أن نشبت بين الدولتين خرجت فرنسا بنتيجتها، وقد خسرت معظم مستعمراتها ولا سيّما في الهند، وكندا،

وظنّت فرنسا أنّ احتلالها لمصر سيزيد من هيبتها أمام إنكلترا^(٣).

١- تاريخ الدولة، د. حسون، ص (١٦١).

٢- المصدر السابق نفسه، ص (١٥٩).

٣- تاريخ الدولة، د. حسون، ص (١٥٠).

الاستعدادات الحربيّة:

صدرت الأوامر لنابليون بونابرت في عام ١٢١٣هـ، باحتلال مصر دون إعلان حرب، وخفية عن أعين بريطانيا، فجّهز الجيش في مدينة طولون^(١)، وقوامه ٣٦ ألف محارب مدرّب، بالإضافة إلى ١٠ آلاف بحار، وبصحبه ٣٠ سفينة حربيّة، ومراكب، وسفن صغيرة أخرى، بالإضافة ١٢٢ عالماً من مختلف الاختصاصات. وما إن وصل مالطة^(٢) حتّى احتلّها سريعاً، واصطحب بعض العرب المقيمين هناك كمتّرجمين، ثمّ وصل إلى ميناء الإسكندريّة، وأنزل الجنود قربها، ثمّ احتلّها، وسار إلى القاهرة التي دخلها عنوّه، وعسكر فيها هو وجنوده حتّى امتلأت المدينة بهم، وفتحوا فيها عدّة دكاكين، وخمّاراتٍ ومقاهٍ^(٣)، وهو أمرٌ لم يكن موجوداً من قبل.

كان الفرنسيون والغربيون بصفة عامّة يدركون أنّ السرّ في قوّة الم.سلمين يتمثّل في جانبين مهمّين: الأول هو تمسكهم بالدين، والثاني في وحدة بلادهم. م في ظلّ حكومة إسلاميّة مهيبّة.

حيلة نابليون:

أعلن نابليون، وبعض رجاله اعتناقهم للإسلام، وبدا ذلك واضحاً في المنشور الأوّل الذي أعلنه نابليون على شعب مصر، حيث حاول أن يحوّلهم ببعض الكلمات حيث قال: «أيها المصريون قد قيل لكم: إنني ما نزلت لهذا

١- مدينة شهيرة في جنوب فرنسا على البحر الأبيض المتوسط.

٢- مالطة (مالطا) دولة أوروبية، وهي عبارة عن ثلاث جزر صغيرة تقع في البحر المتوسط.

٣- المصدر السابق نفسه، ص (١٥٠، ١٥١).

الطَّرْف إلا بقصد إزالة دينكم فذلك كذبٌ صريحٌ فلا تصدَّقوه وقلوا للمغتَرِّين
إنني ما قصدت إليكم إلا لأُخَلِّصَ حقكم من يد الظالمين، وإنني أكثر من الممالك
أعبد الله سبحانه وتعالى، وأحترم نبيّه والقرآن العظيم»^(١).

وحينما وصل نابليون إلى عكَّا أصدر بياناً إلى يهود العالم مطلقاً عليهم اسم
(الورثة الشرعيين لفلسطين)) لإقامة دولة يهودية على أرض فلسطين؛ أفلا
يكشف ذلك عن علاقة وثيقة بين نابليون الذي تسرَّ بالإسلام، واليهود الذين
خطَّطوا، وقاموا بما تسمَّى الثورة الفرنسية^(٢).

المواجهة:

كان المهجوم الفرنسي على مصر يُعد أوَّل هجوم على ولاية عربية من
ولايات الدولة العثمانية في التاريخ الحديث، وعلى الفور أعلن السلطان سليم
الثالث الجهاد على الفرنسيين (١٢١٣هـ/١٧٩٨م)، فاستجاب لدعوته المسلمون
في الحجاز والشام وشمال إفريقيا^(٣). ولسنا بصدد التفاصيل الحربية التي تحرَّكت
فيها جيوش الطَّرفين العثماني والفرنسي، وإنَّ ما يهمنا هو آثار تلك الحملة التي
باءت بإخفاق الفرنسيين، حيث انتهت آثارها المادية في ١٢١٦هـ/١٨٠١م.

دلائل الحملة، وآثارها:

لقد أحسَّ المسلمون بالهزيمة الحقيقية من جرّاء هذه الحملة؛ حيث وضع
نابليون في فترة إقامته في مصر قانوناً جديداً يُحكِّمُ به المسلمون بغير شريعة الله،
قانوناً مستمداً من التشريع الفرنسي، وحصر تشريع الله في أمور الأحوال

١ - الدولة العثمانية، د. الصلابي، ص (٣٦٢).

٢ - انظر: الدولة العثمانية، د. جمال عبد الهادي، ص (٨٦).

٣ - الدولة العثمانية، د. الصلابي، ص (٣٦٤).

الشخصية؛ من زواج وميراث، وكانت تلك هي المرة الأولى في تاريخ المسلمين التي يحكمهم فيها قانون غير قانون الله، لقد كان الصليبيون يهاجمون الأراضي الإسلامية، فمرة يقيمون بها بضعة أشهر، ومرة يقيمون فيها لسنوات عدّة، بل كانوا ينشئون فيها دويلات صغيرة، ولكنّهم لم يجرؤوا قطّ في أيّة مرّة أن يضعوا قانوناً من عندهم يحكمون به المسلمين^(١).

لقد بدا واضحاً اختلافاً الدول الكبرى على الولايات العربيّة التابعة للدولة العثمانيّة؛ ومن أجل ذلك سلكت هذه الدول المتآمرة طرائق عدّة، لتُسهلَ على نفسها دخول جيوشها إلى البلاد العربيّة دون مقاومة، وأوجدت لذلك عملاء وجواسيس تملأ النفوسَ رغبةً بالتّطور الأجنبيّ الذي حمل بين طيّاته أفكاراً وعقائد تنافي العقيدة الإسلاميّة الحنيفّة من دور الخمر، والدّعوة لتحرر المرأة من حجابها الإسلامي وترسيخ المفاصل الاجتماعيّة الأوربيّة بين الشباب العربيّ المسلم.

١ - المصدر السابق نفسه، ص (٣٧٣).

(٣٠) محمود الثاني ابن عبد الحميد الأول

(١٢٢٣-١٢٥٥هـ)، (١٨٠٨-١٨٣٩)

تولّى الحكم وعمره أربع وعشرون سنة، استفاد من إقامته الجبريّة مع سليم الثالث، حيث أطلعه الأخير على خطط الإصلاح، إلّا أنّ السلطان الجديد أرغم في البداية على الانخاء أمام رغبات الإنكشارية، فأمر بإلغاء كلّ الإصلاحات حتّى يرضيهم إلى أن تحين له الفرصة لتطبيق، وتنفيذ تلك الخطط، وكان محمود يتذرّع بالصبر انتظاراً لساعة الخلاص من الإنكشارية الذين هدّدوا كيان الدولة العثمانية، ولكنّ الفرصة لم تتح له ذلك قبل مرور عدّة سنوات ولاسيّما أنّ عهده قد امتلأ بالحروب والتطورات المهمّة التي استنزفت معظم جهوده وكثيراً من إمكانيّاته^(١).

أمّا الحروب الخارجيّة؛ فكان أن ساءت العلاقة بين روسيا وفرنسا، وكادت تقع الحرب بينهما، فطلبت روسيا الصلح مع الدولة العثمانية، وعُقِدَت بين الطرفين معاهدة بخارست^(٢) عام ١٢٣٧هـ/١٨١٢م، التي نصّت على بقاء الأفلاق والبغدان وبلاد الصرب تابعةً للدولة العثمانية، وقد مكّن الصلح السلطان محمود من القيام ببعض الإصلاحات، والقضاء على الثورات والتمرّدات في الدولة^(٣).

إلغاء الإنكشاريّة:

فسدت طبيعة الإنكشاريّين، وتغيّرت أخلاقهم، وانغمسوا في الملذّات، والحرّمات وشقّ عليهم أن ينفروا في برودة الشتاء، وهم الذين أربكوا الدّولة؛ إذ

١- انظر: الدولة العثمانية، د. إسماعيل ياغي، ص (١٢٧، ١٢٨).

٢- سميت هكذا نسبةً إلى بوخارست (بالرومانية: București) هي عاصمة رومانيا السياسية والصناعية.

٣- تاريخ الدولة العثمانية، إسماعيل سرهنك، ص (٢٢٦، ٢٢٨).

وضعوها في حالة من الفوضى بقتلهم السلاطين أو خلعهم، إلى أن قيَّض الله السلطان محمود الثاني عام ١٢٤١هـ للتخلص منهم^(١).

ففي صباح ٩ ذي القعدة تقدَّم السلطان ووراءه جنود المدفعية، وتبعهم العلماء، والطلبة إلى ساحة (آت ميداني)، حيث اجتمع العصاة هناك يثيرون

الشغب وقيل: إنَّ السلطان سار معه شيخ الإسلام قاضي زادة طاهر أفندي، والصدر الأعظم سليم باشا أمام الجموع التي كانت تزيد على ٦٠,٠٠٠ نسمة^(٢).
ثم أحاطت المدفعية بالميدان واحتلَّت المرتفعات ووجهت قذائفها على الإنكشارية، فحاولوا المحجوم على المدافع ولكنها صبت حممها فوق رؤوسهم فاحتموا

بثكناتهم هروباً من الموت، فأحرقت وهدمت فوقهم وبذلك انتصر السلطان عليهم، وفي اليوم التالي صدر مرسوم سلطاني قضى بإلغاء فئتهم، وملابسهم، واصطلاحاتهم من جميع بلاد الدولة، وإعدام من بقي منهم هارباً إلى الولايات، ثم قلَّد حسين باشا الذي كانت له اليد الطولى في إبادتهم قائداً عاماً، وبدأ بعدها نظام الجيش الجديد^(٣).

١- تاريخ الدولة، د. حسون، ص (١٠٧، ١٠٨).

٢- الدولة العثمانية، د. الصلابي، ص (٣٧٧).

٣- تاريخ الدولة، د. حسون، ص (١٦٩).

وبذلك أصبح السلطان محمود حراً في تطوير جيشه، فترسّم خطى الحضارة الغربية، فاستبدل الطربوش الرّوميّ بالعمامة، وتزيّياً بالزّيّ الأوربيّ، وأمر أن يكون هو الزّيّ الرّسميّ لكلّ موظفي الدولة العسكريين، والمدنيين، فكان هو أوّل من فعل ذلك من سلاطين آل عثمان^(١) ويبدو واضحاً من هذا التّصرف أثرُ الهزيمة النفسيّة لديه.

وفاة السلطان، وبعض أعماله:

تعرّض للإصابة بعدوى السل عام ١٨٣١م، بعد حوادث باعثة على الأسى وجّهت ضده، فكانت وفاته في ١٩ من شهر ربيع الآخر من عام ١٢٥٥هـ، وعمره لا يتجاوز السادسة والخمسين.

كانت حياته سلسلةً من الكفاح الشّاق لإنجاز شيءٍ لبلاده، وبنى الكثير من المدارس الجديدة، وفي عهده شيّدت العمارات الحديثة، كما شيّد جسر ((أونقاباني))^(٢) أثناء سني حكمه، وأنشئت في عهده أيضاً المدرسة الشرعيّة الإسلاميّة في مكة المكرمة، وجدد بناء المسجد الأقصى^(٣).

١- المصدر السابق نفسه.

٢- هو ما يسمى اليوم بجسر أتاتورك، على القرن الذهبي.

٣- تاريخ الدولة، د. حسون، ص (١٧٩).

(٣١) عبد المجيد ابن محمود الثاني

(١٢٥٥-١٢٧٧ هـ)، (١٨٣٩-١٨٦١ م)

كان السلطان عبد المجيد الأول ضعيف البنية، شديد الذكاء، واقعياً، ورحيماً، وهو من أجلّ السلاطين قدراً، أحبّ الإصلاح وأدخل التنظيمات الحديثة، كما أدخل إصلاحات عديدة في الجيش، وترقّت في أيامه العلوم والمعارف واتسعت دائرة التجارة، وشيّدت الكثير من المباني الفاخرة ومُدت في عهده أسلاك الهاتف وقضبان السكك الحديدية^(١).

وأُسست الدولة جامعةً باسم دار الفنون، وجعلت التعليم ابتدائياً وإعدادياً وعالياً، وقامت بإصلاحات كثيرة^(٢). وهكذا بدأ عهدٌ جديدٌ سُمي عهد التنظيمات الخيرية العثمانية التي كان من بينها احترام الحريّات العامة، والممتلكات، والأشخاص بغض النظر عن معتقداتهم الدينيّة، ونص فيه على مساواة جميع الأديان أمام القانون^(٣).

وقد أنشأ الصدر الأعظم رشيد باشا مجلساً للنوّاب، ووضع للدولة قانوناً للعقوبات وفق الشرائع الحديثة واستقدم رجلاً فرنسياً ليضع قانوناً حديثاً للدولة واشتدّ في تطبيق قوانينه شدةً حازمة ضمنت احترام الناس لها، وأعقب ذلك بإنشاء بنك جديد للدولة، وإصدار أوراق ماليّة^(٤).

١- تاريخ الدولة، د. حسون، ص (١٩٨).

٢- تاريخ الدولة، الأمير شكيب أرسلان، ص (٢٩٣، ٢٩٤).

٣- انظر: الانحرافات العقديّة والعلمية، د. علي الزهراني، (٢/٢٦٦).

٤- صدرت بدون رصيد معدني ومن ثمّ فقدت قيمتها، إذ لم ينصحهم المستشارون الأجانب حول ذلك/ د. الصلابي، ص (٤١٩).

لكن هذا الانقياد الشديد للفكر الغربي أثار المسلمين في أرجاء الدولة؛ إذ رأوا أنها تساوي بهم النصارى واليهود، وتستبدل بالشرعية الخفيفة قوانين النصارى وأحسوا كذلك أن حكومة رشيد باشا لا تكاد تأتي أمراً إلا راعت فيه مصلحة النصارى، وحرصت ألا تمسهم بأذى، فنفروا من ذلك نفوراً عظيماً، ولم يجد السلطان ورجال دولته من بدّ في إسقاطه، وعزله أمام مظاهر السخط الشعبي، وخوفهم من وثوب المسلمين، وثورتهم^(١).

التقليد والتبعية:

لقد انتفع الرسول ﷺ بدلالة أبي الأريقط الدُّولي في طريق هجرته إلى المدينة مع أنه كافر، فأتضح من هذا الدليل: أن الموقف الطبيعي للإسلام والمسلمين من الحضارة الغربية هو أن يجتهدوا في تحصيل ما أنتجته من النواحي العلمية، ويحذروا مما جنته من التمرّد على خالق الكون جلّ وعلا، فتصلح لهم الدنيا والآخرة، والمؤسف أننا نعكس القضية؛ فنأخذ منهم الانحطاط الخلقي، والانسلاخ من الدين، ولا نتعلم شيئاً مما أبدعوا فيه من النواحي العلمية، فחסرنا بذلك الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين^(٢).

لقد جعل الله في شريعته الكمال؛ فقد نهى عن اتباع غيرها من الأهواء، والنظم البشرية المضلة، ونهى عن اتباع الكفار، فقال: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٨) إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (١٩) هَذَا بَصِيرَتُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿[الجاثية: ١٨-٢٠].

١- انظر: الشرق الإسلامي، حسين مؤنس، ص (٢٥٦).

٢- انظر: التقليد والتبعية، د. ناصر العقل، ص (٤١).

وفاة السلطان، وبعض صفاته:

كان سلطاناً كريم الأخلاق، عادلاً حليماً، وكانت الرعية العثمانية من جميع الطبقات تحبه وتحترمه، ولذلك أسف على موته الجميع^(١).

١ - تاريخ الدولة، الأمير شكيب، ص (٢٩٧).

لا يقاس النجاح بالموقع الذي يتبوأه المرء
في حياته.. بقدر ما يقاس بالصعاب التي
يتغلب عليها.



(٣٢) عبد العزيز بن محمود الثاني

(١٢٧٧ - ١٢٩٣ هـ)، (١٨٦١ - ١٨٧٦ م)

تولّى الحكم بعد أخيه، وفي عهده تفجّرت ثورةٌ في جزيرة كريت، ثمّ أخذت، وتّم فتح قناة السويس^(١) عام ١٢٨٥ هـ/١٨٦٩ م، بواسطة شركة فرنسيّة، وصدرت مجلة الأحكام العدلية، وقانون التجارة البحريّة، وكان عبد العزيز أول سلطان يزور أوربة عندما دعاه نابليون الثالث سنة فتح قناة السويس إلى معرض باريز مع سائر الملوك، ففكّر السلطان في الاستفادة من خلاف الدول الأوربيّة فيما بينها آنذاك، لكنّه وجد أنّها تتفق جميعها ضدّ الدولة العثمانية لأنّها دولةٌ إسلاميّةٌ، غير أنّهم يختلفون فيما بينهم حسب مصالحهم الخاصّة^(٢).

وكان من أهم الإصلاحات الإداريّة إنشاء محكمةٍ عليا قضائيّة، كما أنشئ مجلس شورى الدولة على النسق الفرنسي، ومن أهم اختصاصاته مناقشة الميزانيّة^(٣).

١- قناة السويس: هي قناة مائيّة تقع إلى الغرب من شبه جزيرة سيناء، وهي عبارة عن ممر ملاحى

بطول ١٦٣ كم في مصر بين بورسعيد على البحر الأبيض المتوسط والسويس على البحر الأحمر.

وتقسم القناة إلى قسمين، شمال وجنوب البحيرات المرّة. استغرق بناء قناة السويس ١٠ سنوات.

٢- انظر: تاريخ الشعوب الإسلامية، ص (٤٩٠، ٤٩٢).

٣- الدولة، د. إسماعيل ياغي، ص (١٥٩).

أمّا في مجال التعليم، فقد أسست مدرسةً ثانويّةً هي مدرسة ((غلطة سراي)) كان برنامج الدراسة فيها خيراً من برامج المدارس الأخرى، وكان الغرض منها إعداد فئة من الشباب يكون قادراً على حمل عبء الوظائف العامة، وقد أقبل الطلاب عليها، حتّى بلغ عددهم عام ١٨٦٩م ستمئة طالب من دياناتٍ مختلفة^(١). على أنّ أهم مآثره اعتنائه بالأسطول، ففي زمانه كان للدولة قوّة بحريّة عظيمة وكانت هي الدولة الثالثة في البحر^(٢).

عزل السلطان عبد العزيز، وخيانة الأنفس الضعيفة:

كان السلطان قد زار أوربة، ورأى اتفاق وتأمّر الدول الأوربيّة على دولة الخلافة فحاول أن يستفيد من خلافاتهم، ويُنشئ صداقةً مع روسيا، فبدأ يكثر من دعوة السفير الروسيّ إلى استانبول، فخافت الدول الأوربيّة، وبدأت تشيع الشائعات عنه في التّبذير، والإسراف، واستطاع مدحت باشا^(٣) أن يعزله، ثمّ قام مع عصابته بقتله^(٤).

١- المصدر السابق نفسه.

٢- تاريخ الدولة، الأمير شكيب، ص (٢٩٨).

٣- مدحت باشا: رجلٌ من يهود الدومّة، روّجت له الدعاية الماسونيّة على أنّه البطل العظيم حامل لواء الإصلاح والحرية، كان من مؤسسي جمعية الاتحاد والترقي، التي حملت شعار الماسونيّة نفسه، وانكشفت جوانب هذا اليهودي للسلطان عبد الحميد الثاني، فألقى القبض عليه، وعزله، ونفاه فيما بعد، ولقد اعترف أثناء محاكمته باشتراكه في عزل وقتل السلطان، وهذا أمرٌ معروفٌ تاريخيّاً ومدوّنٌ في الوثائق / اليهود والماسونيّة لعبد الرحمن الدوسري، ص (٧٠، ٧١).

٤- الدولة العثمانية، د. جمال عبد الهادي، ص (١١٠).

ولكن لماذا قتل السلطان:

يعود سبب قتل السلطان عبد العزيز إلى رفضه للدساتير الغربية برمتها، وكذلك عاداتها البعيدة عن البيئة الإسلامية، وتمكنه من إصلاح أحوال الدولة إلى درجة كبيرة، ولاسيما في المجال

يذكر أن السلطان عبد العزيز .د. أن قويا البنية ش. ديد الق. وة، و.د. ذلك عندما أرادوا اغتياله أرسد. لوا .د. أربعة مصارعين فأتوه في «الحريم السلطاني» وهو نائم فبركوا عليه .د. فنهض عليهم وما استطاعوا طرحه حتى قام أحدهم بأخذ مق. ص .د. أن بالقرب منه فقطع عروق ال. سلطان فتمكنوا منه.

العسكري، حيث استبدل الأسلحة القديمة بأخرى جديدة، واستورد أفضلها من مصانع أوربة، وشكّل الفرق العسكرية لأبناء العشائر، والقبائل من كل الولايات، وسلّح القلاع والحصون بأحدث المدافع، واشترى المدرعات، وشيد عدّة معامل لصنعها، وعادت دار صناعة (إزميت)

إلى ما كانت عليه من المجد، وأمر بوضع ميزانية منضبطة، وألغيت القوائم المالية، وسوّت بذلك الدولة جميع ديونها، وأصبحت المعاملة بالنقود، وانتظمت الأحوال المالية^(١).

لقد هال الدول الأوربية رؤية ما حدث على يد هذا السلطان في وقتٍ قصير؛ فتعرقلت مخططاتهم في القضاء على الرجل المريض - الذي استيقظ من غفلته - لذا رأوا تدبير مؤامرة خلعه، ثمّ قتله^(٢).

١ - الدولة، د. الصلابي، ص (٤٣٨).

٢ - تاريخ الدولة، د. علي حسون، ص (٢٠٥، ٢٠٦).

(٣٣) مراد الخامس ابن عبد المجيد

(١٢٩٣هـ. / ١٨٧٦م) مدة ولايته ٩٣ يوماً

كان على جانب كبير من الذكاء، والثقافة التركية، والغربية، كما أبدى اهتماماً بالعلوم، والشؤون الأوروبية، والتقى ببعض الأوربيين، وانخرط في سلك الماسونية، وكانت أن أصابته الدهشة، والفرع عند إيقاظه بعد منتصف الليل عند خلع السلطان عبد العزيز، وكانت صحته في تدهور مستمر في الوقت الذي كان مدحت باشا يحاول أن يعلن الدستور الوضعي بدلاً من الشريعة الإسلامية أثناء مرضه، ونتيجة لذلك خلع من منصبه بقرار من شيخ الإسلام^(١).

وبعد عزله تعافى من مرضه العقلي، وبقي على قيد الحياة حتى توفي عن عمر يناهز الرابعة والستين^(٢). لقد أثر الشباب من أعضاء جمعية الاتحاد والترقي على مراد الخامس، فانتسب إلى الحفل الماسوني، وأدمن شرب الخمر، وتشبع بالأفكار الغربية العلمانية^(٣).

وقد قال عنه السلطان عبد الحميد: «كان من طبيعته أن ينخدع بمن يتسمون في وجهه، دون أن يفكر في المعقول، وغير المعقول، حتى إنه بسبب ذلك لم يكن يخطر على باله عدم لياقة اشتراكه وهو خليفة المستقبل في الحفل الماسوني، وتقدير المصيبة التي ستجتم عن ذلك»^(٤).

١- الدولة، د. إسماعيل ياغي، ص (١٧٧، ١٧٨) / تاريخ الدولة، د. حسون، ص (٢٠٩).

٢- المصدر السابق نفسه.

٣- المصدر السابق نفسه.

٤- انظر: والدي السلطان عبد الحميد، ص (١٧٨).

عندما أقوم ببناء فريق فأني أبحث دائماً ع.ن
أناس يحبون الفوز وإذا لم أعثر على أي م.نهم
فأنتني أبحث عن أناس يكرهون الهزيمة
(روس بروت)

(٣٤) عبد الحميد الثاني ابن عبد المجيد

(١٢٩٣-١٣٢٦هـ.) ، (١٨٧٦-١٩٠٩م)

تمهيد:

عبد الحميد هو السلطان الرابع والثلاثون من سلاطين آل عثمان، تولى عرش الدولة وهو في الرابعة والثلاثين من عمره؛ إذ ولد في ١٦ شعبان عام ١٢٥٨ هـ / ١٨٤٢م^(١).

ماتت والدته وهو في العاشرة من عمره، فاعتنت به الزوجة الثانية لأبيه وكانت عقيماً، فأحسن تربيته وبذلت له من حنانها، كما أوصت بميراثها له، وقد تأثر السلطان عبد الحميد بهذه التربية وأعجب بوقارها وتدينها، وكان لهذا انعكاسٌ على شخصيته طوال عمره^(٢).

خدمته للأمة الإسلامية:

الدكتور علي حسون يتحدث عن إنجازاته^(٣).

لقد خدم الخليفة عبد الحميد الأمة الإسلامية مدة ثلاثة وثلاثين عاماً، وعلى الرغم من ضعف الدولة العثمانية في عهدها الأخيرة، وتكالب أعدائها

١- الدولة العثمانية، د. الصلابي، ص (٤٤١).

٢- المصدر السابق نفسه.

٣- تاريخ الدولة العثمانية، د. حسون، ص (٢٦١-٢٦٤).

عليها من جميع الجهات استطاع أن يقوم بخدمات جلّى فاقت ما قام به أقرانه من السلاطين المتأخرين.

في مجال التعليم والثقافة: قام بإنشاء دار العلوم السياسيّة، والجامعة بفروعها كافة، ودور المعلمين والمعلمات، ومدارس اللغات، ومدرسة الفنون النسويّة، والمدارس الإعداديّة، والثانويّة في كل الولايات، وجعل تعليم اللغة الأجنبيّة إلزاميّاً من المرحلة الإعداديّة، وافتتح متحف الآثار الشرقيّة، ومكتبة بايزيد، ومكتبة يلدز، ومدرسة الطب فكان عدد الخريجين عام ١٣٠٣هـ، الموافق ١٨٢٥م، (٣٩٥) خريجاً من بينهم (٢٩٥) خريجاً من سكان الولايات.

وفي مجال الخدمات الصحيّة والاجتماعيّة: أسس مستشفى الأطفال، ودار العجزة من ماله الخاص، وأنشأ مركز البريد، ومدّاً أنابيب مياه الشرب للعاصمة وأنشأ دار النفوس العامّة، والغرف الزراعيّة والتجاريّة، ومدّاً خطوط السكك الحديدية من دمشق للمدينة المنورة بطول ١٣٢٧ كم، وقد استغرق إنجازها سبع سنين، وبتكلفة ٣ ملايين جنيه.

وفي مجال الإصلاحات العسكريّة: استقدم الخبراء الألمان لتدريب الجيش وفق الأساليب الحديثة، وأرسل البعثات للخارج، وجهاز الجيش بالأسلحة الحديثة.

وفي مجال الصحافة والنشر: زاد عدد الصحف على نحو ملحوظ، ونذكر منها الصحف الآتية: حقائق، وقت إقدام، ترجمان حقيقة.

سياسته مع العرب: كانت في غاية من الود والمحبة، وكان يرسل الهدايا كلّ سنة لشيوخ العشائر، كما أنّه افتتح مدرسة العشائر في استانبول، وألّف كتائب الزحوف العربيّة واتخذها حرساً خاصاً له وهي التي حازت إعجاب الأجانب، وقد أخلصت له في أشد المحن. وكان يعامل قادة العرب باحترام عظيم حينما

كانوا يزورون العاصمة، وكان يعين بعضهم في المراكز العليا مثل عزت باشا العابد الذي كان السكرتير الثاني له مدة ثلاث عشرة سنة، وقد نظر إلى العرب من خلال عقيدته الدينية القومية.

ولنضرب مثلاً عن بعض إصلاحاته في ولاية سورية، وبعض البلاد العربية: فقد توسعت خطوط البرق على نحو ملحوظ، وبلغت مراكز البريد والهاتف في الولاية- أي سورية- في عام ١٣١٨هـ (٢٥) مركزاً للبريد و(١٨) مركزاً للهاتف وجرى في عهده بناء دار الحكومة في دمشق، وجر مياه عين الفيحة إليها، وأنشأ الثكنة الحميدية (جامعة دمشق اليوم)، وأنشأ حي المهاجرين بسفح جبل قاسيون. وفي مجال إصلاح الكعبة المشرفة قام بفرش باطنها بالرخام، ووُجدَ تقرير رسمي لإصلاحها يحمل وثائق وخرائط عن ترميم الجُدُر وتحديد الرخام وتزيين اللوحات الخطية بالذهب المذاب، وإحضار أعمدة رخامية.

ولقد عامل أقليات الدولة العثمانية معاملةً لائقةً فدرّس الأكراد في مدرسة العشائر، ورفقي بعضهم إلى مناصب عليا.

لقد كان الخليفة عبد الحميد مسلماً متديناً شديد التمسك بالإسلام غيوراً عليه، ومن المعروف أنه لم يوقع أية مرسوم سلطاني قط إلا وهو متوضئ، وعندما عزلوه- بمؤامرة ماسونية- لم يقل إلا كلمة واحدة: ((إنها إرادة الله وقدره)).

زيارته إلى أوربة:

لقد قام الخليفة عبد الحميد بزيارة أوربة مع عمه عبد العزيز وذلك سنة ١٨٦٧م، وكان عمره ٢٥ عاماً، واقتنع الأمير عبد الحميد في هذه الرحلة: أن فرنسا دولة هو، وإنجلترا دولة ثروة وزراعة وصناعة، أما ألمانيا فهي دولة نظام، وعسكرية، ولقد تأثر الأمير عبد الحميد بهذه الرحلة، ودفعه ذلك التأثير إلى

الاهتمام بإدخال المخترعات الحديثة في دولته في مختلف نواحي الحياة، والأمثلة على ذلك كثيرة بالإضافة لما ذكرناه منها: شراؤه غواصتين، وكان هذا السلاح جديداً، وأدخل التلغراف إلى بلاده من ماله الخاص، وأدخل إلى البلاد أول سيارة، وأول دراجة، ولكنه وقف بحزم ضدّ سريان الفكر الغربي في البلاد^(١).

الدستور والخلافة:

ذكرنا سابقاً نبذة عن محاولات مدحت باشا إعلان ما سمي بالدستور أثناء خلافة السلطان عبد العزيز وفشله، ثم كيف حاول إعادة الكرة في عهد السلطان مراد، وعدم تمكنه أيضاً، أمّا وقد تولى الصدارة في عهد عبد الحميد تحت ضغط الدول الأوروبية ليفسح لهم المجال في نشر الأفكار الغربية، فشكّل مدحت لجنة مؤلفة من ستة عشر موظفاً وعشرة من العلماء وقائدين كبيرين من الجيش لوضع مشروع الدستور الذي استوحى من الدستور البلجيكي وذلك في عام (١٢٩٣هـ/١٨٧٦م)^(٢).

وقد نصّ على إطلاق لفظ العثمانيين على جميع الرعايا، وعلى الاعتراف بالحرية الشخصية، واعتبار الإسلام دين الدولة بعد أن كان الإسلام هو دستور الدولة، كما نصّ على إقامة مجلسين تتألف منهما السلطة التشريعية هما المبعوثان (النواب) والشيوخ (الأعيان)^(٣).

إنّ الخليفة عبد الحميد كان ضدّ الحكم بالدستور الذي يعرف في المصطلح العثماني باسم ((المشروطية)) أي الاشتراط على الحاكم بتحديد سلطاته، على اعتبار أنّ هذا فكر وافد من الغرب، ولذلك كان ضدّ المنادين به، ورائدهم مدحت باشا.

١- السلطان عبد الحميد الثاني، د. محمد حرب، ص (٥٧).

٢- انظر: الدولة العثمانية، د. الصلابي، ص (٤٤٤).

٣- تاريخ الدولة العثمانية، د. حسون، ص (٢٥١).

ومن ثم لم ينفذ الخليفة ذلك الدستور، بل بالمقابل أقال مدحت باشا عام ١٢٩٤هـ؛ باعتباره مرتكباً للخيانة العظمى ونفاه، وقد ثبتت اتصالاته بالإنكليز والتآمر معهم ضد الدولة العثمانية^(١).

لا يتحمل هموم السلطنة إلا السلطان:

لقد اتهم الخليفة عبد الحميد بأنه أنشأ جهاز مخبرات خاصاً به، وحاول أعداؤه أن يثيروا الرأي العام حوله من جرّاء هذا التصرف.

يقول الخليفة عبد الحميد عن هذا الموضوع: «كان جدي السلطان سليم الثالث يصيح قائلاً: ((إن أيدي الأجانب تتحوّل فوق كبدي، وعلينا أن نرسل السفراء إلى الدول الأجنبية لنقل أساليب التقدم الأوربي، ولنعمل سريعاً على تعلم ما وصلوا إليه)) بينما كنت أحسّ أنا أيضاً بأيدي هؤلاء الأجانب، ليست فوق كبدي، وإنما في داخله، إنهم يشترّون صدوري العظام، ووزرائي، ويستخدمونهم ضدّ بلادي كيف يحدث هذا؟ وهم الذين أنفقت عليهم من خزانة الدولة، ولا أستطيع معرفة ما يعملونه، وما يدبرون له، ويعدّون؟. نعم أنا أسست جهاز المخابرات، وأنا أدركته، لقد أسسته لا ليكون أداة ضدّ المواطن، ولكن لكي يعرف، ويتعقب هؤلاء الذين خانوا دولتي، في الوقت الذي كانوا يتسلمون رواتبهم من خزانتها، وفي الوقت الذي كانت النعمة العثمانية تملؤهم حتّى حُلوقهم»^(٢).

كان جهاز الخليفة - خلال ثلاثين سنة - يخبر السلطان فور ظهور كلّ حركة، ولذلك تمكن السلطان من إخماد كل تمرد داخلي في حينه^(٣).

١- تاريخ الدولة، د. حسون، ص (٢٥١).

٢- مذكرات السلطان عبد الحميد، ص (١٦٠).

٣- الدولة العثمانية، د. إسماعيل ياغي، ص (١٨٩).

الحرب الروسية العثمانية:

كانت روسيا ترغب في الوصول إلى المياه الدافئة بسبب عوامل دينية واقتصادية وقد نصَّ بطرس الأكبر في وصيته للروس في الفقرتين التاسعة والثانية عشرة على ضرورة الصراع الحضاري ضدَّ العثمانيين إلى أن تنتهي الدولة العثمانية من الوجود^(١).

حيث يقول بطرس الأكبر في الفقرة (٩): «نقترِب من القسطنطينية، والهند بقدر الإمكان، فمن يملك القسطنطينية فقد ملك العالم، بناءً على ذلك ينبغي ملازمة الحرب مع العثمانيين». وفي الفقرة (١٢) يقول: «وبعد التسلط على الممالك العثمانية، نجتمع جيوشنا، وتدخل أساطيلنا بحر البلطيق، والبحر الأسود، ونشرع في التفاوض مع فرنسا ودولة النمسا في قسمة العالم بيننا»^(٢).

بطرس الأكبر أو بيتر (١٦٧٢ - ١٧٢٥)

يعتبر بيتر العظيم أحد أعظم من حكموا روسيا على مدار تاريخها، وقد قاد سياسة التغريب وسياسة التوسع التي حولت روسيا القيصرية إلى إمبراطورية روسية والتي باتت إحدى أهم القوى على مستوى أوروبا، وهو مؤسس مدينة سانت بطرسبرغ والتي بقيت عاصمة لروسيا على مدى أكثر من قرنين من تاريخها، خلفته في الحكم زوجته كاترينه الأولى. كما أجرى عدة إصلاحات في الإدارة المالية والصناعية والمجتمع. كما أسس جيشاً حديثاً وبنى أسطولاً بحرياً عظيماً لروسيا؛ حيث كان هدف بطرس الأكبر آنذاك جعل روسيا دولة أوروبية سياسياً وثقافياً.

١ - الدولة، د. الصلابي، ص (٤٥٤).

٢ - التحفة الحليمية، إبراهيم حلمي بك، ص (٢٤١).

بطرس الأكبر



اهتمت روسيا بتلك الوصية؛ حيث كثرت الثورات بدعم من روسيا والدول الأوروبية في البلقان واليونان وغيرها من الأقاليم العثمانية، ولم تكتف بذلك، بل عملت أيضاً على قيام دول مستقلة مثل رومانيا، وبلغاريا، والصرب، واليونان. ودخل العثمانيون في حرب طاحنة مع الروس، وعبرت الجيوش الروسية نهر الدانوب، واستولت على بعض المدن التابعة للعثمانيين والتي تقع في بلغاريا حالياً، ولكن القائد العثماني الشجاع الغازي (عثمان باشا) تصدّى لهم بكل شجاعة، فردّهم على أعقابهم منهزمين، فأعادوا الهجوم بقوة أكثر كثافة، ومع ذلك نجح القائد العثماني في التصدي للروس مرّة أخرى، ولقي من جرّاء ذلك تكريماً من السلطان على بطولته^(١).

ثمّ ازداد عدد الجنود الروس ليتجاوز ١٥٠ ألف مقاتل، مقابل قرابة ٥٠ ألف مقاتل عثماني، ومع ذلك لم يكتف العثمانيون بالدفاع والصمود في مواقعهم، بل أعدوا خطة رائعة لهجوم معاكس على خطوط العدو المحاصر لهم طالبين بذلك إمّا النصر، وفكّ الحصار، أو الشهادة.

١- الفتوح الإسلامية عبر العصور، ص (٤١٨).

وقاد عثمان باشا قواته التي هجمت على الأعداء، وهم يهللون، ويكبرون، فسقطت أعدادٌ منهم شهداء على أيدٍ قواتِ الروس، وأصيب القائد العثماني ببعض الجراح، فسرت شائعات قويّة بين الجند باستشهاده، ففتّ ذلك في عضدهم، وانتهت المعركة بنصر الروس، وذلك عام ١٢٩٤هـ، أو آخر سنة ١٨٧٧م، وأسر القائد عثمان باشا، وعُملَ بكرم وسخاء ذلك لشدة إعجاب الروس ببسالته^(١).

وأمام تلك الهزائم العثمانية في أوربة، وآسيا اضطرت الدولة العثمانية للدخول في هدنة مع الروس، وقبول المفاوضات معهم، حيث وقعت بين الطرفين معاهدة سان ستفانو عام ١٨٧٨م؛ حيث وقعها ((صفوت باشا)) عن الدولة وهو ييكي، وكان لا بدّ بالضرورة أن تحتوي هذه المعاهدة على شروط مجحفة بالدولة العثمانية^(٢).

لم يكن الخليفة عبد الحميد راضياً في الأصل بدخول هذه الحرب، لذلك لم يصدّق على هذه المعاهدة، وقام بجهود سياسية، حتى أقنع بريطانيا في الوقوف إلى جانبه، وبذلك ضمن عقد مؤتمر آخر (مؤتمر برلين) لتخفيف آثار معاهدة سان ستفانو من ناحية، وإخافة روسيا بمنافستها بريطانيا، ومن ثمّ قلّلت البنود الخاسرة في المعاهدة الأولى، وبالفعل انعقد مؤتمر برلين عام (١٣٠٥هـ/١٨٨٧م)^(٣).

وقد ذكر بعض المؤرخين: أنّه في كواليس مؤتمر برلين عرض (بسمارك) المستشار الألماني تقسيم الإمبراطورية العثمانية على مذهب السلام الأوروبي، فعرض على بريطانيا مصر وعلى فرنسا تونس، والشام، وعلى النمسا البوسنة

١- المصدر السابق نفسه.

٢- السلطان عبد الحميد، ص (١٤٤).

٣- الدولة، د. الصلاحي، ص (٤٥٨).

والهرسك، وغير ذلك من أملاك السلطان، غير أنَّ هذه العروض لم تدرج في مقررات المؤتمر^(١).

أوتو فون بسمارك رجل دولة
وسياسي ألماني ولد في
١٨١٥، شغل منصب رئيس
وزراء بروسيا من سنة
١٨٦٢ حتى سنة ١٨٩٠.
من أبرز أعماله توحيد
الولايات الألمانية في مملكة
واحدة سميت المملكة الألمانية
أو «الرايخ الألماني الثاني».



أوتو فون بسمارك

وبعد ذلك اتفقت الدولة العثمانية مع بريطانيا على أن تتخلى لها عن قبرص، وتؤدي بريطانيا للدولة خراجاً سنوياً عن هذه الجزيرة، وبمقابل هذا التخلي تعهدت بريطانيا للدولة بأنّه إن تجاوزت روسيا حدود تركية من جهة آسيا، تكون بريطانيا مساعداً لها^(٢). وإذا نظرنا إلى حروب روسيا مع الدولة العثمانية سنجد أنها كانت تطبخ، والآخرون كانوا يأكلون^(٣).

الاحتلال البريطاني لمصر:

بعد الهزيمة التي لقيها محمد علي باشا عام ١٢٥٦هـ، أصبح لإنجلترا النصيب الأوفر في تصدير بضائعها لمصر دون دفع رسوم تذكر، ثم انتقلت السلطة بعد

١- في أصول التاريخ العثماني، ص (١٩٥)، د. إسماعيل ياغي، أحمد مصطفى عبد الرحيم.

٢- تاريخ الدولة، الأمير شكيب، ص (٣٠٣).

٣- المصدر السابق نفسه.

محمد علي إلى حفيده عباس باشا الذي تسلّم السلطة في عام ١٢٦٦هـ، فترجع عن خطّة جده وشدّد ارتباطه مع الباب العالي، واحتقر الثقافة الغربيّة، وحاربها، وعرقل حفر قناة السويس لإدراكه لما ستجره من متاعب لمصر، ولكن المنية سرعان ما عاجلته تحت ظروفٍ غامضة، وتولى الحكم أحد أولاد محمد علي الصغار وهو محمد سعيد باشا ذو الميول الغربيّة فقام بمنح دي ليسبس^(١) عام ١٢٧١هـ، امتياز حفر القناة، وشقت القناة على حساب موارد مصر، وبأيدي أبنائها حيث قضى منهم نحو الـ ٢٠ ألف عامل حتفهم، ثمّ في عام ١٢٨٠هـ، خلفه إسماعيل باشا الذي كان يرغب بجعل مصر قطعةً من أوروبا، وفي عام ١٢٨٦هـ، احتفل بفتح القناة بعد أن اضطر الباشا إلى الاقتراض من البنوك برّبا فاحش، ودخل صيف ١٢٩٩هـ، وعندها كانت البلاد معرضةً إلى خطر إنكليزي محقق^(٢).

فقد كان في الجيش المصري عنصران؛ أحدهما عربي مصري، والآخر تركي، فحصل خلافٌ بين العنصرين، فنشأ عن هذا الخلاف حزب وطني مصري ترأّسه أحمد عرابي، وحدثت بعض مظاهر الشغب وأخذت الثورة تمتد وتشتد حتى جرت مذبحة الإسكندريّة، وذهب فيها كثير من الأجانب، وهذا ما كانت إنكلترا تتمناه حتى تدخل من هذا الباب وهو حماية أرواح الأجانب، وجاء الأسطول الإنكليزي فضرب الإسكندريّة ودمر قلاعها ودخلت قوّاتها إلى القاهرة، وكلّ هذا بزعمهم على نيّة تأييد الخديوي ثمّ الرجوع من حيث أتوا، ولبت الجيش الإنكليزي مدة من الزمن في مصر وطال مكوثهم فيها والباب العالي يعترض عليهم ويطلب جلاءهم بحسب وعدهم، حتّى إنهم أحصوا مواعيدهم الرسميّة بالجلاء عن مصر فبلغت اثنين وستين وعداً نكثوا بها كلها،

١- فرديناند دي لسبس الدبلوماسي الفرنسي صاحب مشروع حفر قناة السويس.

٢- تاريخ الدولة، د. حسون، ص (٢٣٦، ٢٣٧، ٢٣٨).

وبقيت الحال على غير استواءٍ بين إنكلترة والدولة العثمانية مدة سلطنة عبد الحميد، وذلك كله بسبب مصر، وكان السلطان قد أرسل مختار باشا مندوباً من قبله لملاحظة مصالح الدولة، وكان المصريون يجلبون مختار باشا كثير الإجلال، ولكن الإنكليز لم يجعلوا له سبيلاً لأي تدخل في مصر^(١).

الاحتلال الفرنسي لتونس:

بعد انقضاء ثلاث سنوات على مؤتمر برلين ادعت فرنسا وجود استفزازات على الحدود الجزائرية التونسية، ودخلت تونس بحجة حمايتها بقوة قوامها ثلاثون ألف جندي، وحاصرت قصر (الباي) وأجبرته على توقيع معاهدة وافق بموجبها على الاحتلال بدعوى إعادة النظام والأمن، فأعلنت الدولة العثمانية احتجاجها، وتقرر إرسال الباخرة الحربية (إعصار توفيق) والحراقة (مظفر) وأيد السلطان إرسال القادة اللامعين مع فرقتين من قسم البحرية، وأمر باتخاذ الإجراءات اللازمة لحماية أمن طرابلس الغرب، وإلا فإن البلاد التونسية سوف تحتل برمتها، وعدت فرنسا ذلك عملاً عدائياً ووقف الأسطول الفرنسي في مواجهة الأسطول العثماني، وهدد بحرب واسعة، فما كان من الباب العالي إلا أن أبدى رغبته بالصلح؛ إذ إن الحرب الروسية العثمانية لم يمض عليها بعد إلا ثلاث سنوات خرجت الدولة منها منهكة القوى، ولقد طلب الخليفة عبد الحميد إرسال ١٨ فيلقاً وعشرة آلاف بندقية على الرغم من معارضة فرنسا^(٢).

الأطماع الإيطالية في ليبيا:

كانت إيطاليا تحلم بضمّ شمال إفريقية لها؛ لأنها تراه ميراثاً إيطالياً، هكذا صرّح رئيس وزرائها (ماتزيني) لكن فرنسا احتلت تونس، وإنكلترا احتلت مصر،

١- تاريخ الدولة، الأمير شكيب، ص (٣٠٥ - ٣٠٨).

٢- تاريخ الدولة، د. حسون، ص (٢٣٦).

ولم يبق أمام إيطاليا إلا ليبيا، وكانت السياسة الإيطالية لا تلفت النظر إلى تحركاتها، إلا أن السلطان عبد الحميد كان متيقظاً لتلك الأطماع الإيطالية، فقام باتخاذ التدابير اللازمة أمام الأطماع الإيطالية، ولما شعر أنه سيواجه اعتداءً إيطالياً مسلحاً على ليبيا قام بإمداد القوّات العثمانية في ليبيا بـ (١٥٠٠٠) جندي لتقويتها، وظلّ يقظاً تجاه تحركاتهم، ويتابعها شخصياً بواسطة سفير الدولة في روما، مما جعل الإيطاليين يضطرون إلى تأجيل احتلال ليبيا، حتى تمّ لهم ذلك في عهد جمعية الاتحاد والترقي^(١).

الجامعة الإسلامية:

بعد أن التقط السلطان عبد الحميد أنفاسه، وجرد المتأثرين بالفكر الأوربيّ من سلطاتهم، تولّى هو قيادة البلاد قياداً حازمةً، فاهتمّ بفكرة الجامعة الإسلامية، وقد تكلم في مذكراته عن ضرورة العمل على تدعيم أواصر الأخوة الإسلامية بين كل مسلمي العالم في الصين، والهند، وأواسط إفريقيا، وحتى إيران^(٢).

وفي هذا يقول: «إن عدم وجود تفاهم مع إيران أمر جدير بالتأسف عليه، وإذا أردنا أن نفوت الفرصة على الإنجليز، وعلى الروس فإننا نرى فائدة تقارب إسلامي في هذا الأمر»^(٣).

وإلى هذا أشار المؤرخ البريطاني آرنولد توتني^(٣) في قوله:

١- الدولة، د. الصلابي، ص (٤٨٣، ٤٨٤).

٢- المصدر السابق، ص (٤٦١).

*- مذكرات السلطان عبد الحميد، ص (٢٣).

٣- آرنولد جوزف تويني (١٨٨٩ / ١٩٧٥). وُلِدَ في لندن ودرَسَ اليونانية واللاتينية في أكسفورد، وتقلّب في عدّة مناصب، منها: أستاذ الدراسات اليونانية والبيزنطية في جامعة لندن، ومدير دائرة الدراسات في وزارة الخارجية البريطانية. من أهم أعماله «دراسة للتاريخ» وهو من أشهر المؤرخين في القرن العشرين.

«إنَّ السلطان عبد الحميد، كان يهدف من سياسته الإسلامية، تجمع مسلمي العالم تحت راية واحدة، وهذا لا يعني إلا هجمة مضادة، يقوم بها المسلمون ضدَّ هجمة العالم الغربي التي استهدفت عالم المسلمين»^(١).

ويعترف السلطان عبد الحميد بأنَّه لم يكن لديه الطاقة، ولا القوة لمحاربة الدول الأوروبية. حيث يقول: «ولكن الدول الكبرى كانت ترتعد من سلاح الخلافة، وخوفهم من الخلافة. جعلهم يتفقون على إنهاء الدولة العثمانية، وأن الدولة العثمانية تضم أجناساً متعدداً من أتراك، وعرب، وألبان، وبلغار، ويونانيين، وزنوج، وعناصر أخرى، وبالرغم من هذا فوحدة الإسلام تجعلنا أفراد أسرة واحدة، ويجب تقوية روابطنا ببقية المسلمين في كل مكان، يجب أن نقرب من بعضنا البعض، أكثر، وأكثر، فلا أمل في المستقبل إلا به. هذه الوحدة، ووقتها لم يحن بعد لكثه سيأتي، سيأتي اليوم الذي يتحد فيه كل المسلمين، ومثني، وينهضون فيه نهضة واحدة، ويقومون قومة رجل واحد، وفيه يحطمون رقبة الكفار»^(٢).

استخدم السلطان عبد الحميد كلَّ الإمكانيات المتاحة في ذلك الوقت من اتخاذ الدعاة من مختلف جنسيات العالم الإسلامي، ومن العلماء، والدعاة الذين يمكن أن يذهبوا إلى أرجاء العالم الإسلامي المختلفة؛ للالتقاء بالشعوب الإسلامية، وفهم ما عندهم، وإبلاغهم بآراء وتوجيهات السلطان الخليفة، والقيام بحملات تبرع لإحياء المساجد في العالم، والاهتمام بالمواصلات لربط أجزاء الدولة العثمانية، واستمالة زعماء القبائل العربية، واستمالة شيوخ الطرق الصوفية، والاستفادة من الصحافة الإسلامية في الدعاية للجامعة الإسلامية، والعمل على تطوير الدولة، وتحديثها بما هو ضروري^(٣).

١ - السلطان عبد الحميد، ص (١٦٨).

٢ - السلطان عبد الحميد، ص (١٧٢).

* مذكرات السلطان عبد الحميد، ص (٢٤).

لقد لبّت مجموعة من العلماء، ودعاة الأمة الإسلامية دعوة الجامعة الإسلامية من أمثال جمال الدين الأفغاني، ومصطفى كمال من مصر، وأبي الهدى الصيادي من سورية، والحركة السنوسية في ليبيا^(١).

وخرجت الصحافة في ٢٦/١٢/١٣٢٥هـ، في استانبول بخبر مفاده: أنّ عدداً من مسلمي الصين متحمسون، يحبون العلم، ويرغبون بالاستفادة من المعارف الإسلامية، وأنّ في بكين وحدها ثمانية وثلاثين مسجداً يؤدي المسلمون فيها الصلاة، ويدعون فيها لخليفة المسلمين السلطان عبد الحميد، وأنّ خطبة الجمعة في مساجد بكين تقرأ باللغة العربية، ثمّ تترجم إلى الصينية، وأنّ الدُّعاء للخليفة عبد الحميد بصفته خليفة المسلمين لا يقتصر على بكين فقط، بل يمتدُّ إلى كل مساجد الصين، وجوامعها^(٢).

تأسست في بكين - عاصمة الصين - جامعةٌ أطلق عليها المسلمون الصينيون اسم (دار العلوم الحميدية) نسبةً إلى السلطان، أو بتعبير السفير الفرنسي في استانبول اسم: (الجامعة الحميدية في بكين) وذلك في تقريرٍ له إلى وزارة خارجيته في باريس^(٣).

وفي مراسم الافتتاح، أُلقيت الخطبة باللغة العربية، ودعا الخطيب للسلطان الخليفة عبد الحميد، وبكى أغلب المسلمين بكاءً حاراً بدافع فرحتهم، ورُفِعَ العلم العثمانيّ على باب الجامعة، وقد أثر تأثيراً بالغاً في هؤلاء النَّاس طيّبي القلب^(٤).

١ - الدولة العثمانية، د. الصلابي، ص (٤٦٤).

٢ - جريدة ترجمان حقيقت، رسالة من الصين.

٣ - الدولة، د. الصلابي، ص (٤٧٦).

٤ - السلطان عبد الحميد، ص (٢٠٥).

محاولة تعريب الدولة:

كان الخليفة عبد الحميد يرى- منذ تولّى الحكم- ضرورة اتّخاذ اللغة العربيّة لغةً رسميَّةً للدولة العثمانيّة، وفي هذا يقول: «اللغة العربية لغةٌ جميلةٌ ليتنا اتّخذناها لغةً رسميَّةً للدولة من قبل، لقد اقترحت على (خير الدين باشا) التونسي عندما كان صدرًا أعظم أن تكون اللغة العربيّة هي اللغة الرسميّة، لكن سعيد باشا كبير أمناء القصر اعترض على اقتراحي هذا وقال: إذا عربّنا الدولة فلن يبقى للعنصر التركي شيءٌ بعد ذلك- ولكن تلك مسألةٌ أخرى- فاتخذنا للغة العربيّة لغةً رسميَّةً من شأنه- على الأقل- أن يزيد ارتباطنا بالعرب»^(١).

مراقبته للمدارس، ونظرته للمرأة:

عندما تولّى الخليفة عبد الحميد الخلافة رأى أنّ المدارس، ونظام التّعليم أصبح متأثراً بالفكر الغربيّ، وأنّ التيار القومي هو التّيار السائد في هذه المدارس، فتدخل في شؤونها ووجّهها إلى الدراسات الإسلاميّة؛ فاستبعد مادّة التاريخ العام، لكونها وسيلةً تؤثر سلباً على الأجيال لما تحمله من نزعات قوميّة، وأدخل مواد الفقه والتفسير بأسلوب أكثر مرونةً وذلك لإحيائها في نفوس الشباب من جديد^(٢).

اهتم السلطان عبد الحميد بالمرأة، وجعل للفتيات داراً للمعلّمت، ومنع اختلاطهن بالرجال، وفي هذا يذكر السلطان في معرض الدفاع عن نفسه أمام اتّهام جمعية الاتحاد والترقي لـ ه. ب. ك. بأنّه عدو العقل، والعلم بأنّه: «لو كنت عدواً للعقل، والعلم؛ فهل كنت أفتح الجامعة؟ لـ و. ك. كنت هكذا هل كنت أنشئ لفتياتنا اللواتي لا يختلطن بالرجال داراً للمعلّمت؟!».

١- المصدر السابق نفسه، ص (١٩٩).

٢- المصدر السابق نفسه، ص (٢٠١).

مدرسة العشائر:

أنشأ السلطان عبد الحميد في استانبول باعتبارها مركز الخلافة مدرسة العشائر؛ من أجل تعليم وإعداد أولاد العشائر العربية من الولايات المختلفة، وكانت مدّة الدراسة فيها خمس سنوات، وهي داخلية تتكفل الدولة بكل مصاريف طلابها، ولكل طالب إجازة صلة رحم، وهي مرة كل سنتين، وسافر الطالب فيها على نفقة الدولة، وكان المتخرجون في هذه المدرسة، يدخلون المدارس العسكرية العالية. وبرنامج المدرسة كالتالي:

- السنة الأولى: القرآن الكريم، العلوم الدينية، الإملاء، الحساب، والقراءة التركية، تدريب عسكري.
- السنة الثانية: التجويد، تحسين الخط، بالإضافة إلى مواد السنة الأولى.
- السنة الثالثة: الجغرافية، الفرنسية، بالإضافة إلى مواد السنة الثانية.
- السنة الرابعة: الصّرف العربي، اللغة الفارسية، الكتابة، النحو التركي، حسن الخط الفرنسي، بالإضافة إلى مواد السنة الثالثة.
- السنة الخامسة: النحو العربي، التاريخ العثماني، القواعد العثمانية، المكالمة التركية، الهندسة، المعلومات المتنوعة، حفظ الصحة، أصول إمساك الدفاتر، الرسم، بالإضافة إلى مواد السنة الرابعة^(١).

خط سكة حديد الحجاز:

عمل السلطان على كسب الشعوب الإسلامية عن طريق الاهتمام بكل مؤسساتها الدينية والعلمية، والتبرع لها بالأموال ورصد المبالغ الطائلة لإصلاح الحرمين، وترميم المساجد، وأخذ السلطان يستميل إليه مسلمي العرب بكل

١- تاريخ التربية التركية، عثمان أركين، ص (٦١٤، ٦١٥).

الوسائل، فكُون له من العرب حرساً خاصاً، وأبدى السلطان عبد الحميد اهتماماً بالغاً بإنشاء الخطوط الحديدية في مختلف أنحاء الدولة مستهدفاً من ورائها تحقيق الأغراض الآتية^(١):

١ - ربط أجزاء الدولة المتباعدة، ممّا ساعد على نجاح فكرة الوحدة العثمانية، والجامعة الإسلامية.

٢ - إجبار ولايات الدولة على الاندماج فيها، والخضوع للقوانين العسكرية؛ التي تنصُّ على وجوب الاشتراك في الدفاع عن الخلافة بتقديم المال والرجال.

٣ - تسهيل مهمة الدفاع عن الدولة في أية جبهة من الجبهات التي تتعرض للعدوان، لأنَّ مدَّ الخطوط الحديدية ساعد على سرعة توزيع القوات العسكرية وإيصالها إلى الجبهات^(٢).

كانت سكة حديد الحجاز^(٣) من أهم الخطوط الحديدية التي أنشئت في عهده، ففي سنة ١٩٠٠م، بدأ بتشديد خط حديديٍّ من دمشق إلى المدينة للاستعاضة عن طريق القوافل الذي كان يستغرق من المسافرين نحو أربعين يوماً، وطريق البحر الذي كان يستغرق اثني عشر يوماً، ولم يكن غرض السكة دينياً فقط، بل كان له أهدافٌ سياسية وعسكرية، فمن الناحية السياسية خلق المشروع في أنحاء العالم الإسلامي حماسة دينية كبيرة؛ إذ نشر السلطان على المسلمين في

١ - الدولة، د. الصلابي، ص (٤٧٧).

٢ - صحوة الرجل المريض، د. موفق بني المرجة، ص (١١٣).

٣ - سكة حديد الحجاز هي سكة حديد ضيقة (بعرض ١٠٥٠ ملم)، تصل ما بين مدينة دمشق والمدينة المنورة في منطقة الحجاز، بوشر العمل بها عام ١٩٠٠ وافتتحت عام ١٩٠٨، واستمر تشغيلها حتى ١٩١٦ في الحرب العالمية الأولى؛ إذ تعرضت للتخريب بسبب الثورة العربية الكبرى وسقوط الدولة العثمانية بعد الحرب.

وشارك القصر الحاكم في مصر في حملة التبرعات، وكان مسلمو الهند أكثر مسلمي العالم حماساً، وتبرعاً للمشروع، كما تبرّع شاه إيران بمبلغ خمسين ألف ليرة عثمانية^(٢).

وتكاليف أقل مما لو تعمله الشركات الأجنبية في الأراضي العثمانية^(٣).

وفي سنة ١٩٠٨م، وصل
الخطُّ الحديدي إلى المدينة المنورة،
وكان مفروضاً أنَّ يتمَّ مده بعد
ذلك إلى مكَّة، لكن حدث أن
توقف العمل فيه لأنَّ الشريف
حسين بن علي خشي على سلطانه
في الحجاز، فبقيت نهاية الخط عند
المدينة، حتَّى قامت الحرب العالمية

الأولى عمل الإنكليز بالتحالف مع القوَّات العربية التي انضمت إليهم بقيادة الشريف حسين على تخريب سكة حديد الحجاز، ولا تزال السكَّة معطلةً حتى

١- المصدر السابق نفسه.

٢- الدولة، د. الصلابي، ص (٤٧٨).

٣- السلطان عبد الحميد، ص (٢٢٤).

اليوم، والمأمول أن تبذل جهوداً لإصلاحها حتى تعود إلى العمل في تيسير سفر حجاج بيت الله الحرام^(١).

ال الشريف حسين والسلطان:

عمل السلطان على إبطال مخططات الإنكليز، ومؤامراتهم الخبيثة، ولم يتوان عن حجز من يشكُّ في ولائهم للدولة، ويلزمهم بالبقاء تحت رقابة الدولة في استانبول تحت مسميات المناصب والمرتبات، حتى تأمن الدولة شر فتنهم، كما فعل مع الشريف حسين عندما عينه عضواً في مجلس شورى الدولة، ليمنعه من العودة إلى مكة، ويقول السلطان عنه في مذكراته: «إنَّ الشريف حسين لا يحبنا، إنَّه الآن هادئ، لكنَّ الله وحده يعلم ماذا يمكن أن يفعل الشريف غداً».

لذلك تأخر قيام الثورة العربية الكبرى بقيادته إلى ما بعد خلع الاتحاديين للسلطان عبد الحميد؛ ذلك لأنَّ حزب الاتحاد والترقي الماسوني، أعاد الشريف إلى مكة، فاستطاع أن يتحالف مع الإنكليز، ويحدث تلك الفجوة بين مسلمي العرب والترك^(٢).

السلطان عبد الحميد واليهود:

إنَّ أمر اليهود، وعداءهم للإسلام تعود جذوره إلى ظهور الإسلام منذ أن انتصر الإسلام، وأجلاههم الرسول ﷺ عن المدينة المنورة لخياتهم المتكررة، وعداوتهم الدائمة، ومن ثمَّ عن سائر الجزيرة العربية في عهد عمر رضي الله عنه، وقد تظاهر بعضهم بالإسلام، وبثَّ السموم في جسم الأمة الإسلامية عبر تاريخها الطويل^(٣).

١ - الدولة، د. الصلابي، ص (٤٧٩).

٢ - المصدر السابق نفسه، ص (٤٨١).

٣ - المصدر السابق نفسه، ص (٤٨٦).

أمّا يهود الدولة العثمانية، فقد تمتعوا بكلّ الامتيازات والحصانات بموجب قوانين رعايا الدولة، ووجدوا السلم، والأمان، وحرية الوجود في الدولة العثمانية^(١).

يهود الدونمة:

هناك مفاهيم عديدة لكلمة الدونمة، ولكنّ المفهوم السياسي لها فإنّه يعني اليهود المسلمين الذين لهم كيانهم الخاص، وقد أطلق المعنى الخاص بالدونمة منذ القرن السابع عشر على اليهود الذين يعيشون في البلاد الإسلامية، ولاسيما في ولاية سلانيك^(٢).

إنّ مؤسس فرقة الدونمة هو شبتاي زيفي الذي ادعى: أنّه المسيح المنتظر في القرن السابع عشر، حيث انتشرت في تلك الأيام شائعة تقول: إنّ المسيح سيظهر في عام ١٦٤٨م كي يقود اليهود في صورة المسيح، وأنّه سوف يحكم العالم من فلسطين، ويجعل القدس عاصمة الدولة اليهودية المزعومة^(٣).

وقد استطاعوا أن يؤثروا في جمعية الاتحاد والترقي، وكان السلطان عبد الحميد عارفاً بحقيقة الدونمة، ويؤكد هذه الحقيقة الجنرال جواد رفعت أتلخان، حيث يقول في هذا الصدد: «إنّ الشخص الوحيد في تاريخ الترك جميعه، الذي عرف حقيقة الصهيونية والشبتائية وأضرارهما على الإسلام، وخطرهما تماماً، وكافح ضدها مدّة طويلة لتحديد شرورهم هو السلطان العثماني العظيم عبد الحميد الثاني الذي كافح هذه المنظمات الخطيرة لمدة ثلاثٍ وثلاثين سنة بذكاءٍ، وعزمٍ كالأبطال»^(٤).

١- اليهود والدولة العثمانية، د. أحمد النعيمي، ص (٣٨، ٣٩)

٢- يهود الدونمة، د. أحمد النعيمي، ص (٨).

٣- المصدر السابق، ص (١٦).

٤- السلطان عبد الحميد، والخلافة الإسلامية، للجندي، ص (١٠٧).

ونتيجةً لموقف عبد الحميد من الدونمة، قام يهود الدونمة بالتعاون مع المحافل الماسونية للإطاحة به، وقد استخدم هؤلاء شعاراتٍ معينةً كالحرية، والديمقراطية، وإزاحة المستبد عبد الحميد، وعلى هذا الأساس قاموا بنشر الشقاق، والتمرد في الدولة بين صفوف الجيش، وكانت الغاية من هذا تحقيق المشروع الاستيطاني الصهيوني باستيطان فلسطين، وكان يهود الدونمة يشكلون اللبنة الأولى لتنفيذ المخططات اليهودية^(١).

أمّا ثودر هرتزل وهو زعيم الحركة اليهودية الصهيونية فقد سعى بكل ما يملك من قوّة وأموال أن يغير من رأي عبد الحميد تجاه اليهود، ولكنّ النتيجة تبقى واحدة: وهي الرفض.



ثودر هرتزل

١ - الحركة الإسلامية الحديثة في تركيا، محمد مصطفى، ص (٦٨، ٦٩).

وفي هذا الصدد قام السلطان عبد الحميد الثاني بإرسال رسالة إلى هرتزل بواسطة صديقه نيولنسكي جاء فيها:



وفي الحقيقة كان عبد الحميد يرى: أنه من الضروري عدم توطين اليهود في فلسطين، كي يحتفظ العنصر العربي بتفوقه الطبيعي، وعن ذلك يقول: «...ولكن لدينا عدد كافٍ من اليهود، فإذا كنا نريد أن يبقى العنصر العربي متفوقاً علينا أن نصرف النظر عن فكرة توطين اليهود في فلسطين، وإلا فإن اليهود إذا استوطنوا أرضاً تملكوا جميع قدراتها خلال وقتٍ قصير، ولذا نكون قد حكمنا على إخواننا في الدين بالموت المحتم»^(١).

١- المصدر السابق نفسه، ص (١٤٦).

ومن ثم يمكننا القول بأن السلطان العظيم عبد الحميد الثاني العثماني المسلم، لم يدع لليهود أي مجال لاستيطان أرض فلسطين العربية العثمانية، ويعزز قولنا هذا قول هررتزل عندما قال: «إني أفقد الأمل في تحقيق أمني اليهود في فلسطين، وإن اليهود لن يستطيعوا دخول الأرض الموعودة، ما دام السلطان عبد الحميد قائماً في الحكم، مستمراً فيه».

فتمحركت الصهيونية العالمية، لتدعم أعداء السلطان عبد الحميد، وهم المتمردون الأرمن، والقوميون في البلقان، وحركة حزب الاتحاد والترقي، والوقوف مع كل حركة من شأنها أن تنفصل عن الدولة العثمانية^(١).

جمعية الاتحاد والترقي وآخرون يتآمرون على خلع السلطان:

التحق ثلاثة من الإعلاميين الثوريين العثمانيين هم نامق كمال، محمد ضياء، علي سعاوي بالأمر المصري مصطفى فاضل في باريس، وكونوا منظمة أسموها ((جمعية العثمانيين الجدد))، ومع مرور أيام قويت شوكتها وأصبحت تمارس الضغوط على السياسة العثمانية^(٢).

فشعر السلطان عبد الحميد أن جماعة العثمانيين الجدد بقيادة مدحت باشا تمارس ضغطاً متواصلاً لقبول أفكارها، حيث أجبرته على دخول الحرب العثمانية الروسية، فعمل على تشتيت أعضائها؛ فبدأ بنفي كبيرها وهو الصدر الأعظم مدحت باشا^(٣).

*- المصدر السابق نفسه، ص (١٥٨).

١- السلطان عبد الحميد الثاني، محمد حرب، ص (٢٣٤).

٢- الدولة، د. الصلابي، ص (٥٠١، ٥٠٢).

٣- المصدر السابق نفسه.

جمعية الاتحاد والترقي:

هي حركة معارضة هدفت إلى الإطاحة بالإمبراطورية العثمانية تأسست عام ١٨٩٤ وصلت إلى سدة الحكم في الدولة العثمانية بعد انقلابها على السلطان عبد الحميد الثاني في ٢٧ أبريل ١٩٠٩، ومن ثم ورطت الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى مما أدى إلى سقوطها وتقاسم الدول الأجنبية لأراضيها.

ومن المعلوم أن قادة الاتحاد والترقي كلهم على الإطلاق من الماسونيين وليس منهم واحد مسلم الأصل أو تركي العرق. فأنور بولندي و(جاويد) من يهود دونمة و(كراسو) يهودي إسباني.

وجمعية الاتحاد والترقي هي التي فرضت عملية التتريك على جميع الولايات العربية وغيرها حيث فرضت اللغة التركية في الدواوين والمدارس والمناهج.

وفي عام ١٨٨٩م تأسست منظمة طلابية في المدرسة العسكرية الطبية في استانبول، حيث كان بعض الأساتذة هناك يحرزون الطلاب على نحو مستمر لمعارضة الحكم، ونشر أفكار العثمانيين الجدد بينهم، وكان مؤسس هذه المنظمة إبراهيم تيمو الروماني الذي تأثر بالمحافل الماسونية الإيطالية، وأطلق على اسم المنظمة: الاتحاد العثماني، واختاروا يوم الاحتفال بذكرى الثورة الفرنسية تاريخاً لإنشاء منظماتهم، وجعلوا من أهم أهدافهم مقاومة السلطان عبد الحميد وخلعه من الحكم^(١).

ونتيجةً للمرسلات السرية بين أعضاء جمعية الاتحاد العثماني السرية في الداخل، وفي الخارج تم الاتفاق على وحدة العمل العسكري، والمدني ضد السلطان، وعلى اعتماد اسم جمعية الاتحاد والترقي للجناحين المعارضين.

١- السلطان عبد الحميد، ص (٢٧٩).



أوغست كونت

حيث كان اسم الجمعية في الأوساط العسكرية هو (الاتحاد العثماني)، وكان أحمد رضا بك - ممثل الجناح المدني - متأثراً بأفكار الفيلسوف أوغست كونت^(١)، وكان دستور هذا الفيلسوف هو (الانتظام والترقي)، فأخذ أحمد كلمة الترقي استلهاماً منه، واحتفظ العسكريون بمسمى (الاتحاد)، ليتفق الجميع على اسم (الاتحاد والترقي)^(٢).

وتغلغت خلايا (الاتحاد والترقي) في وحدات الجيش، والموظفين، واتحد العمل العسكري مع المدني، للعمل الفعلي ضدَّ السلطان، واستطاعت الجمعية بالفعل إجبار السلطان في ٢٤ يوليو ١٩٠٨م، على إعلان الدستور الذي كان قد أمر سابقاً عام ١٨٧٧م بوقف العمل به^(٣).

لقد قامت جمعية الاتحاد والترقي على إثارة المشاعر القوميّة عند الأتراك، ونادت بمفاهيم جديدة مثل: الوطن، والدستور، والحرية، وكانت هذه المفاهيم غريبة على العثمانيين، وقد ضُمَّت الجمعية في صفوفها مجموعة من الشباب المثقفين الأتراك، بالإضافة إلى يهود الدونمة، وكانت الغاية هي الإطاحة بحكم الخليفة عبد الحميد^(٤).

١- أوغست كونت (١٧٩٨-١٨٥٧): عالم اجتماع وفيلسوف اجتماعي فرنسي، أعطى لعلم الاجتماع الاسم الذي يعرف به الآن، ويعد هو الأب الشرعي والمؤسس للفلسفة الوضعية.

٢- المصدر السابق نفسه، ص (٢٨٠، ٢٨١).

٣- المصدر السابق نفسه.

٤- اليهود والدولة العثمانية، ص (١٦٨).

وبالمقابل كان السلطان شديد الحذر من جمعية الاتحاد والترقي المدعومة باليهود والمحافل الماسونية، والدول الغربية، واستطاع جهاز مخابرات السلطان أن يتعرّف كل حركة يقوم بها أعضاء هذه الجمعية، إلا أنّ هذه الحركة كانت قويّة، وقد جاءت مراقبة عبد الحميد لها في وقت متأخر، الأمر الذي أرغمه على قبول مطالبهم بإعلان دستور ١٨٧٧م، أمّا سبب إبقائه في سدة الحكم قليلاً بعد ذلك فكان للأسباب التالية:

- ١- لم تكن في حوزة الاتحاد والترقي القوة الكافية لعزله في عام ١٩٠٨م.
 - ٢- اتّخاذ عبد الحميد سياسة اللين والمرونة معهم، وذلك بتنفيذ رغباتهم.
 - ٣- ولاء العثمانيين لشخص السلطان عبد الحميد^(١).
- إنّ الصهيونية العالمية لم تقتصر على الانقلاب الدستوري هذا، بل تعاونت مع جمعية الاتحاد والترقي لتحقيق مكاسب أخرى في فلسطين، وعليه كان لابدّ من التخلص من السلطان نهائياً، ولذلك دبّرت أحداث ٣١ آذار ١٩٠٩م في استانبول، والتي ترتب على أثرها اضطراب كبير، انتهى بعزل السلطان عبد الحميد الثاني عن الحكم^(٢).

وصف أحداث ٣١ آذار^(٣)

طلبت قيادة القوّات الخاصة من بعض المشايخ إلقاء دروس الوعظ في ثكنتيّ (طاش قشلة) و(بيك أوغلي) فدخل هؤلاء إلى صفوف الجند بلا ممانعة أو إعاقة. ودعيت الفرقة المؤلفة من القوّات الخاصة إلى اجتماع، وفي تلك الأثناء جاء شخصٌ انتحل صفة جنرال ومعه بعض الضباط، ثمّ خطب وبعد إنهاء خطابه قال

١- اليهود والدولة العثمانية، ص (١٦٨).

٢- الدولة، د. الصلابي، ص (٥٠٨).

٣- الدولة العثمانية، د. علي حسون، ص (٢٥٥-٢٥٨).

إنَّه سيتلو قراراً سلطانياً جاء فيها إنَّ السلطان وبإفتاء من شيخ الإسلام يطلب من الجنود لبس القُبَّعة، ثمَّ نزع ذلك الرجل طربوشه عن رأسه ولبس قُبَّعته وعزفت الموسيقى ثمَّ جرى عرض عسكريّ، ثمَّ غادروا بعد ذلك.

وبالطبع لم يدر في خلد أحد أنَّ ذلك الباشا كان مزيّفاً هو ومن معه، ولا يخفى ماذا كان يعني لبس قُبَّعةً بالنسبة لشخص مسلم في ذلك الزمن.

وكان لا بدَّ لإتمام هذه المكيدة أن يدخل ضباط مزيّفون بين الجند بغية إثارة المشاعر، وبالفعل بدأ الهياج في الثكنات، وقام المزيّفون بإلقاء الخطب الحماسيّة، وادعوا غيرتهم على الدين، وتظاهروا باستنكار تلك الفعلة الشنيعة.

ثمَّ اتَّجه الركب الثائر نحو مجلس النواب، والتقوا في طريقهم بجنودٍ ثائرين مثلهم قد خرجوا من ثكنة المدفعية، قادهم إلى عملهم الشيطان نفسه الذي أخرج رفاقهم، والتقى بهم في الطريق أيضاً طلاب المعاهد الشريعة الساخطون، واتَّجه ذلك الحشد غير المتجانس وسط طلقات الرصاص إلى فناء آيا صوفيا، وحاصرت الجماهير مجلس المبعوثين وهي تطالب بتطبيق الشريعة، ولا يدري أحد سوى هؤلاء الأعداء المبعوثين، وأسيادهم أيّة شريعة يريدون، ثمَّ بدأ إطلاق النّار، وسرعان ما سقط القتلى، ويا للأسف، كانت الجماهير من الجند والطلبة سائرين وثارين بسبب الخدعة التي رسمها المتآمرون لهم، ثمَّ حرضوهم على السير بها.

وكانت في الوقت نفسه فتنةٌ أخرى تُمثِّل أدوارها في سلاح البحريّة، بأسلوب مغاير؛ إذ استطاع الجند أن يعتقلوا قائد البارجة (إعصار توفيق) المقدّم علي قبولي، وساقوه نحو قصر يلدز مدَّعين محاولته ضرب القصر بمدفعيّته وهم يصرخون ويهتفون بحياة السلطان، حتّى ظهر عبد الحميد من النافذة وسألهم عن مطالبهم فقالوا: إنَّهم يطالبون بتنفيذ الشريعة، وإنَّ ذلك القائد كان يودُّ قتل

السلطان، وتدمير القصر فحاول السلطان أن يهدئ من أمرهم، ولكن سرعان ما هجم أحد الرجال المدسوسين وطعن قائد البحرية بحربة بندقيته فأرداه قتيلاً، وعاد كل شيء إلى مكانه.

ويبدو واضحاً من تلك الأحداث المتتالية السريعة أنَّ يداً خفيّة كانت تحاول إثارة مشاعر الناس لإحداث اضطرابات من شأنها خلع السلطان بأيّة طريقة ممكنة، فالبرغم من كلّ ما فعله أعداء الإسلام من دعم جمعية الاتحاد والترقي، وإعلان الدستور، فهم لم يستطيعوا عزل السلطان عبد الحميد الذي استطاع بإيمانه بالله، وبذكائه وحسن سياسته أن يكسب حبّ الناس له وتعلقهم به.

وبعد مرور أسبوعين على تلك الحادثة، خرج السلطان لتأدية صلاة الجمعة، ثمّ تكلم بحضور بعض الضباط، قائلاً: «إنّ ما قرئ في ثكنة (طاش قشلة) لم يصدر عني مطلقاً، لقد دبره بعض الأعداء، وتبين من التحقيق أنّه تدبيرٌ سياسي مقصود».

ثمّ حدث أن تقدّم الجيش العثماني المرباط في سلانيك، والذي يضم عدداً من ضباط الاتحاديين إضافةً إلى عناصر مشبوهة أخرى بقيادة محمود شوكت ودارت بعض المناوشات بين القوَّات العسكريّة، إلى أن استسلم جنود العاصمة.

ثمّ ظهر أنور باشا^(١) - القائد البارز في حزب الاتحاد والترقي - وبيده مسدس وبصحبه بعض الضباط، فقتلوا كثيراً من الجنود، ثمّ بدؤوا بالإغارة على قصر يلدز فقبضوا على مرافق السلطان الأول وهددوه ليرشدهم على مكان الخزينة، ولكنه رفض فقتلوه، ثمّ اتجهوا نحو المرافق الثاني فأرشدتهم إليها، فنهبوا

١- أنور باشا: ولد عام ١٢٩٩هـ في استانبول، وهو جنرال عثماني، وأحد الرجال الثلاثة الذين حكموا الدولة العثمانية من عام ١٣٣٢-١٣٣٧هـ. لعب دوراً أساسياً في دخول الدولة العثمانية الحرب العالمية الأولى إلى جانب الألمان. وهو ابن أحمد بك من حاشية السلطان عبد الحميد وزوج ابنة أخي السلطان.

المال على مرأى ومسمع السلطان، ولكن الأموال لم ترض أطماعهم فقام أنور- وهو صهر العائلة المالكة- بارتكاب مذبحه داخل القصر، وأهان كبار الضباط الأكفيا، ثم اجتمع أعضاء مجلس الاتحاد والترقي وقرروا خلع السلطان عبد الحميد^(١)، وحصلوا من المفتي محمد ضياء الدين أفندي فتوى خلع السلطان، وتكونت بتكليف من جمعية الاتحاد والترقي لجنة لإبلاغ خليفة المسلمين، وسلطان الدولة العثمانية عبد الحميد الثاني بقرار خلعه، وكانت اللجنة مكونة من الأسماء الآتية:

- ١- إيمانويل قراصو: وهو يهودي إسباني، كان من أوائل المشتركين في حركة تركيا الفتاة، وهو محام، أدى دوراً مهماً في احتلال إيطاليا لليبيا نظير مبلغ من المال، وكان أثناء وجوده في الدولة الأستاذ الأعظم لحفل مقدونيا الماسوني.
- ٢- آرام: وهو أرمني عضو في مجلس الأعيان العثماني.
- ٣- أسعد طوبطاني: وهو ألباني، نائب في مجلس المبعوثان.
- ٤- عارف حكمت: وهو فريق بحري عضو في مجلس الأعيان^(٢).

بعد إبعاد عبد الحميد الثاني عن السلطة، عبرت الصحف اليهودية في سالانيك عن فرحتها في الخلاص من (مضطهد إسرائيل) كما وصفته هذه الصحف، وأخذت تزف البشائر لتخلصها من الرجل الذي رفض طلب هرتزل مرتين، والذي وضع جواز السفر الأحمر الذي يقابل عندنا قانون الأجانب^(٣).

مصير السلطان، ووفاته:

لقد نفى الاتحاديون السلطان عبد الحميد إلى سالانيك وأنزلوه هناك في قصر، وعند اقتراب الأعداء من احتلال هذه المدينة أثناء الحرب العالمية، نقلوه إلى

١- تاريخ الدولة العثمانية، د. حسون، الصفحات من ٢٥٥ إلى ٢٦٠.

٢- العثمانيون في التاريخ والحضارة.

٣- السلطان عبد الحميد، ص (٢٣٠).

قصر (بيليربك) في استانبول، ليمضي هناك بقية حياته، وكانت وفاة هذا القائد العظيم، وصاحب آخر لقب خليفة فعلي للمسلمين في ١٠ شباط من عام ١٩١٨م، ودفن جثمانه الطاهر إلى جانب جثمان عمه عبد العزيز الذي اغتالته الماسونية بسبب إصلاحاته السريعة، وجده محمود الثاني الذي خلّص الدولة من خطر الإنكشارية الذين فسدت أخلاقهم، وكان قد بلغ من العمر أربعة وسبعين عاماً، وبكى أثناء تشيع جنازته حتى ألد أعدائه، كان له تسعة أولاد، وسبع بنات، عليه رحمة الله ورضوانه^(١).

اكتشاف الحقيقة المرة والندم عليها:

إنّ بعض أقطاب حركة الاتحاد والترقي اكتشفوا فيما بعد أنّهم قد وقعوا تحت تأثير الماسونية والصهيونية، فهذا أنور باشا الذي أدى دوراً مهماً في انقلاب عام ١٩٠٨م، يقول في حديث له مع جمال باشا^(٢) أحد أركان الاتحاد والترقي: «أتعرف يا جمال ما هو ذنبنا؟» وبعد تحسر عميق قال: «نحن لم نعرف السلطان عبد الحميد، فأصبحنا آلة بيد الصهيونية واستثمرتنا الماسونية العالمية نحن بذلنا جهودنا للصهيونية، فهذا ذنبنا الحقيقي»^(٣).

وفي هذا المعنى، يقول أيوب صبري قائد الاتحاديين العسكريين: «لقد وقعنا في شرك اليهود، عندما نفّذنا رغباتهم عن طريق الماسونيين لقاء صفيحتين من

١- تاريخ الدولة العثمانية، د. حسون، ص (٢٦٧).

٢- أحمد جمال باشا (١٨٧٣-١٩٢٢). هو قائد جيش عثماني وقد عين في سورية عام ١٩١٥، وفرض سلطانه على بلاد الشام وأصبح الحاكم المطلق فيها وهو من زعماء جمعية الاتحاد والترقي وقاتل البلغار في مقدونيا واشترك في الانقلاب على السلطان عبد الحميد. وشغل منصب وزير الأشغال العامة بعام ١٩١٣ ثم قائداً للبحرية العثمانية عام ١٩١٤.

٣- اليهود والدولة العثمانية، ص (٢٢٨).

الليرات الذهبية في الوقت الذي عرض فيه اليهود ثلاثين مليون ليرة ذهبية على السلطان عبد الحميد لتنفيذ مطالبهم، إلا أنه لم يقبل»^(١).

قال الفيلسوف التركي رضا توفيق وهو من كبار الاتحاديين والمعارضين لحكم السلطان عبد الحميد في قصيدة له كتبها بعد وفاة عبد الحميد:

«عندما يذكر التاريخ اسمك، يكون الحق في جانبك، ومعك يا أيها السلطان العظيم. كنّا نحن الذين افترينا- دون حياء- على أعظم سياسي العصر لم نكن مجانين فحسب، بل كنّا قد عدنا الأخلاق»^(٢).

١- المصدر السابق نفسه، ص (٢٢٩).

٢- تاريخ الدولة العثمانية، د. علي حسون، ص (٢٦١).



أحمد جمال باشا يتوسط قادة عشائر جنوب العراق



السلطان عبد الحميد الثاني



الشريف حسين بن علي

انتهاء الخلافة الإسلامية العثمانية

بعد أن عُزل السلطان

عبد الحميد الثاني

فما الأسباب التي أدت لذلك

نقلًا من كتابي الدكتور علي حسون، والدكتور علي الصلابي:

ضعف الإيمان بشرع الله تعالى:

إنَّ من أهم الأسباب التي دفعت بالدولة العثمانية إلى ما وصلت إليه من التَّخلف والضعف، والهزائم المتلاحقة؛ هو ابتعادها عن شرع الله عزَّ وجل، وهذا الأمر واضح على مر العصور، سواء أيام الخلافة الأموية، أو العباسية، أو يومنا هذا، والقرآن الكريم فيه الحجَّة والدليل على ذلك، يقول تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

فقد ابتعدت الأمة عن شرع الله تعالى في أواخر أيام الدولة العثمانية، فترى النَّاسَ منغمسين بمتاع الحياة الدنيا، غافلين عن جوهر هذا الدين الحنيف، قلوبهم في غفلة عن الإيمان بالله، مما جعل الخوف يهاجم قلوبهم، ويحسبون كلَّ صيحة عليهم، ظناً بأنهم ضعفاء متخلفون أمام العلم الأوروبي، فترى الجندي في ساحات الوغى قلبه ضعيفٌ أمام الأعداء من أثر المعاصي في قلبه، وكأنَّه في ضنك من العيش: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ [طه: ١٢٤].

وأما الذنب الأكبر، والخطأ الأفظع، فهو عدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإنَّ هذه الفريضة من أهم أركان هذا الدين فبها يتجلَّى فهوم التكافل،

والغيرة على الإسلام، يقول تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩].

بطء عجلة التطور:

لم يبد علماء الدولة العثمانية اهتماماً كبيراً في إدخال الأفكار الجديدة، وغطت المشكلات السياسية في دور الانحطاط، وبقيت مدارسهم على ما كانت عليه في القرن ١٣ الميلادي، ٧ الهجري ولم تتقدم قط.

وهذا التخلف أصاب العثمانيين الترك كما أصاب غيرهم من عرب وعجم، ولم يكن عن نية مقصودة وإنما كان بسبب الظروف الداخليّة والخارجيّة، وهنا يبدو الفرق واضحاً بين الدولة العثمانيّة وبين الاستعمار؛ ذلك أنّ الاستعمار يحرص على تقدم بلاده على حين يبذل جهده في بقاء سكان المناطق المستعمرة على حالة من الجهل والتخلف، أمّا العثمانيون فكانوا وغيرهم من هذه الناحية على حدّ سواء.

ومما يبين مقدار الخمول عندهم أنّه لم تدخل صناعة السفن إلى الدولة العثمانية إلا في القرن العاشر الهجري، ولم تدخل المطابع في العاصمة إلا في زمن السلطان مصطفى الثاني، وحينما انهزمت الدولة عام ١١٨٨ هـ الموافق ١٧٧٤م انتبعت قليلاً إلى هذا الأمر، فبدأ سليم الثالث بالإصلاح، وأنشأ المدارس الجديدة، وكان هو نفسه يعلم في مدرسة الهندسة، وقد مكّن ذلك التخلف الغرب من التفوق في الجانب المادي، فاخترع الأسلحة الحديثة ووسائل الصناعة.

وبدأ الزحف الصليبي الجديد يحمل لافتات جديدة دون تغيير في المضمون، وأبقى المسلمون في حال من التخلف والضعف، فكانت أوروبا كلها تقاتل من الغرب والجيش الروسي يقاتل من الشمال، على الرغم من الخلاف بين الطرفين.

الهجمة الصليبية والاعتداء الخارجي:

والكلام هنا يطول، ويكفي التلميح إلى الحملة الفرنسية على مصر، وعلى الجزائر، والتوسع الروسي في الشمال الشرقي، والحملة الإنكليزية على مصر وعدن، واستيلاء الطليان فيما بعد على طرابلس الغرب، أمّا المناوشات، والغزوات العسكرية، والحركات الانفصالية التي أشعلتها الصليبية العالمية في ولايات الدولة فهي أمرٌ لم يخلُ عهد سلطانٍ منها.

توسع رقعة الدولة:

شغلت الدولة العثمانية في أوج قوّتها وتوسعها مساحةً من الأراضي تزيد عن عشرة ملايين ميل مربّع ولولا الرابطة الدينية، وتعلق الناس باسم السلطان الخليفة لانفرط العقد العثماني، وزالت هيبة الدولة عن كثير من الأقاليم البعيدة عن العاصمة.

الجمعيات والأحزاب السياسية:

بعد أن أرغم السلطان عبد الحميد على إعلان دستور عام ١٨٧٧م، وذلك في عام ١٩٠٨م، ظهرت للعموم أحزاب وجمعيات منها الجديد، ومنها من كان يعمل بالخفاء، ومن بين هؤلاء حزب الاتحاد والترقي الذي شمل بعض اليهود في عضويته، وورط البلاد في حروب ونزاعات، وأرغم قادته الدولة العثمانية في الانخراط في الحرب العالمية الأولى بعد أن استطاعوا بعد جهد جهيد أن يقضوا على حكم الرجل الذكي والسياسي المحنك عبد الحميد الثاني. وكانت الماسونية بالطبع من وراء تلك الجمعيات السرية تحيك لها الدسائس، وتدعم قيادتها، وما أحداث ٣١ آذار عنهم ببعيد.

انحصار مفهوم العبادة:

إنَّ النهضة في الدولة العثمانية في عصورها الزاهية كانت في كل المجالات دون تمييز أو تفاضل، فقد كانت حركة الدولة، والشعب، والعلماء حركةً واحدةً وتعبيراً صادقاً لمفهوم العبادة الشامل، لا بالفرائض وحسب، بل بالمعاملة وحُسن السيرة مع الآخرين. ولكن سرعان ما فسدت أحوال العباد مع مرور السنوات فأصبحت العبادة عادة لا قلباً ينبض لتأديتها، مما أدَّى إلى سلبات من أهمها:

عدم فهم جوهر النصوص الشرعية، والتمسك بقشورها الظاهرية فقط؛ يقول الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

فمن تَمَعن في قراءة القرآن الكريم يجد أنَّ الله سبحانه وتعالى ينبهنا إلى قوله والله يحب المطَّهرين، التَّوَّابِينَ، والصَّادِقِينَ، ولكنَّه لم يذكر قط أنَّ الله يحب المصلِّين وفي هذا دليلٌ خطيرٌ مفاده؛ أنَّ الصلاة بفرائضها الخمس، وسننها، ونوافلها ما هي إلا وسيلةٌ للوصول إلى غاية الإنسان المسلم، فمن دون تأدية الصلاة بمعناها التَّام لن يصدق اللسان وينتهي عن الكذب، ولن يتوب القلب ويكفَّ عن الشرك، والمعصية العلنية.

الحضارة العثمانية

الصحافة والتّعليم^(١):

كانت صحيفة ((تقويم وقائع)) اليومية أول إصدار ظهر عام ١٢٤٧هـ، ثمّ تلتها ((جريدة حوادث)) التي صدرت عام ١٢٥٦هـ، وكانتا تنقلان بعض الأخبار المترجمة عن الصحف الأجنبية، وبعد أقلّ من ثلاثين سنة ظهرت صحفٌ أخرى ميولها أدبيّة مثل ((ترجمان أحوال)) وبعدها بسنتين جريدة ((تصوير أفكار)). وأمّا في مجال التّعليم فالتصفح لما مرّ معنا من أخبار السلاطين يعلم مدى الجهد الذي بذل لمتابعة التطور العلمي في الدولة.

التّاريخ:

كانت المحاولات الأولى لتدوين التّاريخ الوطني تدويناً منظماً قد بدأت في عصر باكر، ونجد في عهد السلطان با يزيد الأول الكتاب التاريخي الذي وضعه المتّصوف أحمد عاشق باشا، والمتميز بأسلوبه الشعبي الخالص، ومنذ القرن العاشر الهجري ظهر الاهتمام بكتابة التاريخ، فعُيّن المؤرخون الرسميون أمثال سعد الدين المتوفى عام ١٠٠٧هـ، ولا ننسى أنّ السلاطين الأوائل كانوا يأخذون معهم المؤرخين إلى ساحات المعارك ليكتبوا مجريات الحوادث.

الجغرافية:

تعدّ الجغرافيا إحدى العلوم التي أجاد فيها العثمانيون نسيباً، ونذكر من أهمّ العلماء بهذا المجال اسم (الرئيس بيري) المعاصر للسلطانين سليم الأول وسليمان القانوني، حيث كان الرئيس قائداً للبحرية العامة، وعالمًا جغرافيًا (ولد عام ١٤٦٥م وتوفي عام ١٥٥٤م)، وله في هذا المجال خريطتان مهمتان، الأولى

١- تاريخ الدولة، د. علي حسون، ص (٣٦٩ - ٤١٥).

إسبانيا، وغرب إفريقية، والمحيط الأطلسي، والسواحل الشرقية من الأمريكتين... وهذه قدمها للسلطان سليم الأول عندما كان في مصر عام ١٥١٧م، وموجودة الآن في متحف (طوبقبو) في إستانبول (٨٥×٦٠ سم) وعليها توقيع الرئيس، والثانية لسواحل الأطلسي من غرينلاند إلى فلوريدا (٦٩×٦٨ سم) وموجدة في ذات المتحف. وهذه الخريطة التي رسمها الرئيس ييري لأمریکا هي أقدم خريطة لها.

ففي ٢٦ أغسطس عام ١٩٥٦م، عُقدت في جامعة جورج تاون بالولايات المتحدة الأمريكية ندوة إذاعية عن خرائط الرئيس، واتفق كلُّ الجغرافيين المشتركين فيها بأنَّ خرائطه لأمریکا: (اكتشافٌ خارقٌ للعادة)^(١).

وفي هذا المجال أيضاً يلمعُ لدينا اسم العالم (حاجي خليفة) وله عدَّة كتب رفع بعضها إلى السلطان محمد الرابع، ومنها كتابٌ في تاريخ البحرية العثمانية سماه ((تحفة الكبار في أسرار البحار)).

الطب والعلوم:

كان الطلبة يزاولون تدريباتهم في مستشفيات عدَّة، وأثناء حكم السلطان محمد الفاتح، والسلطانين با يزيد الثاني وسليمان القانوني تعادلت أسس التعليم الطبي في المدارس العثمانية كفيّاً مع نظيرتها في المراكز الأوروبية الطيِّبة الشهيرة آنذاك.

ونذكر من الأطباء في عهد الفاتح الحكيم قطب الدين العجمي، والطبيب شكر الله الشرواني، والحكيم شاه محمد القزويني الذي تقرب إلى السلطان سليم الأول، وله تصانيف غير طبية مثل (حياة الحيوان).

وعندما دخلت الدولة عصر الركود والانحطاط كثر المرضى، وانتشر التخلف بين العامة، وازداد النقد الموجه نحو العاصمة التي كانت مشغولةً بدرء الفتن، والدفاع عن الأرض، ولكنَّ بعض الانتقادات رأت ثمارها فأنشئت المدرسة

١ - الدولة العثمانية، د. الصلابي، ص (٥٥٩).

الطبيّة (طبانه) ومدرسة الجراحين (جراحانا) في عهد السلطان محمود الثاني، وبعد جولة قام بها أحد المؤرخين في استانبول إبان حكم محمود الثاني إلى هذه المعاهد قال: (كان المستشفى العسكري الكبير أكثر المنشآت التي زرتها رقيّاً ورفاهيّةً من أي مكان آخر، وفي أي بلدٍ آخر).

كما برع الملّي محمود القاضي بمدينة بروسا المعروف بقاضي زاده المعاصر للسلطان أورخان بالعلوم الرياضية وشرح أشكال التأسيس في الهندسة.

فن الرسم العثماني:

لقد أبدع العثمانيون في فن رسم اللوحات، وكان من أشهر فناني الرسم ((حسن باشا))، ووجد في نهاية القرن السادس عشر مدرسة فن الرسم الزيتي في بغداد، وكان لبغداد ماضٍ طويل في الرسم الزيتي، وتطورت هذه المدرسة تحت رعاية حكام الولايات الذين يعيّنون من قبل الدولة العثمانية.

الآثار العمرانية:

١- جامع آيا صوفيا:

وهي الكنيسة السابقة التي حوّلها السلطان محمد الثاني الفاتح إلى مسجد يمثل الجامع الرئيس في العاصمة، ولقد عدّلت لتلائم الشريعة الإسلامية، ومن جملة التحسينات التي أدخلت عليها؛ ففي عهد السلطان مراد الرابع كتبت بعض الكلمات ذات الأحرف الكبيرة التي تحمل اسم الجلالة، واسم الرسول ﷺ، وخلفاء الراشدين، وذلك على لوحات مستديرة شيدت على جدران المسجد، وهي بخط الخطّاط (زاده مصطفى شلي)، وعلى سبيل المثال حرف الألف طوله عشرة أذرع، والأحرف كلها بخطٍ متشابكٍ وبديع.

٢- جامع السلطان محمد:

يتألف الجزء الداخلي من المسجد من قبة ضخمة تقع في الوسط تستند إلى أربعة أعمدة وأربع قبابٍ أخرى أصغر حجماً، أمّا الجزء الخارجي منه فيحمل

مئذنتين نحيلتين، ويحوي المسجد عدداً من المدارس والحمامات والمطابخ، وخان لنزول التجار الغرباء، وداراً للعجزة، ومستشفى، وعلى هذا التنظيم المؤسساتي سارت كلُّ مدن العاصمة.

وإلى يمين الباب الرئيسي يجد المشاهد لوحةً رخاميةً كتب عليه بأحرفٍ من ذهب الحديث النبويّ الشريف ((للفتحن القسطنطينية، فلنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش)).

٣- القصور:

أهمها سراي طوب قبو التي تمتاز بامتدادها الواسع ومبانيها وحدائقها وساحلتها، وفي كلِّ غرفة أو بهو تقريباً يرى الزائر آيات القرآن الكريم كتبت على الجُدُر بماء الذهب. إضافةً إلى هذا السراي هناك سراي دولما بهجي على البوسفور، وتمتاز ببهوها الكبير، وكانت مسكناً للسلطان محمد رشاد، وسراي يلدز التي سكنها السلطان العظيم عبد الحميد الثاني.

التكافل الاجتماعي، ونشر الإسلام:

ربما كان من أعظم ما أكرم الله به الحضارة العثمانية هو التكافل الاجتماعيّ الذي بدا واضحاً في أوائل عصورها ثم بدأ يتناقص على مرِّ العصور، ليعود متقدماً في عهد عبد الحميد الثاني، ومن جملة هذا التكافل؛ كانت هناك أوقافٌ بصرف مرتبات للعائلات الفقيرة، وكان الأكل المجاني له أوقاف عامة أخرى، تسمى ((عمارات وقفي)) أي: وقف المطاعم الخيرية، وكانت العمارات تقدم طعاماً مجانياً لعددٍ يبلغ ٢٠,٠٠٠ شخص يومياً، وكان مثل هذا في كل الولايات وكان المطعم الخيري بجامع السليمانية تبلغ ميزانيته عام ١٥٨٦م ما يعادل (١٠) ملايين دولار أمريكي إلا قليلاً^(١).

١- العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص (٤٤٢).

وأما أهم ما يذكر في هذا المجال فلقد أسلم في نحو ثلاثين سنة ومنذ سنة (١٠٢٦هـ، ١٠٥٧هـ) نحو ٣٠٠ ألف ألباني، ولم يكن عليهم أيُّ أثر للضغط أو الإكراه وروي ذلك من قبل المؤرخين الغربيين أنفسهم، أمّا الصرب فقد آثروا سيادة العثمانيين على سيادة المجر، وأصبح أهالي البوسنة الذين دخلوا في الدين الإسلامي يبدون غيرة وحماسة متدفقة له، وسرعان ما تبوأ أشرافهم مكانةً ساميةً في عاصمة الدولة العثمانية، وتسلم بعضهم مناصب رفيعةً فيها.

الجهاد في سبيل الله:

لقد ضرب الجنود العثمانيون أعظم الأمثلة في الشجاعة والبراعة في تلك المعارك الطاحنة التي خاضوها، ونذكر لحةً بسيطةً عن ما فعله هؤلاء الجنود: لقد عملوا بجهد على إنهاء ما كان يعرف بالإمبراطورية البيزنطية وعاصمتها القسطنطينية، وذلك بقيادة السلطان العثماني محمد الفاتح، وضربوا أروع الأمثلة في مهاجمة الإمبراطورية الرومانية المقدسة، وذلك في عصر السلطانين سليم الأول، وسليمان القانوني، وكان يتزعم الإمبراطورية شارل الخامس^(١)، وفي عصر الجمود والانكماش استطاع الجيش العثماني المسلم أن يحاصر قيصر روسيا بطرس الأكبر (١٦٧٢ - ١٧٢٥ م)، وكان هذا القتال المشرف في عهد السلطان أحمد الثالث (١٧٠٣ - ١٧٣٠ م)^(٢). لم يكن التوسع الأكبر لرقعة الدولة العثمانية إلا عن طريق الجهاد والإيمان بالله، فأصبحت أقاليم الدولة منتشرة في ثلاث قاراتٍ عالمية^(٣).

١ - الدولة العثمانية، د. الصلابي، ص (٢٣٤).

٢ - الدولة العثمانية، د. جمال عبد الهادي، ص (٧٦).

٣ - الدولة، د. الصلابي، ص (٢٢٠).

ولكن ماذا حدث بعد السلطان عبد الحميد الثاني

ثلاثة سلاطين من آل عثمان:

بعد خلع السلطان عبد الحميد الثاني، سيطر دعاة القومية على الحكم ممثلين بحزب الاتحاد والترقي، وتركيا الفتاة... وكان بعض رجال هؤلاء الأحزاب مدمنين على الخمر، غافلين عن شرع الله، ومن ثمَّ يمكن اعتبار اسم الخلافة العثمانية التي كانت تحمل فكرة الجامعة الإسلامية قد انتهت، ومنذ الآن سيقصر اسم الخليفة العثماني على دولة تركيا القومية وليس للخليفة إلا اللقب والدعاء أمَّا السياسة فليس له أيُّ صلة أو علاقة بها^(١).

٣٥ - السلطان محمد رشاد:



ولد في استانبول، وتولى السلطة العثمانية من عام ١٩٠٩م، حتَّى ١٩١٨م، وامتاز حكمه بسيطرة جمعية الاتحاد والترقي، وانهزام تركيا في الحرب العالمية الأولى.

وكان محمد رشاد رجلاً لطيفاً مهذباً تتقف بالثقافة الإسلامية وألم بالأدب الفارسي، وانصبت

١ - تاريخ الدولة العثمانية، د. علي حسون، ص (٢٧١).

اهتماماته على دراسة التاريخ الإسلامي والعثماني، ومع ذلك كانت تنقصه الإمكانيات للنهوض بأعباء الحكم، فقد كانت الصلاحيات كافة بيد حزب الاتحاد والترقي، وكان قد عارض دخول تركيا في الحرب العالمية، ولكن لم يستمع إليه أحد، وسقطت إثر ذلك معظم الولايات العثمانية بيد الحلفاء، وسقطت عاصمة الدولة الإسلامية تحت الاحتلال العسكري الأوروبي^(١).

٣٦- السلطان محمد السادس:

هو ابن السلطان عبد المجيد، تولى بعد محمد رشاد، وأصبح هذا السلطان



الذكي المتبصر سلطاناً عام ١٣٣٦هـ، وحاول اقتفاء خطوات أخيه الأكبر عبد الحميد بالقبض شخصياً على زمام الحكومة؛ إذ انهارت قوة جمعية الاتحاد والترقي وهرب قادتها بعد هزيمة الحرب العالمية، ولكن كان أن حدث في ١ تشرين الثاني عام ١٣٤٠هـ، أن ألغيت السلطنة، وبعد ستة عشر يوماً

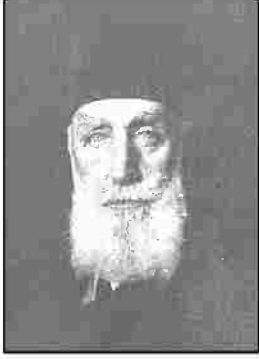
نقل محمد السادس وابنه على ظهر سفينة حربية بريطانية إلى مالطة، وفشلت محاولته في إقامة خلافة إسلامية في الحجاز برئاسته، وتوفي في سان ريمو بإيطاليا في عام ١٣٤٤هـ الموافق ١٩٢٦م، وكان قد بقي هناك حتى عاجلته المنية، ولم تسمح حكومة أتاتورك بنقل جثمانه إلى تركيا، فاحتجز الجثمان في إيطاليا، ثم طالب رئيس الجمهورية السورية آنذاك بملكية الجثمان فنقل إلى سورية ودفن فيها، وقبره اليوم في باحة جامع السلطان سليم ((التكية)) في دمشق، وكان له ولدٌ واحد ((أرطغرل)) وثلاث بنات^(٢).

١- المصدر السابق نفسه.

٢- المصدر السابق نفسه، ص (٣١١، ٣١٢).

٣٧- السلطان عبد المجيد الثاني:

ولد في استانبول وهو آخر خليفةٍ عثماني، وقد اختير خليفةً من قبل المجلس



الوطني الكبير بعد إلغاء السلطنة، وعلى الرغم من تجريد الخليفة من السلطات السياسية كافة فإن عبد المجيد الدبلوماسي والمتقف كان الرمز الحيّ لارتباط تركيا بالماضي الإسلامي العثماني إذ التفت حوله القوى الإسلامية، والمناوئة لمصطفى كمال الذي لجأ إلى بتر الصلة التركية بالماضي وأعلن الجمهورية العلمانية، ونفي

عبد المجيد في اليوم التالي لإعلانها، وكانت وفاته في ٢٣ آب من عام ١٣٦٠هـ / ١٩٤٤ في بيته في باريس^(١).

لماذا شاركت تركيا في الحرب العالمية الأولى، وماذا ترتب على ذلك:

بدأت الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨م)، وكان الاختلاف قد وقع في تركيا هل تدخل الحرب أما تلتزم الحياد، وفي كلا الأمرين خطر عليها، فهي إن التزمت الحياد، وضعت نفسها في خطر اتّفاق الدول المعادية لها على اقتسامها بعد هجوم شاملٍ عليها، فهي بنظرهم الدولة الإسلامية الوحيدة في العالم التي يصدر منها شرارة الإسلام.

وبالمقابل هي إن أرادت الدخول في الحرب فليس لها إلا أن تدخلها مع ألمانيا؛ ذلك لأنّ الحلفاء فرنسا وإنكلترا وروسيا كانت لهم نوايا اقتسام الدولة العثمانية بعد الحرب، وكانت المعاهدات والاتفاقيات قد وُقعت قبل الإعلان عن الحرب، ولذلك لم يقبل الحلفاء أيّ طلب من الدولة التركية للانضمام لهم.

١- المصدر السابق نفسه، ص (٣٢٥)، الدولة العثمانية، د. الصلابي، ص (٥٢٣).

وفي هذا السياق يقول الأمير شكيب أرسلان المعاصر لتلك المرحلة من التاريخ: عندما قُتِلَ وليُّ عهد النمسا، علمنا أنَّ الحرب العامة ستقع، فانعقد القلم العمومي تحت رئاسة طلعت باشا، وكنت أنا حاضراً، وصار كلُّ منَّا يدي رأيه، فقال سيد بك لطلعت باشا^(١): أرى الأولى والأفضل أن نتخذ سياسة متوسطة، فأجابه طلعت: نحن بين الحياة والموت، ولا توسُّط بينهما، فإمَّا أن نمشي مع ألمانيا حتى يكون لنا ظهير قوي، وإمَّا أن نمشي مع الحلفاء حتَّى نتقي شرَّهم، ولكننا لا نرى الحلفاء يريدون أن يعيشوا معنا، ولا أن يقبلوا عقد محالفة يتعهدون لنا فيها بصيانة السلطنة العثمانية. وقد أشاع البعض أن دول الحلفاء عرضت على تركيا التحالف معها، وليس ذلك بصحيح، فإنهنَّ كنَّ ناوياتٍ تقسيم تركيا، وكنَّ يعلمنَّ أنهنَّ إن اتفقن معها امتنع تقسيم أقاليمها بعد الحرب^(٢).

ولقد اعترف (المسيو بوانكاره) في مجلس الشيوخ الفرنسي جواباً (للمسيو فكتور بيرار) بأنَّه منذ سنة (١٩١٢م) اتفقت فرنسا وإنكلترا على تقسيم سورية وفلسطين، وهذا قبل الحرب العالمية بسنتين^(٣).

ويؤكد صحة هذا الكلام أيضاً الدكتور علي حسون بقوله: لقد كانت آراء الحلفاء متباينة بشأن دخول الأتراك الحرب؛ ففرنسا رغبت في عدم دخولها إلى جانبهم حتى تستطيع أن تحصل على أطماعها في البلاد العثمانية، وأمَّا روسيا فكانت ترفض دخول تركيا إليهم لأن ذلك من شأنه تهديد وصية بطرس الأكبر

١- محمد طلعت باشا: ولد عام ١٨٧٤م في أدرنة بتركيا، وهو من زعماء تركيا الفتاة، ورجل الدولة البارز، تولى الصدارة العظمى عام ١٩١٧-١٩١٨م، انحاز إلى جانب الألمان إبان الحرب العالمية الأولى بتأثير من أنور وزير الحربية.

٢- تاريخ الدولة العثمانية، الأمير شكيب أرسلان، ص (٤٠٧).

٣- المصدر السابق نفسه.

لهم في الاستيلاء على استانبول، وأمّا العالم الإسلامي فلم يكن متحمساً لهذه الحرب لأنه لم يدرك أيّ فائدة للاشتراك فيها، فاقصر التأيد الإسلامي على استجابة ضئيلة على المستوى الشعبي^(١).

وحمي الوطيس ودخلت تركيا الحرب إلى جانب الألمان بأمر غير مباشر من السلطة وحاول الجنود المسلمون أن يضربوا أمثلة قويّة في القتال والدفاع عن الدولة، ففوجئ الحلفاء بما رأوه من قوّة الجيوش التركيّة التي ما زال هناك شيء من الإيمان في قلوبها، ففكر الحلفاء في اختراق نهر الدردنيل، والاستيلاء على العاصمة، وعبّأ الحلفاء جيشاً جراراً، وأرسلوا أساطيلهم، وحاولوا عبور مضيق الدردنيل، فقاتلهم العثمانيون قتالاً شديداً، وأغرقوا جانباً من بوارجهم، فأتى الحلفاء بجيوش أخرى، وأنزلوها في البر، وحاولوا التقدم إلى الأمام، فصدّهم المسلمون بشدّة استبسّلوا فيها إلى أقصى ما يتصوره العقل، واستمرت حرب الدردنيل هذه ثمانية أشهر، والحلفاء يكرون، والمسلمون يصدونهم، إلى أن قطع الحلفاء كلّ أمل من الفوز، وركبوا بوارجهم خائبين، وقد فقدوا بين قتيل وجريح ثلاثمئة وخمسة وعشرين ألف جنديّ، حسبما وجد في وثائق الحرب الكبرى المطبوعة في باريس، وهذا العدد دون حساب الخسائر البحريّة التي تذكر تلك الوثائق بأنّ المسلمين قد أغرقوا كثيراً من بوارجهم، التي لم ينبج منها إلا عشرون جندياً لا غير^(٢).

ولما رأت إنكلترا بعينها أنّ كلّ المكاييد والدسائس التي خطّطت لها ودعمتها منذ أيام محمد علي باشا^(٣) في مصر إلى يوم خلع السلطان عبد الحميد

١- تاريخ الدولة، د. حسون، ص (٢٨٨).

٢- تاريخ الدولة، الأمير شكيب أرسلان، ص (٣١١).

٣- مؤسس العائلة الخديوية، ولد سنة ١٧٦٦م، وتوفي بالقاهرة سنة ١٨٤٩م، أرسلته الدولة العثمانية على رأس فرقة من الرُّوملي لإخراج الفرنسيين من مصر، فسعى للقضاء على الماليك، ليغدو صاحب السيادة في مصر، فتحقق له ذلك، واستقلت عائلته بحكم مصر.

الثاني، لم تُضعف من شوكة الإسلام في قلوب الجيش العثماني الذي همّ ملياً دعوة الجهاد، والدفاع عن الأرض، وحماية مركز الخلافة من كلّ شر يهددها، عادت لتفكر في فصل العرب عن الترك، حتّى تُشغل المسلمين بعضهم ببعض، ليسهل لها اقتحام الجبهة التي انسحبت منها وهي تجر أذيال الخيبة^(١).

فتمكّن الإنكليز من إيجاد الشخص المناسب الذي سيحقق لهم هدفهم في إضعاف الرابطة الإسلامية بين الترك والعرب، وهو الشريف حسين بن علي الذي عمل السلطان عبد الحميد على إبقائه في استانبول خوفاً من خيانتة كما ذكرنا، ولكن كان الاتحاديون قد سمحوا له بالعودة إلى مكّة فاتفق مع الإنكليز على إقامة الثورة العربية الكبرى^(٢).

فدخل العرب الحرب إلى جانب الحلفاء فسادت فكرة القومية العربية، ووقع الصدام بين العرب والترك^(٣)، بعد أن جمعتهم الرابطة الإسلامية والحمية الدينية منذ دخول السلطان سليم الأول عام ١٥١٧م، بعد معركة مرج دابق مع المماليك، إلى أن قامت هذه الثورة التي لم يعلم القائمون بها ماذا سوف تحمل لهم من مصائب وحروب.

وبالعودة للحرب العالمية فقد قلبت الثورة العربية الموازين واحتلّ الحلفاء واليونانيون أقاليم الدولة العثمانية ووقعت اسطنبول تحت سيطرة الإنجليز، وأصبح الخليفة كالأسير فيها^(٤).

١- المصدر السابق نفسه.

٢- انظر: تاريخ الدولة العثمانية، د. حسون، الأمير أرسلان / قسم الحرب العامة/.

٣- انظر: حاضر العالم الإسلامي، د. جميل المصري (١١٠/١).

٤- الدولة، د. الصلابي، ص (٥١٧)

إنَّ خلع السلطان عبد الحميد، وقيام جمعية الاتحاد والترقي في الحكم، كانت خطوة أساسية نحو تحقيق المخطط الذي تمَّ أثناء الحرب، وبعد الحرب، والذي عمل الأعداء من خلاله على تحقيق الأهداف التي حدثت بعد عام ١٩١٤م، وهي كالآتي:

١- اتفاق الحلفاء على تقسيم العالم الإسلامي الخاضع للدولة العثمانية بينهم وذلك وفقاً لمعاهدة سايكس بيكو سنة ١٣٣٤هـ / ١٩١٦م السريّة، في الوقت الذي وعد فيه العرب بالاستقلال، وأهم ما تضمنته هذه المعاهدة:

● أن يكون جنوب العراق لبريطانيا، وساحل سورية الشمالي (لبنان) لفرنسا.

● تتكوّن دولتان عربيّتان شمال العراق، وأواسط بلاد الشام وجنوبيها يكون النفوذ في الأولى التي تضمُّ شمال العراق، وشرق الأردن لبريطانيا، والنفوذ في الثانية التي تشكل سورية، والجزيرة الفراتيّة لفرنسا.

● تكون فلسطين دوليّة.

● تكون استانبول والمضائق (البوسفور والدردنيل) لروسيا^(١).

٢- وعد بلفور الذي أصدرته بريطانيا للصهيونيّة في ٢/١١/١٩١٧م، محرّم ١٣٢٦هـ، بأن تكون فلسطين وطناً قومياً لليهود.

٣- تسليم تركيا لأبشع حركة تغريب، وتدمير للقيم الإسلاميّة بنقلها من دولة مسلمة إلى دولة لا تؤمن بوجود الشريعة الإسلاميّة^(٢).

١- حاضر العالم الإسلامي، د. جميل المصري (١/١١).

٢- الدولة العثمانية، د. الصلابي، ص (٥١٧).

مصطفى كمال أتاتورك ونهاية الدولة العثمانية

من أين ظهر هذا الرجل، وكيف اكتسب ثقة الناس بأن جعلوه أول رئيس لجمهوريتهم الجديدة، هل استطاع بقدراته فقط أن يقتلع الشريعة الإسلامية بتلك السرعة بين شعوب عاشت حياة الإسلام لأكثر من سبعة قرون، أم أنَّ هناك من قدَّم له كلَّ ما يريد ليحقق من خلاله ما يريد؟!.

كانت المؤامرة الخفية للقضاء على الخلافة العثمانية نهائياً، تستدعي اصطناع بطل تتراجع أمامه جيوش الحلفاء الجرَّارة، وتُعلِّقُ المِلَّةُ الإسلامية اليائسة فيه أملها الكبير وحلمها المنشود، وفي أوج عظمة تلك الدمية المصطنعة تنقضُّ على الرَّمق الباقي في جسم الأمة فتنهشه وتجهز عليه، وهذا أفضل من الـ((مئة مشروع لتقسيم تركيا)) وهدم الإسلام^(١).

وتَّمت صناعة البطل بواسطة المخابرات الإنكليزية بنجاح باهر، وظهر مصطفى كمال^(٢) بمظهر المنقذ لشرف الدولة من الحلفاء، واليونان الذين احتلَّوا أزمير بتمكين من بريطانيا سنة ١٣٣٨هـ، فقام مصطفى كمال باستشارة الجند، وتراجعت أمامه قوَّات الحلفاء بدون قتال، وأخلت المواقع كما كان متفقاً عليه

١- انظر: العلمانية، د. سفر الحوالي، ص (٥٦٩).

٢- مصطفى كمال أتاتورك: ولد في ١٩ مايو ١٨٨١ في مدينة سلانيك اليونانية التي كانت تابعة للدولة العثمانية وقتئذ وتوفي في ١٠ نوفمبر ١٩٣٨. أطلق عليه اسم الذئب الأغبر، واسم أتاتورك يعني أبو الأتراك وذلك للبصمة الواضحة التي تركها عسكرياً في الحرب العالمية. فارق الحياة عن عمر يناهز ٥٧ عاماً بعد إصابته بمرض تشمع الكبد الذي نجم عن تناوله المفرط للكحول، واعتبرت جنازته من أكبر الجنازات التي شهدتها تركيا. ودفن في ضريح شيد له خصيصاً يشرف على العاصمة التركية أنقرة.

معه، وبدأ مصطفى كمال يطفو على السطح تدريجياً بمظهر البطل وأحبّه الناس والتفوا حوله^(١).

ويكشف أرمسترونج رجل المخابرات الإنكليزي كيف وقع الاختيار على مصطفى كمال وحده من دون البقية، لتنفيذ آخر خطوة في الخطة البريطانية، فيقول: ((إنّ طبيعته كانت تميل إلى أن يكون الأمر النّاهي، فلم يُظهر أيّ احترام لزعماء الاتحاديين، وتشاجر مع أنور وجمال باشا، ونيازي الألماني المتوحش، وطلعت الدب الكبير))^(٢).

وبعد أن تمكّن أتاتورك من العباد والبلاد ورجال السياسة أعلن في عام ١٩٢٤م / ١٣٤٤هـ انتهاء الخلافة الإسلامية التي لم يكن لها آنذاك إلا القلب، وأعلن قيام الجمهورية التركية العلمانية، وأنّه أول رئيس لها^(٣).

وفي عام ١٩٢٩م، بدأت الحكومة تجر على استخدام الأحرف اللاتينية بدلاً من العربية، وترجم القرآن الكريم إلى التركية ففقد معناه، وأمر بأن يكون الأذان باللغة التركية، وفي عام ١٩٣٥م غيّرت الحكومة العطلة الرسمية من يوم الجمعة إلى يوم الأحد، وأمّعت حكومة مصطفى في حركات التغريب، فأصدرت قراراً بإلغاء لبس الطربوش، وأمرت بلبس القبعة تشبهاً بأوروبا^(٤).

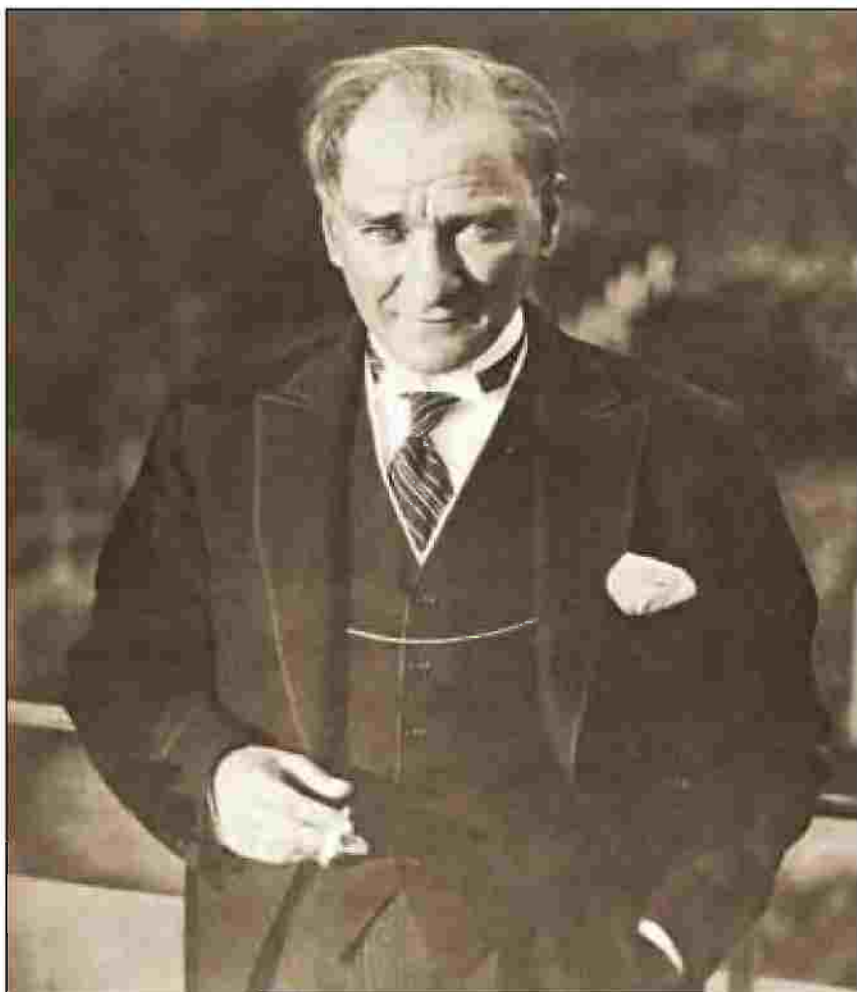
١- حاضر العالم الإسلامي، (١/١١٢).

٢- الدولة العثمانية، د. الصلابي، ص (٥٢٠).

٣- انظر: التاريخ العثماني في شعر أحمد شوقي، محمد أبو غدة، ص (١١٠).

٤- حاضر العالم الإسلامي، (١/١١٥، ١١٦). ولمزيد من التوسع الرجاء العودة لكتاب

تاريخ الدولة العلية العثمانية، الأستاذ محمد فريد بك الحامي، ص (٧٤٧ حتى ٧٥٩).



كمال أتاتورك

إِضَاءَات

أتاتورك و الظاهر بيبرس

إذا نظرنا إلى السياسة التي انتهجها السلطان الظاهر بيبرس والسياسة التي انتهجها مصطفى كمال أتاتورك، نجد الفرق بين تفكير الرجلين بعيداً جداً إذ بينما استند بيبرس (وهو من المماليك وقائد معركة عين جالوت) إلى الخلافة العباسية وأحياها في مصر، بعد أن تلاشت في بغداد فرفع بذلك من شأن نفسه ومن شأن المسلمين في كل مكان وكانت الخلافة له ولخلفائه من بعده قوةً ودعماً، نجد مصطفى كمال قد استند إلى الإنكليز لهدم الخلافة ليرفع نفسه ويهدم المسلمين.

لقد كان باستطاعة مصطفى كمال بعد أن انتصر على اليونان أن يتنكر للغربيين ويقلب لهم ظهر المجن فيخدم بذلك بلده وأمتة ولم يكن الغربيون يستطيعون آنذاك أن ينالوه بأذى لأن العالم كله كان معه، ولكنه لم يفعل ذلك لأن الخطة الغربية كانت تساير هواه، وهذا من سوء حظ المسلمين وحظ البلاد التركية في الدرجة الأولى، وما تشاؤون إلا أن يشاء الله.

ما الفائدة التي جناها المسلمون من كُسوف الشمس العثمانية:

وهكذا كُسِفَت شمس الخلافة الإسلامية العثمانية، ولكن هذه المرة دون شروق شمس جديدة على يد مسلمين جُدد كما كان يحدث من قبل، لقد انتهى مفهوم الخلافة الإسلامية، وبالمقابل ماذا استفاد المسلمون من زوال حكم خلفاء بني عثمان.

هل كانت الجزائر الروسية البشعة في البوسنة والهرسك والشيخان لرعايا المسلمين أفضل من العيش تحت ظلّ دولة مسلمة كالدولة العثمانية.

هل كان ثمن التحرر من رفرقة العلم العثماني فوق سماء الجزائر أن يصبح اسمها ولقبها بين الدول، بلد المليون شهيد على يد السفّاحين الفرنسيين.

هل كان الثمن الذي دفعته جميع بلاد المغرب، والذي نتج عنه محو الثقافة العربية من ألسنتهم، وذلك الدوبان الحضاري بحضارة المستعمر الغاشم ، يستحقّ مقولة الغرب الصليبيّ: الآن وضع سكّان بلاد المغرب أقدامهم على طريق التطور والحضارة، فعن أيّ حضارة يتكلّم هؤلاء.

هل كانت الثورة العربية الكبرى، والدّعوات اللوححة للانفصال عن الدولة الأم تستحقّ أن يدفع الشعب العربيّ ضريبة الحدود بين أقاليمه، أن تصبح بلاد الشام التي عُرف أهلها بالحبّة والألفة، أربعة أقاليم منفصلة.

هل كان ثمن تذكرة الهروب من لواء الدولة العثمانية المتخلّفة - كما يزعم الإيطاليون - بالنسبة لليبيا أن يحدث بها تلك الجازر الجماعية والتشريد المرعب في الصحراء القاحلة، هل هذه ضريبة التطور التي أراد أن يدخلها الغرب على الولايات العثمانية.

هل تريد أن تسمع قصّة الحضارة التي أرادت إيطاليا أن توجدها في ليبيا ولأجل ذلك أعلنت بسط حمايتها عليها؟ يقول المسيو (كوسيرا) مراسل جريدة

«أكسيلور» الفرنسية: «لا يخطر ببال أحدٍ ما رأيناه بأعيننا من مشاهد القتل العام ومن أكوام الجثث التي يتصاعد منها الدخان تحت ملابسهم الصوفية كالبحور يجري أمام مذابح النصر الباهر، لقد مررت بمائة جثة بجانب حائط قضى عليهم بأشكال متخلفة، وما إن فررت من هذا المنظر حتى تمثّلت أمام عيني أسرة عربية قتلت عن آخرها، وهي تستعد للطعام، ورأيت طفلة صغيرة أدخلت رأسها في صندوق حتى لا ترى ما يحل بها وبأهلها. إنّ الإيطاليين فقدوا عقولهم، وإنسانيّتهم من كل وجه..» والأقوال الغربية التي تشهد على تلك المجازر كثيرة^(١).

إنّ الدولة العثمانية الإسلامية لم تضعف إلا عندما تهرّب شعبها من خدمتها، وتركها تواجه أعباء الأعداء وحدها، وانصرف أهل الأقاليم يتغذون على الأفكار الغربية القومية، بدلاً من مساعدة الدولة في التصدي لتلك الحملات الصليبية الفكرية.

لقد كان عصر السلطان عبد الحميد الثاني، دليلاً واضحاً على أنّ الدولة العثمانية، ما زالت قادرةً على التطور، ومواكبة الدنيا، بمنظار الإسلام، ولكنّ الأعداء المتآمرين كانوا أقوى من جهد السلطان، فعملوا على عزله وإنهاء هذا المجد العثمانيّ.

١- تاريخ الدولة، د. حسون، ص (٢٨٢، ٢٨٣).

بنو عثمان

الأمراء العثمانيون

أرطغرل

١- عثمان

٢- أورخان

٣- مراد الأول

السلطين العثمانيون

٤- بايزيد الأول

٥- محمد الأول

٦- مراد الثاني

٧- محمد الثاني

٨- بايزيد الثاني

الخلفاء العثمانيون

٩- سليم الأول

١٠- سليمان الأول

١١- سليم الثاني

١٢- مراد الثالث

١٣- محمد الثالث

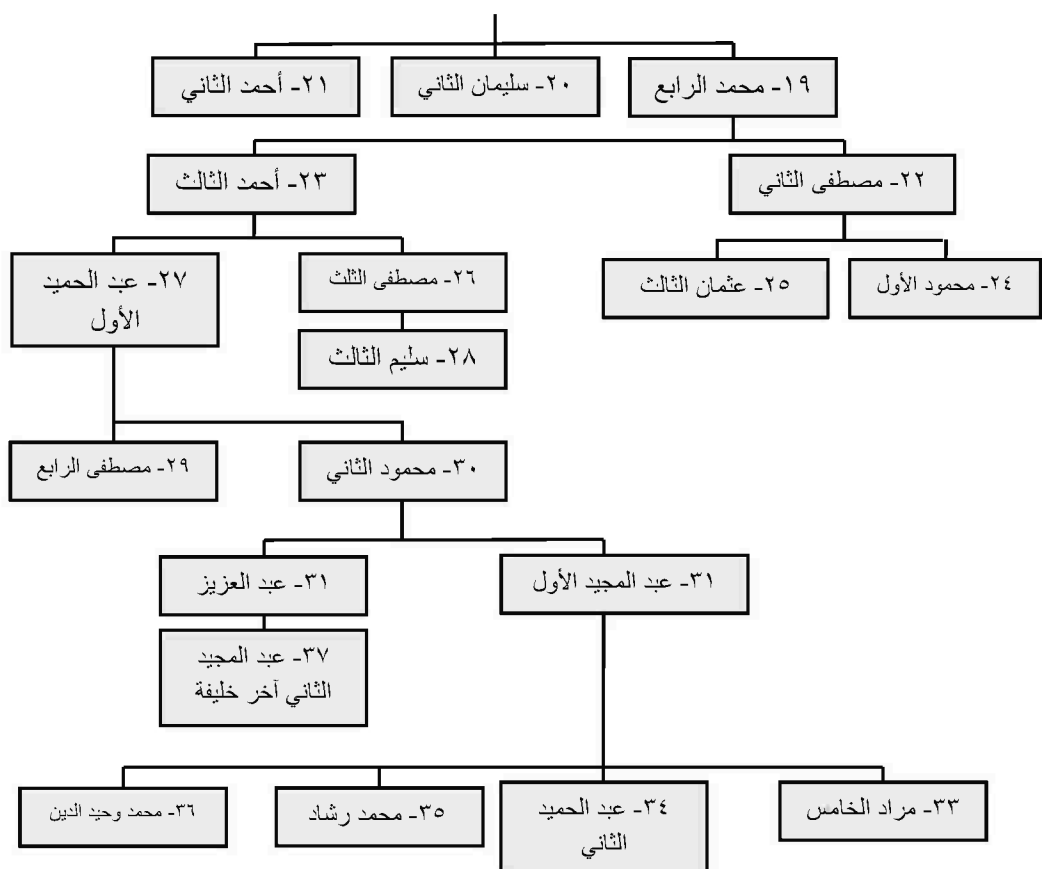
١٥- مصطفى الأول

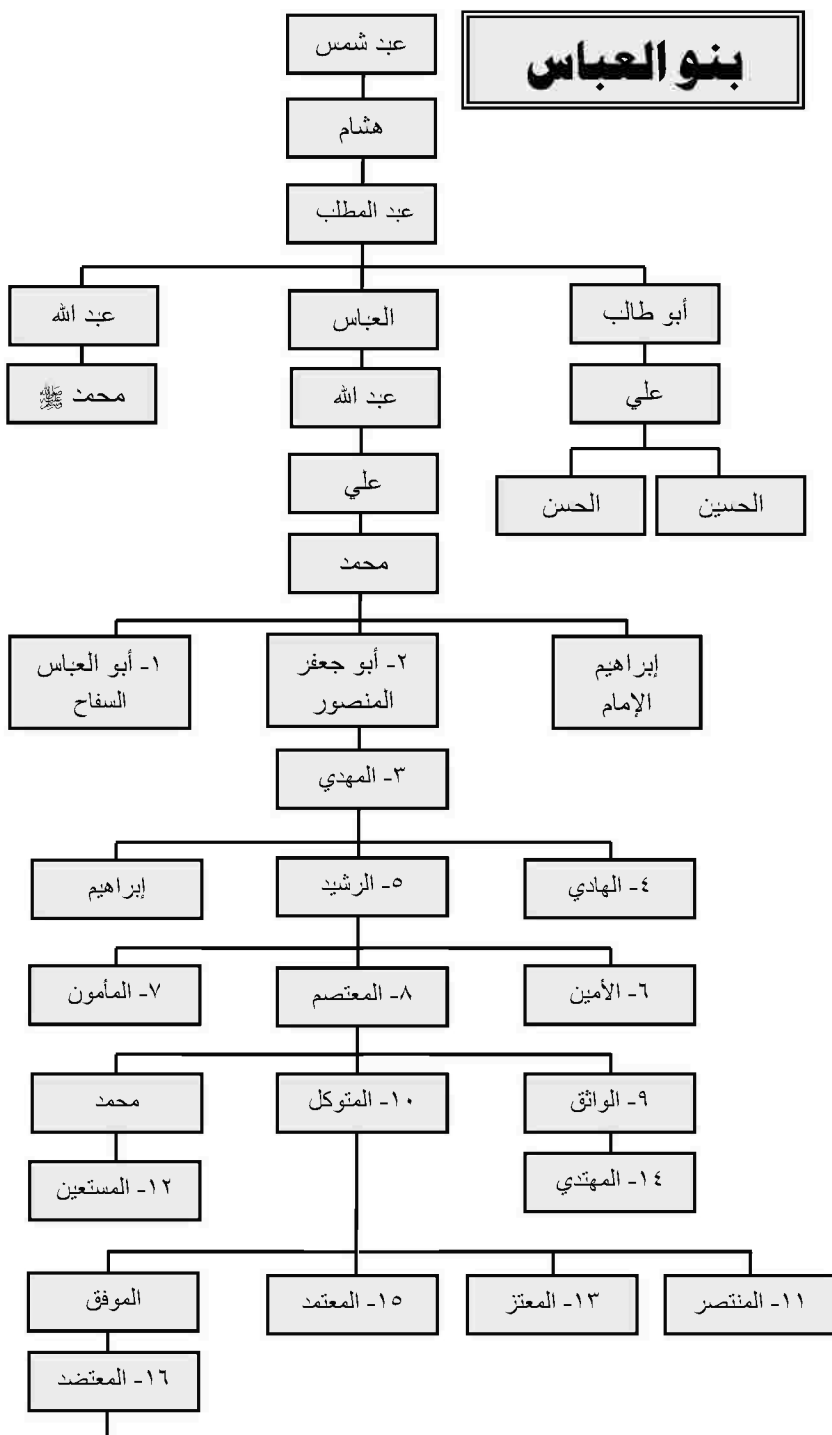
١٤- أحمد الأول

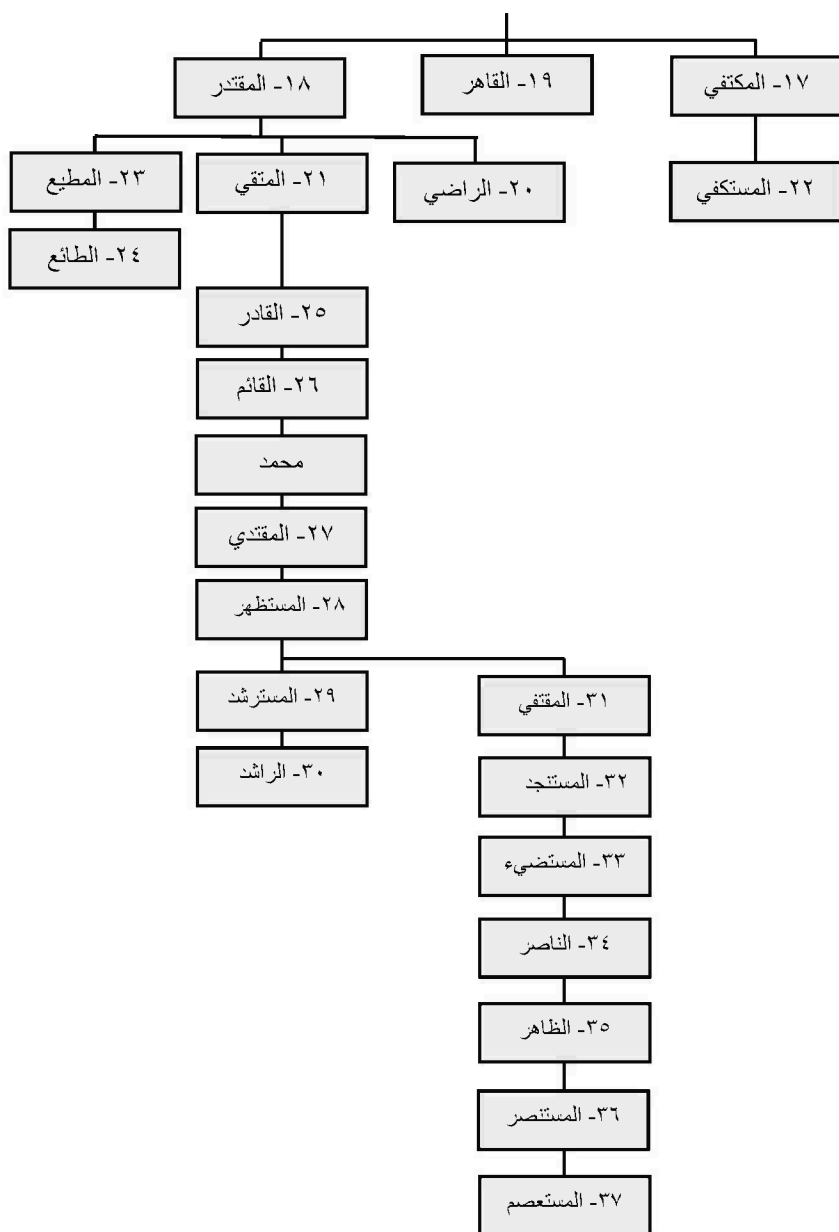
١٨- إبراهيم

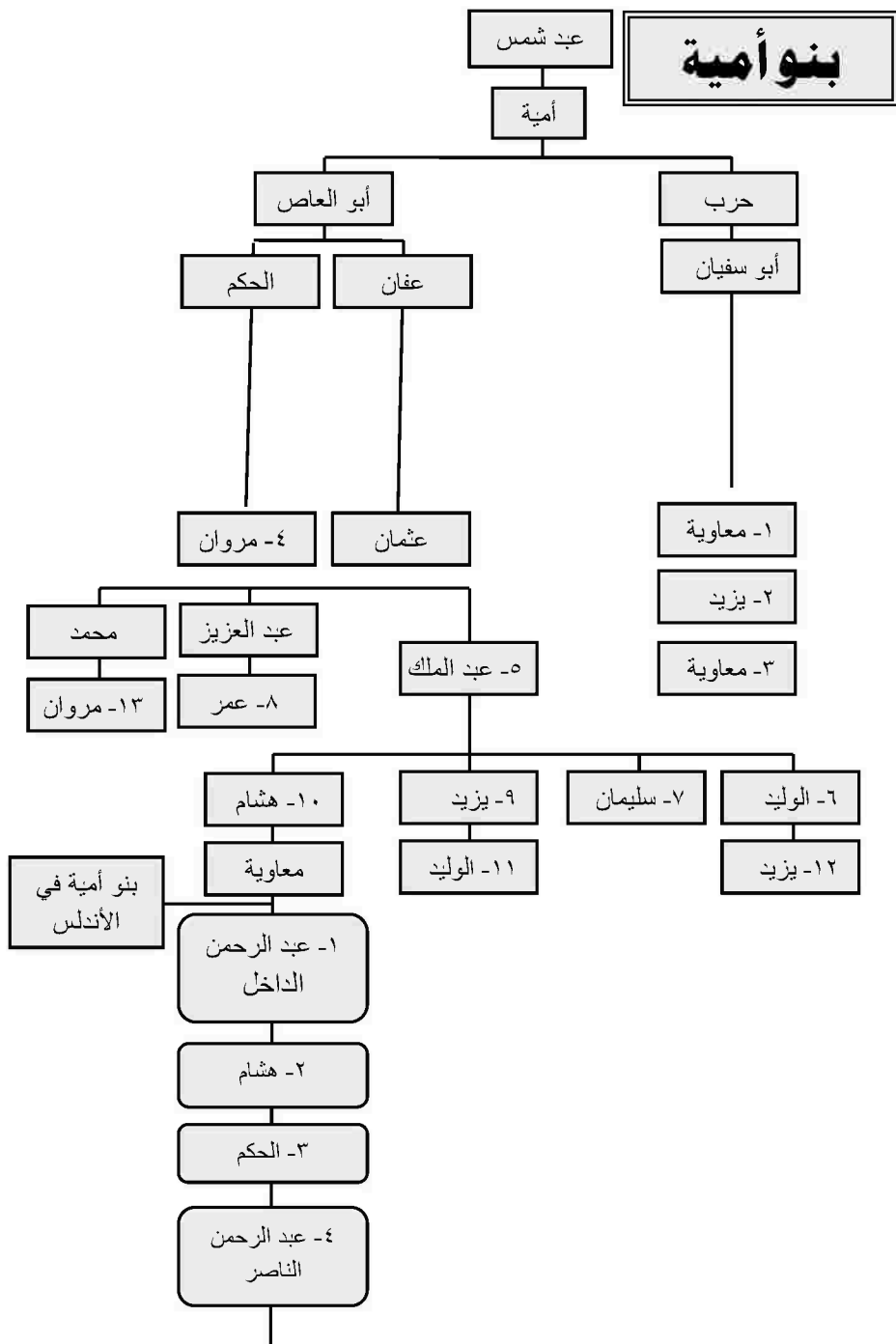
١٧- مراد الرابع

١٦- عثمان الثاني









الخاتمة

وبعد، فهذا ما يسره الله لي من جمع وترتيب وتحليل تضمنتها فصول هذا الكتاب، فما كان فيه من صواب فهو محض فضل من الله عليّ، فله الحمد حتى يرضى، وله الحمد عند الرضى، وله الحمد بعد الرضى، وما كان فيه من خطأ فاستغفر الله تعالى وأتوب إليه، وحسبي أنّي كنت حريصاً أن لا أقع في الخطأ، وعسى أن لا أحرم من الأجر.

ولقد أحببت في نهاية الكتاب أن أضع أفكاراً عامة عن التاريخ الإسلامي في مجمله، وهي كالآتي:

١- لقد استخلف الله على هذه الأمة واحداً وتسعين خليفة، وهم كالتالي: (٤) من العصر الراشدي، و(١٣) من العصر الأموي، و(٣٧) من العصر العباسي، و(٣٧) من العصر العثماني.

٢- كانت الخلافة الراشدة أول مرحلة في التاريخ الإسلامي؛ فتمثلت آثارها على الأمة الإسلامية؛ بتثبيت أركان الدين الإسلامي، ووضع قواعد، وقوانين للدولة وفق المنهج الإسلامي.

٣- ثمّ أكرم الله الأمّة ببني أمية؛ فكانت دولتهم دولة فخر وعز للمسلمين على مرّ العصور، لذكروا حال أمجادهم عندما انتصروا بالإسلام، حيث شهدت الدولة الأموية أكبر اتساع للفتوحات الإسلامية، وأسسوا لمن بعدهم منهاجاً في إدارة الدول من دواوين وأعمال مؤسساتية يُعتمد عليها.

٤- وجاء بعدهم خلفاء بني العباس؛ الذين نالوا الخلافة بالثورة الشاملة والحرب الطاحنة مع الخلافة الأموية السابقة، والفضل لله أن ظهر في خلافتهم أشكال عديدة من الحضارة والعلم ما زالت آثارها قائمة إلى الآن.

٥- ثم اختار الله للأمة الإسلامية فرساناً حملوا الحضارة وحبَّ الجهاد في سبيل الله على أعناقهم لتحتمي الأمة الإسلامية ستة قرون تحت ظلالهم ورعايتهم في وقت كانت الدول العظمى والتحالفات الخطيرة تتآمر على بلاد الإسلام لتنبش قبورها وتُخرب عقولها وتُوجد التناحر والاختلاف بين أبنائها. نعم هم العثمانيون العظماء رحم الله سلاطينهم رجلاً رجلاً.

٦- بالرغم من اختلاف أسباب سقوط الدول الأربع إلا أنني لم أقف على ذكرها وتحليلها، ولكني سأكتفي بذكر ما يلي:

أ- إنَّ انتقال الخلافة من بيت إلى آخر على مر التاريخ الإسلامي لا يعني أنَّ أحدها أفضل وأجدر بها من الآخر.

ب- فالخلافة الأموية لم تظهر بسبب ضعف خلافة الراشدين، بل لأنَّ طبيعة المجتمع قد تغيَّرت، وأمر الشورى لم يعد كما كان عليه زمن الراشدين؛ فالقوم ليسوا كلهم صحابةً أو تابعين بل هم من أجناس وثقافات متعددة، والطامحون فيهم إلى الملك كثيرٌ ما هم.

ج- أما بنو العباس فقد نشروا دعوتهم سرّاً طالين الخلافة لأنفسهم متآمرين على الخليفة الأموي رافضين لأحقّيته فيها لتدوم دولتهم بعد ذلك قرابة ستة قرون في بغداد انتهت على يد المغول.

د- المماليك: هم من بقايا صلاح الدين الأيوبي، قام رجلٌ منهم يدعى الظاهر بيبرس باحتواء الخليفة العباسي ليكتسب منه شرعيّته، فقامت دولته في القاهرة، واشتهر اسم المماليك حتى نسى النَّاس أمر الخليفة العباسي اللاحق في أمنهم، فكانت دولتهم دولة خلافة، إلا أنها لم تلق في التاريخ شهرةً واسعة لوجود العثمانيين في عصرهم.

هـ- كانت دولة العثمانيين أناضوليّة أوروپيّة، فعندما ساءت أحوال المماليك وتمادى عليهم البرتغال والإسبان، طلب العرب من السلطان العثماني أن

يدخلوا في حمايته ودولته ليغدوا من رعيته فيضمّنوا دولة قوية تدافع عنهم، ثمّ كما هي سنّة الله في هذا الكون فقد ضعفَ العثمانيون بسبب تكالب الأعداء عليهم، فظهر أولاً محمد علي باشا صاحب الحضارة الغربيّة في مصر طالباً أن يستقل بحكم مصر وبلاد الشام، وكانت دولته قويّة مهيبّة فتية، فلما رأى الغرب ذلك الحماس منه - وهم الذين صنعوه - خافوا استفحال أمره فقصموا ظهره وأعانوا السلطان العثماني عليه، فلا رغبة لهم بشريك قويٍّ معهم في قسمة تركة الرجل المريض، ولو كان هذا الشريك تلميذهم.

ثمّ حدث الانفصال بين العرب ودولة العثمانيين، وذلك على يد الشريف حسين الذي كان ويا للأسف ضحية خديعة الإنكليز؛ إذ صدّق وعودهم بأنّهم سيعينونه على إعادة ملك العرب تحت قيادته بعد أن يثور بالعرب ضدّ الخلافة العثمانيّة الأم.

و- هل صحيحٌ أنّ العثمانيين احتلوا بلادنا كما احتلها الاستعمار الفرنسي والانكليزي والإيطالي؟

إنّ أجدادنا هم الذين طلبوا الحماية والأمان من السلطان سليم الأول، وسألوه أن يدخل بلادهم كمحرر لهم من ظلم المماليك، والعثمانيون لم يقتلوا أحداً ظلماً وبهتاناً كما هي مجازر الفرنسيين والإنكليز واليطاليان. والعثمانيون لم يتركوا أرضنا مبيعةً لليهود كما فعل الإنكليز بفلسطين. ولكن التحليل الواقعي لمجريات الأحداث يضعنا أمام حقيقة واضحة وهي أنّ الدولة العثمانية أصبحت استعماراً منذ أن خلع السلطان عبد الحميد الثاني حتى قامت الثورة العربية الكبرى بقيادة الشريف حسين؛ حيث كانت الخلافة لقباً فقط، وهذه الفترة تمتد من ١٩٠٩ حتى ١٩١٦.

وإن افترضنا أن الخلافة العثمانية كانت استعماراً منذ أوائل عصورها؛ فإنَّ هذا من شأنه أن يقلب موازين التاريخ رأساً على عقب؛ لأن الكلام يُفهم منه أنَّ كلَّ فتوحات المسلمين في أرض فارس والروم والهند وإسبانيا كانت احتلالاً واستعماراً للأمم الأخرى.

وهذا ليس بصحيح إطلاقاً لا من وثائق وشهادات مؤرخينا فقط، بل من العالم أجمع؛ فلولا تلك الفتوحات الإسلامية واحتواؤها للشعوب بمختلف أجناسها تحت ظلَّ شجرة الخلافة لظلَّ العالم أجمع إلى يومنا هذا قابعاً في عصور الظلام. وفي النهاية أدعو الله تعالى أن يحقق النفع بهذا الكتاب.

وأختتم بقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: آية ١٠].

فاروق أحمد مازن الفراء

المصادر والمراجع

(الخلافة الراشدة)

- ١- أباطيل يجب أن تُمحي من التاريخ، د. إبراهيم علي شعوط، المكتبة الإسلامية. الطبعة السادسة ١٤٠٨ هـ، ١٩٨٨ م.
- ٢- أبو بكر رجل الدولة، مجدي حمدي، دار طبية الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ..
- ٣- الإصابة في تمييز الصحابة، أحمد بن علي بن حجر، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ، ١٩٩٥ م.
- ٤- أخبار عمر، وأخبار عبد الله بن عمر، تأليف علي الطنطاوي، ناجي الطنط.اوي، المكتب الإسلامي، الطبعة الثامنة، ١٤٠٣ هـ، ١٩٨٣ م.
- ٥- أوليات الفاروق، د. غالب عبد الكافي القرشي، المكتب الإسلامي بيروت، مكتبة الحرمين الرياض، الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ، ١٩٨٣ م.
- ٦- الإدارة العسكرية في الدولة الإسلامية نشأتها، وتطورها حتى منذ صف القرن الثالث الهجري، د. سليمان بن صالح بن سليمان آل كمال، مذ. شورات جامعة أم القرى.
- ٧- الخلافة الراشدة والدولة الأموية من فتح الباري، د. يحيى إبراهيم يحيى، دار الهجرة، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٧ هـ، ١٩٩٦ م.
- ٨- الفاروق عمر، عبد الرحمن الشرقاوي، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى، ١٤٠٨ هـ، ١٩٨٨ م.
- ٩- التاريخ الإسلامي، الخلفاء الراشدون، محمود شاكر، المكتب الإسلامي، الطبعة الخامسة، ١٤١١ هـ، ١٩٩٠ م.
- ١٠- الأمين ذو النورين، محمود شاكر، المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ، ١٩٩٧ م.
- ١١- تاريخ الخلفاء للإمام جلال الدين السيوطي، غني بتحقيقه إبراهيم ص.الح، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٧ هـ. ١٩٩٧ م.
- ١٢- تاريخ الدعوة إلى الإسلام في عهد الخلفاء الراشدين، د. يسري محمد هاني، الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ. جامعة أم القرى، معهد البحوث العلمية، وإحياء التراث.

- ١٣- تاريخ اليعقوبي، دار بيروت للطباعة والنشر، طبعة ١٤٠٠هـ، ١٩٨٠م.
- ١٤- صحيح التوثيق في سيرة وحياة الفاروق عمر بن الخطاب، مجدي فتحي الـ سيد، دار الصحابة للتراث بطنطا، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ، ١٩٩٦م.
- ١٥- عمر بن الخطاب، د. محمد أحمد أبو النصر، دار الجيل، بيروت الطبعة الأولى، ١٤١١هـ، ١٩٩١م.
- ١٦- تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة من روايات الطبري والمحدثين، تأليف د. محمد د. أمحزون، دار طيبة، مكتبة الكوثر، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ، ١٩٩٤م.
- ١٧- التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان، محمد بن يحيى بن أبي بكر. ر. الم. القي الأندلسي، حققه د. محمود يوسف زايد، دار الثقافة، الدوحة، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م.
- ١٨- الحضارة العربية في الإسلام، د. واضح الصمد، المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس- لبنان.
- ١٩- حقبة من التاريخ، عثمان الخميس، دار الإيمان، الإسكندرية.
- ٢٠- الحكمة في الدعوة إلى الله، سعيد القحطاني، مؤسسة الجريسي، الرياض، السعودية، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م.
- ٢١- الدوحة النبوية، د. فاروق حمادة، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م.
- ٢٢- دماء على قميص عثمان بن عفان، دار البشير، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م.
- ٢٣- ذات الصواري، د. شوقي أبو خليل، دار الفكر، الطبعة الرابعة ١٤٠٠هـ، ١٩٨٠م.
- ٢٤- الرقة والبكاء، موفق الدين عبد الله بن أحمد بن قدامة، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت الطبعة الثانية ١٤٢٢هـ، ٢٠٠٢م.
- ٢٥- السياسة المالية لعثمان بن عفان، قطب إبراهيم محمد، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٨٦م.

- ٢٦- عثمان بن عفان، صادق عرجون، الدار السعودية، الطبعة الثالثة، ١٤١٠هـ .
١٩٩٠م.
- ٢٧- حركة الردة، د. علي العتوم، مكتبة الرسالة الحديثة، عم.ان، الطبعة الثانية.
١٩٩٧م.
- ٢٨- حروب الردة وبناء الدولة الإسلامية، أحمد د.س. عبيد بن س.الم، دار المذار،
١٤١٥هـ ، ١٩٩٤.
- ٢٩- السيرة النبوية لأبي شهبه، دار القلم، دمشق، الطبعة الثانية ١٤١٧هـ . ١٩٩٦م.
- ٣٠- السيرة النبوية لابن هشام، دار إحياء التراث، الطبعة الثانية ١٤١٧هـ . ١٩٩٦م.
- ٣١- سيرة وحياة الصديق، مجدي فتحي السيد، دار الصحابة للتراث، بطنطا الطبعة
الأولى ١٤١٧هـ ، ١٩٩٦م.
- ٣٢- الطبقات الكبرى، لابن سعد، دار صادر، بيروت.
- ٣٣- مآثر الإنافة في معالم الخلافة، للقلقشندي، تحقيق عبد الستار أحمد الفرج، ع.الم
الكتب، بيروت.
- ٣٤- المرتضى سيرة أمير المؤمنين أبي الحسن علي بن أبي طالب، لأبي الحسن
الندوي، دار القلم، دمشق، الطبعة الثانية ١٤١٩هـ ، ١٩٩٨م.
- ٣٥- فرائد الكلام للخلفاء الكرام، قاسم عاشور، دار طويق الرياض، ١٤١٩هـ . -
١٩٨٨م.
- ٣٦- منهج علي بن أبي طالب في الدعوة إلى الله، د. سليمان بن قاسم العبد، دار
الوطن، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢٢-٢٠٠٢م.
- ٣٧- محض الصواب في فضائل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، للإمام يوسف بن
الحسن بن عبد الهادي الدمشقي، دار أضواء السلف، الرياض، الطبعة الأولى
١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.
- ٣٨- موسوعة فقه عثمان بن عفان، د. محمد د.رواس قلعجي، دار النفائس،
١٤٠٤هـ - ١٩٨٣م.
- ٣٩- نظام الحكم في الإسلام، عارف أبو عيد، دار النفائس، الأردن، الطبعة الأولى
١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

المصادر والمراجع

(الدولة الأموية)

- ١- أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية د. عبد الله بن عبد الرحمن ب. ن زيد الخرعان، مكتبة الرشد الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ..
- ٢- إحداث أحاديث فتنة الهرج د. عبد العزيز صغير دخان، دار الصحابة، ال. شارقة، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ. - ٢٠٠٣م.
- ٣- أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ، أحمد يوسف القرمانى، عالم الكتب، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ. - ١٩٩٢م.
- ٤- إدارة بلاد الشام في العهدين الراشدي والأموي، عبد اللطيف عبد الرزاق العاني، جامعة بغداد، رسالة ماجستير عام ١٩٦٨م.
- ٥- إسلام بلا مذاهب مصطفى الشكعة، مكتبة مصطفى البابي الحلبي وشركاه القاهرة، الطبعة الخامسة، ١٣٩٢هـ..
- ٦- الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز في العقيدة، حياة محمد جبريل، الجامعة الإسلامية، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ. - ٢٠٠٢م.
- ٧- الإدارة العسكرية في الدولة الإسلامية، د. سليمان بن صالح آل كمال، جامعة أم القرى.
- ٨- الاستبصار في نسب الصحابة من الأنصار، د. علي نويهض، دار الفكر، بيروت، بدون تاريخ.
- ٩- الاستيعاب في معرفة الأصحاب، لأبي عمر بن عبد البر، دار الكتب العربية بيروت.
- ١٠- الإسلام والتعريب في الشمال الأفريقي، بوخلفة نور الهدى، ماجستير، جامعة بغداد عام ١٩٨٦م.
- ١١- الأمويون بين المشرق والمغرب دار القلم، دمشق، الدار الشامية بيروت، محمد سيد الوكيل، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ. - ١٩٩٥م.
- ١٢- الأمويون وآثارهم المعمارية في الشام والعراق والحجاز واليمن ومصر وإفريقية د. عبد الله كامل عبده، دار الآفاق العربية، طبعة أولى ١٤٢٣هـ. - ٢٠٠٣م.

- ١٣- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، أبو عبد الله محمد المراكشي ابن عذاري.
- ١٤- البيان والتبيين للجاحظ، أبو عمر عثمان بن عمرو بن بحر، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي القاهرة، الطبعة الرابعة، ١٣٩٥هـ..
- ١٥- التاريخ الأندلسي، د. عبد الله الرحمن الحجي، دار القلم، دمشق، الطبعة الرابعة، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.
- ١٦- التاريخ الإسلامي، محمود شاكر، المكتب الإسلامي، الطبعة السابعة ١٤١١هـ - ١٩٩١م.
- ١٧- التبيين في أنساب القرشيين، موفق الدين عبد الله بن أحمد المقدسي، عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
- ١٨- التطور الاقتصادي في العصر الأموي د. عصام هشام عيروس الجفري، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى السعودية.
- ١٩- الخلافة الأموية، عبد المنعم الهاشمي، دار ابن حزم الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.
- ٢٠- الخلفاء الراشدون، عبد الوهاب النجار، دار القلم، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
- ٢١- الدور السياسي لأهل اليمن في الشام، إسماعيل الجبوري، هاشم يحيى الملاح، جامعة الموصل، رسالة الماجستير عام ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
- ٢٢- الدور السياسي للصفوة في صدر الإسلام، السيد عمر، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م المعهد العالمي للفكر الإسلامي.
- ٢٣- الدولة الأموية، يوسف العش، دار الفكر، دمشق، الطبعة الثالثة ١٤٠٦هـ - ١٩٨٥م.
- ٢٤- الدولة الأموية المفترى عليها، حمدي شاهين، دار القاهرة للكتاب، سنة ٢٠٠١م طبعة أولى.
- ٢٥- الدولة الأموية عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار، الدكتور علي محمد الصلابي، دار ابن كثير، الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.

- ٢٦- الدولة الأموية دولة الفتوحات، نادية محمود مصطفى المعه. د. الع. المي للفكر. ر الإسلامي.
- ٢٧- الدولة الأموية في عهد يزيد بن عبد الملك، عبد الله بن ح. سين ال. شريف، دار القاهرة، الطبعة الأولى السنة ٢٠٠٥م.
- ٢٨- الزهد للحسن البصري د. محمد عبد الرحيم، دار الحديث مصر.
- ٢٩- السلطان لابن قتيبة، لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، المكتبة الأزهرية للتراث.
- ٣٠- السنة قبل التتوين، محمد عجاج الخطيب، دار الكتب ب. روت ليد. ان، طبعة عام ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.
- ٣١- السيرة النبوية لابن هشام، دار إحياء التراث.
- ٣٢- الشامل في تاريخ المدينة د. عبد الباسط ب. در، الطبعة الأولى. ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.
- ٣٣- الشرف والتسامي بحركة الفتح الإسلامي، د. علي الصلابي، الصحابة، الشارقة.
- ٣٤- الشريعة، للإمام المحدث أبي بكر محمد بن الحسين الآجري، وتحقيق عبد الله ابن عمر بن س. ليمان الرميدي، دار ال. وطن، الري. اض، الطبعة الأولى. ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.
- ٣٥- العقد الفريد، أحمد بن محمد ابن عبد ربه، تحقيق أحمد أمين.
- ٣٦- الفتوى: نشأتها وتطورها، حسين الملاح، المكتبة الع. صرية، ليد. ان، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.
- ٣٧- الفخري في الآداب السلطانية ابن طباطبا، المكتبة التجارية، مصر ١٣٤٥هـ.
- ٣٨- القدرية جدلية الدين والسياسية في الإسلام حركة يزيد بن الوليد، نموذجاً، مضر عدنان طلفاح، مؤسسة حمادة للنشر والتوزيع، الأردن ٢٠٠٤م.
- ٣٩- الكامل في التاريخ، أبو الحسن علي بن أبي المكارم الشيباني المع. روف، ب. ابن الأثير، تحقيق: علي شيري، دار إحياء التراث العربي، بيروت الطبعة الأولى. ١٤٠٨هـ - ١٩٨٩م.

- ٤٠- المستشفيات الإسلامية من العصر النبوي إلى العصر العثماني الدكتور عبد الله عبد الرزاق مسعود السعيد، دار الضياء، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ. - ١٩٨٧ م، الأردن عمان.
- ٤١- المعارف لابن قتيبة، تحقيق ثروة عكاشة، الطبعة الثالثة، دار المعارف- مصر.
- ٤٢- المعجم الكبير للطبراني، لأبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، مكتبة الع.وم والحكم، الطبعة الثانية ١٤٠٦ هـ. - ١٩٨٥ م.
- ٤٣- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن الج.وزي دار الكتب العلمية، بيروت لبنان.
- ٤٤- النظريات السياسية الإسلامية، محمد ضياء الرئيس، الطبعة السابعة، دار التراث ١٩٧٩ م.
- ٤٥- النظم الإسلامية، أنور الرفاعي، دار الفكر، عام ١٩٧٣ م.
- ٤٦- الولاة وكتاب القضاة للكندي، أبو عمر محمد بن يوسف الكندي، مطبعة الآباء.اء اليسوعيين- بيروت- ١٩٠٨.
- ٤٧- تاريخ أبي زرعة، تحقيق شكر الله، نعمة الله القوجاني مطبوعات اللغة العربية.ة بدمشق.
- ٤٨- تاريخ الطبري، المسمى بتاريخ الأمم والملوك لأبي جعفر الطبري، دار الفكر.ر، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ. - ١٩٨٧ م.
- ٤٩- تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي د. علي حسن الخرب.وطلي دار المع.ارف بمصر طبعة ١٩٥٩ م.
- ٥٠- تاريخ القضاة، كتاب عيون المعارف، وفنون أخبار الخلائف للإمام القاضي، محمد بن سلام بن جعفر الشافعي مطبوعات أم القرى.
- ٥١- تاريخ الموصل، أبو زكريا، يزيد بن محمد بن إياس بن القاسم، تحقيق ال.دكتور على حبيبة- طبع المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة ١٩٦٧ م.
- ٥٢- تاريخ بلاد الشام الاقتصادي، عاطف رحال بيسان، بي.روت لب.ان ن الطبعة.ة الأولى ٢٠٠٠ م.
- ٥٣- تاريخ خلافة بني أمية نبيه عاقل، دار الفكر، الطبعة الثالثة ١٣٩٤ هـ. - ١٩٧٥ م.

- ٥٤- تاريخ خليفة بن خياط، أبو عمر خليفة بن خياط بن أبي هبيرة الليثي، تحقيق: أكرم ضياء العمري، الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة، دار القلم بيروت ١٣٩٧هـ..
- ٥٥- تاريخ فلسطين في صدر الإسلام د. هاني أبو الرب، منشورات بيت المقدس، الطبعة العربية الأولى الإصدار الأول ٢٠٠٢م.
- ٥٦- تذكرة الحفاظ، للذهبي، دار إحياء التراث العربي- بيروت.
- ٥٧- تهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني، حيدر آباد الدكن، نشر دار صادر بيروت سنة ١٣٢٢هـ..
- ٥٨- جولة تاريخية في عصر الخلفاء الراشدين، د. محمد السيد الوكيل، دار المجتمع، الطبعة الخامسة ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.
- ٥٩- خامس الخلفاء الراشدين الحسن بن علي بن أبي طالب، د. علي محمد الصلابي، دار ابن كثير، دمشق ٢٠٠٤م الطبعة الأولى.
- ٦٠- خلافة سليمان بن عبد الملك، علي إبراهيم عبابنة مؤسسة حمادة للدراسة ع.ام ٢٠٠٤م.
- ٦١- خلافة معاوية د. عمر العقيلي، الرياض، جامعة الملك سعود، الطبعة الأولى، الرياض، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.
- ٦٢- دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، د. محمد بطاينة دار الفرقان، الأردن، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
- ٦٣- رجال الإدارة في الدولة الإسلامية، د. حسين محمد د.س. ليمان دار الإصدار. لاح السعودية.
- ٦٤- رياض النفوس للمالكي، أبو بكر عبد الله المالكي، تحقيق الدكتور حسين مؤنس، القاهرة.
- ٦٥- سمط النجوم العوالي في أبناء الأوائل والتوالي، عبد الملك بن حسين بن عبد الملك العصامي، المطبعة السلفية، مصر ١٣٨٠هـ..
- ٦٦- سنن الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي، دار الفكر ١٣٩٨هـ..
- ٦٧- سير أعلام النبلاء، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة بيروت ١٤٠٢هـ..

- ٦٨- سيرة الحجاج بن يوسف الثقفي ماله وما عليه لأبي عبد الرحمن جمال بن محمد بن محمود، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ٢٠٠٤م - ١٤٢٤هـ ..
- ٦٩- سيرة الوليد بن يزيد د. حسين عطوان، دار المعارف القاهرة.
- ٧٠- سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي، دار الكتب العلمية، بي. روت الطبعة الأولى.
- ٧١- سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الحكم، أبو محمد عبد الله دار العلم للملايين، بيروت ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م.
- ٧٢- سيرة عمر لابن الجوزي، جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن تحقيق محب الدين الخطيب، مطبعة المؤيد مصر، ١٣٣١هـ ..
- ٧٣- عبد العزيز بن مروان وسيرته وأثره في أحداث العصر الأموي، ب. ديع محمد إبراهيم الدليمي د. فاروق عباس وهيب، جامعة بغداد، ١٩٩٨م.
- ٧٤- عبد الله بن الزبير للخراسي، عبد الله عثمان الخراسي رسالة ماجستير جامعة الملك سعود كلية الآداب ١٤٠٨هـ ..
- ٧٥- عبد الله بن الزبير محمود شاكر، المكتب الإسلامي الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.
- ٧٦- عبد الملك بن مروان والدولة الأموية الدكتور محمد ضياء الدين الرئيس، الطبعة الثانية ١٩٦٩م.
- ٧٧- عصر هشام بن عبد الملك، عبد المجيد الكبيسي، جامعة بغداد قسم الآداب ع.ام ١٩٧٤م.
- ٧٨- عمر بن عبد العزيز، صالح العلي، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، الطبعة الأولى ٢٠٠٠م
- ٧٩- عمر بن عبد العزيز، عبد الستار الشيخ، دار القلم، دمشق.
- ٨٠- عمر بن عبد العزيز للشرقاوي، دار الكتاب العربي الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
- ٨١- عمر بن عبد العزيز وسياسة رد المظالم، ماجدة فيصل، مكتبة الطالب الجامعي مكة، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

- ٨٢- عوامل النصر والهزيمة عبر تاريخنا الإسلامية د. شوقي أبو خليل، دار الفكر، دمشق، الطبعة الثانية ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.
- ٨٣- فاتح الأندلس طارق بن زياد، شوقي أبو خليل، دار الفكر سورية.
- ٨٤- فرسان من عصر النبوة، أحمد خليل جمعة، دار اليمامة، دمشق، الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م.
- ٨٥- فقه عمر بن عبد العزيز، محمد شقير، دار الرشد، الطبعة الأولى، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م.
- ٨٦- قادة الفتح الإسلامي في أرمينية، محمود شيت خطاب، دار الأندلس الذ. ضراء، دار ابن حزم، الطبعة الأولى ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م.
- ٨٧- قادة فتح المغرب، محمود شيت خطاب، دار الفكر.
- ٨٨- مآثر الأنافة في معالم الخلافة، للفلقشندي، تحقيق عبد الستار أحمد الفرج، ع. الم الكتب، بيروت.
- ٨٩- مروج الذهب ومعادن الجوهر، لأبي الحسن علي بن الحسين الم. سعودي، دار المعرفة، بيروت لبنان، طبعة ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م.
- ٩٠- مرويات خلافة معاوية، د. خالد بن محمد الغيث، دار الأندلس الخضراء، الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م جده.
- ٩١- مصر في العصر الأموي، عدنان، أحمد الجنابي، جامعة بغداد.
- ٩٢- مكانة المعلم في التراث العربي الإسلامي، عبد الله خليف العم. ادي الزبيدي، معهد التاريخ العربي والتراث العلمي للدراسات العليا.
- ٩٣- مواقف المعارضة في خلافة يزيد، محمد بن عبد الهادي بن رزان الم. شيباني، المكتبة المكية، دار البيارق الطبعة الأولى.
- ٩٤- نساء لهم في التاريخ الإسلامي نصيب، علي إبراهيم ح. سن، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الأولى، ١٩٧٠ م.
- ٩٥- نحو رؤية جديدة للتاريخ الإسلامي نظرات وتصويب، دار الوفاء، مكتبة وهبة د. عبد العظيم الديب، الطبعة الثانية ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م.

المصادر والمراجع

(الدولة العباسية)

- ١- أبو الريحان البيروني، الآثار الباقية عن القرون الخالية، ترجمه إلى الإنجليزية. وعلق عليه إدوارد سخاو، لندن ١٨٧٩.
- ٢- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، القاهرة بدون تاريخ.
- ٣- ابن خلكان، وفيات الأعيان، القاهرة، ١٢٩٩ هـ..
- ٤- الراوندي، راحة الصدور.
- ٥- السيوطي، تاريخ الخلفاء، القاهرة، ١٣٠٥ هـ..
- ٦- المسعودي، مروج الذهب، الطبعة البهية ١٣٤٦ هـ..
- ٧- المقرئزي، الخطط.
- ٨- المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، لندن ١٩٠٦.
- ٩- ابن النديم، الفهرست.
- ١٠- كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، بيروت، ١٩٥٤.
- ١١- أمير علي، مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامي، القاهرة ١٩٣٨.
- ١٢- الثعالبي أبو منصور عبد الملك، يتيمة الدهر، أربعة أجزاء، ١٩٢٨.
- ١٣- الدكتور حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام ج. ٣.
- ١٤- الدكتور حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام ج. ٢، الطبعة السابعة، ١٩٦٤.
- ١٥- الشيخ محمد الخضري بك، محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية، الدولة العباسية، تحقيق الشيخ محمد العثماني، دار القلم، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ، ١٩٨٦ م.
- ١٦- الدكتور يوسف العش، تاريخ عصر الخلافة العباسية، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى ١٤٠٢ هـ، ١٩٨٢ م.
- ١٧- الدكتور أحمد شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، الطبعة الثامنة ١٩٨٥، ج. ٣، مكتبة النهضة المصرية.
- ١٨- Bolus, The influence of Islam, London , ١٩٣٢.

- ١٩- أحمد علي الملا، آثار العلماء المسلمين في الد. ضارة الأوربي.ة، دار الفك.ر، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤٠١هـ. - ١٩٨١م.
- ٢٠- ويكيبيديا الموسوعة الحرة، www.wikipedia.org.

المصادر والمراجع

(الدولة العثمانية)

- ١- أيعيد التاريخ نفسه، محمد العبد، المنتدى الإسلامي، طبعة ١٤١١ هـ..
- ٢- البرق اليماني في الفتح العثماني، دار اليمامة، الرياض، قطب الدين محمد ب. ن أحمد المكي، الطبعة الأولى ١٣٨٧ هـ./ ١٩٦٧ م.
- ٣- تاريخ الترك في آسيا الوسطى، بارتولد، ترجمة أحمد السعيد، القاهرة، مطبعة الأنجلو المصرية ١٣٧٨ هـ./ ١٩٥٨ م.
- ٤- تاريخ الدولة العلية العثمانية، محمد فريد بك، تحقيق الدكتور إحسان حقّ، دار النفائس، الطبعة السادسة، ١٤٠٨ هـ./ ١٩٨٨ م.
- ٥- تاريخ سلاطين آل عثمان، تأليف يوسف آصاف، تحقيق ب. سام عبد. د. الوهاب الجابي، دار البصائر، الطبعة الثالثة ١٤٠٥ هـ./ ١٩٨٥ م.
- ٦- التقليد، والتبعية، وأثرهما في كيان الأمة الإسلامية، ناصر العقل، دار الم. سلم، الطبعة الثانية ١٤١٤ هـ..
- ٧- تاريخ الدولة العثمانية، د. علي حسون، المكتب الإسلامي، الطبعة الرابعة، ١٤٢٣ هـ./ ٢٠٠٢ م.
- ٨- التاريخ العثماني في شعر أحمد شوقي بقلم محمد زاهد عبد الفتاح أبو غدة، دار الرائد، كندا، الطبعة الأولى ١٤١٧ هـ./ ١٩٩٦ م.
- ٩- تاريخ سلاطين آل عثمان، للقرماني، الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ./ ١٩٨٥ م، دار البصائر، دمشق، سورية.
- ١٠- التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية، إبراهيم حلمي بك.
- ١١- جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين، زيادة أبو غنيم، دار الفرق. ان، الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ./ ١٩٨٣ م.
- ١٢- حاضر العالم الإسلامي، د. جميل عبد الله محمد المصري، جامعة المدينة المنورة.
- ١٣- حرب الثلاثئة سنة بين الجزائر وإسبانيا، أحمد توفيق مدني، الطبعة الثانية، ١٩٨٤ م.
- ١٤- حقيقة الماسونية، محمد الزعبي، دار العربية، بيروت ١٩٧٤.

- ١٥- السلاطين العثمانيون، كتاب مصور، طبع في تونس.
- ١٦- السلطان عبد الحميد الثاني، د. محمد حرب، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.
- ١٧- العثمانيون في التاريخ والحضارة، محمد حرب، كما سبق.
- ١٨- العثمانيون والروس، د. علي حسون، المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.
- ١٩- الفتوح الإسلامية عبر العصور، د. عبد العزيز العمري، دار إشبيلية، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.
- ٢٠- في أصول التاريخ العثماني، أحمد عبد الكريم مصطفى، دار الشروق، الطبعة الثانية، ١٩٨٦م/١٤٠٦هـ..
- ٢١- فلسفة التاريخ العثماني، محمد جميل بيه، شركة فرج الله للمطبوعات، بيروت، ١٩٥٤م.
- ٢٢- قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين، د. زكريا سليمان بي.ومي، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ/١٩٩١م، عالم المعرفة.
- ٢٣- مذكرات السلطان عبد الحميد، تقديم د. محمد حرب، دار القلم، الطبعة الثالثة، ١٤١٢هـ/١٩٩١م.
- ٢٤- موقف أوربة من الدولة العثمانية، د. يوسف علي التقفي، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ..
- ٢٥- المسألة الشرقية، دراسة وثائقية عن الخلافة العثمانية، محمود ثابت الشاذلي، مكتبة وهبة، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.
- ٢٦- مواقف حاسمة، محمد عبد الله عنان.
- ٢٧- اليهود، والماسونية، عبد الله.رحمن الدوسري، دار السنة، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.
- ٢٨- اليهود والدولة العثمانية، د. أحمد نوري النعيمي، مؤسسة الرسالة، دار البشير، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.
- ٢٩- يهود الدونمة، دراسة في الأصول، والعقائد، والمواقف، د. أحمد نوري النعيمي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.
- ٣٠- تاريخ الدولة العثمانية، الأمير شكيب أرسلان، دار ابن كثير، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.

الفهرس

الباب الثالث: الدولة العباسية ...	١٩٩
مقدمة	٢٠٠
تمهيد	٢٠١
المبحث الأول: أبرز الأحداث في	
خلافة بني العباس	٢٠٢
أولاً: البيت العباسي	٢٠٢
ثانياً: من الدعوة إلى الخلافة ...	٢٠٣
ثالثاً: أدوار الخلافة العباسية	٢٠٥
رابعاً: أقاليم الخلافة العباسية ...	٢٠٧
خامساً: دول فوق عرش الخلافة	٢١١
المبحث الثاني: وكفى بميادين	
الحضارة فخراً لعصر بني العباس	٢٢٢
أولاً: النظام السياسي	٢٢٢
ثانياً: النظام الإداري	٢٢٢
ثالثاً: النظام الحربي	٢٢٣
رابعاً: النظام الاقتصادي	٢٢٣
خامساً: أمراء الشعر العربي ...	٢٢٥
سادساً: المذاهب الفقهية	٢٢٦
سابعاً: العلوم بأنواعها	٢٢٨
ثامناً: مراكز الثقافة	٢٥٧
تاسعاً: قصور الخلفاء	٢٥٩
الخاتمة	٢٦٧
الباب الرابع: الدولة العثمانية ...	٢٧١
مقدمة	٢٧٢
تمهيد	٢٧٣

الإهداء	٣
مقدمة الشيخ محمد برنية	٥
تقديم الأستاذ عبد الرحمن كوسه	٧
تقديم الأستاذ فاروق الفراء	٩
الباب الأول: الخلافة الراشدة	١٥
عبد الله بن عثمان	١٧
عمر بن الخطاب	٢٩
عثمان بن عفان	٤٠
علي بن أبي طالب	٦٣
الباب الثاني: الدولة الأموية	٧٧
معاوية بن أبي سفيان	٧٩
يزيد بن معاوية	١١٨
معاوية بن يزيد	١٣٢
مروان بن الحكم	١٣٥
عبد الملك بن مروان	١٣٨
الوليد بن عبد الملك	١٤٧
سليمان بن عبد الملك	١٥١
الفتوحات الإسلامية	١٥٤
عمر بن عبد العزيز	١٦١
يزيد بن عبد الملك	١٧٢
هشام بن عبد الملك	١٧٦
الوليد بن يزيد بن عبد الملك	١٨٥
يزيد بن الوليد بن عبد الملك	١٩٠
مروان بن محمد	١٩٢
الخاتمة	١٩٦

محمد الرابع ابن إبراهيم الأول .. ٣٦٦
 سليمان الثاني ابن إبراهيم ٣٦٨
 أحمد الثاني ابن إبراهيم ٣٦٩
 البحث الثالث: دور الانحدار
 والانكماش ٣٧٠
 مصطفى الثاني ابن محمد الرابع ٣٧٠
 أحمد الثالث ابن محمد الرابع ... ٣٧٣
 محمود الأول ابن مصطفى
 الثاني ٣٧٥
 عثمان الثالث ابن مصطفى الثاني ٣٧٦
 مصطفى الثالث ابن أحمد الثالث. ٣٧٧
 عبد الحميد الأول ابن أحمد
 الثالث ٣٨٠
 سليم الثالث ابن مصطفى الثالث ٣٨٢
 الحملة الفرنسية على مصر ٣٨٤
 محمود الثاني ابن عبد الحميد
 الأول ٣٨٩
 عبد المجيد بن محمود الثاني ... ٣٩٢
 عبد العزيز بن محمود الثاني ... ٣٩٥
 مراد الخامس ابن عبد المجيد ... ٣٩٨
 عبد الحميد الثاني ابن عبد المجيد ٣٩٩
 أسباب انتهاء الخلافة العثمانية ... ٤٣٣
 الحضارة العثمانية ٤٣٧
 ماذا حدث بعد السلطان عبد
 الحميد ٤٤٢
 لماذا شاركت تركيا في الحرب العلمية
 الأولى وماذا ترتب على ذلك ... ٤٤٤

المبحث الأول: دور الازدهار
 والقوة ٢٧٩
 عثمان بن أرطغرل ٢٧٩
 أورخان بن عثمان ٢٨٢
 مراد الأول ابن أورخان ٢٨٧
 با يزيد بن مراد ٢٩٠
 الابتلاء قبل التمكين ٢٩٧
 محمد الأول ابن با يزيد ٢٩٩
 مراد الثاني ابن محمد الأول ٣٠١
 محمد الثاني ابن مراد الثاني ٣٠٦
 با يزيد الثاني ابن محمد الثاني .. ٣٢٧
 الدولة العثمانية في أقصى
 اتساعها ٣٣٠
 سليم الأول ابن با يزيد الثاني ... ٣٣٠
 سليمان القانوني ابن سليم الأول ٣٣٣
 سياسة الدولة العثمانية الجهادية. ٣٣٥
 المبحث الثاني: دور الركود ٣٤٨
 سليم الثاني ابن سليمان القانوني ٣٤٨
 مراد الثالث ابن سليم الثاني ٣٥٣
 محمد الثالث ابن مراد الثالث ... ٣٥٦
 أحمد الأول ابن محمد الثالث ... ٣٥٧
 السلاطين العثمانيون بين الضعف
 والقوة ٣٦٠
 مصطفى الأول ابن محمد الثالث ٣٦٠
 عثمان الثاني ابن أحمد الأول ... ٣٦٢
 مراد الرابع ابن أحمد الأول ٣٦٣
 إبراهيم بن أحمد الأول ٣٦٥

فهرس المراجع والمصادر الدولة	
الأموية	٤٦٧
فهرس المراجع والمصادر الدولة	
العباسية	٤٧٤
فهرس المراجع والمصادر الدولة	
العثمانية	٤٧٦
الفهرس	٤٧٨

مصطفى كمال أتاتورك ونهاية الدولة	
العثمانية	٤٤٩
ما الفائدة التي جناها ا.ع.رب م.ن	
كسوف الشمس العثمانية	٤٥٣
الخاتمة	٤٦٠
فهرس المراجع والمصادر الخلافة	
الراشدة	٤٦٤

هذا الكتاب

■ يتميز هذا الكتاب بـ العرض الدقيق
والأسلوب البسيط لأحداث التاريخ الإسلامي
الممتدة من العصر الراشدي إلى العصر
العثماني.

■ أول كتاب يسلط الضوء على أحوال
وأفعال رجال التاريخ الإسلامي - خلفاء وقادة
جيوش وعلماء - ابتداءً بأبي بكر رضي الله عنه وانتهاءً
بمصطفى كمال أتاتورك، بأسلوب متين
ومشجع للقراءة.

■ عمل المؤلف جاهداً لإغناء الكتاب
بالصور والخرائط، ووضع الأفكار المهمة
بأشكال تعرض الفكرة بأسلوب ممتع ومميز تشد
القارئ الكريم لها.

■ ليس الهدف من هذا الكتاب إقناع
واكتساب معلومات جديدة فقط، بل الهدف
الأساسي منه هو أن نؤمن بتاريخنا ونفتخر به،
ونجعل منه منهجاً يدفعنا إلى مزيد من العلم
والعمل؛ فبهما كنا أسياد العالم، وبهما سدد
كما كنا.